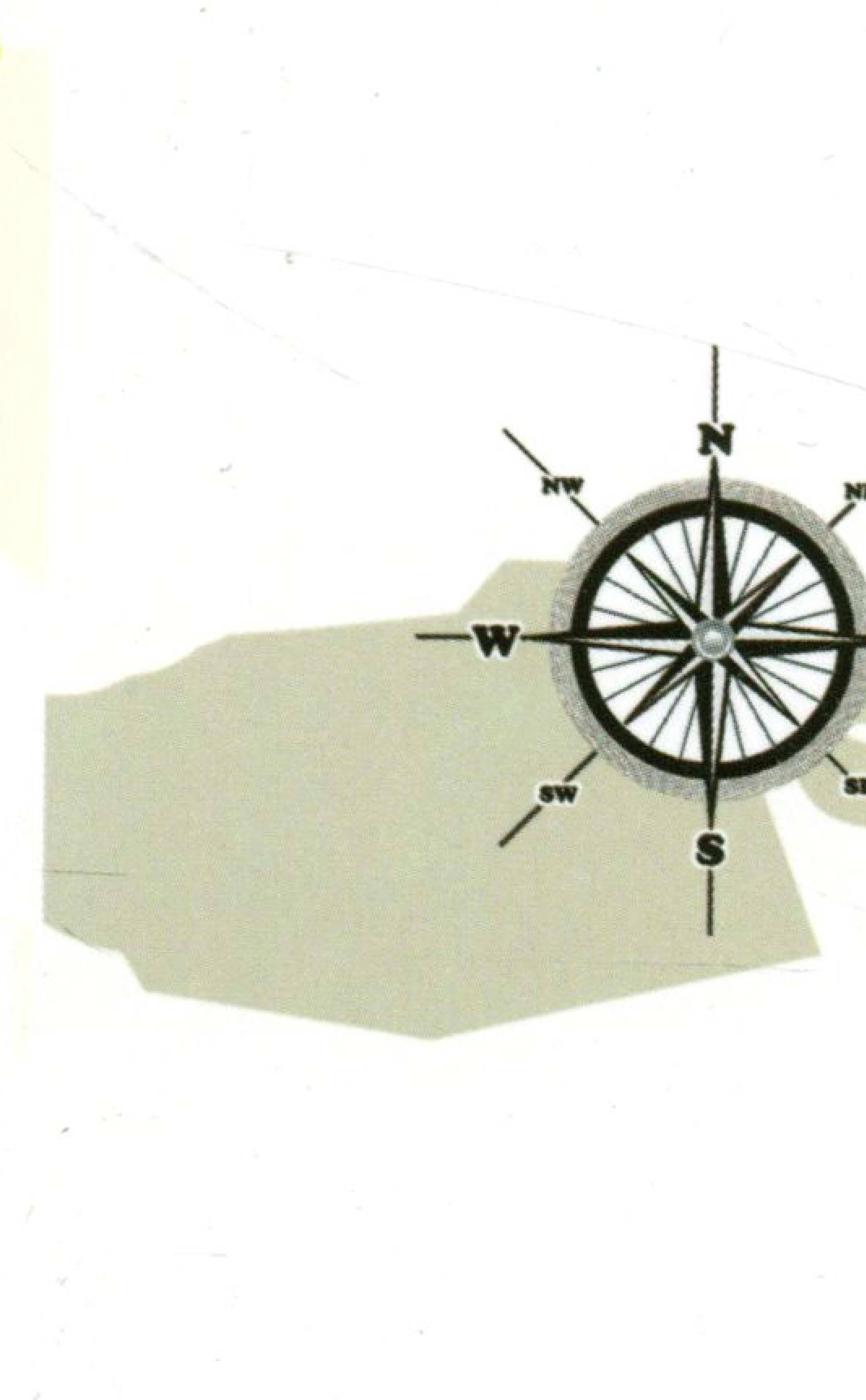
الشخصية المصرية



د. همت بسيوني عبد العزيز







الشخصية المصرية وصورة الآخر

العنوان

الشخصية المصرية وصورة الآخر

المؤلف

د/ همت بسيوني

الطبعة الأولى ٢٠١٣

الناشر

مصر العربية للنشر والتوزيع

١٩ ش إسلام- حمامات القبة- الزيتون- القاهرة

تليفاكس ٢٢٥٦٢٢٦٨/ ت ٢٤٥٠٥٨٦٣

رقم الإيداع ١٩٥٨٧ / ٢٠١٢

I. S. B. N

978-977-428-029-0

البريد الإلكتروني

masrelarabia@hotmail.com

تصميم الغلاف

محمد سيد

طباعة داخلي

مطبعة الحمد ٠١٢٢١٣٣٥٣٩٠

بطاقة الفهرسة



عبد العزيز، همت بسيوني

الشخصية المصرية وصورة الآخر دكتورة / همت بسيوني. ط ١.

القاهرة: مصر العربية للنشر والتوزيع،

٣٣٦ ص، ١٦ × ٢٣ سم

تدمك ٠ ٠٢٩ ٤٢٨ ٩٧٧ ٩٧٨

١- مصر – الأحوال الاجتماعية

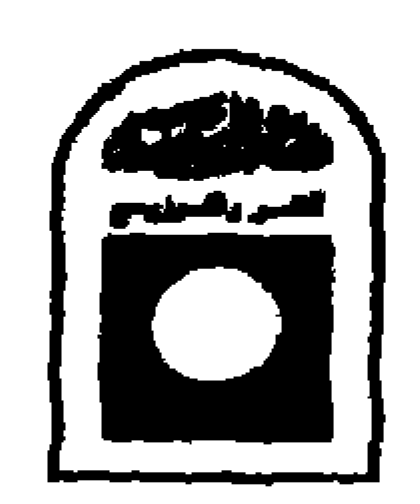
٢- الشخصية والثقافة

٣٠٩,١٦٢

رقم الإيداع/ ١٩٥٨٧ / ٢٠١٢ التاريخ: ٢٠١٢/١٠/٢١

الشخصية المصرية وصورة الآخر

د. همت بسيوني



مصر العربية للنشر والتوزيع
٢٠١٣

الفهـرس

الفهرس

تقديم

مطلب أثير حقاً ذلك الذى يُعنى بدراسة الشخصية المصرية ؛ فمثل هذه الدراسة تكتسب أهمية كبيرة فى هذه المرحلة التاريخية التى يشهدها المجتمع المصرى فى ظل خضم التحولات والتغيرات التى يموج بها العالم شرقاً وغرباً، تلك التى تجعل من البحث أو إعادة البحث فى الهوية القومية للشعوب أمراً لازماً . وذلك فى وجود الأطروحات العالمية التى تنادى باللا أمة واللا وطن فى إطار التحديات التى يفرضها الواقع العالمى الجديد بمفرداته الأكثر رواجاً فى الآونة الأخيرة العولمة.

ولا شك أن التاريخ الطويل للشخصية المصرية ، والذى يرتد لآلاف السنين ، وما مرت به من تجارب عديدة قد ترك بصماته الواضحة عليها وعلى مكوناتها الأساسية. ويأتى فى مقدمة هذه التجارب : تجربة اللقاء الصادم مع الآخر الغربى بكل تصنيفاته سواء أكان مستعمراً أم حضارياً . فهذه التجربة كانت ذات قسمات وملامح واضحة على الشخصية المصرية وعلى مسار تطورها .

فمنذ ذلك اللقاء بدأت الشخصية المصرية تطرح على نفسها عدداً من التساؤلات ما زالت تعيد نفسها حتى الآن ، وهى الأسئلة المتعلقة بهوية هذه الشخصية وتحديد موقفها من الغربه وهو الأمر الذى يتطلب التعرف إلى الصورة التى تحملها الشخصية المصرية عن الغربه وكذا معرفة مدى ثباتها أو تغيرها باختلاف اللحظات التاريخية المتعاقبة. فليس من السهل صياغة مفهوم بسيط للعلاقة بين الشخصية المصرية والغرب نظرا للتداخل الحاد بين ما هو سياسى وما هو ثقافى وحضاري فى هذه العلاقة ، فهذا التداخل، ترتب عليه، ولا شك، تداخل وازدواجية فى الصورة التى يرسمها كل طرف عن الآخر .

ولما كان الأدب سجل الأمم ووعاءها الذى يحمل ذاكرتها التاريخية ، فإنه يصبح مجالاً خصباً يمكن من خلاله التقصى عن الصورة التى تحملها الشخصية المصرية عن نفسها وعن الآخر الغربي، خاصة الرواية ؛ فالرواية تعد أكثر الأنواع الأدبية قدرة على تصوير الواقع الاجتماعى والتفاعل الجدلى معه ، بحيث تصير مادة ثرية تساعد فى تتبع مسار العلاقة بين الشخصية المصرية والآخر الغربى فيما تقدمه من صور لكل منهما . ولا يمكن للباحث التوصل لهذا الهدف إلا إذا تعامل مع

الخطاب الروائى باعتباره " عملية اجتماعية . ثقافية معقدة تتطلب تداخل أكثر من علم للتعرف عليها . فالتناسق بين التجربة الثقافية والسياسية والاجتماعية ، ومظاهرها فى الخطاب الروائى يساعد على فهم طبيعة هذه العملية . كما أن تفاعلها مع مطلب الهوية الفردية والقومية يمهد الطريق لفهم رؤية جديدة للعالم ، تغير تصور الأفراد لأنفسهم ولمجتمعهم . "[1]

من هنا وعبر هذه المستويات تطرح إشكالية الشخصية المصرية وصورة الآخر الغربى باعتبارها المسعى الذى يشكل طموح هذه الدراسة ، والذى تسعى فيه لتقصى هذه الإشكالية فى الخطاب الروائى المصرى وما تضمنه من طرح لها ، وذلك فى ارتباطها بالتحولات والتغيرات المختلفة التى طرأت على التكوين الاجتماعى المصرى فى الفترة من ١٩٥٢ . ٢٠٠١ ، بما قد يسمح باستبصار الظروف المتصلة بها ، تيسيراً لفهم واستجلاء أبعادها المختلفة .

أي أن الدراسة تحاول تحديد النظرة الروائية لهذه القضية فى ارتباطها بتحولات الواقع الاجتماعى المصرى فى هذه الفترة الزمنية التى شهدت كثيراً من التحولات والتغيرات ذات الآثار المتعددة فيما يخص النظرة للآخر الغربى وتحديد المواقف منه . ووفقا لتلك الرؤيا، فقد تضمنت الدراسة عدة خطوات نعرضها فيما يلى :

الخطوة الأولى : وتمثلت فى عرض التراث النظرى الخاص بمفاهيم الدراسة الأساسية: الشخصية المصرية والآخر الغربى . وقد بدأت بعرض ما تعلق بالشخصية المصرية فى هذا المجال من تعريفات ودراسات سابقة حاولت تحديد خصائص هذه الشخصية ومراحل تغيرها والعوامل التى ساهمت فى هذا التغير . أما فيما يتعلق بمفهوم الآخر فعرضت لمحاولات تحديده والدراسات التى تناولته بالبحث والتحليل ، كما حاولت الوقوف على المراحل المختلفة التى مرت بها العلاقة معه. وكان الهدف من هذا العرض المساعدة فى صياغة عدة محكات أو محاور تسهم فى تحديد المقصود بهذين المفهومين والمفاهيم الأخرى المتفرعة منهما

---

(١) السيد حافظ الأسود ، محاضرات فى علم اجتماع الأدب ، بدون دار نشر ، ٢٠٠٢ ، ص ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

مثل مفاهيم : الذات وصورة الذات وصورة الآخر ،وهى المفاهيم التى اعتمدت عليها الدراسة فى جانبها التطبيقى .

الخطوة الثانية : وهى الخطوة المتعلقة بالتقسيم التاريخى للفترة موضوع الدراسة ،وفى هذا الشأن تم تقسيم فترة الدراسة عبر مجموعة من المحكات التى تتعلق فى المقام الأول بتحديد أهم ملامح التغير الذى تعرضت له الشخصية المصرية سواء على المستوى الداخلى أم المستوى الخارجى ، حيث بات انعكاس هذه التغيرات واضحاً على هذه الشخصية ومسيرة تطورها فيما يخص نظرتها لنفسها وللآخر الغربى .

وبناءً على هذا انقسمت هذه الفترة إلى :

أولاً : الفترة من ١٩٥٢ .وحتى منتصف السبعينيات من القرن العشرين .

ثانياً : الفترة من منتصف السبعينيات وحتى بداية القرن الحادى والعشرين . (ما قبل أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م)

وتمثلت الأسباب أو المعايير المستخدمة فى هذا التقسيم الداخلى لفترة الدراسة فى السببين التاليين :

السبب الأول : شهدت كل فترة من هاتين الفترتين كثيراً من الممارسات والتوجهات التى اختلفت فيما بينهما ، فما ساد فى الفترة الأولى لم يسد فى الفترة الأخرى ؛ بل كان هناك تغير فى كثير من التوجهات والممارسات سواء على المستوى الداخلي أم الخارجي ، وهو الأمر الذى ترك بصماته الواضحة على طبيعة العلاقة بين الشخصية المصرية والآخر الغربى .

السبب الآخر : اختلاف الإنتاج الروائي المقدم فى كلتا الفترتين ؛ ففى حين ركزت روايات الفترة الأولى على عملية تصوير ما يجرى فى المجتمع من تغيرات فى فترة الاستقلال الوطنى ، جاءت روايات الفترة الأخرى لتركز على المقارنة الدائمة بين الفترتين فى محاولة منها نقد الأوضاع المختلفة التى انطوت عليها هذه الفترة

الخطوة الثالثة : وتمثلت هذه الخطوة فى الاتجاه إلى عالم النصوص الروائية التى تم اختيارها بهدف تحليلها للكشف عن الكيفية التى تناولت بها هذه النصوص

إشكالية الدراسة . وبالرغم من أن هذه الخطوة ترتيبها الثالث هنا، إلا أن عملية اختيار النصوص كان منذ بداية الشروع فى الدراسة ؛وذلك باعتبار أن خصوصية الدراسة فى علم اجتماع الأدب تقتضى الانطلاق من المادة المدروسة وليس من الفترة التاريخية.

الخطوة الرابعة : وتأتى هذه الخطوة كخطوة مكملة لما سبقها من خطوات ، وأقصد بها محاولة معرفة التطور فى النظرة للآخر الغربى من خلال المقارنة على عدة مستويات :

المستوى الأول : المقارنة بين النصوص الروائية وبعضها البعض فيما عرضته من قضايا متعلقة بالشخصية المصرية ونظرتها للآخر الغربى .

المستوى الثانى : المقارنة بين الطرح الروائى والطرح التنظيرى الخاص بصورة الآخر وتطور النظرة إليه ؛ لمعرفة الجديد الذى قدمه ولم يتطرق إليه البحث الاجتماعى.

المستوى الثالث : المقارنة بين رؤى الأدباء فيما يتعلق بهذه القضية ، للتعرف على أوجه الشبه والاختلاف فيما بينها .

واعتمدت الدراسة على مدخل التاريخية الحديثة والذى يرى أنصاره أن العمل الأدبى يجب النظر إليه باعتباره منتجاً مرتبطاً فى تكوينه بكل من الزمان والمكان والأحداث والظروف المعاصرة ، أكثر من كونه مجرد إبداع عبقرى فردى منعزل عن السياق الذى ظهر فيه .وقد ظهر هذا الاتجاه فى دراسة الأدب كرد فعل للاتجاه الشكلى فى دراسة الأدب، حيث ظهر فى ثمانينيات القرن العشرين من خلال ما قدمه الناقد الأدبى " ستيفن جرينبلات " ، واكتسب منذ التسعينيات من القرن العشرين تأثيراً واسع النطاق . (٢)

و بناءً علي ذلك ، تهدف الدراسة إلى وصف صورة كل من الشخصية المصرية و الآخر الغربي ، والكشف عن أهم خصائص و محددات هذه الصورة ، مستخدمة في ذلك عدداً من الأعمال الروائية التي تنتمي لجيلي الخمسينيات و الستينيات في الرواية المصرية . في محاولة لتحليل ما اشتملت عليه هذه الصورة من

---

(2) Htt : // en . wikipedia . org / wiki / New _ Historicism .

جوانب و أطر متداخلة مع بعضها البعض و ذلك في ارتباطها برؤية الأدباء، الذين أبدعوا هذه النصوص للواقع الاجتماعي .

هذا ،وقد وجدت أن هناك عدداً من النصوص الروائية التى يمكن دراستها ،والتى تتناول فى مجملها العلاقة مع الآخر الغربى من منظورات مختلفة .ولهذا وضعت بعض المعايير التى يمكن على أساسها الاختيار بين هذه النصوص .وتمثلت هذه المعايير فى :

أولاً :وجود درجة مناسبة من الترابط بين أجزاء النص المدروس .

ثانياً :التسلسل المنطقى للأحداث داخل النص نفسه .

ثالثاً :ألا تقتصر النصوص المدروسة على تقديم الشكل الوثائقى فقط ،بل يجب أن تتوفر بها مقومات فنية تكشف عن مدى الاختلاف فى الشكل الفنى الذى سار عليه الأدباء ،بما يتناسب مع المتغيرات والظروف الجديدة التي طرأت على المجتمع فى الفترات المختلفة .

رابعا :ان يتضمن النص الروائى قضايا اجتماعية ،وعدم الاكتفاء بالتعبير عن الهموم والقضايا الذاتية والفردية .وفى هذا فإن النصوص المختارة تحمل قدراً كبيراً من المصداقية فيما تعرضه من جوانب الواقع الاجتماعى .

خامسا :أن تعبر هذه النصوص عن الفترة التاريخية التى تبغى الدراسة معاينة صورة الآخر فيها.

وتبعاً لهذه المعايير انحصرت النصوص الروائية الخاصة بالدراسة الراهنة فى ثمانية نصوص هى بالتتابع :

أولاً :السيدة فيينا أو فيينا ٦٠، ليوسف إدريس .

ثانياً : محاولة للخروج ، لعبد الحكيم قاسم .

ثالثاً :نجمة أغسطس ، لصنع الله إبراهيم .

رابعاً :قدر الغرف المقبضة ، لعبد الحكيم قاسم .

خامساً :قالت ضحى ، لبهاء طاهر .

سادساً :نيويورك ٨٠ ، ليوسف إدريس .

سابعاً :الحب فى المنفى ، لبهاء طاهر .

ثامناً :أمريكانللى ، لصنع الله إبراهيم .

واعتمدت الدراسة على طريقة تحليل المضمون ، خاصة التحليل الكيفى للنصوص الروائية ، وذلك لأنه من أنسب الطرق التى تتفق وطبيعة الدراسة وهدفها العام . وفى ضوء ذلك ، فإن الدراسة الراهنة انقسمت إلى بابين يضمان خمسة فصول مع تقديم وخاتمة، على النحو التالى : الباب الأول وجاء تحت عنوان: الشخصية المصرية والاخر الغربى (إطار نظرى) واحتوى هذا الباب على فصلين:

اختص الفصل الأول بتوضيح المقصود بالشخصية المصرية كمفهوم يثير الكثير من الإشكاليات المتعلقة بتعريفها وجدوى دراستها وخصائصها المختلفة والعوامل التى تسهم فى تغيرها واستمرارها وغير ذلك من نقاط بحثية يتعرض لها هذا الفصل . وجاء الفصل الثانى تحت عنوان : الآخر .. السؤال والهوية، للبحث فى هوية الآخر بهدف استجلائه والتعرف إلى النظرة التى يحملها عن الشخصية المصرية أو التى تحملها هى عنه فى سياق الدراسات المختلفة التى تناولت هذه القضايا بالدراسة . أما الباب الثانى : فجاء تحت عنوان : الشخصية المصرية وصورة الآخر الغربى بين الواقع الاجتماعى والواقع الأدبى. وقد تم فى هذا الباب التحليل الاجتماعى للنصوص الروائية . واحتوى تبعاً لذلك على ثلاثة فصول:

أختص الفصل الثالث : بتحليل صورة الشخصية المصرية وصورة الآخر الغربى فى الفترة من ١٩٥٢ وحتى منتصف السبعينيات من القرن العشرين كما انعكست فى الأعمال الروائية المعبرة عن تلك الفترة ، أما الفصل الرابع فقد تناول الأعمال الروائية التى تناولت الفترة من منتصف السبعينيات من القرن العشرين وحتى بداية القرن الحادى والعشرين، فى حين جاء الفصل الخامس لمناقشة النتائج العامة للدراسة وتضمنت الخاتمة رؤية نقدية لبعض النتائج التى أسفرت عنها الدراسة.

وفق ما تقدم، يتضح للقارىء الكريم انتماء هذه الدراسة لعلم اجتماع الأدب، وهو انتماء حاولت من خلاله رصد طبيعة العلاقة بين الأدب والمجتمع، وهى العلاقة التى من خلالها يبغى الباحثون فى علم الاجتماع محاولة استنطاق الظواهر الأدبية والكشف عن مضامينها المختلفة التى تفيد فى إثراء المعرفة بالواقع الاجتماعى بكافة مستوياته. لذا أرجو أن تكون هذه الدراسة قد أصابت فيما هدفت إليه.

هذا، وعلى الله قصد السبيل

همت بسيونى الشريف

الباب الأول

الشخصية المصرية والآخر الغربى قضايا وموجهات نظرية



تمهيد :

يشتمل هذا الباب على فصلين يمثلان الإطار النظرى للدراسة الراهنة، حيث يقترب الفصل الأول من الشخصية المصرية فى جانبها التنظيري بهدف المساعدة فى التوصل لبعض المستخلصات المتعلقة بدرس هذه الشخصية.

بينما يتعامل الفصل الثاني من هذا الباب مع مفهوم الآخر من خلال توضيح بعض القضايا المتعلقة به من أجل تحديده بطريقة تسهم فيما بعد فى تعيين صورته فى الأعمال الروائية المدروسة.

ووفقا لهذا جاء هذين الفصلين كالتالى :

الفصل الأول : الشخصية المصرية .... إشكالية مفهوم

الفصل الثانى : الآخر ... السؤال والهوية

الفصل الأول

الشخصية المصرية

إشكالية مفهوم

تمهيد :

تثور الإشكالية عندما يوجد التباس فكرى بصدد قضية أو موضوع ما، أو حينما تحيط بهذه القضية أو هذا الموضوع مشتبهات عدة تجعل من الصعوبة الكشف بجلاء عن طبيعة وحقيقة هذه القضية أو هذا الموضوع.. هنا تتعدد وجهات النظر وتختلف الآراء.

وتبدو الشخصية المصرية -على وجه التحديد- من أكثر الموضوعات إثارة للإشكالية ؛ فهى شخصية موغلة في القدم، ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ، تجمع بين متناقضات شتى، سواء فيما يتعلق بطبيعتها ومكوناتها أم ما يتعلق باتفاق واختلاف الباحثين حولها. ولهذا فإن الاقتراب من هذه الشخصية -مفهوماً وتاريخاً- بقصد التعرف إليها والتعريف بها، هو الهدف الرئيس هنا، الذى نسعى فيه لمناقشة بعض القضايا المتعلقة بهذه الشخصية. ففى البداية نقوم بمناقشة الشخصية القومية من حيث تعريفها والمفاهيم التى قد تتداخل معها كمفهومي : القومية والهوية. وبعد هذا التمهيد الخاص بالشخصية القومية عامة، ننتقل لتعريف الشخصية المصرية. يأتى بعد ذلك عرض لبعض الدراسات السابقة المتعلقة بالبحث فى خصائص هذه الشخصية عبر التصنيفات المختلفة التى خلعها عليها الدارسون. أما قضية الاستمرار والتغير أو الانقطاع في تاريخ هذه الشخصية، فهى القضية الأخيرة التى نحاول فيها التوصل لصيغة ملائمة يمكن من خلالها التعرف على مراحل الثبات أو التحول في هذه الشخصية.

أولا : الشخصية القومية : نظرة عامة.

لا يمكن بأية حال من الأحوال درس الشخصية المصرية قبل البدء بشيء من التمهيد لما تعنيه الشخصية القومية بوجه عام ؛ فمشروعية هذه البداية تنبع من الصلة الوثيقة بين المفهومين، باعتبار الشخصية المصرية نوعاً من أنواع الشخصية القومية.

وتعتبر الشخصية القومية (*) من الموضوعات التى تثير جدلاً واسعاً، وخلافاً بيناً بين المفكرين والعلماء ؛ ما بين مؤيد ومعارض لوجود شخصية قومية خاصة بكل

---

* تزايد الاهتمام بهذا الموضوع خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها على يد مرجريت ميد وجيو فري جورير وروث بندكت وآخرين. وقد حاول هؤلاء دراسة السمات الشخصية المشتركة وتشكلها في مرحلة التنشئة الاجتماعية، كما أجريت في تلك الفترة دراسات حول بعض الدول مثل : أمريكا واليابان وروسيا والصين وفرنسا، وذلك بغية التعرف على الطابع المميز لكل منها. وكانت الأسباب السياسية والعسكرية من أهم الدوافع التى تقف وراء تلك الدراسات ؛ فقد كانت الحاجة لفهم شخصيات الأمم

مجتمع من المجتمعات أو لكل أمة من الأمم. ويستطيع المهتم بفحص تاريخ الاهتمام بموضوع الشخصية القومية أن يجد الإرهاصات الأولية لهذا الاهتمام في كتابات المفكرين أمثال : " ابن خلدون ومنتسكيو ودى توكفيل، ودى جوبنيو ؛ فتحليلاتهم الدقيقة كانت مليئة بالاستبصارات ذات الدلالة ، كما أنها كانت تقوم على أساس من الملاحظة المباشرة، وهى منهج معتمد من بين مناهج البحث الاجتماعى، كما أن ابن خلدون ومنتسكيو استخدما المنهج المقارن، حين قارنا بين عديد من الأقاليم والبلاد، والسمات القومية لأهلها . " (١)

ومنذ ذلك الحين، وبمرور الزمن ظهرت محاولات ودراسات مستفيضة حول هذه الشخصية. ومع مطلع الخمسينيات من القرن العشرين ركزت بحوث علم الاجتماع، المتعلقة بالبناء الاجتماعى والشخصية، اهتمامها على الدراسات الإمبريقية للشخصية القومية، فبحثت في ماهية هذه الشخصية، والكيفية التى تتغير بها، وإمكانية تعريفها في مصطلحات محددة. (٢)

واستمرت هذه الدراسات خلال سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين، بسبب مناخ الحرب الباردة الذى أكد الحاجة لمثل هذه الدراسات. كما أن تعاظم المشكلات القومية، كان تحدياً أظهر مدى أهميتها خاصة في العقد الأخير من القرن المنصرم، وفى ظل ظروف العولمة Globalization " التى أفضت إلى استنفار الهويات والخصوصيات الثقافية لمواجهة محاولات الهيمنة من جانب القوى الكبرى، خاصة الولايات المتحدة الأمريكية التى تبغى إدارة عمليات العولمة بما يحقق مصالحها السياسية والاقتصادية والثقافية. وإذا كانت الحقبة القادمة سوف تشهد مزيداً من التفاعل بين الشعوب، تساعد عليه الثورة التكنولوجية الحادثة في مجال الاتصال والمعلوماتية، فإن أهم ما يتطلبه تحقيق هذا التفاعل هو إدراك السمات الثقافية

الصديقة والأخرى العدوة أمراً ملحاً من أجل التنبؤ بسلوكهم والتأثير المعنوى عليهم ...هذا وقد عالج عددمن الباحثين والمفكرين موضوع الشخصية القومية من بينهم على سبيل المثال :

- محمد سعيد فرح، الشخصية القومية بين الوهم والحقيقة، جامعة المنيا ، مجلة كلية الآداب، د.ت .

-Neil J. Smelser And WilliamT Smelser, Personality And Social Systems , New York And London , John Wiley And Sons . I N C , 1963.

(١) ساميه الساعاتي ، الثقافة والشخصية. بحث في علم الاجتماع الثقافي ، بيروت ،دار النهضة العربية ، ١٩٨٣، ص ٢٥٩.

(2) - Edgar F. Borgatta. Mariel. Borgatta (ed) , National Character , In : EncyclopaediaOf Sociology , Vol (3) , New york , 1992 , P1441.

الخاصة التى تميز كل شعب من الشعوب، وما يمكن أن يسهم به في إثراء الثقافة العالمية، وسعى كل شعب إلى فهم ما هو خاص في شخصية الآخر. "[١]

تبدو دراسة الشخصية القومية، إذن، ذات أهمية في ظل التحولات الكبيرة التى يشهدها العالم، والتى تتزايد حدة يوماً بعد يوم. وهو الأمر الذى يدحض الكثير من الآراء التى ترى عدم جدوى مثل هذه الدراسة. وإذا كانت الشخصية القومية تثير الجدل والخلاف بين المشتغلين بدراستها، فلابد أن ينسحب هذا الجدل والخلاف على محاولات تعريفها، خاصة وأن البعض يخلط بينها وبين مفهومي : القومية والهوية، لذا نحاول تحديد كل من هذه المفاهيم وبيان الفروق فيما بينها .

١) مفهوم القومية : Nationalism

وتشتق كلمة القومية من اللفظ " قوم "، الذى يعنى جماعة من الأفراد يرتبطون فيما بينهم بروابط متشابهة.[٢]

وهناك فرق بين مفهوم " القومية " أو " القومية الحديثة " التى ترتبط بوضوح مع الدولة ،ومفهوم " الروح القومية " الذى يعتبر أكثر قدماً وأكثر عمومية. وهو كذلك يختلف عن مفهوم " الأمة " الذى يشير لمجموعة من الأفراد ينتمون لمنطقة واحدة ، حيث كانت فكرة الانتماء للجماعة والقائمة على العنصر والاختلافات عن الآخرين حاضرة وذات أهمية في التاريخ لفترة طويلة قبل ظهور ما يسمى القومية الحديثة[٣].

وبهذا المعنى، فإن القومية تعنى " الإحساس المشترك بين أفراد المجتمع الواحد في عدد من الصفات : كالإحساس بالمشاركة في اللغة والجنس وفى الآمال والآلام. هذا الإحساس المشترك في تلك المعانى يؤدى حتماً إلى الترابط والتقارب، فالقومية صفة ذاتية ملازمة لتجمع من الناس العاقلين. "[٤]

---

(١) فتحى أبو العينين، الثقافة والشخصية، القاهرة ، دار الحريرى للطباعة، د.ت، ص ١٦٥.

(2) Eliek Edourie , W.A Robson ; Nationalism , Hutchin Son &CO (Publishers) LTD, London , 1979, P1 3

(3) Jose Miguel Salazar , Social Identity And National Identity , IN : Stephen Worchel , j. Francisco Morales , DarioPaez And Claude Deschamps (Ed) , London , Jean, Sage publications , 1998 , P 115.

(٤) محمد شحرور، الدولة والمجتمع، دمشق، الأهلى للطباعة والنشر، ١٩٩٧ ، ص ٧٩.

ليس العنصر، إذن، وحده المقوم الأساسى للقومية ولكن " الألفة الاجتماعية والذهنية والروحية القائمة على اشتراك أبناء المجتمع الواحد في اللغة والثقافة والعادات والتجارب التاريخية والمصالح الحاضرة والمستقبلة هى دعامات القومية. "[١]

هذه العناصر المتعددة أو المقومات التى على أساسها تتحدد القومية، هى ما جعلت جوزيف. م واتمير -Whitmeyer JosephM يرى أن هناك فلسفة ما تشيع بين أعضاء الجماعة، تسمح بظهور هذا المفهوم. وتتمثل هذه الفلسفة في : " المعيشة المشتركة، أو الميلاد في نفس الإقليم أو امتلاك هؤلاء الأفراد خصائص إثنية معينة مثل: اللغة والشكل الخارجي (السلالى) والدين. "[٢]

وهى أيضاً ما أكده " أنتونى جيد نز" حينما عرف القومية بوصفها " مشاعر الارتباط المشترك ببعض الرموز التى تحدد هوية أعضاء جماعة سكانية ما باعتبارهم ينتمون إلى ذات المجتمع، فهى الشعور بالانتماء إلى مجتمع قومى معين يختلف عن المجتمعات الأخرى. "[٣]

باستقراء هذه التعريفات يمكن الوقوف على ما يلى :

أ - تكاد تجمع هذه التعريفات على التلازم بين ظهور القومية، وبين وجود مشاعر الارتباط، فالارتباط بين أعضاء جماعة ما هو الأساس اللازم لظهور القومية.

ب - تحدد هذه التعريفات المقومات الأساسية لظهور القومية في عدد من الخصائص، يأتى في مقدمتها : العنصر واللغة والدين والميلاد. وهو ما ينفي وجود أو عدم إمكانية قيام قومية ما من القوميات بين مجموعة من البشر يختلفون في واحد أو أكثر من هذه الخصائص.

٢) مفهوم الهوية : The Identity

ويقابل مصطلح الهوية في اللغة العربية كلمة Identity في اللغة الإنجليزية، و Identite في اللغة الفرنسية. "وهو من أصل لاتينى، ويعنى أن الشيء هو

---

[١] لطفى عبدالوهاب يحي ، ملامح المجتمع القومي دراسة في العلم العربي، بيروت، مطابع النقرى ، ١٩٦٦، ص ٢٧.

[2] Joseph M. Whitmeyer, Elites And Popular Nationalism , The British Journal of Sociology ,Vol (53) , N (3) , 2002 , P 322.

[٣] أنتونى جيدنز، مقدمة نقدية في علم الاجتماع، ترجمة أحمد زايد وآخرين، جامعة القاهرة، كلية الآداب، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، ٢٠٠٢ ، ص ص ٣٦ ،١٨٩.

نفسه، فالمصطلح يعنى أن الصفات التى تجعل من شخص ما هو عينه شخصاً معروفاً أو متعيناً". (١)

وبصفة عامة تعرف موسوعة العلوم الاجتماعية الهوية بأنها " التعريف الذى يخلعه الشخص على الذات في علاقتها بالآخرين " (٢)

وهذا المفهوم من المفاهيم شديدة الغموض، رغم أن كثرة التداول قد توحي ببساطة معناه، خاصة وأنه يستخدم بطريقة أو بأخرى بين كل فئات المجتمع باعتباره " تعبيراً عن روح الشعب، وبالتالى فهو شعور لا يحتاج إلى شرح كثير وتفسير قد يوصله إلى سفسطة غير مرغوبة بسبب المضمون المباشر للهوية. " (٣)

ولا يثور سؤال الهوية عامة إلا في وقت الأزمات التى تواجه المجتمعات، وهذا ما يفسر الاهتمام المتزايد بهذا المفهوم في عقدى الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، حينما روج إيركسون Erikson لمفهوم (أزمة الهوية). ثم زاد انتشاره واستخدامه في العلوم الاجتماعية والإنسانية بعد ذلك. وعكس هذا الاهتمام الاتجاه الاجتماعى الواسع الذى أصبحت (ذات الفرد) من خلاله مشكلة ملفتة للانتباه ؛ حيث تغيرت (الذات) في التاريخ الحديث ليصبح اكتشافها أكثر أهمية وأكثر تحدياً وتعقيداً من ذي قبل. (٤)

والهوية كما يراها عالم النفس الاجتماعى كيجان " Kega " هى " الجوهر الذى يتم الإدراك من خلاله، وهى الطريق الذى يصنع ويفسر كل فرد عبره العوالم التى يتكيف معها. " (٥)

---

(١) عفيف البونى، في الهوية القومية العربية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٤، ص ١٨.

(2) Adam Kuper And JessicaKuper , Social Identity , In : The Social Science Encyclopedia , Second Edition , London , RoutLedge , 1996 ,P 789.

(٣) حيدر إبراهيم، العولمة وجدل الهوية الثقافية، عالم الفكر، المجلد الثامن والعشرون، العدد الثاني، الكويت، مطابع السياسة، ١٩٩٩، ص١٠٢.

(4) Mervyn F. Bendle , The Crisis OF Identity In High Modernity In : The British Journal OF Sociology, Vol (53), N (1) , 2002 , P 2.

(5) Jane Kroger , Identity In Adolescence. The Balance Between Selfand Other ,Londonand New York ,Routledge, 1989 , P 140 .

أما جيدنز فيراها " السمات المميزة لطابع الشخص أو الجماعة. وتنشأ كل من الهوية الشخصية والجماعية بواسطة عناصر الصياغة الاجتماعية. " [١]

ومن التعريفات الخاصة بمفهوم الهوية أنها " تصور يكتسبه الفرد من خلال عضويته في الجماعات المختلفة وقيامه بالأدوار المقبولة اجتماعياً من قبل هذه الجماعات." [٢]

ويذهب البعض إلى أنها "جملة من العلاقات والروابط الضرورية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية والأخلاقية والإنسانية ، نسجها وكونها تطور تاريخي محدد في الزمان والمكان." [٣]

وقد ينظر إليها على أنها " اسم لذات واحدة حقيقية جماعية، يعتقد أنها تتشكل من خلال التاريخ والأجداد المشتركة، ومجموعة أخرى من المصادر الرمزية. والافتراض الضمني في هذه الرؤية يقوم على أساس أن الهوية توجد في شكليها : الفردي والجماعي ككيان واحد يعبر عنه من خلال التمثلات الرمزية. " [٤]. وتتضمن الهوية " الوعي بأن فرداً ما (ذكراً أو أنثى) ينتمي إلى جماعة اجتماعية معينة، وما يشمله ذلك من ارتباط بكل من القيم والمعنى العاطفي لهذه الجماعة. " [٥] .

وتتحدد الهوية عند صامويل هنتينجتون " بالتضاد مع الآخرين ؛ففي الحروب تترسخ الهوية، ويتحقق التماسك الاجتماعي بدلاً من الانقسام الذي يتطلب زواله وجود عدو مشترك. " [٦]

وتتكون الهوية من عنصرين هما : العنصر الشخصي و العنصر الاجتماعي ، ويشتق العنصر الشخصي من الصفات الخاصة بالفرد مثل : الشخصية والسمات

---

(١) أنتوني جيدنز، مرجع سابق ، ص ٢٦٢.

(2) James B. Mckee , Intoduction to Sociology , Second Edition , New York, Riene Hort & Winston INC , 1974 , P 425.

(٣) جاد الكريم الجباعي ، حرية الآخر. نحو رؤية ديموقراطية للمسألة القومية ، سلسلة دراسات معاصرة ، دمشق ، دار حوران للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٩٥ ، ص ٢٢.

(4) Chris Braker ; Global Television : An Introduction , Black WellPublishers , U. S. A , 1997 , P 192.

(5) Caroline Kelly & John Kelly ; Human Relations , Who gets Involved in collective action ? Social Psychological Determinant Of Individual Participation , Introde Unions , Vol (47) , N (1) , 1997 , P 64.

(٦) صامويل هنتينجتون ، صدام الحضارات. إعادة صنع النظام العالمي ، ترجمة طلعت الشايب ، القاهرة ، سطور للنشر ، ١٩٩٨ ، ص ١٠.

العقلية والعضوية. أما العنصر الاجتماعى فيشتق من " العضوية الجماعية البارزة مثل : الجنس والعنصر والطبقة وغير ذلك. " (١)

ولا يمكن للهوية تنظيم أو تأكيد نفسها بنفسها ؛فجذورها ومقوماتها تكمن في أفعال الفرد، وفى تفاعله مع الآخرين. وعلى هذا الأساس يحددها الفومنولوجيين بأنها تلك التراكمات المتواترة لأفعال الفرد الماضية ، أما أفعال الفرد المستقبلية فتحدد أفق هذه الهوية، من خلال استمرار أو عدم استمرار الصفات الخاصة المألوفة للذوات المتماثلة. (٢)

ويرى نديم البيطار أن الهوية القومية: هوية نسبية وتاريخية، يحققها شعب ما عن طريق تفاعله أو علاقته الجدلية مع التاريخ، ولا يرثها من جوهر متأصل فيه، فهى استجابة تتحول مع تحول الأوضاع الاجتماعية والتاريخية وليست رداً طبيعياً ، وهى بهذا المعنى "مفهوماً ديناميكياً خاضع للتغير والتبدل " (٣)

وهكذا ، يمكن طرح هذا المفهوم ليشير إلى ما يؤطر المنظور العام لمجموعة من الخبرات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لشعب ما أو مجتمع أو جماعة ما ، في سياق تاريخى محدد ، حيث تجمع المنتمين لها بسمات شديدة التنوع ، وفى ذات الوقت تحافظ فيه على بقاء بعض الثوابت القليلة بشكل راسخ في الوعى الجمعى لشعب أو مجتمع أو جماعة. وتتضح تجلياتها في سلوكهم المعيشى ، وتراثهم الشفاهى وموروثهم، وفى ردود أفعالهم ، ومواقفهم تجاه الناس والأشياء من جهة ، وتجاه الغيبى من عقائدهم من جهة أخرى. (٤)

ويؤكد " محمود أمين العالم " أنه لكل مرحلة مجتمعية وتاريخية هويتها المعبرة عن مكتسباتها ومنجزاتها وممارستها وأفكارها وعقائدها وقيمها وأعرافها السائدة، ولكن ليست ثمة استمرارية لهوية ثابتة جامدة محددة طوال التاريخ ، فهذه رؤية أرسطية شكلية للهوية ، يغلب عليها الطبيعة لا التاريخ الذى هو جوهر إنسانية

---

(1) Robin J , Ely The Effects OF Organizational Demographics On Social Identity and Relationships Among Professional Women ; In : AdministrativeScience Quarterly , Vol (39) , Cornell University , 1994 , P 205.

(2) Reader - Mary F. Rogers , Identity And Selfhood ; In : Mary F. Rogers (Ed) , Contemperary FemInist Theory , Atext – Graw Hill, Boston , 1998 P 372.

(٣) نديم البيطار ، حدود الهوية القومية. نقد عام ، بيروت ، دار الوحدة للطباعة والنشر ، ١٩٨٢ ، ص١١

(٤) علاء عبدالهادى، الأمن الثقافى العربى : أسئلة وتأملات نظرية، مجلة شئون عربية، العدد ١١٢، القاهرة ، جامعة الدول العربية، ٢٠٠٢ ، ص٤٠.

الإنسان. إنما لكل مرحلة جديدة هويتها التى تعتبر تطوراً متجدداً للهوية في المرحلة السابقة ، أو انحداراً وتدهوراً لها . إنه التماثل واللاتماثل ، الاستمرار والانقطاع ، الثابت والمتغير ثقافياً وموضوعياً في جدل التاريخ ، ولهذا فكل تثبيت إطلاقي للهوية ، وجعلها معياراً مرجعياً ناجزاً نهائياً طوال تاريخ مجتمع ما من المجتمعات ، هو رؤية تجميدية لا تاريخية وغير موضوعية لهذا المجتمع. [١]

بهذا المعنى يؤكد أمين معلوف على أن الهوية ليست ثابتة ؛ بل " تتحول مع الوقت وتحدث فى السلوك البشرى تغيرات عميقة ، وإن وجدت فى كل الأوقات تراتيبية معينة بين العناصر المكونة للهوية. " [٢]

ولكن هل هناك شروط تتطلبها الهوية ؟ يحدد زكى نجيب محمود شرطين يجب توافرهما، لكى تثبت الهوية على وحدانيتها وهما :

أ - أن تتألف من كثرة عناصرها وحدة تجعل منها كياناً عضوياً موحداً في كل لحظة، أو في كل فترة من تاريخها ، بمعنى أن يكون لها هدف موحد تتجه إليه بمختلف أعضائها ومختلف مناشطها .

ب - أما الشرط الآخر، فهو استمرارية تلك الوحدة اللحظية على طول الزمن. على أن ثبات الهوية لاينفى أن يكون ثباتاً في ركائز البناء، أما ما يقام على هذه الركائز من مضمون حضارى، فلابد له أن يتغير مع تغير الحضارات. [٣]

من هذه التعريفات والآراء المختلفة حول مفهوم الهوية يمكن استنباط ما يلى:

أ - يوجد أكثر من وجه للهوية، فهناك الهوية الفردية (الشخصية) المتعلقة بالشخص كفرد، وهناك أيضاً الهوية الجماعية التى تشتق من الذات الجماعية لمجموعة من البشر تجمعهم روابط معينة خاصة بهم.

ب - إن الجماعة هى التى تخلع مفهوم الهوية بنوعيها على أفرادها، ويتم ذلك من خلال الروابط والعلاقات القائمة داخل هذه الجماعة.

---

(١) محمود أمين العالم ، الفكر العربى بين الخصوصية والكونية ، ط٢ ، القاهرة ، دار المستقبل العربى ، ١٩٩٨، ص ص ١٦ ـ١٧.

(٢) أمين معلوف ، الهويات القاتلة ، ترجمة : نهلة بيضون ، دمشق ، دار الجندى للطباعة والنشر ، ١٩٩٩ ، ص ٢٤.

(٣) زكى نجيب محمود ، عربى بين ثقافتين ، ط٢ ، القاهرة ، دار الشروق ، ١٩٩٣ ، ص ص ٦٤-٦٥.

٣) مفهوم الشخصية القومية : National Character *

تبدو مسألة تعريف الشخصية القومية مسألة صعبة إلى حد ما ؛نظرا لتعدد هذه التعريفات، وهو الأمر الذى يدعو الباحث المهتم بدرس الشخصية القومية للوقوف على التعريفات المختلفة المتعلقة بهذا المفهوم، وقفة نقدية تمكنه من الاختيار الأنسب لمجال بحثه.

وكما سبقت الإشارة فإن هذا المفهوم كان ولا يزال موضع اختلاف بين الباحثين المشتغلين بالعلوم الاجتماعية " فمنهم من يحتل طرفا في أقصى اليمين، يكاد يفسر في ضوء هذا المفهوم كل الظواهر والأحداث. ومنهم من يحتل طرفا في أقصى اليسار، يرى أنه مفهوم بالغ التجريد والاختزال، وبالغ التعقيد في منهج وطرق التحقق من جدواه نظريا وتطبيقيا. " (١)

ففى المجال الأنثروبولوجى : حاول بعض الباحثين دراسة الشخصية القومية داخل الثقافة أو من خلالها ، أى دراسة الشعوب فى بيئتهم الاجتماعية. ومن هؤلاء " مرجريت ميد " التى قدمت أساسا نظريا للشخصية القومية بينت فيه أن كل شخص فى الدولة يعكس بالضرورة الشخصية القومية. وهى تعرف هذا المفهوم بوصفه " الاطراد فى الشخصية بين أعضاء جماعة قومية ، يرتبطون بعامل الوطنية المشتركة. " (٢)

---

* يخلط البعض عند الحديث بين كلمتى Personality و Character، وتشير الأولى Personality في اللغة الإنجليزية إلى طريقة التفكير المعتادة، والشعور والإدراك والاستجابة تجاه العالم. وبالرغم من اعتقاد البعض بثبات الشخصية وعدم تغيرها وفقاً لما تعنيه هذه الكلمة، فإن آخرين يرونها أكثر من مجرد مصطلح مائع، فهى تتأثر بعددمن العوامل الخارجية كالثقافة والنظام الأسرى، بينما يستخدم آخرون الأبنية البيولوجية أو المعرفية أو السلوكية في تفسير الشخصية. أما الكلمة الأخرى Character، فهى مصطلح شائع الاستخدام، يشير بصفة عامة للجوانب الأساسية المستمرة في الشخص : كالاستقامة ، الأمانة، الأخلاق، وهو بمثابة تقدير وتقييم للكيفية التى يتصرف من خلالها الشخص في المواقف المختلفة. ونظراً لتطابق معنى الكلمة الأولى Personality مع محتوى وهدف الدراسة الحالية، فإن الباحثة تؤثر استخدامه للاشارة لمفهوم الشخصية .....وحول معنى الكلمتين يمكن الرجوع إلى :

- Jeffrey J Magnavita , Theories OF Personality. Contemparary Approaches to The Science Of Personality, New York , John Wiley &Sons INC , 2002 , PP 16,17

- وكذلك عاطف غيث ، قاموس علم الاجتماع ، الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٦ ، ص ٢١.

(١) لويس كامل مليكة ، الشخصية القومية والخصوصية الحضارية ، في : لويس كامل مليكة ، قراءات في علم النفس الاجتماعى في الوطن العربى ، المجلد الخامس، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ ص ٩١.

(٢) محمد سعيد فرح ، الشخصية القومية بين الوهم والحقيقة ، مرجع سابق ، ص ١٣١.

وهذا الاهتمام نفسه كان موجوداً عند عدد آخر من الأنثروبولوجيين، فنجد كليدكلاهون يرى الشخصية القومية " محاولة لتفسير تكامل أنماط الثقافة، وتعبر عن نماذج السلوك السائدة وانعكاس أسلوب الحياة، والنظرة إلى العالم عند أفراد المجتمع وهى تميز قوم عن قوم أوجماعة عن جماعة أو طبقة عن طبقة فى فترة زمانية محددة. والشخصية القومية تحدد بالمجتمع المستقر ولا يعكسها إلا جماعات الفلاحين والعمال. وتضعف صورة الشخصية القومية فى المجتمعات المتغيرة ... وتكاد تختفى عند أولئك الذين يحتلون مكانة فى أعلى السلم الاجتماعى. "[١]

وفى مجال علم النفس الاجتماعى: قدم إبرهام كاردينر A. Kardin مفهوم الشخصية الأساسي وهو يشير إلى " تشكيل الشخصية الذى يشترك فيه غالبية أعضاء المجتمع، نتيجة الخبرات التى اكتسبوها معاً. "[٢]

وكما هو واضح، فإن هذا التعريف يربط وجود البناء الأساسى للشخصية بوجود مجموعة من العناصر التى يشترك فيها أعضاء المجتمع بطريقة توضح مدى توحد هؤلاء، وسلوكهم في المواقف المختلفة بطريقة متشابهة.

كما قدم عالم النفس الاجتماعى إيريك فرووم Eric. Froom مفهوم الشخصية الاجتماعية أو الطابع الاجتماعى ليشير إلى " النواة التى ينهض على أساسها بناء الطابع الذى يشترك فيه غالبية الأفراد الذين ينتمون إلى ثقافة ما، وذلك بالمقابلة مع الطابع الفردى الذى يختلف بصدده الأفراد — الذين ينتمون لنفس الثقافة — عن بعضهم البعض. "[٣]

وينفى فروم أن تسود المجتمع شخصية اجتماعية واحدة متجانسة ومتكاملة تعكس البناء الاجتماعى كله، فلكل طبقة أو جماعة داخل المجتمع شخصيتها الاجتماعية المميزة التى تحددها أساليب التربية. وهذه الشخصية ليست وليدة البناء الفوقى وحده أو البناء التحتى بمفرده؛ ولكنها محصلة التفاعل بين البناء الفوقى والبناء التحتى[٤].

---

(١) المرجع السابق، ص ١٣٤.

(٢) سامية الساعاتى، مرجع سابق، ص ٢٥٢.

(٣) السيد يس، الشخصية العربية بين صورة الذات ومفهوم الآخر، القاهرة، مكتبة مدبولى، ١٩٩٣، ص ٦٥.

(٤) محمد سعيد فرح، الشخصية القومية، الإسكندرية، منشأة المعارف، د. ت، ص ٨٩.

معنى ذلك، أن الظروف الاجتماعية أو شروط الوجود الاجتماعي، في رأى فروم هي التي تشكل الشخصية. وإذا كان لكل مجتمع وجوده الخاص وبناؤه النوعي، فإن لكل مجتمع طابعه الاجتماعي الذي يعمل على تشكيل طاقات الأفراد بطريقة لا تجعل سلوكهم متروكاً للقرارات الإرادية الواعية. وبذلك يعمل الطابع الاجتماعي على تحقيق وظائف المجتمع كما تحددها ثقافته. وإذا ما تغيرت الظروف الخارجية بطريقة لا تجعلها تتوافق مع الطابع الاجتماعي، فإن ذلك يؤدي إلى حدوث هوة بين الطابع الاجتماعي وهذه الظروف المتغيرة، الأمر الذي يجعل الطابع الاجتماعي يعمل كعامل تفكيك وليس كعامل تثبيت. وتكمن أهمية مفهوم الطابع الاجتماعي بهذه الصياغة في أنه يلفت الانتباه إلى أهمية العوامل التاريخية والبنائية في تشكيل بنية الشخصية". [1]

وفي مجال علم الاجتماع، كان هناك اهتمام بدراسة هذا المفهوم ومحاولة تحديده، فقد كان " سمنر " أول عالم اجتماع أمريكي حاول أن يحدد العناصر البنائية للمجتمع وأن يصور روح الشعب. أما " دوركايم " فاهتم في نطاق علم الاجتماع الفرنسي بما أسماه التصورات الاجتماعية أو العقل الجمعي. [2]

ومن علماء الاجتماع الذين حاولوا تحديد هذا المفهوم " براون " J. F Brown، الذي يرى : أن مفهوم الشخصية القومية يشير إلى " درجة من التشابه بين الأنماط السلوكية الصادرة عن جميع أبناء القومية، ما دام البناء الاجتماعي الدينامي مستقراً، فإذا تغير هذا البناء تغيرت أنماط السلوك الصادرة عن الأفراد، وبالتالي يلزم إعادة النظر في مضمون المفهوم كما سبق تحديده." [3]

ويذهب " جينزبرج " في فهمه للشخصية القومية مذهباً يؤكد فيه أن الشخصية القومية " مجموعة متماسكة من السمات التي تظهر بعض الاستمرارية والدوام النسبي." [4]

وساهم " تالكوت بارسونز " برأيه في هذا الموضوع وبين أنها لا توجد في البناء المعقد واللامتجانس. وقبل مفهوم " كاردينر " عن بناء الشخصية الأساسية. وبناء

---

[1] أحمد زايد، المصري المعاصر. مقاربة نظرية وإمبريقية لبعض أبعاد الشخصية القومية المصرية، القاهرة، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، ١٩٩٠، ص ص ٧٠٨.

[2] محمد سعيد فرح، الشخصية القومية بين الوهم والحقيقة، مرجع سابق، ص ١٣٤.

[3] سامية الساعاتي، مرجع سابق، ص ٢٥١.

[4] محمد سعيد فرح، الشخصية القومية، مرجع سابق، ص ٩٠.

الشخصية الأساسية بناء مستقر استقراراً نسبياً ، وهذا البناء يتغير بتغير البناء كما يتغير من بناء لآخر ، بل هو متغير بين أفراد البناء الواحد، إذ يتباين حسب المركز الاجتماعى للأفراد ومن طبقة لأخرى ، كما يتميز بناء شخصية الرجل عن بناء الشخصية الأساسية للمرأة. [1]

وبعد، فهذه طائفة من التعريفات الخاصة بمفهوم الشخصية القومية كما وردت عند عدد من العلماء الغربيين. وفيما يلى أحاول أن أستعرض بعضاً مما جاء عند المفكرين والباحثين العرب في هذا المجال :

وأبدأ بتعريف" مصطفى سويف" ، الذى ذكر أنها : " أكثر السمات الشخصية شيوعاً في أى مجتمع ، للوصول إلى تقديم صورة مؤلفة من هذه السمات. وقد يكتفى بهذا الوصف ، أو يتبع ذلك محاولة تفسير نشأة هذه السمات بدراسة مقارنة بين الشخصيات القومية في عدد من المجتمعات. " [2]

ويضع" قدرى حنفى هو الآخر تعريفاً للشخصية القومية يذهب فيه إلى أنها " مجمل تلك الصفات المستمرة نسبياً ، الذى يكفل فهماً تفسيرياً وتنبئياً للنشاطات الظاهرة لأعضاء جماعة معينة ، في فترة تاريخية محددة تتسم بالاتساق داخليا وخارجيا. " [3]

ويستبدل حامد عمار بمفهوم الشخصية القومية مفهوم الشخصية الاجتماعية التى يراها " محصلة للعوامل والقوى المؤثرة والمتفاعلة في تكوين الإنسان فكراً ووجداناً وسلوكاً، وأن مظاهر الشخصية الاجتماعية السلوكية والفكرية إنما تتمثل في استجابات منتظمة ومقننة يمكن التنبؤ بها إلى أكبر قدر من التوقع في مختلف المواقف. كما يمكن التواصل عن طريق هذه الاستجابات المصطلح عليها بين الفئات التى تعتبرها مجسدة لقيمها في مجالات التعامل المؤسسى ، ومن ثم يتجاوز مفهوم الشخصية الاجتماعية مظاهر السلوك الفردى والفروق الخاصة في الأمزجة والمشاعر. " [4]

ويتبنى السيد يس مفهوماً للشخصية القومية مطوراً إياه عن النهج الذى اتبعه فرووم لما أطلق عليه الشخصية الاجتماعية ، لكى يميزه عن الشخصية الفردية ؛

---

(1) المرجع السابق، ص ٩١.

(2) نادية سالم، الشخصية القومية العربية بين الدراسات الوطنية والدراسات التجريبية، قراءات في الفكر القومى ، الكتاب الثالث، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٤ ، ص ٤٢١.

(3) سامية الساعاتى، مرجع سابق ، ص ٢٥٢.

(4) حامد عمار، في بناء الإنسان العربى، دراسات في التوظيف القومى للفكر الاجتماعى والتربوى، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٨ ، ص ١٥١.

فيرى" يس" أن هذا المفهوم ينطلق من تصور شامل للطبيعة الإنسانية في إطار السياق التاريخى الذى يؤثر عليها ويترك بصماته علي ملامحها وقسماتها الرئيسة، فهذا التصور ينظر للشخصية نظرة جدلية في تفاعلها الدائم مع التكوين الاقتصادى والاجتماعى في مجتمع محدد، أو تأثرها بنمط الإنتاج السائد في عدة مجتمعات متشابهة، وعلى ذلك يمكن تحديد الشخصية القومية كما يراها يس باعتبارها : " مفهوم يرتكز على المفهوم الاشتراكى العلمى للشخصية الإنسانية، وخصوصاً ما يتعلق بربطه لسماتها والتغيرات التى تلحق بها بالتكوين الاقتصادى والاجتماعى من ناحية، وبالتاريخ الاجتماعى لكل شعب من ناحية أخرى. " [1]

وعموما فإن الشخصية الاجتماعية هى المنطقة التى تتمركز فيها التماثلات القومية الداخلية وتظهر الفروق بين الشعوب. ومن ثم يمكن القول : " بإن لها علاقة وثيقة مع الثقافة السائدة أو البناء الاجتماعى والطبقى والمهنى للمجتمع " [2]

باستقراء التعريفات السابقة – الأجنبى منها والعربى – تخلص الدراسة الحالية إلى تحديد معنى للشخصية القومية - يتفق مع أهدافها العامة ومنطلقاتها الفكرية – باعتبارها :

أ – مجموع الخصائص والسمات النفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية، التى تميز مجموعة من الأفراد وتميزهم عن غيرهم من الكيانات الأخرى بحيث يشكل هؤلاء كيانا كليا ذا طابع خاص.

ب – إن القول بوجود هذا الكيان الكلى لا يتعارض مع القول بوجود جماعات أو كيانات فرعية داخل هذا الكل تحمل خصائص نوعية ، لكن الأكثرية من هذا الكيان الكلى تتشابه في خصائص معينة بدرجة تسمح بالإشارة إليهم كقومية ذات تجربة تاريخية وثقافية متماثلة. وفى هذا الأمر يبرز مفهوم الشخصية الاجتماعية باعتباره المفهوم الذى يمكن الاعتماد عليه فى الدراسة الراهنة.

جـ - لا يمكن تقديم فهم واضح لمثل هذا الكل إلا من خلال معرفة ودراسة السياق التاريخى والاجتماعى والثقافى الذى نشأ فيه هذا الكل وأسهم فى تشكيله بطريقة خاصة.

---

[1] السيد يس، الشخصية العربية بين صورة الذات ومفهوم الآخر، مرجع سابق، ص ٨٢.

[2] محمد أحمد بيومى، المجتمع والثقافة والشخصية. دراسة فى علم الاجتماع الثقافى، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٤، ص ١٤٣

ثانياً : الشخصية المصرية ..... المفهوم والماهية :

لا شك أن التعرف إلى الذات والوعى بخصائصها صار ضرورة ملحة تفرضها معطيات الواقع والحياة المعاشة التى تزداد حدة كل يوم. وهذا ما يجعل من تناول الشخصية المصرية — كمفهوم — أمراً لاغنى عنه لمثل هذه الدراسة ، والدراسة في ذلك تتجاوز الجدل الذى قد يثار حول تعريفها وجدوى دراستها ، وذلك من منطلق أن البداهة تؤكد تمايز القوميات ؛ فمن المعروف أن لكل مجتمع من المجتمعات نموذجاً أو نمطا من الشخصية يعبر عنه وينطبق هذا الأمر بصورة أو بأخرى على الشخصية المصرية ؛فهى الأخرى تتميز بوجود نمط عام يميزها عن غيرها من الشخصيات القومية . وهذا ما تؤكده نتائج العديد من الدراسات التى أجريت بغرض تحديد سمات وخصائص هذه الشخصية . وربما تبالغ بعض هذه الدراسات في وجود بعض الخصائص المتعلقة بها ، أو ربما تحد من وجود بعضها ، إلا إنه تظل ، في النهاية ، هناك ملامح وسمات عامة مشتركة بين أفراد الشعب المصري تطبعهم دون غيرهم من الشعوب الأخرى بطابع مميز ... هو ما يطلق عليه : الشخصية القومية المصرية .

هنا تظل مشروعية دراسة هذه الشخصية أمراً لا جدال فيه ، لكن يجب أن تنطلق من رؤية محددة ذات استبصارات واضحة، فالشخصية المصرية " جديرة بنظرة علمية متوازنة ، لاتسقط في هوة اليأس القاتل بالتركيز على السلبيات ، ولا تغامر بالمبالغة الفجة حول الإيجابيات" [1] وهذا ما تسعى الدراسة الراهنة إلى بلوغه قدر المستطاع.

وابتداء ينظر محمود عودة للشخصية المصرية بوصفها " بنية سيكولوجية ذات خصائص وملامح وسمات معينة. وهذه البنية محصلة لمجموعة من أنساق القيم والمعايير والاتجاهات ورؤى العالم، التى تكونت وتطورت في سياق تاريخى يعج بتفاعل العديد من القوى السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وهذا التاريخ شكل دائماً القاعدة التى ولدت صعيداً ثقافياً وفكرياً وأيديولوجيا ، وكان بدوره المعين غير الناضب لبناء الشخصية المصرية وتكونها واستمرارها وتحولها. والشخصية المصرية بهذا المعنى ليست كياناً طبيعياً موروثاً ثابتاً وأبدياً ، بل هى تستجيب لما يطرأ على المجتمع من تغيرات

---

[1] السيد يس ، الشخصية المصرية والدلالات الحضارية لحرب أكتوبر ، في : طلعت رضوان ، أبعاد الشخصية المصرية بين الماضى والحاضر ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٩ ، ص ١٥.

وتحولات في عناصره المختلفة بدرجات متفاوتة ، كما تعكس جمود العملية الاجتماعية التاريخية وركودها في الوقت ذاته. ومن هنا يستحيل تفسير الشخصية المصرية في ذاتها ، أو في ضوء أي نظرة تحليلية عرقية أو عنصرية أو في إطار العناصر الثابتة كالجغرافيا أو المناخ فقط ، دون ربطها أو ردها إلى التفاعلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الحية والمتفاعلة ... وهي ما نعنيه هنا بالتاريخ. " [١]

ومن خلال قراءة تحليلية لهذه النظرة التي يوردها عودة، يمكن الوقوف على بعض الاستخلاصات المهمة:

١ - ركز عودة في فهمه للشخصية المصرية على الجانب السيكولوجي ، فجعله نقطة البدء في تحديده لماهية هذه الشخصية ، ولهذا وصفها منذ البداية بكونها بنية سيكولوجية ذات خصائص وملامح معينة.

٢ -رد هذه البنية وجعلها محصلة لعدة أنساق أخرى تتمثل في القيم والاتجاهات والمعايير إلى غير ذلك من أنساق ، ثم جعلها تتطور في سياق تاريخي حافل بمتغيرات : اقتصادية واجتماعية وسياسية.

٣ - نفى عنها فكرة الحتمية الطبيعية ، وجعلها تتصف بالدينامية وإمكانية التغير والتبدل بدرجات متفاوتة تبعاً لما يطرأ على المجتمع من تغيرات. وهو في ذلك يعود مرة أخرى للصلة الوثيقة بين كل من : المجتمع والثقافة والشخصية، مما يجعله لا يبتعد كثيراً عن تلك النظرة التي تتبناها الدراسة الراهنة، حينما تقوم على وجود جدل بين الشخصية المصرية والواقع الاجتماعي الشامل.

ومن منطلق النظرة التي تربط بين الشخصية المصرية، والقيم، والبنية الاجتماعية ، والسيكولوجية ، يؤكد فؤاد مرسي على وجود عناصر أو مكونات أو مقومات خاصة بالشخصية المصرية، ويحدد هذه المقومات في : " وجود جماعة بشرية معينة ، بالاستناد إلى مكان مشترك وتاريخ مشترك ومصالح مشتركة ولغة مشتركة. هذه الجماعة أصبحت تتميز بثقافة معينة ومزاج نفسي معين. بعبارة أخرى ، فإن الشخصية المصرية تتحدد في أمرين : الأول : مجموعة القيم التي يقبلها المصريون ، وهي القيم التي ابتدعوها وأقروها ودافعوا عنها مطورين إياها . أما الأمر الآخر : فهو مجموع ما يشكل المزاج النفسي لمن نسميهم المصريين. إذن الشخصية المصرية ، أو

---

(١) فتحي أبو العينين، الثقافة والشخصية، مرجع سابق، صص ٢٨٩- ٢٩٠.

الشخصية الخاصة بأى شعب من الشعوب تتحدد بهاتين المجموعتين من المعالم : مجموعة القيم ، ومجموعة ما يشكل المزاج النفسى للشعب. " (١)

ولا يختلف فؤاد مرسى في طرحه السابق كثيراً عن الطرح الذى قدمه عودة؛ فكلاهما يتفق حول فكرة أساسية هى ، أن الشخصية المصرية تتحدد وفقاً لنسق القيم والبنية السيكولوجية ، وإن كان طرح عودة يتسم بالشمولية والعمق.

ويضع " على ليلة " مخططاً للعناصر المكونة لبنية الشخصية المصرية والملامح الأساسية التى تميز هذه البنية ، حيث يعرض لمجموعة من الأنساق التى تتبادل التأثير والتأثر فيما بينها ، لتعطى في النهاية هذا المركب الذى يعرف باسم " الشخصية المصرية ". وتتمثل هذه الأنساق ، عنده ، في : النسق الطبيعى و النسق العضوى البيولوجى والنسق الاجتماعى والنسق الثقافى وأخيراً يأتى نسق ما وراء الطبيعة. وعند عرضه لطبيعة هذه الأنساق بالنظر إلى المجتمع المصري يذكر :

" خصائص موقع مصر الجغرافى الذى يتوسط العالم .... كما يشير إلى مناخها الذى يتسم بالاعتدال. وتأثير ذلك على عادات المصريين وطقوسهم ومزاجهم العام ، كذلك النيل وفيضانه وكونه أساساً لبيئة فيضية قامت فيها حضارة قديمة ، وعرف فيها الإنسان الاستقرار والإنتاج .... كما يذكر طبيعة التكوين السلالى للمصريين الذى يشترك في بعض السمات مع سكان دول حوض البحر المتوسط من ناحية. وسكان شرق أسيا من ناحية أخرى ....وأن الزراعة تشكل النظام الإنتاجي الغالب. وأن القرية هى الوحدة الأساسية ، والعائلة والعلاقات القرابية تلعب دوراً مهماً في تشكيل ملامح الشخصية المصرية ، كما يلعب النظام السياسى دوراً بارزاً في حياة المجتمع ، ويؤثر في نمط علاقتهم بالسلطة. أما على المستوى الثقافى ، فقد شهدت مصر عناصر ثقافية متعددة .. اندمجت كلها في التكوين الثقافى المصري .... ، وعلى صعيد نسق ما وراء الطبيعة ، فإن الدين ساعد على الاستقرار الحضارى الذى عرفته مصر ، وتشكل الأساطير الجانب الآخر من نسق ما وراء الطبيعة ، حيث طور المصريون بعض الأساطير التى تعكس اهتمامهم بقيم محددة. " (٢)

---

(١) فؤاد مرسى ، الشخصية المصرية : الثوابت والمتغيرات ، في : طلعت رضوان ، أبعاد الشخصية المصرية بين الماضى والحاضر ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٩ ، ص ٩٤.

(٢) فتحى أبو العينين، مرجع سابق، ص ص ٢٥٠- ٢٥١.

وإذا كان ليلة في تحليله ينطلق من فكرة الأنساق المختلفة التى يقوم عليها الوجود الإنساني ، فإن هناك تقارباً بين الإطار الذى قدمه في تحليله هذا، وبين تحليلات أخرى قدمها مفكرون آخرون ؛فكما يؤكد هو في تحليله على أهمية البيئة الفيضية في إنتاج خصائص المصريين ، نجد "جمال حمدان" ، من قبل يستفيض في شرح وتفصيل هذه النقطة ، وهو الأمر الذى سأزيده وضوحاً فى المحور الخاص بعرض الدراسات السابقة المتعلقة بالشخصية المصرية فى موضع لاحق. .وكما يقرر" ليلة" اشتراك مصر مع غيرها من دول حوض البحر المتوسط في بعض السمات ، فإن" طه حسين" قد أكد من قبله على التقارب بين مصر ودول البحر المتوسط.

وعلى نفس الوتيرة التى تربط بين حقائق عدة في فهم الشخصية المصرية يرى " طارق حجي " في كتابه نقد العقل العربى : إن الهوية الثقافية للمصريين تقوم على الحقائق التالية :

١ - إننا – تاريخاً وآنياً – جزء من الثقافة العربية الإسلامية.

٢ - إننا – جغرافياً – جزء من ثقافة شرق البحر المتوسط.

٣ - إننا – زمانياً – جزء من العالم الحديث الذى يقوده الغرب. "[١]

يتضح هنا مدى اتفاق حجي مع ليلة في اعتماده على البعد الجغرافى ، خاصة ما يتصل بثقافة دول حوض البحر المتوسط ، في تشكيل الشخصية المصرية ، وإن كان يزيد على هذا البعد الارتباط على المستوى الزمنى مع الغرب الحديث ، وهو ما يثير إشكاليات كثيرة تتعلق بمدى كوننا بالفعل جزء من هذا العالم، إلا أن أهم ما يميز فكرة حجي، أنه يجعل من الثقافة العربية الإسلامية مكوناً مهماً من مكونات الشخصية المصرية ، سواء على المستوى التاريخى أوعلى مستوى الحاضر.

وهذا أيضاً ما أكد عليه أحد الباحثين الذى رأى، أن الهوية الثقافية المصرية ترتكز على العناصر الأساسية التالية:

١ - أننا مصريون بحكم المواطنة والحضارة العريقة المتجددة دائماً ، وهذا يعنى ضرورة الإلمام بعناصر الثقافة المصرية قديمها وحديثها ، مع الوعى بأن تلك العناصر كانت ولا تزال وستظل في حوار دائم مع عناصر الثقافة لدول البحر المتوسط.

---

[١] طارق حجي ، نقد العقل العربى من عيوب تفكيرنا المعاصر ، ط ٢ ، القاهرة ، دار المعارف، ١٩٩٩، ص ١١٧.

٢ - أننا عرب بحكم الموقع واللسان والتاريخ ، وأننا أفارقة بحكم الموقع والتاريخ المشترك ، وباعتبار أننا جميعاً نخضع لنفس الظروف ، وينتظرنا نفس المصير.

٣ - أننا قوم متدينون – من عصر ما قبل التاريخ – يمثل الدين ركناً أساسياً من ثقافتنا ويشكل الجانب الأكبر من وجداننا . [١]

وهناك من ينحو منحىً أكثر عمومية في تناوله للكيفية التى يفهم من خلالها الشخصية المصرية ، فيجعل منها مركباً تشكل بطريقة جدلية وفق شروط تاريخية محددة ، ووفقاً لهذه الرؤية فإن الشخصية المصرية :

" شأنها شأن أية شخصية قومية أخرى، قد أصبحت اليوم مزاجاً مركباً جدلياً وتاريخياً، لا تستطيع قوة أن تسحق عناصر منها أو تسلخ بعضها. والحق أنه بصرف النظر عن تلك المؤثرات المختلفة ، فنحن اليوم عندما ندرس الشخصية المصرية نخطئ الخطأ كله إذا اعتبرناها فرعونية جوهراً أو قبطية جوهراً أو عربية جوهراً ، إنما هى من قبل ومن بعد مصرية وقومية ولا شيء آخر." [٢]

بالإضافة إلى هذه الآراء ، هناك من يؤكد على أهمية التفاعلات التاريخية ودورها في تشكيل الشخصية المصرية ، فهذه التفاعلات كما يرى هؤلاء : شكلت البناء الحضارى المصري ، وبالتالى الشخصية المصرية التى استطاعت أن تحدد هويتها من خلال ما تركته وما تتركه من أعمال خلاقة لها خصوصيتها الثقافية ،" ولذا فإن انتماء المصري ليس مواطنة Citizenship فحسب ، ولكنه تفاعل تاريخى حضارى ، جعل المصري متميز الهوية ، وهو ما أعطاه قدرة على الصراع مع عوامل الانتزاع والاستعباد على مر تاريخه. وبهذا يصبح الانتماء هو النتاج الطبيعى لأصالة الشخصية القومية ، ويصبح عدم الانتماء مرتبطاً بالبعد عن هذه الأصالة ، وإضعاف خصوصيتها وتفردها . " [٣]

و ما يميز وجهة النظر هذه هو ذلك الارتباط الذى تفترضه متلازماً بين الشخصية المصرية والانتماء من منطلق كونه خاصية مميزة لهذه الشخصية.

تتفاوت وجهات النظر وتتعدد الرؤى حول ماهية الشخصية المصرية ، وتتعدد كذلك التفسيرات المتعلقة بمكوناتها الأساسية، ومع هذا يظل هناك اتفاق شبه عام

---

(١) مصطفى النشار ، ضد العولمة ، القاهرة دار قباء للطباعة والنشر ، ١٩٩٩ ، ص ص ٤٥-٤٦.

(٢) أنور عبد الملك ، الشارع المصري والفكر ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٢ ، ص ص ٣٠-٣١.

(٣) علياء رضاه رافع ، الانتماء والتنمية في الريف المصري. الجذور ، الجزء الأول ، الإسكندرية ، دار صادق للنشر ، ١٩٩٣ ، ص ٢٠.

بين الباحثين والمهتمين بدراستها على أنها نتاج لتطور وتراكم تاريخى طويل، وأنها كذلك شخصية متعددة الأبعاد، وقادرة على استيعاب كثير من المتغيرات الحضارية التى مرت بها . وحتى يمكن تحقيق فهم أكثر عمقاً حول طبيعة هذه الشخصية ، نحاول البحث فى خصائصها من خلال مناقشة بعض ما كتب عنها والذى تراوح بين التحليلات الانطباعية والدراسات العلمية.

ثالثاً : خصائص الشخصية المصرية بين التحليلات الانطباعية والدراسات العلمية :

وبالطبع ليست هذه الدراسة معنية بسرد هذه الخصائص بقدر ما تعنى بتفسير الإطار العام الذى ظهرت فيه ، ولهذا فإن الدراسة هنا تشير لبعض ما جاء عن هذه الخصائص بما يتفق والهدف العام منها ، وكما يذكر أحد الباحثين، فإن الحديث عن ثقافات وملامح الشعوب وما يميزها ، كثيراً ما يكون أقرب إلى المحاولة العقلية ، تقصد لذاتها أكثر مما تقصد لصحة النتائج أو بطلانها ، فقلما يتفق الرأي على شعب معين وعلى ما يميز ثقافته الأصيلة ، وذلك لتشعب الحياة تشعباً لايمكن ضم أشتاته بجميع أطرافها ، وإنه ليحدث أن يصف باحث ما شعباً معيناً بصفة معينة ، وأن يوصف هذا الشعب نفسه بنقيض تلك الصفة عند باحث آخر. ومع ذلك يظل الحديث عن تلك الملامح ذا أهمية : لأنه يكشف الجانب المستور من الشخصية ، فيرى الناس في أنفسهم ما لم يروه من قبل.(١)

وفى البدء ، لا مندوحة أن المصريين أدركوا دائماً أنهم مختلفون عن طبقة الحكام ، ولذلك اعتبروا أنفسهم أبناء البلد الحقيقيين ، وأصبح هذا المفهوم — ابن البلد — عند ذكره يثير خصائص وسمات معينة وذلك تميزاً للمصريين عن غيرهم من الجماعات المختلفة اثنيا ، فمفهوم ابن البلد يخرج من نطاقه : التركى والمملوكى والحكام الأجانب واليونان والرومان ، وكذلك جميع الغزاة اللاحقين، وبمعنى آخر، كان المصريون على مدار التاريخ على وعى بهويتهم المميزة والمضادة للصفوة التى تحكمهم، ولبقية الجماعات الأخرى في مصر.(٢) ولذلك ظلت هناك خصائص وسمات تخص المصريون دون غيرهم ، وكانت هذه الخصائص والسمات محط نظر كثير من

---

(١) زكى نجيب محمود ، هذا العصر وثقافته ، دار الشروق ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٢ ، ص ١٤١ .

(2) Laila Shukry El-hamamsy , The Assertion Of Egyptian Identity , In : Saad Eddin Ibrahim & Nicholas S. Hapkins, Arab Society , Social Science perspectives , The A , u. c .Press Second Printing , 1987 , P 41.

المؤرخين والباحثين على مدى تاريخ الشخصية المصرية ، بحيث كانت هذه الخصائص والسمات من أول الأشياء التى يقف عندها هؤلاء طويلاً .

فقديماً ذكر" المقريزى "أن من الصفات التى تغلب على أخلاق المصريين" الدعة والجبن و سرعة الخوف والنميمة والسعى إلى السلطان ، ولهم خبرة بالكيد والمكر، وفيهم بالفطرة قوة عليه وتلطف فيه ، حتى صاروا مضرب المثل فيه بين الأمم. " [1]

أما الجبرتى فتحدث عن فضائل أهل مصر من الأمانة والمروؤة والكرم والتعاطف ، حيث كانت هذه الفضائل تبرز واضحة قوية عندما تكون الحياة مستقرة وسهلة لا يكدرها عليهم وباء أو حرب أو قحط أو غلاء ، وفى ذلك يقول " كان لأهل مصر سنن وطرائق من مكارم الأخلاق لا توجد في غيرها . " [2]

ويصف " دى شابرول " أحد علماء الحملة الفرنسية المصريين قائلاً " المصري خجول بطبعه ، وهو يتفادى الخطر بقدر ما يستطيع ، لكنه ما إن يجد نفسه وسط المخاطر – بالرغم من حيطته – يبدى همة ما كنت تظن في البداية أنها لديه ، وليس ثمة ما يساوي رباطة جأشه وفى نفس الوقت تواكله. " [3]

وفى وصفه للذل والانكسار الذى يميز شخصية المصري يقول : " يحمل بين جوانحه روحاً منكسرة تشى عن نفسها في كل حركاته وإيماءاته ، فيتذلل ويتحسس كلماته مع كل من يخشى قوتهم ونفوذهم ، وعندما يتاح له أن يدرج في مصاف الأثرياء ، فإنه يعمل على إشعار البؤساء الذين يأتمرون بأمره بوطأة استعلائه وتحكمه ، وتلك نتيجة طبيعية للتربية التى تلقاها وللأمثلة التى رآها في حياته. " [4]

يحاول " دى شابرول " في النص السابق أن يفسر ما شاهده من خضوع المصريين لأولى الأمر من الحكام ، في ضوء المناخ التسلطى المفروض عليهم ، كما يجعل من البيئة الاجتماعية سبباً في هذا الخضوع ، وهو يقترب في تحليله من مقولة " التماهى بالمتسلط"، فالمصرى المنكسر المغلوب على أمره ، حينما تتاح له فرصة الصعود الاجتماعى ما يلبث أن

---

(١) جمال حمدان ، شخصية مصر. دراسة فى عبقرية المكان، كتاب الهلال، القاهرة، دار الهلال، العدد ٥٠٦، ١٩٩٣ ، ص ٧١.

(٢) عصمت محمد حسن، جوانب من الحياة الاجتماعية لمصر من حلال كتابات الجبرتى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٣ ، ص ١٦.

(٣) دى شابرول ، دراسة في عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين ، في : علماء الحماة الفرنسية (تأليف)، المصريون المحدثون ، ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ، مكتبة مدبولى ، د. ت ، ص ١١٥.

(٤) المرجع السابق ، ص ١١٥.

يتحول لمتسلط جديد يمارس القهر على من هم أضعف منه ، وذلك تماهياً مع من علوه من قبل. وكأنها دورة الحياة التى تلعب فيها نفس الشخصية أدوارا مختلفة ، فتارة تلعب دور الغالب ، وتارة أخرى تلعب دور المغلوب على أمره، وفى كل مرة تتزود بالميكانيزمات والأدوات اللازمة لكل دور ، حتى تستطيع تأديته كما ينبغي.

وفى العصر الحديث ، كانت الشخصية المصرية مجالاً للبحث والدراسة من قبل عدد من المتخصصين في ميادين : علم النفس والأنثروبولوجيا والسياسة والتاريخ وعلم الاجتماع وغير ذلك من فروع المعرفة. وربما يفسر هذا الاهتمام بدراسة الشخصية المصرية، التفاوت الكبير فيما بين هذه الدراسات ولا عجب في ذلك ؛ فاختلاف الأساليب والأدوات والمفاهيم البحثية التي ينطلق منها كل باحث في كل مجال من مجالات المعرفة يؤدى بالضرورة إلى اختلاف النتائج التي يتوصل إليها. وبالرغم من وجود محاولات كثيرة قامت بتوصيف هذه الشخصية وتحديد ملامحها عبر تاريخها الطويل، إلا أن الاهتمام العلمي المنظم بدراستها بدأ بالفعل منذ منتصف القرن العشرين، وكان ذلك مواكباً لما شهدته الساحة البحثية في الغرب من اهتمام كبير بدراسة الشخصية القومية عموماً فى مجتمعات وثقافات مختلفة خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها. واستمر هذا الاهتمام وتعاظم في مصر فيما بعد، نتيجة لعوامل تتصل بظروف المجتمع المصري، وبالذات مسألة التحديث والتنمية، وقضية الصراع العربي .الإسرائيلي التى اقتضت ضرورة فهم الشخصية العربية والمصرية، وكذلك فهم الشخصية الإسرائيلية؛ كأمر لازم تمليه ضرورات إدارة هذا الصراع.[1]

وتمثل هزيمة الخامس من يونيو في العام السابع والستين من القرن العشرين منعطفاً تاريخياً هاماً وفعالاً في دراسة الشخصية المصرية ؛فقد ولدت هذه الهزيمة فى عقول الكثيرين عدداً من التساؤلات الملحة المتصلة بهذه الهزيمة فى علاقتها بطبيعة الشخصية المصرية والعربية على السواء. منذ ذلك الحين ظهرت دراسات مستفيضة حول هذه الشخصية، سواء من قبل علماء مصريين وعرب من جهة، أو من قبل علماء غربيين وحتى إسرائيليين .

---

[1] فتحى أبو العينين، الثقافة والشخصية ،مرجع سابق، ص ٢٢٩.

وتقف دراسة جمال حمدان شخصية مصر. دراسة في عبقرية المكان (١٩٦٧)[1] باعتبارها واحدة من أهم وأشهر الدراسات في المجال الجغرافي. ويحاول حمدان في دراسته هذه أن يدرس شخصية مصر الإقليمية من خلال نظرية عامة هي التفاعل ائتلافا واختلافا . بين بعدين أساسيين في كيانها هما : الموضع والموقع. كذلك استهدف في دراسته استكشاف السمات الأساسية للشخصية المصرية من خلال مقولتي : الزمان والمكان ؛فحاول الربط بين سمات هذه الشخصية وبين الأحداث التاريخية التي كانت عاملاً هاماً في ظهور هذه السمات، بالإضافة لبيانه لدور البيئة الطبيعية والجغرافية في تشكيل هذه السمات هي الأخرى.

أما عن المنهج الذي اتبعه فكان منهجاً تأملياً نظرياً تغلب عليه المعالجة الجغرافية ؛وذلك لأنه نظر للجغرافيا باعتبارها : علماً وفناً وفلسفةً : علم بمادتها، وفن بمعالجتها، وفلسفة بنظرتها.

وأكد " حمدان " في دراسته على : وجود درجة عالية من التجانس البشرى للشعب المصري والوحدة التاريخية لمصر، والتي ضاعفت بدورها من هذا التجانس، حتى قل أن يوجد شعب متماثل في ملامحه الجسمية والنفسية وفي مزاجه وتقاليده، أي في طابعه القومي مثل الشعب المصري.

كما رد حمدان الطغيان والبطش من جانب الحكام، والاستكانة والزلفى من جانب المحكومين إلى جذوره الأولى منذ عهد الفراعنة ؛فطبيعة البيئة الفيضية التي تمثلها مصر كانت تتطلب إقامة حكومة مركزية قوية تستطيع التحكم في مياه النهر، ومن ثم التحكم في البشر، وهذا بدوره أدى إلى طغيان الحاكم الذي تأله فيما بعد، كذلك فإن البيئة الفيضية خلقت مجتمعاً يلغى الفردية، ويفرض التنميط الجمعي والتعايش السلمي وغريزة القطيع، ويركز رقابة وسلطة الحاكم، مما جعل السلامة في الخضوع، وحول الفلاح المصري إلى وحدة ميكانيكية مسحوقة.

وتوصل كذلك إلى أن المركزية الصارخة طبيعياً وإدارياً، وغلبة البيروقراطية كانتا من أبرز ملامح الشخصية المصرية. وبالرغم من أهمية ذلك في بعض مراحل هذه الشخصية، إلا أنه ساعد على خلق روح التواكل والتكاسل والسلبية في السكان.

---

[1] جمال حمدان، شخصية مصر. الوسيط. دراسة في عبقرية المكان، القاهرة ، دار الهلال ، ٢٠٠١.

ومن الملاحظ على هذه الدراسة أن " حمدان " يربط بين الخصائص الإقليمية والجغرافية لمصر وبين خصائص الشخصية المصرية.

وحاول طاهر عبد الحكيم فى دراسته : الشخصية الوطنية المصرية، قراءة جديدة لتاريخ مصر [1]، قراءة تاريخ مصر في ضوء " تغير نمط الإنتاج " كأداة تحليلية، فالهدف الأساسى من هذه الدراسة لم يكن اكتشاف معطيات تاريخية جديدة بقدر ما كان يستهدف اختبار إمكانية إعادة قراءة تاريخ مصر بمنهج جديد وبفهم جديد للتاريخ، يسمح بالتعرف على الملامح الرئيسية لذلك التشكيل الاجتماعى التاريخى الذى نشأ فى وادي النيل منذ آلاف السنين، وتحديد عناصر الاستمرارية فيه والتعبيرات الثقافية عنه، وهو ما أصطلح على تسميته بالشخصية الوطنية المصرية.

وتوصل الباحث إلى أنه : بدراسة تاريخ مصر عبر مرحلتين رئيسيتين : ما قبل وما بعد ظهور الملكية الفردية يمكن تسجيل سمة أساسية لهذا التاريخ، وهى أنه عملية صراعية مستمرة ومتصلة الحلقات من أجل هدفين مركزيين :أولهما مجاهدة مصر لإعادة صنع نفسها، أو من أجل التطور الاجتماعى، وثانى هذين الهدفين هو الحفاظ على الشخصية الوطنية وتأكيدها، إما في مواجهة أريستوقراطية محلية تضع نفسها فوق الشعب من خلال انتماء تدعيه إلى السماء، أو في مواجهة أريستوقراطية أجنبية غازية.

وتوصل أيضاً إلى أن التاريخ الاجتماعى لمصر الحديثة هو تاريخ نمط مشوه من النمو الاجتماعى –الاقتصادى، وأن التاريخ السياسى لمصر الحديثة هو تاريخ النضال من أجل التحرر من هذا النمط الشائه من النمو، واستئصال مسببقه أى الهيمنة الأجنبية ووضع المجتمع على طريق النمو الطبيعى والصحى. ولذلك ظل الصراع على المستوى الوطنى، أى ضد النفوذ الأجنبى، ومن أجل تأكيد الذات الوطنية مستمراً كهدف لنضال الشخصية الوطنية المصرية بعد ظهور الملكية الفردية كما كان قبل ظهورها، هدفاً أساسياً.

وتأتى دراسة : نادية سالم : الصورة القومية للشخصية العربية والشخصية الإسرائيلية فى الصحافة الأمريكية (١٩٧٦) [2] كإحدى الدراسات المهتمة بدراسة الشخصية

---

(١) طاهر عبد الحكيم، الشخصية الوطنية المصرية، قراءة جديدة لتاريخ مصر، الكتاب الأول ، القاهرة، دار الفكر للدراسات، ١٩٨٦.

(٢) نادية سالم، الصورة القومية للشخصية العربية والشخصية الإسرائيلية فى الصحافة الأمريكية ،رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، ،كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ١٩٧٦

القومية في مجال السياسة. وهدفت هذه الدراسة إلى الكشف عن الصورة القومية للشخصية العربية والشخصية الإسرائيلية في المجتمع الأمريكي من خلال دراسة هذه الصورة في حالتها الحركية وبالقدر الذي يسمح بمعرفة التطور والتغير فيها.

و اعتمدت هذه الدراسة على إطار نفسي اجتماعي سياسي يعتمد على المنهج التجريبي والمنهج التحليلي بالإضافة إلى تحليل المضمون ودراسة الحالة كأدوات للبحث.

و كان من أهم نتائجها : إنها أكدت أثر الحروب على الصورة القومية ؛ فكان لحربي : ١٩٦٧، ١٩٧٣ دور كبير في تشكيل الصورة الأمريكية عن الشخصية العربية والشخصية الإسرائيلية ؛ فحرب العام السابع والستين أبرزت سمات غير طيبة للعربي مثل : (يشعر بالدونية . كاذب . إرهابي ومتخلف). وأبرزت سمات طيبة للإسرائيلي مثل: (شجاع. واثق من نفسه ومتحضر – تفكيره علمي ومنظم). بينما حسنت حرب ١٩٧٣ الصورة الأمريكية عن الشخصية العربية، فكانت سمات العربي : (واثق بنفسه وشجاع – منظم ومتدين – قومي). بينما كانت سمات الإسرائيلي (مضطهد – فاقد الثقة بنفسه – يشعر بالدونية ولديه إحساس بالعزلة).

كذلك أكدت هذه الدراسة أن التغير الذي طرأ على الصورة الأمريكية عن الشخصية العربية والشخصية الإسرائيلية لم يلغ كل جوانب الصورة القديمة .

وحاولت فاطمة حسين المصري في دراستها الشخصية المصرية من خلال دراسة بعض مظاهر الفلكلور المصري (١٩٨٤) [1] الوقوف على عوامل : الرتابة والثبات التي يتصف بها المجتمع المصري والتغير والتقدم الذي يجب أن يسعى إليه المجتمع المصري .

وحددت الباحثة هدف دراستها في : البحث عن ملامح عامة تكون تعبيراً عن الشخصية المصرية، وذلك من خلال دراسة بعض مظاهر الفلكلور، وتمثلت هذه المظاهر في : الموال والأغنية الشعبية والحكم والأمثال والقصة الشعبية والفكاهة.

وحاولت الباحثة عن طريق هذه الدراسة إيضاح الآثار النفسية والاجتماعية التي تلقيها تلك الفنون الشعبية على الشخصية المصرية، والتي تعتبر في الوقت ذاته نتاجاً لتلك الشخصية.

---

[1] فاطمة حسين المصري ،الشخصية المصرية من خلال دراسة بعض مظاهر الفلوكلور المصري. دراسة نفسية تحليلية أنثروبولوجية، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،١٩٨٤.

واستخدمت الباحثة المنهج الهيرمونيطيقى، والتفسير السيمنيطيقى للمادة الفلكلورية. واعتمدت على الخطوات التالية :

- الملاحظة العلمية المباشرة وغير المباشرة.
- المقابلة الشخصية.
- استخدام المنهج التاريخى.
- استخدام المنهج السيكولوجى.
- بالإضافة للدراسة الميدانية التى أجرتها الباحثة فى إحدى قرى محافظة الغربية.

و توصلت الباحثة فى دراستها إلى إن الكثير من الصفات التى تزخر بها الشخصية المصرية اتضحت ممثلة فى كل ضرب من ضروب الفنون الشعبية التى درستها الباحثة إلى الحد الذى يدعو للقول بوجود شخصية قومية مصرية.

كما خلصت إلى أن الشخصية المصرية ما هى إلا تركيب دينامى من عناصر متعددة اختلطت وتآلفت وفق أنماط معينة حتى انتهت إلى شكل خاص ذى حدود بنيوية متكاملة هو ما يطلق عليه أويعبر عنه بالشخصية المصرية أو الشخصية القومية.

واهتم محمد سمير عبد العزيز فرج فى دراسته : سيكولوجية الشخصية المصرية المعاصرة. دراسة فى الطابع القومى (١٩٨٨) [1] بالبحث فى المقومات الأساسية للطابع القومى والأبعاد النفسية البارزة التى تميز الشعب المصرى بصفة عامة عن غيره من الشعوب. من هذا المنظور يرى الباحث الشخصية المصرية من خلال كونها وحدة كلية، أو هى الجوهر السيكولوجى المشترك للشعب المصرى الذى يتمايز فى داخله إلى فئات متباينة.

وتمثلت أهداف هذه الدراسة فى : تحديد الأبعاد النفسية البارزة فى الشخصية المصرية المعاصرة من خلال إجراء بحث ميدانى، وتطبيق بعض الاختبارات النفسية المتنوعة. وكذا التحقق مما إذا كانت السمات النفسية لهذه الشخصية ذات أصول تاريخية، وظلت مستمرة فى حقب التاريخ المتعاقبة ، أم أنها سمات مستحدثة وعارضة. وأخيراً هدفت الدراسة لاستخلاص الصورة الكلية للشخصية المصرية بأصالتها ومعاصرتها من خلال تحليل نتائج البحث الميدانى لهذه الدراسة ونتائج

---

(١) محمد سمير عبد العزيز فرج، سيكولوجية الشخصية المصرية المعاصرة. دراسة فى الطابع القومى ،رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس، كلية الآداب، قسم علم النفس،، ١٩٨٨.

الدراسات السابقة ولبعض ما ورد فى أبرز المراجع الثقاة فى التاريخ والاجتماع والفن ...، هذا بالإضافة لكونها دراسة وصفية استكشافية تسع لوصف الطابع القومى للشخصية المصرية، فهى تحاول تحديد صورة نمطية للشخصية المصرية فى عقول المصريين بمعنى كيف يرى المصريون أنفسهم فى الماضى والحاضر وما هى الصورة التى يرغبون أن يكونوا عليها فى المستقبل.

واختار الباحث عينة لبحثه حاول أن تكون ممثلة للمجتمع، فاشتملت على : ذكور وإناث ومسلمين وأقباط وشباب وكبار سن وذوى مؤهلات : أقل ومتوسطة وعليا. وزاد مجموع العينة عن ثلاثمائة مفردة.

وتوصل الباحث إلى وجود بعض الجوانب السلبية فى الصورة الذهنية للشخصية المصرية لأهم قطاعاتها وهم الشباب، فكانت أهم الصفات السلبية (ضائع. تائه مظلوم. بلا هدف. غير مقدر للمسئولية. الكسل. الإهمال. التواكل).

كما أوضحت محصلة الاستجابات أن الشخصية المصرية تتجه ببصرها أكثر إلى الماضى، فالحاضر صعب بمشاكله الاقتصادية والمستقبل لايعد بالحل المأمول ولهذا فلم يبق سوى النكوص إلى الماضى البعيد. والحقيقة الواضحة أن الشخصية المصرية تئن من وطأة المشكلات الاقتصادية سواء فى واقعها أو فى صورتها الذهنية. وهذا الألم يتسبب أحياناً فى اضطراب الإدراك أو فى الخداع الإدراكى، وتكون النتيجة سلوكاً مشوشاً وانسحابياً، أوحتى مضاداً للمجتمع .

وتقع دراسة : محمد السيد عبد الوهاب، الشخصية المصرية فى الإبداع الفنى. دراسة تحليلية نفسية (١٩٩٦) [١] أيضاً فى نطاق الدراسات النفسية، وفيها حاول الباحث التعرف إلى الشخصية المصرية كما تظهر فى روايات نجيب محفوظ، وذلك باعتبار أن رواياته تصور أزمة الإنسان المصرى، ومعاناته فى القرن العشرين.

وشملت عينة الدراسة ثلاثة روايات هى : القاهرة الجديدة و ثرثرة فوق النيل، و الحرافيش. واستخدم الباحث منهج التحليل النفسى الكلاسيكى فى تفسير الأعمال الفنية، مع استخدام بعض إسهامات (جاك لاكان) فى تفسير النتائج التى حصل

---

(١) محمد السيد عبد الوهاب، الشخصية المصرية فى الإبداع الفنى. دراسة تحليلية نفسية، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس، كلية الآداب ، قسم علم النفس، ١٩٩٦.

عليها الباحث من خلال تفسير الروايات بالمنهج الكلاسيكى الفرويدى. وتمثلت أهم نتائج هذه الدراسة فى :

وجود عد د من الخصائص النفسية فى شخصيات الروايات الثلاثة التى تميز الشخصية المصرية، وتمثلت هذه الخصائص فى : الصراع الأوديبي – الدين – النرجسية – صورة الحب غير الناضجة – الرغبات الجنسية.

وأكد الباحث على وجود هذه الخصائص فى الروايات الثلاثة بتفاوت فى درجة التوحد. كما أكد على أنها لا تعنى وجود هذه الخصائص لدى جميع أفراد الشعب المصرى.

أما دراسة رفيق حبيب : الشخصية المصرية والتطور النفسى فى خمسين قرن (١٩٩٧)[١]

فتتناول الشخصية المصرية من منظور تطورى فى محاولة لتتبع البناء النفسى لها منذ فجر التاريخ وحتى الآن، فمن خلال التطور النفسى لهذه الشخصية يمكن معرفة مدى تفاعلها مع التقدم و التأخر، مع الاستعمار والاستقلال ومع الحضارات الوافدة والحضارة الأصلية. إذن ليس هدف هذه الدراسة – كمايقرربذلك صاحبها – تحديد ملامح الشخصية المصرية فى أكثر من عصر، بل إنه يهدف إلى دراسة التغير والتطور الذى طرأ عليها بدءاً من العصر الفرعونى وحتى القرن العشرين.

واختار الباحث الفن التشكيلى ليكون المادة التى يجرى عليها دراسته. فاختار عينات من العصر الفرعونى والرومانى واليونانى والقبطى والإسلامى ومن القرن العشرين.

واتبع طريقة تحليل المضمون فى دراسته. وحاول قياس أربعين سمة للشخصية المصرية، ووضع لها تعريفات محددة بطريقة نفسية.

وأوضحت هذه الدراسة : أن ملامح الشخصية المصرية فى معظمها مستمرة عبر كل هذه القرون. وأن المصرية تشمل : الفرعونية والقبطية والعربية الإسلامية إلى أن الفرعونية يمكن اعتبارها بحق الجذور. كما توصلت التاريخية أو المرحلة التاريخية الأولى للعربية الإسلامية، وأن النمط الفرعونى وذلك العربى من جذر واحد ولهما ملامح واحدة.

---

[١] رفيق حبيب، الشخصية المصرية والتطور النفسى فى خمسين قرن، رسالة دكتوراه منشورة، القاهرة مركز المحروسة للنشر، ١٩٩٧.

كما أوضحت الدراسة أن الرومانية واليونانية لم تكونا إلا استعماراً دخل مصر وخرج منها. لم يكن منها ولم تنتم إليه. وهما تمثلان نمطاً مختلفاً تماماً عن الفرعونية، مما يؤكد أننا لسنا شرق أوسطيين، ولا ننتمى للبحر المتوسط كما قيل.

ولاشك أن هذه النتيجة الأخيرة تقف فى تباين واختلاف تام مع ما قال به طه حسين فى كتابه "مستقبل الثقافة فى مصر"، الذى يرى فيه أن هناك صلاتٍ وروابط تمتد بين مصر وحضارة وبلدان البحر المتوسط، إلى الحد الذى يدعو فيه بأننا جزء من هذه البلدان.

وأخيراً خرجت الدراسة بنتيجة تؤكد على أننا نعيش فى محيط حضارى متجانس يمثل تجربة ممتدة عبر التاريخ. تجربة أظهرت نفسها فى إبهار فرعونى وإنجاز عربى إسلامى، وهو ما يؤكد أن مكونات الشخصية المصرية هى مراحل فى التاريخ لنفس الحضارة ونفس القيم والملامح. و أن النتاج النهائى هو خلاصة الاستمرار عبر العصور، مع تميز كل عصر فى حدود لاتنفى التواصل بل تؤكده.

وتقع دراسة : أحمد زايد : المصرى المعاصر [*] : مقاربة نظرية إمبريقية لبعض أبعاد الشخصية القومية المصرية (١٩٨٩) [1] فى نطاق الدراسات الاجتماعية التى حاولت إخضاع بعض الأطروحات التي ظهرت حول الشخصية المصرية، والتي أصبحت شائعة ومقبولة للاختبار الإمبريقى مثل(السلبية - التواكل - الشك - التدين - الصبر – الفكاهة – المدح – التفكير الخرافي – العلاقة بالسياسة)

وعلي ذلك فقد هدفت الدراسة إلى كشف الغموض الذي يكتنف بعض التفسيرات التي طرحت حول الشخصية المصرية والمتعلقة ببعض خصائصها.

---

* تجدر الإشارة إلى أن اعمال سيد عويس هى الأخرى تقترب فى تحليلاتها المختلفة من بعض خصائص الشخصية المصرية ؛ فدراساته فى أكثرها تقوم على تحليل ظواهر ثقافية واجتماعية تميز المجتمع المصرى بخصوصية فريدة من نوعها. ومن هذه الدراسات على سبيل المثال : ـ رسائل إلى الإمام الشافعى ، و الخلود فى التراث الثقافى المصرى ، والإبداع الثقافى على الطريقة المصرية ، والازدواجية فى التراث الدينى المصرى. ويمكن الرجوع فى ذلك إلى :

ـ سيد عويس ، الأعمال الكاملة ، المجلد الأول ، القاهرة ، مركز المحروسة ، ١٩٩٨.

(١) أحمد زايد، المصرى المعاصر ، مرجع سابق.

أما الإجراءات المنهجية المستخدمة في تلك الدراسة فتمثلت في : اختيار الخصائص التي سوف تجري عليها الدراسة و استخدام أداة الاستبيان في جمع البيانات.

ومن أهم نتائج هذه الدراسة : إن السمات والخصائص التي خضعت للبحث والدراسة (السلبية – التواكل - الشك - التدين - الصبر ..إلى غير ذلك من صفات) والتي تميز بها سلوك المصري وأفكاره واتجاهاته ، ليست موجودة بنفس القدر لدي كل المصريين ، الأمر الذي يؤكد على مفهوم الطبقة في تحليل هذه السمات. كذلك أكدت هذه الدراسة على أنه يجب فهم السمات المحددة للشخصية القومية فى ضوء متغيرات بنائية واسعة النطاق، وهذا ما حاولته هذه الدراسة، حينما اتجهت إلى تفسير هذه السمات من خلال تطور بنية المجتمع المصرى عن طريق الربط بين تناقضات عناصر هذه البنية وبين التناقضات التى ظهرت فى الشخصية المصرية كنتيجة وأثر لها .

وتعتبر دراسة : السيد يس، الشخصية العربية بين صورة الذات ومفهوم الآخر (١٩٩١)[١] من الدراسات الاجتماعية التى تناولت البحث فى الشخصية المصرية من خلال البحث فى الشخصية العربية . وهى دراسة تقييمية بالدرجة الأولى، حاول الباحث تحديد معالم الشخصية العربية من خلال تقييم التراث الخاص بدراسات هذه الشخصية فى الفترة التى أعقبت هزيمة الخامس من يونيو، و التى حاولت توصيف أسباب الهزيمة، حيث قسم هذا التراث إلى فئتين : فئة الكتابات العربية حول الشخصية العربية، و فئة الكتابات الإسرائيلية حول الشخصية العربية . وكان التساؤل الرئيس لها : ما الذى يجمع أو يفرق بين المفهوم الإسرائيلي للشخصية العربية، وبين المفهوم العربى لها ؟

وسعى الباحث إلى التركيز على المتغيرات الاجتماعية النفسية الأساسية التى اعتمد عليها الباحثون الإسرائيليون والمثقفون العرب فى تحليليهم لأسباب هذه الهزيمة، وطرق تجاوزها . وشملت هذه المتغيرات من وجهة نظره :

- الشخصية القومية العربية.
- نوعية بناء المجتمع العربى.
- مشكلة تحديث العالم العربى.

---

(١) السيد يس ، الشخصية المصرية بين صورة الذات ومفهوم الآخر، مرجع سابق.

وكانت أهم ما توصل إليه من نتائج : إن المحاولات التأملية وكذلك البحوث الميدانية فى هذا الموضوع لم تسطع أن تضع يدها على الملامح والقسمات الحقيقية للشخصية العربية ؛ فهذه المحاولات تزدحم بالتعميمات الجارفة بغير سند من الوقائع المحققة، و بدون الاستناد إلى بحوث ميدانية تعتمد فى جمع بياناتها على عينات قومية.

وانطلقت دراسة : حنان محمد حسن سالم، البناء الاجتماعى وأنماط الشخصية المصرية. دراسة تحليلية للفترة من ١٩٧٠ - ١٩٩٠ وبحث ميدانى لعينة من المجتمع المصرى (١٩٩٧) [١] من مقولة مؤداها : إن المجتمع المصرى بكل أنظمته الاجتماعية تعرض لتغيرات هامة خلال الفترة من ١٩٧٠ - ١٩٩٠، بعد أن شهدت مصر تغيراً وتحولاً شاملاً فى توجهاتها العامة على الصعيدين الداخلى والخارجى. ونظراً لطبيعة العلاقة الجدلية بين الفرد والمجتمع، فقد انعكست هذه التحولات البنائية الشاملة على مختلف جوانب الشخصية المصرية. وعلى ذلك سعت هذه الدراسة للإجابة على التساؤل التالى :

إلى أى مدى سادت الطموحات الشخصية الفردية على الطموحات العامة بالنسبة للمجتمع لدى مختلف الفئات الاجتماعية، وهل توجد فروق فى ذلك بين فئة اجتماعية وأخرى ؟ وهل يختلف مضمون الطموحات الشخصية ومضمون الطموحات الاجتماعية من فئة اجتماعية لأخرى ؟

واعتمدت الباحثة على المقابلة المفتوحة مع المبحوثين الذين شملتهم عينة الدراسة، والممثلة للفئات التالية:

- أساتذة الجامعة : بوصفهم يمثلون قمة الهرم الاجتماعى.
- الموظفون : بوصفهم يمثلون ذوى الدخل المحدود من الطبقة الوسطى والمتأثرين بسياسة الانفتاح الاقتصادى.
- الحرفيون : بوصفهم يمثلون همزة الوصل بين الأثرياء والفقراء.

---

(١) حنان محمد حسن سالم، البناء الاجتماعى وأنماط الشخصية المصرية. دراسة تحليلية للفترة من ١٩٧٠ – ١٩٩٠، وبحث ميدانى لعينة من المجتمع المصرى، رسالة ماجستير غير منشورة ،، جامعة عين شمس، كلية الآداب ، قسم الاجتماع، ١٩٩٧.

وتوصلت الباحثة فى دراستها إلى أن المجمل العام لطموحات عينة الدراسة ا نحصر فى مجرد إشباع الحاجات الأساسية المتمثلة فى ضمان الحصول على : رغيف الخبز، وتنقية مياه الشرب، وتوفير المسكن، وتحقيق العدالة الاجتماعية فى الصحة والعلاج والتعليم وتوزيع الدخل.

وكان من أهم طموحات العينة التخلص من السلبية واللامبالاة التى أصبحت تسم السلوك المصرى فى كثير من الأحيان. وجاءت الطموحات أيضاً تؤكد على ضرورة التخلص من كافة صور الفساد فى الشارع المصرى وفى الجامعة وفى كافة الأجهزة الحكومية والهيئات المختلفة، فى مقابل تدعيم القيم الإيجابية : قيم الحب والتواصل بين الناس، والقيم الاجتماعية التى تعلى من شأن المصلحة العامة على المصلحة الخاصة.

وأوضحت الباحثة أن دائرة طموح المواطن المصرى لم تتسع لتشمل طموحات تتعلق بحقه فى اتخاذ القرارات المصيرية أو حتى المشاركة فى اتخاذها، وحريته فى اختيار من يمثله أو ينوب عنه بناءًعلى معايير وأسس موضوعية بعيدة عن سيطرة العوامل العاطفية والانفعالية .

وأجرت عزة عزت دراسة حول لغة الشارع والتحولات فى الشخصية المصرية (٢٠٠٠) [١]

وفيها حددت الباحثة مجموعة من الأمثال الشعبية والأقوال التى تحفظها أو تسمعها مع التركيز على الأمثال الأكثر شيوعاً بين الناس في المواقف المختلفة، وقامت فيما بعد، بتحليل محتوى هذه الأمثال. وذلك تمهيداً لدراسة سمات الشخصية المصرية المختلفة تبعاً للنتائج المستخلصة من عملية تحليل هذه الأمثال .

وخرجت هذه الدراسة بعدة نتائج منها : إن الشخصية المصرية المعاصرة لم تعد تتمتع بكل السمات الأصيلة التي طالما اتسمت بها عبر العصور ؛ إذ اعتراها كثير من التحولات ، التي يعد بعضها تحولا جذريا لابد من الانتباه له ، ومحاولة التصدي له ؛ حتى لا يتعمق أكثر ويسود بين العامة والخاصة، أو يسود مصر كلها بريفها وحضرها وبطبقاتها وفئاتها المختلفة.

---

[١] عزة عزت، لغة الشارع والتحولات فى الشخصية المصرية، القاهرة ، دار الهلال،، ٢٠٠٠.

وكذلك توصلت إلى أن المصطلحات والتعبيرات الشعبية المستحدثة تعبر عن مظاهر آنية نستشعر وجودها جميعا وإن كانت لها جذور في الماضي، ولذلك تؤكد الباحثة أنها تعكس سمات السلبية وعدم الانتماء والمادية ....إلى غير ذلك .

من خلال العرض السابق لهذه الدراسات يتضح أنها على كثرتها وتنوعها، انقسمت ما بين دراسات وتحليلات انطباعية تعتمد على الطابع التأملي النظرى كما جاءت فى كتابات الرحالة والمؤرخين وبعض الدراسات الحديثة، ودراسات حاولت ان تقوم على منهج علمي محدد الخطوات وتمثل هذه قلة من الدراسات ، حيث تعتمد على بيانات واقعية مستمدة من واقع الشخصية المصرية ذاتها .

كما أنها اختلفت فيما بينها فيما يتعلق بالمداخل التى انطلق منها الباحثون فى دراساتهم ، وبالتالى كان هناك اختلاف فى رؤيتهم لخصائص هذه الشخصية.

ويغلب على هذه الدراسات طابع التعميم فيما تطرحه من خصائص تتفرد بها الشخصية المصرية فى الفترات التاريخية المختلفة ، دون أن تضع فى اعتبارها أثر التغيرات الداخلية والخارجية التى تعرضت لها الشخصية المصرية ودورها فى تشكيل هذه الخصائص أو فى ظهور خصائص جديدة أو حدوث تغير فى مضمون بعض منها .

وعموما يمكن القول : إن عملية إنتاج خصائص معينة للشخصية المصرية ، سواء أكانت إيجابية أم سلبية لا يمكن ردها لعامل واحد أياً كان تأثير هذا العامل ، بل إن هناك مجموعة من العوامل تساعد في تشكيل هذه الخصائص وطبعها بطابعها الخاص المميز. فليس الاستعمار وحده أو البيئة الجغرافية وحدها أو العوامل الوراثية وحدها العامل الوحيد في خلق وتكوين هذه الخصائص.

وحتى يتسنى تقديم رؤية أعمق فيما يتعلق بهذه الخصائص ، تعرض الدراسة في المحور التالى للاستمرار والتغير في هذه الشخصية.

رابعاً : الاستمرار والتغير في الشخصية المصرية :

لا شك أن الاستمرار أو التغير فى البناء الاجتماعى له دوره الهام فى الحفاظ على بعض خصائص الشخصية المصرية واستمرارها أو تغيرها . وهنا يثور تساؤل : هل حققت الشخصية المصرية عبر تاريخها الطويل استمراراً ما ، أم أنها تغيرت ؟ وبمعنى آخر هل هناك شخصية مصرية واحدة منذ بداية التاريخ حتى الآن ؟ أم أنها متغيرة

ومتعددة بتعدد مراحلها التاريخية ؟ وهذا السؤال بدوره انقسم حياله المفكرون والدارسون إلى عدة اتجاهات :

فهناك اتجاه يؤمن أصحابه بوحدة الشخصية المصرية ، ويرى هؤلاء أنه منذ بداية التاريخ القديم لم يعرف وادي النيل سوى شخصية واحدة ، والتى قد تتلون في بعض مراحل وجودها . ولكن حقيقتها وطبيعتها وسماتها واحدة. وفى مقابل هذا الاتجاه يوجد اتجاه ثان ، يرفض هذه الوحدة ، ولا يرى فيها سوى أسطورة من صنع الخيال ، فمصر الفرعونية ليست هى مصر القبطية ، ومصر العربية لا صلة لها بمصر الفرعونية. كما يوجد اتجاه ثالث يأخذ موقفاً وسطاً بين الاتجاهين السابقين ، فيسلم بوحدة العناصر المادية التى تقوم عليها الشخصية المصرية ، وهو ما يقوله أنصار الاتجاه الأول ، ولكنه يسلم أيضاً بانقطاع العناصر الحضارية التى تشكل تلك الشخصية ، وهو ما يرفضه الاتجاه الأول ويدافع عنه أنصار الاتجاه الثانى وأخيراً يوجد "اتجاه رابع يرفض مناقشة الموضوع على مستوى الشخصية المصرية ، ويقتصر على تحليل ما يسميه العقاد الطبيعة المصرية. " [1]

وبداية يقول حسين مؤنس مؤكداً على الاستمرارية في تاريخ هذه الشخصية : " لعل بلداً من بلاد الأرض لاتصدق على حضارته صفة الاستمرار كما تصدق على مصر ؛ فمصر التى ولدت منذ نحو سبعة الآف سنة ما زالت هى بعينها اليوم. وهذا هو سر مصر قديمة وحديثة وهى مصر الخالصة الصافية التى أنشأها أبناؤها بجهدهم وفهمهم وعقيدتهم قبل أن يختلطوا بغيرهم. وقارئ التاريخ لو فتح كتاباً لوجد مصر في المطلع." [2]

وحول نفس المعنى يتحدث لطفى السيد قائلاً : " نحن فراعنة مصر ، ونحن عرب مصر ، ونحن مماليك مصر وأتراكها . نحن المصريون دائماً ، فما نحن تحت حكم العائلة الخديوية إلا نحن تحت حكم العائلة الفرعونية أو ما قبلها بشيء من التطور الزمنى الذى قضى به التغير العالمى المستمر ، حافظين الكثير مما ورثناه من آبائنا الأقربين والأبعدين. كل هذه المشخصات القومية المادية والمعنوية ، الموروثة والمكتسبة من شأنها أن تجعل بيننا رابطة الجنسية أقوى منها في أكثر الأمم .... إن العوامل

---

[1] عبداللطيف خليفة. شعبان جاب الله رضوان ، الشخصية المصرية : الملامح والأبعاد، القاهرة، دار غريب للطباعة، ١٩٩٨ ، ص ٦٦.

[2] مصطفى نبيل ، مصر في فكر العالم ، القاهرة ، كتاب الهلال ، دار الهلال ، ٢٠٠٢ ، ص ٢٣.

الموضوعية ، عوامل الإقليم والقرابة والنسب هى أم هؤلاء المصريين على السواء ، الأبيض منهم والقمحى والأشقر والأسمر. كل أولئك أبناء مصر ، منافعها فى جيوبهم ، وهمومها على مناكبهم ؛ لأنهم جميعاً هم المصريون. " (١)

وفى هذا الشأن يرى حسين فوزى أن : " حقيقة التاريخ المصري هى أنه قصة واحدة طويلة ، تدور حوادثها حول أشخاص عديدين ، من جنسيات ولغات وعقائد مختلفة ، ولكن بطلها واحد ، هو الشعب المصري.... فمعجزة هذه الشعب ليست في الحضارة التى وهبها للعالم فحسب ، وإنما في أن يظل الشعب حياً متمكن الشخصية، لايفنى في غزاته ومستغليه .... فالشعب المغلوب على أمره ، انتصر دائماً على ظلمته ، ولو بعد حين ، إذ لم يستطع حكامه أن يخدعوه طويلاً ، بل هو الذى خدعهم في نفسه ، وعانى ذلهم وظلمهم ، ليحتفظ لنفسه بأعز ما يملك – عبر الآف السنين – ألا وهى إنسانيته المتحضرة ،. وشخصيته المتكاملة. " (٢)

ولعل ذلك ما قصده " سمير أمين " حين رأى أن أهم ما يميز مصر عن بقية الأقطار العربية ، أنها بفضل شخصية أبنائها الأصليين – ويقصد بهم الفلاحين – وثقلها النوعى ، ظلت وحدة على درجة عالية من التماسك ، وهو ما يجعلنا نستطيع التحدث عن " الأمة المصرية " في أى فترة من فترات التاريخ المصري. (٣)

ويقترب عاطف وصفى من هذه القضية ، فيحاول تحليلها في ضوء فهم محدد لثبات هذه الشخصية ، وهو يقرر أنه : " توجد مشكلة الثبات النسبى للشخصية القومية عبر الزمان. وقد أدى وجود تلك الخاصية أن اعتقد بعض البحاث أن المصري اليوم هو صورة مطابقة للمصرى القديم ، وبالتالى يهملون من تاريخ مصر آلاف السنين ، وما صاحبها من أحداث ثقافية واجتماعية كبرى أدت إلى تغير كامل في ثقافة المجتمع المصري ، وفى بنائه الاجتماعى، وبالتالى في الشخصية المصرية... ويجب

---

(٣) دوفان قرقوط ، تطور الفكرة العربية في مصر (١٨٠٥ – ١٩٣٦) ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٢. ص ٢٣٧.

(١) حسين فوزى ، سندباد مصرى. جولات في رحاب التاريخ ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧ ، ص وص ١١٨ ، ١٤٤ ، ١٤٦.

(3) Samir Amin , The Historical Foundations Of Arab Nationalism , In : Saad Eddin Ibrahim & Nicholas S. Hapkins, Arab Society , Social Science Perspectives , Cairo , The A.U. c. Press , Second Printing , 1987 , P 30.

ملاحظة أن الشخصية هى صيغة كلية متكاملة ، ويجب أن تدرس على هذا الأساس ، ولا يمكن دراستها بصورة تجزيئية لتتبع الأصل التاريخى لبعض أبعادها .. " (١)

ما يركز عليه " وصفى " هنا هو الثبات الذى تتسم به الشخصية المصرية ، لكنه يعتقد – في ذات الوقت – أنه ثبات نسبي. ولا يعنى ذلك في نظره التصلب والجمود وعدم إمكانية التغيير ؛ فتغير الشخصية المصرية حقيقة تاريخية واقعية ، تؤكدها صفة الكلية التى تميز الشخصية القومية لأي شعب من الشعوب.

ويتناول " أنور عبد الملك " مسألة الاستمرار والتغير في الشخصية المصرية من خلال نظرته للشخصية القومية عموماً ، فاستمرارية هذه الشخصية في رأيه تقوم على وحدتين هامتين:

الأولى : الوحدة الاقتصادية والجغرافية.

والثانية : الوحدة اللغوية والسيكولوجية.

وعما إذا كانت هاتان الوحدتان قد حققتا الاستمرار لهذه الشخصية عبر مسيرتها التاريخية ، أم أن انقطاعاً حدث بالفعل يعتقد "عبد الملك" . " أنه لابد من تواصل الوحدتين معاً . وبالرغم من أن حملات الغزو والفتح والاستعمار لم تنجح في تفتيت وحدة الشعب المصري من الناحيتين الجغرافية والاقتصادية ، إلا لأنها نجحت في تحطيم آداة الوحدة الحضارية وتكسير مرآة وجداننا القومى – اللغة – وأصبح لشعب مصر بعد الهيروغليفية لغة يونانية حتى عهد البطالسة ، والقبطية في عهد المسيحية ، ثم العربية في عهد الفتح العربى ، وقد طعمها الأتراك بالعديد من مصطلحاتهم فيما بعد ... إن التناقض في تكوين الشخصية المصرية بين استمرار عناصرها الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية من ناحية ، وزوال عناصرها اللغوية والسيكولوجية – أى الحضارية – من ناحية أخرى هو الذى يفسر ظاهرة عدم اتصال الشخصية المصرية الذى يعتبر من معالم أزمة الفكر في مصر . " (٢)

وتأخذ قضية الاستمرار في الشخصية المصرية ، منحىً أخر عند " ميلاد حنا " ؛ وهو يتناولها من خلال ما يمكن أن يطلق عليه " مبدأ التراكمية التاريخية " ، بمعنى

---

(٣) عاطف وصفى ، الثقافة والشخصية. الشخصية المصرية التقليدية ومحدداتها الثقافية ط٢ ، القاهرة ، ، دار المعارف ، ١٩٧٧ ، ص ٢٢٤.

(١) أنور عبدالملك ، مرجع سابق ، ص ٥٨.

أنه يرى أن هذه الشخصية غنية بالانتماءات التى تراكمت عبر الزمان وبتأثير المكان ، فمع توالى الأزمنة التاريخية المختلفة تأثر المصري برقائق متعددة لحضارات مختلفة ، وهو يعدد تلك الرقائق في: الحقبة الفرعونية ، والحقبة (اليونانية — الرومانية) ، والحقبة القبطية المسيحية ، والحقبة الإسلامية. وعن هذه الرقائق من الحضارات الأربعة يقول إنها : " متصلة ومتداخلة، كما أنها رقائق شفافة غير معتمة، تركت بصماتها على الهوية المصرية، وأعطت الشخصية المصرية هذه النكهة الخاصة ، بل هذا التفرد غير المتكرر ، والذى وفر للمصرى السماحة وقبول الآخر. " [١]

وإذا كان " ميلاد حنا " يعدد هذه الرقائق الحضارية تبعاً للبعد الزمنى / التاريخى ، فإنه كذلك يرى ثلاثة أعمدة أخرى للشخصية المصرية تبعاً للبعد الجغرافى / المكانى ، فنجده يربط مصر بكل من حضارة البحر المتوسط وبالعالم العربى ، وبإفريقيا ، لتكون المحصلة النهائية لهذا المبدأ التراكمى سبعة أعمدة يقوم عليها بناء الشخصية المصرية. وفى ذلك يرى : " إن هذه الأعمدة السبعة داخلة في التركيبة الإنسانية لكل مصرى ، ولكنها منطقياً وطبيعياً ليست أعمدة متساوية في الطول والقصر والمتانة ، وإن إحساس المصري بهذه الانتماءات يختلف من شخص لآخر. بل يختلف داخل نفس الفرد من مرحلة لأخرى. " [٢]

وحول نفس المعنى الذى يجمع عدة أبعاد للشخصية المصرية ، ودور هذه الأبعاد في تكوينها يذكر "جمال حمدان " في مؤلفه " نحن وأبعادنا الأربعة " :

" إن مصر تظل في النهاية هى مصر. وتظل بوصلتها هى المصرية ، فمصر أرضاً وشعباً وحضارةً وسكاناً ، ورغم كل الخيوط والخطوط المشتركة التى تربطها بأبعادها القارية ، لاهى إفريقية تماماً وإن وقعت فيها ، ولا هى أسيوية تماماً وإن لاصقتها ، ولا أوروبية تماماً وإن واجهتها . إنها تنتمى إلى كل هذه الآفاق دون أن تكون هناك تماماً ، بل تظل في النهاية مصرية : تأصيلاً وتطويراً. " [٣]

ثمة تحليل آخر ، لا يقنع صاحبه بمجرد القول باستمرارية أو تغير الشخصية المصرية من خلال المراحل التاريخية في خط عمودى ، لكنه يقترب من هذه المسألة عبر

---

[٣] ميلاد حنا، الأعمدة السبعة للشخصية المصرية، القاهرة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٩، ص ١٣.
[١] المرجع السابق ، ص ٢٦.
[٢] جمال حمدان ، نحن .... وأبعادنا الأربعة ، القاهرة ، مكتبة مدبولى ، ١٩٩٣ ، ص ١٦٧.

مفهوم مغاير ألا وهو مفهوم " أركيولوجيا الشخصية المصرية ". يطرح عودة هذا المفهوم مقدما من خلاله افتراضا أساسيا مؤداه : أن هناك خصوصية تسم التطور التاريخى والاجتماعى لمصر ، وتتمثل هذه الخصوصية في أن المجتمع المصري لم يشهد في تطوره انقطاعات أو تغيرات نوعية على صعيد البنية الاجتماعية الاقتصادية ، رغم التحولات التى طرأت على الصعيد السياسى والثقافى (نظام الحكم – الدين – اللغة) ، وبصفة خاصة في حقبة ما قبل التغلغل الرأسمالى ... لقد كانت الدولة والطبقة الحاكمة تتغير من حيث الشكل أو البنية ، لكن الوظائف أو المضامين ظلت هى نفسها تقريباً . " أى أن الاستمرار كان سمة مضمون ووظائف العملية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، في حين انصب الانقطاع والتغير أساسا على الأشكال والبنى ؛ بمعنى أن التراكم في تاريخ مصر ما قبل الرأسمالية كان كمياً وليس نوعياً . مع التغلغل الرأسمالى و الاستعمار لم تحدث قطيعة جذرية بين الأساليب الإنتاجية التى تطورت ، وبين ما كان قائماً قبلها ، فأصبحت القشرة الرأسمالية لا تنفى المضمون السابق عليها . هذه الحقيقة التاريخية تقتضى معالجة المستويات الثقافية – الأيديولوجية – السيكولوجية بوصفها محصلة لأبنية فوقية ترتبط بأساليب إنتاجية متعددة ومختلفة الأصول التاريخية.."[1] وبهذا المعنى ، فإن الشخصية المصرية ليست مجرد تراكمات تاريخية متوالية في تتابعها، بقدر ماهى كل معقد ومتفاعل ومتناقض.

ويلخص زكى نجيب محمود موقفه من هذه القضية فيذكر أن فكرة الدوام والاستمرارية كامنة في كل أمور المصري ، بشكل ظاهر أو بشكل خفي ، فالدوام هو المعيار الذى يأخذ به المصري سواء في التغير الذى يقبله أو في التغير الذى لا يقبله ، فما جاء على الأطر العميقة لحياة المصري ، بحيث لا يفيد ولا يضر ، قبله . وأما ما جاء ليهدم هذه الأطر فهو مرفوض[2] .

خامسا : مستخلصات عامة :

وعلى ضوء العرض السابق لمجموعة القضايا المتعلقة بإشكالية الشخصية المصرية ، نحاول فيما يلى تحديد موقفنا من هذه القضايا ، كخطوة تمهيدية تمكن فيما بعد من إتمام حلقات الدراسة التالية . وفى ذلك يمكن الوقوف على المحددات الآتية :

---

(١) فتحى ابو العينين، الثقافة والشخصية، مرجع سابق، ص ص ٢٩٥ – ٢٩٦

(٢) زكى نجيب محمود ، هذا العصر وثقافته ، مرجع سابق ، ص ١٤٤ .

١ - بالنسبة لمفهوم الشخصية القومية : وبالرغم من الجدل الواسع فيما يختص بدراستها ، فإننا تتفق مع الرأى الذى يتبناه " السيد يس " في دراسته حول " الشخصية العربية بين مفهوم الذات وصورة الآخر " ، حيث يرى أنه لكى يمكن لبحوث الشخصية القومية أن تحقق الآمال المعقودة عليها ، فإنه لابد أن تتوافر فيها عدة شروط يمكن إجمالها في :

أ - تحديد المفهوم الذى سيعتمد عليه الباحث من بين المفاهيم المتعددة السائدة في الميدان ، أو أن يقدم تعريفاً واضحا للشخصية القومية إن رفض كل هذه المصطلحات ، وأراد أن يبدأ بداية جديدة ، حتى يمكن تقييم نوعية البيانات التى يعتمد عليها ويصدق تفسيره لها . وفى هذا الشأن ، فإننافى هذه الدراسة بعد استعراض عدد من التعريفات والمفهومات الخاصة بالشخصية القومية ، اخترنا تعريفاً خاصاً للشخصية القومية ، يتفق وهدفها العام ، كما سبق ذكره في الجزء المتعلق بمفهوم الشخصية القومية من هذا الفصل.

ب — وإذا كان السيد يس يرى ضرورة تحديد المتغيرات الرئيسة التى سيبنى عليها الباحث دراسته ومناقشاته تحديداً دقيقاً ، فهذا أيضاً ما حاولنا تحقيقه ، فلم تكتف بتحديد مفهوم للشخصية القومية فقط ؛ولكننا حاولنا كذلك التفرقة بين هذا المفهوم ،وما قد يتداخل معه من مفاهيم أخرى مثل : القومية والهوية. أما باقى متغيرات الدراسة كالشخصية المصرية تحديداً ، ومفهوم الآخر فقد أوضحنا المقصود بكل منها كل في موضعه والسياق العام الخاص به.

جـ - وإذا كان — طبقا لرأى السيد يس - على الباحث أن يحدد مجال تطبيق مفهوم الشخصية القومية ، وأن يفرق بينه وبين مفهوم الشخصية الاجتماعية الذى يقتصر على دراسة طبقة أو أخرى من طبقات المجتمع فإن الدراسة الراهنة تحاول البحث فى كل من هذين التصنيفين للشخصية كل على حدة.

د - تحديد المجال الزمنى الذى يطبق فيه الباحث مفهوم الشخصية القومية، بعبارة أخرى على الباحث أن يتخذ موقفاً من قضية استمرار هذه الشخصية أو انقطاعها أو تغيرها ، وفى هذا فإن الدراسة حددت الفترة مابين عامى ١٩٥٢ و ٢٠٠١ مجالاً زمنيا لها.

هـ - غير أن الأهم من ذلك كله، أنه لا يجوز للباحث أن يتحدث عن شخصية قومية بغير أن يقارن بياناته ببيانات عن شعوب أخرى ؛ حتى لا يكون البحث مجرد صورة معدلة من التفكير من خلال الأفكار النمطية الثابتة. وهذا ما تحاوله هذه الدراسة عبر المقارنة بين الشخصية المصرية وصورة الآخر الغربى كما صورتها النصوص الروائية .

٢ - وفيما يتعلق بمفهوم الشخصية المصرية وماهيتها، فمن خلال العرض الخاص بها، وما تثيره من جدل حول مراحل تطورها وتحولها من فترة تاريخية لأخرى، فإن الدراسة تتعامل معها على أنها : نمط الشخصية الذى انتشر في الفترة موضوع البحث، بما يحمله من خصائص ومواقف سلوكية قد تختلف أو تتفق مع مراحل سابقة أو لاحقة على هذه الفترة، مع الأخذ في الاعتبار أن خصائص هذه الشخصية وسماتها قد تكون واحدة من حيث التنظير، لكن ربما يطرأ عليها بعض التغير نتيجة ظروف بعينها في فترة تاريخية محددة، دون أن يلغى ذلك الإطار العام لهذه الشخصية

وهكذا، حاولت الباحثة فى هذا الفصل إلقاء الضوء على الشخصية المصرية كإشكالية تثير الكثير من القضايا عند محاولة دراستها، وذلك بهدف تحديد بعض المنطلقات العامة التى تساعد فيما بعد فى الكشف عن صورة هذه الشخصية فى النصوص الروائية.

ولما كانت الدراسة تتعامل فى جانب منها مع متغير آخر فى ارتباطه بالشخصية المصرية، وأقصد به الآخر الغربى، فإن الإحاطة بالجوانب المختلفة المتعلقة به تعد خطوة ضرورية قبل البدء فى عملية التحليل الفعلى للنصوص الروائية، وهو الهدف الذى يسعى الفصل القادم لتحقيقه.

الفصل الثاني

الآخر

السؤال والهوية



تمهيد :

ومنذ البداية ، وحتى يمكن إزالة ما قد يبدو إبهاماً أو غموضاً بشأن هذا المفهوم " الآخر" ، فإننا نعلنه" آخر غربي " كما يتمثل في الوعي المصري المعاصر . من هذا المنظور وفي إطار ما يشكله هذا " الآخر " بالذات من تحديات ، يصير السؤال عنه واقعاً ملحاً ، ويصبح التعرف إليه" كذات " أمر ضروري ، حتى يمكن فهمه بصورة تسهم في بلورة صورة واقعية له، خاصة في ظل اختلاف المواقف وتعددها بالنسبة له .

وعلى ذلك فهناك جملة من المساءلات التي تشكل الإجابة عليها المسعى الحقيقي لهذا الفصل ؛ ففي البداية يكون السؤال عن هوية هذا الآخر ، فنتعرف على حدوده والتنويعات المختلفة التي يمكن أن يضمها هذا المفهوم بوجه عام . كذلك التعرف على جوانب الخلاف التي على أساسها يمكن التمييز بين الذات والآخر ، ثم التعرف على الكيفية التي من خلالها يتشكل جدل كل منهما ، يأتي بعد ذلك عرض للصورة التي يكونها كل طرف عن الطرف الآخر عبر الكتابات والإسهامات الفكرية الخاصة بهذا الموضوع ، والدراسة في ذلك غير غافلة عن التعرض لمحددات هذه الصورة ، سواء فيما يتعلق بعواملها وظروف تشكلها أو نتائجها .

وعلى ذلك ، وفي صياغات مكملة لبعضها البعض يضم هذا الفصل العناصر التالية :

أولاً : تنويعات حول مفهوم الآخر .

ثانياً : في جدل الذات والآخر ... رؤية اجتماعية .

ثالثاً : صورة الآخر الغربي بين التحليلات الانطباعية والدراسات العلمية.

رابعاً : صورة الشخصية المصرية في الفكر الغربي .

خامساً : محددات الصورة لكل من الشخصية المصرية والأخر ..... عواملها وظروف تشكلها .

سادساً : مستخلصات عامة .

أولاً : تنويعات حول مفهوم الآخر :

وإذا كانت عملية الاتصال بين البشر هي التي تجعل من الممكن قيا م مجتمع ما وتجعل الإنسان حقا إنسان فإنه لكي تتم هذه العملية لابد من الأخذ في الاعتبار الدور الذي يلعبه الآخر فيها ، وهذا ما أكده "جورج ميد " فهو يري" أننا لا شعوريا

بدرجة كبيرة كانت أم صغيرة نري أنفسنا كما يرانا الآخرون . وهو ما أكده أيضاً تشارلز كولى حينما رأى أننا نرى أنفسنا من خلال عيون الآخرين[(١)] .

هكذا يطرح الآخر نفسه " ليس كمشكلة نظرية فحسب ؛ بل أيضاً كمشكلة عملية واقعية ، فنحن نصطدم بالآخر في كل خطوة نخطوها . وبهذا المعنى فإننا مطالبون بقبول الآخر طوعاً أو كرهاً "[(٢)]

وأسارع إلى القول بأن الحديث عن الآخر يبدو مسألة تحدوها أسئلة كثيرة تتعلق بماهية الآخر التى تتغير دوماً بتغير الزاوية التى ينظر إليه منها ، وبغية الوصول لتحديد دقيق للمقصود به ، أحاول فيما يلى الاقتراب من هذا المفهوم ، والمفاهيم الأخرى المتعلقة به، خاصة مفاهيم : الذات ، وصورة الذات وصورة الآخر ، وأعرض لكل منها على حدة فيما يلى :

١- مفهوم الذات

والذات من الناحية الاشتقاقية في اللغة العربية تعنى " ما يصلح لأن يعلم ويخبر عنه". وذات الشىء : نفسه وعينه وجوهره . وعند ابن رشد تدل على ماهية الشىء . وفى علم النفس تعنى محل الشعور والتفكير ، فتقف الذات على الواقع وتتقبل الرغبات والمطالب ، وتوحد الصور الذهنية[(٣)] .

ومفهوم الذات من المفاهيم التى اكتسبت أهمية خاصة في العديد من الدراسات الفلسفية والنفسية والاجتماعية، ففى المجال الفلسفى والنفسى، كان الاهتمام بالذات كمفهوم نظرى ملازماً لتيارات الفكر منذ القرن السابع عشر ، عندما ناقش الفيلسوف الفرنسى " ديكارت لأول مرة الذات كجوهر مفكر (أنا أفكر ، إذن أنا موجود) . ثم خضعت الذات بعد ذلك للفحوص الفلسفية القوية لمفكرين مثل : ليبنتز

---

[1] Morris Rosen Berg , The Self-Concept: Social Product And Soial Force In Morris Rosen Ber& Ralph H. Turne (Ed) , Social Psychology . Sociological Perspectives , Transaction Publishers , New Brunnswick ،U . S . A ، ١٩٩٠ ،P P 596- 597 .

[2] تزفتان تودورف ، مشكلة الذات والآخر، ترجمة فريق المراجعة والترجمة بمركز الانماء القومى، العرب والفكر العالمى، العدد الخامس، مركز الانماء العربى، بيروت، ١٩٨٩، ص ١٥٣ .

[3] مجدى عبدالحافظ ، جدلية تخارج الذات . تكونها الاجتماعى وعلاقتها بالحداثة و فى : أحمد زايد . سامية الخشاب (محرران) الذات والمجتمع فى مصر ، أعمال الندوة السنوية الثالثة لقسم علم الاجتماع من ١١ ـ ١٢ مايو ١٩٩٦ ، جامعة القاهرة، كلية الاداب، ١٩٩٧ ، ص ١٤٢ .

ولوك وهيوم وبيركلى وعندما تطور علم النفس منفصلاً عن الفلسفة، تحركت الذات معه كتكوين متعلق به [١].

أما في مجال الفكر الاجتماعي، فقد ظهر الاهتمام بهذا المفهوم متمثلاً في ظهور عدد من الدراسات الإمبريقية والنظريات التي طرحت كثيراً من المقولات الفكرية التي تعكس الرؤية الاجتماعية حول الذات، حيث أكدت هذه الدراسات على الدور المهم الذي تلعبه الذات في تنمية المجتمع. كما بينت أنه لا يمكن فهم الظواهر الاجتماعية والسلوك الاجتماعي فهماً متكاملاً بمنأى عن الذات. وتقف دراسات كل من: ماكس فيبر عن "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية"، ودراسة وليم توماس وفلوريان زنانيتسكى عن "الفلاح البولندى في أوروبا وأمريكا"، ودراسة دانيل ليرنر "تحول المجتمع التقليدى – تحديث الشرق الأوسط"، ودافيد ماكيلاند عن "مجتمع الإنجاز"، وغيرها من إسهامات تالكوت بارسونز وكذلك علماء التفاعلية الرمزية، باعتبارها من الدراسات والآراء النظرية التي أكدت على أهمية هذا المفهوم[٢] فمفهوم الذات يعرف بأنه "مجموع أفكار ومشاعر الفرد عن نفسه كموضوع للتأمل"[٣]

والذات ليست وحدة فارغة المحتوى، ولكن هناك عمليات واحتياجات نفسية تلعب دورها في تشكيل هذه الذات. [٤]

ويتكون مفهوم الذات من جميع المعلومات التي نعرفها عن أنفسنا، كما يمكن اعتبار الذات نمط ظاهر للإطار المعرفي الخاص بالفرد، ذلك الذي ينمو ويتطور من خلال التجربة[٥]

ويعتبر وعى الفرد بهويته أو الوعى الذاتي أحد السمات الأساسية المميزة للإنسان عن غيره من الكائنات الأخرى. "ويعتمد هذا الوعى على مقدرة الإنسان على أن يدرك الاتجاه الذي يشكله الآخرون عنه؛ بمعنى أن يتعرف إلى الصورة التي ينظر من خلالها

---

[1]) كمال التابعى، تشوهات قيم الذات في المجتمع. مظاهرها وظروف تشكلها، في: أحمد زايد – سامية الخشاب (محرران)، الذات والمجتمع في مصر، أعمال الندوة السنوية الثالثة لقسم الاجتماع بكلية الآداب، جامعة القاهرة من ١١- ١٢ مايو ١٩٩٦، ١٩٩٧، ص ٣٥٥.

[2]) المرجع السابق، ص ص ٣٥٧ –٣٦٤.

[3]) جوردون مارشل موسوعة علم الاجتماع، المجلد الثانى، ترجمة: محمد الجوهرى وآخرين، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠، ص

(4) Anthony Giddens, Modernity and self – identity. Self and society in the late Modern Age, California, stand ford university press, 1991. P. 75

5) Robert A . Baron , Donn Byrne , Social Psychology . Understanding Human Interaction , Boston ,, Allyn& Bacon 1991 , P131 .

الآخرون إليه ، فهو من وجهة نظر الآخرين موضوعاً في بيئتهم ، كما أنهم يمثلون بالنسبة له موضوعاً في بيئته ." [1]

معنى ذلك أن الذات تنشأ من خلال عملية التفاعل بين الفرد والآخرين ، وبهذا يمكن النظر للذات على أنها تشمل " مجموعة القيم والاتجاهات التى يكتسبها الإنسان ، وتشكل هويته ، من خلال تفاعله مع البيئة الاجتماعية وخبراته المتعددة مع الأشياء والأشخاص وقيمهم التى يمكن أن يتمثلها في ذاته ." [2]

ويحدد السيد يس سمات مفهوم الذات في :

أ. يتم صياغته من خلال الخبرة العملية والواقعية .

ب. عادة ما يكون منظماً ، بمعنى أنه يتسم بالاتساق .

جـ - وأخيراً يتصف هذا المفهوم بالحركة والدينامية ؛ أى أنه يمكن أن يتغير وفقاً لتغيرات داخلية أو ظروف خارجية[3]

ويتحدد مفهوم الذات طبقاً للدراسة الراهنة باعتباره : الذات القومية ، وليس الذات الفردية — المعادلة لمفهوم الأنا الفردى — أى ما يمكن تسميته الذات الكلية في مقابل الذوات الفرعية المكونة لها . هنا يتداخل مفهوم الذات وبهذا المعنى الذى تقصده الدراسة مع مفهوم الشخصية المصرية.

٢- مفهوم الآخر ..... آخر أم آخرون ؟

اهتم علماء من تخصصات مختلفة بهذا المفهوم ، حاول كل منهم الإجابة على سؤال : من هو هذا الآخر وما هى حدوده؟ واختلفت إجاباتهم باختلاف رؤاهم . ففى التراث الفلسفى والنفسى والاجتماعى يجد الباحث اهتماماً بهذا المفهوم :

فعند " هيجل " يعتبر وجود الآخر " ضرورى وأساسى بالنسبة لى ؛ فأنا لا أستطيع أن أكون حراً بمفردى، ولا أن أكون وعياً بمفردى ، ولا أن أكون إنساناً بمفردى ." [4]

---

[1]) محمد عبدالنبى، تصور الذات والوعى الاجتماعي، في : أحمد زايد ـ سامية الخشاب) (محررانت)، الذات والمجتمع في مصر، أعمال الندوة السنوية الثالثة لقسم الاجتماع بكلية الآداب جامعة القاهرة من ١١- ١٢ مايو ١٩٩٦، ١٩٩٧، ص ٢٤٦ .

[2]) كمال التابعى ، تشوهات قيم الذات في المجتمع . مظاهرها وظروف تشكلها ، مرجع سابق ، ص ص ٣٦٧ ــ ٣٦٨ .

[3]) السيد يس، الأسطورة الصهيونية والانتفاضة الفلسطينية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١، ص٢١ .

[4]) علا مصطفى أنور، الأنا والآخر من خلال الفنومنولوجيا، مجلة التربية المعاصرة، العدد السابع والثلاثون، السنة الثانية عشر ، ١٩٩٥، ص ٦٥ .

والآخرون في رأى " سارتر " هم وأساساً الأهم فينا ؛ كى نتعرف على ذواتنا " فإذا كان الآخرون هم الأهم ، أين الفرار ؟ "(١)

وتكتسب علاقة الذات بالآخر اهمية كبيرة عند " ميرلوبونتى " فمن خلالها يستطيع المرء أن يدرك جسمه والأشياء والعالم " وإذا كان حضورى أمام ذاتى هو الذى يحدد وجودى ، فهو يجعل وجود الآخرين ممكناً بالنسبة لى ؛ فهذا الحضور هو الذى يخرج بى عن ذاتى ويقذف بى إلى الآخرين ...... ولا يتحدد وجود الآخرين من خلال الجسم واللغة والمجتمع والثقافة فحسب ، بل إننا نفهم نسق الآخرين بشكل أكثر تحديد وبسهولة أكبر في موقف تاريخى واجتماعى وسياسى ، وفى اتصالنا بالماضى وبالحضارات . "(٢)

ويذهب " هوسرل " إلى أن " كل وجدان هو وجدان شىء ما ، وعليه فوجداننا يتعرف على وجدان آخر ، إذ يشعر شعوراً بدائياً بتواجد مشترك . "(٣)

ويعتقد " ألفرد شوتز " أن الآخر كيان سيكوفيزقى ؛ فجسمه معطى في خبرتى كموضوع فيزيقى خالص ، وفى نفس الوقت كموضوع للإدراك الحسى ، إلا أن حياته العقلية توجد بالمشاركة . "وهكذا يتبدى الآخر ككيان مشابه لكياتى ، وبشكل أخص ككيان جسمى أختبره مثلما أختبر جسمى ، فإذا كان الآخرون يوجدون في عالم الحياة اليومية ، أو أنى أقبل وجودهم كشيء مفروغ منه ، فإن هذا الوجود لا يقتصر على صفتهم الجسمية ، وإنما يقوم على كونهم يمتلكون وعياً يشبه وعي الحاضر . "(٤)

ويدرك ميشال فوكو " الآخر باعتباره " شخص غير طبيعى ومجنون ومعوق "(٥)

بينما يعتقد "جيمس آهو" أنه يوجد قبل كل شيء أنا ، وما هو ليس (أنا). ويتكون الأخير من أشياء طبيعية وأشخاص يدعون (أنت) ، أضف إلى ذلك أن هناك تميزاً بين (أنت حميمة) وآخرين بعيدين ، وفى النهاية فإن (أنا) و(أنت) الحميمة

---

١) عبدالله عازار، الآخر حسب سارتر وظاهرية ميرلوبونتى، الفكر العربى المعاصر، العدد (٨٦ – ٨٧)، بيروت، مركز الإنماء، ١٩٩١، ص ١٠٦.
٢) علا مصطفى أنور، مرجع سابق ، ص ص ٦٠-٦٤.
٣) عبدالله عازار، مرجع سابق، ص ١٠٩.
٤) علا مصطفى أنور ، مرجع سابق ، ص ٥٦ .
٥) جان فارو ، الآخر بما هو اختراع تاريخى ، في : الطاهر لبيب (محررا) ، صورة الآخر : العربى ناظراً ومنظوراً إليه ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٩ ، ص ٥٤ .

يشكلان (نحن) ، بينما يتشكل هم من حاصل (أنت) الغريب. "وهكذا فإنه من الواضح أن الآخر هو تعبير عام يغطى الحالات التى يُعترف فيها بالاختلافات اللغوية والثقافية الأخرى ، التى تشكل الأساس لهوية (نحن) ."[1]

ويعرف " انتونى جيدنز " الآخر باعتباره مفهوماً أساسياً في نظرية جورج هربرت ميد " بمقتضاه يتبنى الفرد القيم العامة لجماعة معينة أو مجتمع معين اثناء عملية التنشئة الاجتماعية " [2] .

ويتمثل مفهوم " الآخر " بوضوح في نظريات عالم النفس الفرنسى " جاك لاكان " الذى كثيراً ما يرجع إلى أفكار " فرويد " ويعيد كتابتها ، ويتحدث " لاكان " عن نمطين من الآخر ، المرآوى والرمزى ، ويتعلق كل منهما بآليات التعرف . ويرى لاكان أن الهوية تبدأ في اللحظة التى يدرك فيها الطفل البشرى أن ما يراه في المرآة هو صورته هو ؛ لأنه يدرك عندئذ صورته متكاملة لأول مرة . وهكذا فإن النفس تتكون مما يسمى " الآخر المرآوى " أو من الصورة التى يريد الشخص لنفسه أن يكونها . ، كما تنعكس في المرآة .... أما الآخر الرمزى ، فهو يتمثل كآخر غريب ، يقوم ببناء ذاتية النفس . ويذهب لاكان إلى أن كينونة الفرد تتحقق له عندما يتكلم - بصفة أساسية - وأننا عندما نتكلم نستخدم منظومة من التمثلات وجودها يسبق وجودنا ، وبذلك فإن العمليات الفكرية في داخلنا تتشكل بفعل اللغة ، وبقدر ما نحن نفوس تتكلم ، فإننا أيضاً منطوقون أو مرموزون ، فالوعى الذى لدينا يتكون من خارجنا بفعل بنية لغوية مثقلة بأحكام اجتماعية كالقواعد والقوانين والتعاريف " [3] .

أما الآخر في التصور الصوفى فهو " غير المفكر فيه الواجب سبر أغواره حتى بلوغ العين"[4] .

وأجمع العرب على أن " الاختلاف والمخالفة في اللغة تعنى ، أن ينهج كل شخص طريقاً مغايراً للآخر في حاله ، أو في قوله . والخلاف أعم من الضد ؛ لأن كل ضدين مختلفان ، وليس كل مختلفين ضدين ، فالاختلاف يبقى سنة كونية

---

١) المرجع السابق، ص ٥٤ .
٢) انتونى جيدنز ، مقدمة نقدية في علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ٢٠٩ .
٣) كيت فكتوريا ماكدونالد دانيلز ، مدركات النفس والآخر فى قصص يوسق الشارونى ، ترجمة : محمد الحديدى ، المشروع القومى للترجمة ، القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٣ ، ص ص ٢٦- ٢٧ .
٤) دلال البزرى ، الآخر . المفارقة الضرورية، فى : ، الطاهر لبيب (محررا) ، صورة الآخر : العربى ناظراً ومنظوراً إليه ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٨ ص ١٠١ .

لامناص منها .وقد جاء ذكر ذلك في مناسبات عديدة في القرآن الكريم ، منها قوله تعالى : " ولا يزالون مختلفين " في سورة هود ، وقوله تعالى : "إنكم لفى قول مختلف " في سورة الذاريات .وعلى هذا فإن" الخلاف والاختلاف يراد به مطلق المغايرة في القول أو الرأى أو الحالة أو الهيئة أو الموقف" .[١]

وهناك من ينظر للآخر على أنه " القطب الثانى في كيان الذات ، وبدونه تظل الذات عقل خام بلا معنى ، فهو القوة المقابلة والضرورية لتمخض الشعور بالذات .... فالذات لاتكون كذلك إلا من خلاله ، ولا تتعرف على ذاتها إلا عبره"[٢].

وقفة نقدية مع هذا الزخم حول مفهوم " الآخر " ، على اختلاف منابعه ، يمكن من خلالها تصنيف هذا الآخر إلى نوعين :

أ – الآخر الداخلى

ب –الآخر الخارجي .

أ -الآخر الداخلى :وأقصد به كل " آخر يشترك في المواطنة مع غيره " [٣]

حيث يأتى الاختلاف من داخل ما يسمى جماعة (النحن) نفسها ، وتصبح الفكرة أو العقيدة ، أو الأيديولوجيا وطناً جديداً ، أو مجتمعاً يجمع المنتمين إلى الفكرة ...... فالآخر هنا ليس بالضرورة هو البعيد جغرافياً أو صاحب العداءات والتنافس الدائم؛ إذ يمكن للذات أن تنقسم على نفسها ويحارب بعضها البعض الآخر ، فالماركسية تؤمن بالصراع الطبقى في المجتمع الواحد ، وقد سمعنا عن المدينتين أو المجتمعين داخل المدينة أو المجتمع الواحد بسبب اختلاف نمط الحياة ومستوى المعيشة والسلوك . وبالفعل لا يوجد المجتمع الواحد المنسجم على الأقل في العصر الحالى .[٤]

في غضون هذا الفهم لما يعنيه الآخر الداخلى ،يمكن تقسيمه إلى :

---

١) محمد صادق الحسينى ، رؤية نقدية لنظرية قبول الآخر ، في : ميلاد حنا ،. المثقف العربى والآخر بين الرفض والقبول واللامبالاة ، القاهرة ، دار المعارف ، ٢٠٠٠ ، ص ص ٥١- ٥٢ .

٢) حسام حافظ السلمونى ، صورة الذات والآخرين . دراسة مقارنة لصورة الذات والآخرين لدى طلاب جامعتى سوهاج والإسكندرية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة عين شمس ، كلية الآداب ، قسم علم النفس ١٩٨٨ ، ص ص ٢٣ –٢٤ .

٣) جابر عصفور ، رفض الآخر ، تحديات ثقافية ، العدد الثانى عشر ، السنة الثالثة ، ٢٠٠٣ ، ص ٥٥ .

٤) حيدر ابراهيم على، صورة الأخر المختلفة فكرياً. سوسيولوجيا الاختلاف والتعصب . في : الطاهر لبيب (محرراً)، صورة الآخر: العربي ناظراً ومنظوراً إليه، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩، ص ١١١.

الآخر النوعى : ويقوم على التفرقة على أساس النوع ما بين رجل وامرأة/ذكر – أنثى.

الآخر الدينى :وتكون التفرقة على أساس الدين : (مسلم – مسيحى – يهودى ...إلى غير ذلك)

الآخر داخل الدين الواحد : ويقصد به الطوائف والفرق المختلفة في كل دين .

الآخر السلطوى : ويقصد به الانقسام ما بين حاكم ومحكوم .

الآخر العنصرى : حيث تقوم التفرقة هنا على أساس اللون : أبيض – أسود .

الآخر من حيث الإقامة : ريفى – حضرى .

ب -الآخر الخارجى : ويطلق على الآخر الذى لا ينتمى لجماعة النحن ، فهو يشير لكل ما يقع خارج الذات الجماعية ، ويندرج تحت هذا الآخر ما يلى :

الآخر في المجال الدولى : ويشير إلى الآخر" كقوة عظمى ندية تنافس نظيرتها في السيطرة على البقية غير العظيمة من بلدان العالم ." [١] وفى هذا الصدد ، فإن التمييز بين العالم الحديث المستعمر ، والعالم القديم المستعمر قد أفرز نظرة نحو هذا الآخر ؛ حيث انقسم إلى ثلاثة أنماط : الآخر المتوحش : في إشارة إلى سكان الأمريكتين واستراليا قبل وصول الاستعمار إليهم . والآخر الأسود : ويقصد به سكان افريقيا . والآخر الشرقى : الذى انقسم بدوره إلى ثلاثة أنواع : الشرق الأدنى ، والشرق الأوسط ،. والشرق الأقصى . [٢]

الآخر العرقى : وهو ما يتعلق بتفوق جنس على جنس آخر .

الآخر الحضارى : في مواجهة الآخر غير الحضارى أو المتخلف .

الآخر العنصرى : وهو التقسيم الناتج عن ممارسات دولة ضد دولة أخرى

الآخر : شرقاً أو غرباً * ، وهذا النوع من الآخر هو ما تقصده الدراسة الراهنة ، فثنائية شرق /غرب هى الوجه الآخر لثنائية الذات / الآخر .

---

[١] دلال البزرى ، مرجع سابق ، ص ١٠١ .

[٢] محمد محمود أبو العينين ، العولمة الثقافية والنظرية الاجتماعية الحديثة . دراسة في المفاهيم والاتجاهات . ورقة بحث مقدمة إلى مؤتمر " الثقافة الشعبية العربية : الهوية والمستقبل ، من ٢- ٤ ابريل، ٢٠٠٢ ، المركز الحضارى لعلوم الانسان ، جامعة المنصورة ، ص ٨ .

* ربما كانت ثنائية : الشرق \ الغرب من أكثر العبارات تداولاً في الخطاب العربى الحديث و المعاصر . والشرق اسم أطلقه الأوربيون الكاثوليك على البلاد التى كانت خاضعة للإمبراطورية البيزنطية ... ومن ثم أطلقه الأوربيون على بلاد الاسلام فيما بعد ، وكان مدلول هذا المصطلح يضيق أحياناً فلا يشمل إلا سوريا ومصر وبلاد الرافدين ، وهو يتسع لشمل بالإضافة لما سبق الجزيرة العربية وفارس وتركيا ، ثم امتد هذا المصطلح في مراحل لاحقة ليشمل ك الهند والصين واليابان ، وما إليها من بلدان اسيا . إلا أن المقصود بالشرق غالباً : الشرق الأصلى ، التقليدى القديم الذى كان الجار والمنافس لأوروبا اليونانية والرومانية ، ثم لأوروبا المسيحية ، منذ أن قامت جيوش أحد كبار

هكذا يقدم الآخر نفسه في صور وكينونات مختلفة، ورغبة في معرفة حدوده بدرجة أكثر دقة، أبادر بالقول: إن الآخر المقصود في هذه الدراسة هو: أحد تفريعات الآخر الخارجي، متمثلاً في الآخر الغربي كما يتراءى في الوعي المصري المعاصر، باعتباره كياناً تاريخياً ثقافياً حضارياً متبايناً في كثير من سماته الأساسية عن كيان الذات المصرية، بما تحمله من مقومات تاريخية وثقافية وحضارية مغايرة له.

٣ - صورة الذات وصورة الآخر:

وفي البدء فإنه من الضروري التعرض لما يعنيه مفهوم "الصورة"، حتى يصير بعد ذلك من السهل فهم السياقات المختلفة لما يمكن أن تحمله اللفظة من معان، خاصة وأن التطور المركب لهذا المفهوم جعله يستخدم في مجالات مختلفة بمضامين مختلفة أيضاً. تمتد كلمة "صورة" Image بجذورها إلى الكلمة اليونانية القديمة "أيقونة" Icon، والتي تشير إلى التشابه والمحاكاة، وترجمت إلى Imago في اللاتينية، و Image في الإنجليزية. ولعبت هذه الكلمة ودلالاتها دوراً مهماً في فلسفة

الأكاسرة الفرس باحتلال اليونان، إلى أيام انسحاب مؤخرة جيوش العثمانيين ..... أما الغرب فهو الاسم الطبيعي لمواجهة الشرق ... وهو يعرف بدلالته الجغرافية بمنطقتين هما: أوروبا ولا سيما أوروبا الغربية ثم الشمالية والجنوبية، وتجر وراء قاطرتها أوروبا الوسطى والشرقية، والمنطقة الأخرى هي أمريكا الشمالية وتضم الولايات المتحدة الأمريكية النواة النووية للغرب أو قطاعه المركزي الرئيسي بالإضافة على كندا .... والغرب بالإضافة لكونه معرف بدلالته الجغرافية، فهو محدد كذلك بدلالته الاجتماعية والسياسية والثقافية والعسكرية ... ولم يستعمل تعبير (الغرب) في الشرق الأوسط، بمعنى الكيان السياسي والثقافي إلا منذ مدة قريبة، وربما يكون قد راج استعماله في الوقت الذي بدأ فيه تعبير (الشرق الأوسط) .... هكذا تغير مدلول الشرق والغرب؛ فلم يعدا اتجاهين على الأرض، بل أصبحا بالضبط تحديدين ميتافيزيقيين ... إذن الشرق والغرب بالمعنى المتداول لهما مصطلحان لا يعنيان شيئاً من الناحية الجغرافية، فلا الوطن العربي يقع شرق أوروبا، ولاأوروبا تقع غرب الوطن العربي. فالشرق والغرب في نهاية المطاف مصطلحان جغرافيان يراد بهما أشياء غير جغرافية.... لمزيد من التفاصيل حول هذه القضية، يمكن الرجوع إلى:

-P . Kod And A Rao East Versus West . Adenial Of Contrast , George Allen &Unwin , London , 1939 .

- محمد راتب الحلاق، نحن والآخر. دراسة في بعض الثنائيات المتداولة في الفكر العربي الحديث والمعاصر بدون بلد نشر، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٧ص ص١١-١٣.
- محمد عبدالشفيع عيسى، من التحديث إلى استئناف التطور الحضاري، في: عبدالباسط عبد المعطي (محرر) العولمة والتحولات المجتمعية في الوطن العربي، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٩٩، ص ١٥٧.
- عبدالله العروي، الأيديولوجية العربية المعاصرة، بيروت، دار الحقيقة، ١٩٨٣، ص ٨.

افلاطون ، وكذلك في تأسيس كثير من أنظمة التمثيل أو التمثل Representation للأفكار والنشاطات في الغرب .[1]

والصورة كما صاغها واجنر W. Wagner هي " تركيب أو بناء مكثف ، تبدو فيه الأفكار والتفسيرات الممكنة مؤلفة كلاً واحداً . وهذا التركيب أو البناء يسمح بإدراك وفهم العلاقات المعقدة داخل ذلك الكل في وحدة واحدة دون فصل أو عزل أي عنصر من العناصر المؤلفة له ، وإلا فقدت خاصيتها الكلية . ومن حيث هي مرجع تصوري تتسم الصورة بخاصية الحضور أو الظهور في أذهان الأفراد في غياب الموضوعات التي تشير إليها "[2].

ويعرف بولدنج Boulding الصورة بوجه عام على أنها بناء تأثيري معرفي . أما الصورة القومية من وجهة نظره فهي : الصورة التي تحملها أمة ما عن نفسها ، وعن الآخرين في النظام الذي يكون بيئتها الدولية .[3]

وقد ينظر للصورة على أنها : ممارسة غير منفصلة عن رد الفعل الذي تسببه، وهي فعل تلقائي ، جمعي تكويني في أصله ، وتضم التمثلات والأفكار والأحكام المسبقة والأوهام ، والأحاسيس التي يحملها عن الآخر والآخرين[4] .

هذا ويمكن التمييز بين ثلاثة أنواع من الصور ، يمكن عرضها فيما يلي :

النوع الأول : ويقوم على مبدأ التشابه والتطابق بينها وبين الموضوع أو الشيء المشار إليه ، مثل الصور الفوتوغرافية والخرائط والتماثيل .[5]

النوع الثاني : ويعرف باسم الصورة النمطية :* Stereo Type

---

[1]) شاكر عبدالحميد ، عصر الصورة . السلبيات والإيجابيات ، عالم المعرفة (٣١١) ، الكويت ، مطابع السياسة ، ٢٠٠٥ ، ص ١٧ .

[2]) السيد حافظ الأسود ، صورة الآخر بين الثبات والتغير . دراسة أنثروبولوجية مقارنة لطلاب ينتمون إلى مجتمعين عربيين ، مجلة العلوم الاجتماعية ، المجلد الرابع والعشرون ، العدد الأول ، الكويت ، مجلس النشر العلمي ، ١٩٩٦ ، ص ٢١٦ .

[3]) Michele G . Alexander , Marilynn B . Brewer , And Richard K . Herrmann , Images And Affect : A Functional Analysis Of Out -Group sTereotypes ; Journal Of Personality And Social Psychology , Vol (77) , No (1 ، ١٩٩٩ ، (P 78

[4]) Antoine Maqdisi , Limage que se fait la rabe De la civilization occidentale et la facon Don't llRegit a catte image , in ; dialogue euro – arabe , les reports entre les Deux cultures , symposium de Hambuorg11- 15 Avrill 1983 , france , Edisud, la calade , 1986 p 48 .

[5]) السيد حافظ الأسود ، صورة الآخر بين الثبات والتغير ، مرجع سابق ، ص ٢١٧ .

وهـذا النـوع مـن الصـور يعتـبر ذا أهميـة كـبيرة في الدراسـات الاجتماعيـة والنفسـية والأنثروبولوجيـة ؛ خاصـة عنـد التعـرض للقضـايا المتعلقـة بالتفاعـل بـين الجماعات المختلفة . وتعرف الصورة النمطية بأنها " تصور مفرط في التبسيط Over-Simplified ، وتعميم مبالغ فيه Over- Exaggerated ، ثابت نسبياً وملـيء بأحكام القيمة Value Loaded " (١)

كما تعرف الصورة النمطية بأنها ، تتكون من التوقعات والأحكام المسبقة عن أفراد الجماعـات الأخـرى ، وهـى منـتج لا مفـر منـه يلبـى الحاجـة لتصـنيف وتبسـيط العـالم الاجتماعى المعقد(٢)

وتنتج الصورة النمطية عن عملية معرفية نفسية ذات أصول ثقافية بالأساس ، تقوم على إدراك الأفراد الانتقائي المباشر وغير المباشر لخصائص وسمات موضوع ما : فرداً أو جماعة أو مجتمع أو مؤسسة أو حدثاً ، وتكوين اتجاهات عاطفية نحوه (إيجابية أو سلبية)، وتوجهات سلوكية (ظاهرة أو باطنة) في إطار مجتمع معين ." وقد تأخذ هذه المدركات والاتجاهات شكلاً ثابتاً أو غير ثابت ، دقيقاً أو غير دقيق "(٣)

---

* استمد مصطلح Stereo Type من لغة تكنولوجيا الطباعة . وهو في الأصل اللوح المعدنى الذى يستخدم في طبع آلاف النسخ أو الصور المطابقة دون حاجة على تغيير . وكان المعلق السياسى الأمريكى (والتر ليبمان) أول من أدخل هذا المصطلح إلى العلوم الاجتماعية . حينما استخدمه في كتابه " الرأى العام " الذى صدر عام ١٩٢٢. وعرف الصورة الذهنية بأنها : الصورة الذهنية المشتركة التى تحملها مجموعة من الأفراد، والتى تتكون غالباً من رأى مبسط أو ناقص أو مشوه ، أو قد تتمثل في موقف عاطفى تجاه شخص أو قضية أو حدث ..... لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى :

- محمود ميعارى ، الفلسطينى والعربى والإسرائيلى في نظر الطلبة الجامعيين في فلسطين، في : الطاهر لبيب (محررا) ، صورة الآخر : العربى ناظراً ومنظوراً إليه ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ،و ١٩٩٩ ، ص ٧٢٨ .
- عزة عزت ، صورة العرب في الغرب ، مصر العربية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩٧ ، ص ٣٠٠ .

١) حلمى خضر سارى، المرأة كآخر . دراسة في هيمنة التنميط الجنسانى على مكانة المرأة في المجتمع الأردنى ، في : الطاهر لبيب (محررا)، صورة الآخر : العربى ناظراً ومنظوراً إليه، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩، ص ٧٦١

2) Peter B . Smith & Michael Harris Bond , Social Psychology Across Cultures Prentice Hall Europe , London , Second Edition , 1998

٣) التقرير الاستراتيجى العربى ، الاسلام والمسلمون في الإعلام والفكر الغربى ، القاهرة ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، ٢٠٠١ ، ص ١٣٤ .

وفى الحالات التى يجد فيها الفرد بعض الأدلة والحقائق التى تتعارض مع الصورة النمطية ، فإنه غالباً لا يعتمدها ولا يأخذ بها ، بل يبقى مصراً على الاعتماد على هذه الصورة ، والرجوع إليها كإطار معرفى يوجه سلوكه وتفاعله مع الفرد أو الجماعة المنمطة[1].

النوع الثالث : الصورة المرجعية : ويقصد بها الصورة الفكرية والوجدانية والأخلاقية التى يتأثر بها ويتوحد معها أفراد ينتمون إلى جماعة معينة . وتشترط هذه الصورة وجود علاقات اجتماعية فعلية ومباشرة داخل الجماعة ، كما تشترط وجود تراث ثقافى واجتماعي مشترك يوجه الأفراد ... وهى بذلك تصير ذات قوة كبيرة لا تضاهى في تصور وفهم العالم أو الآخر بصورة مباشرة وآنية . "وعن طريق استخدام العناصر الحسية المشخصة ، تعكس الصورة أكثر المعانى تجريداً وتعقيداً في شكل ميسر وقابل للإدراك والفهم السريع من قبل الأفراد الذين ينتمون إلى ثقافة واحدة ، أو جماعة مرجعية واحدة . وهذه الخاصية تضفى على الصورة الطابع الاجتماعى المشترك ، لتصبح صورة عامة تختلف عن الصورة الذاتية أو الشخصية لفرد بعينه"[2].

هذه هى الأنواع الثلاثة للصورة بمعناها الاجتماعى ، ويتضح مما سبق عرضه لمفهوم كل نوع من هذه الأنواع ، أن الصورة النمطية والصورة المرجعية هما الأكثر ارتباطاً بموضوع الدراسة الحالية ؛ فالصورة النمطية أو الأفكار المقولبة باعتبارها أحكام مسبقة تطلق دون سند واقعى أو حقيقى ملموس هى المعادل الموضوعى لصورة الآخر . أما الصورة المرجعية فهى المعادل الموضوعى لصورة الذات ، من منطلق كونها تتحدد من داخل الذات نفسها .

وعلى ضوء ما سبق يمكن تعريف كل من صورة الذات وصورة الآخر فيما يلى :

أ - صورة الذات : Image Of The Self

يستخدم هذا المفهوم في الدراسات النفسية والاجتماعية عادة لكى يشير إلى : "ذلك النسق التصورى الذى يتبناه أحد الأفراد حول الخصائص النفسية والاجتماعية والبدنية التى ينسبها لنفسه . أو هو يشير إلى النسق التصورى المتسق من الخصائص

---

١) حلمى خضر سارى ، مرجع سابق ، ص ٧٦٣ .
٢) السيد حافظ الأسود ، صورة الآخر بين الثبات والتغير ، مرجع سابق ، ص ٢١٨ .

العقلية والسلوكية والاجتماعية والانفعالية التى تنسبها جماعة معينة من البشر إلى نفسها . وصورة الذات — بهذا المعنى - تعنى : نظرة الفرد أو الجماعة أو الشعب لذاته . أى ذلك الوصف الشامل الذى يمكن أن يقدمه الفرد عن ذاته في وقت ما . "[١]

وتشير صورة الذات كذلك إلى : موضوع الفكر، وتحتوى على جميع المعرفة والمعتقدات التى يملكها أو يستخدمها الناس لوصف تلك الشخصية التى يحملونها . هذه الذات الجمعية لا تختلف بحد ذاتها كثيراً عن الذات الفردية ، وصورتها لدى الجماعة تبدى الخصائص نفسها التى تبرزها الذات الفردية ، مع الاختلاف بأن تصور هذه الذات يوجد لدى تعدد من الجماعات الإنسانية ، بدلاً من أن يوجد لدى فرد إنسانى واحد ." هذه الذات لا تولد مع أفراد الأمة بقدر ما يتعلمونها من بيئاتهم الاجتماعية ومن التنشئة الاجتماعية لهم ، وهى تتسع وتنكمش بحسب الجماعة ذاتها من حيث انغلاقها أو انفتاحها ."[٢]

وحول نفس المعنى الذى يشير إليه مفهوم صورة الذات السابق ، يحدد " فتحى أبو العينين " صورة الذات بأنها " نسق تصورى تطوره الكائنات البشرية أفراداً كانت أم جماعات ، وتتبناه وتنسبه لنفسها . ويتكون هذا النسق من مجموعة من الخصائص الفيزيقية والنفسية والاجتماعية ، ومن عناصر الثقافة كالقيم والأهداف والقدرات التى يعتقد الأفراد أو تعتقد الجماعة أنها تتسم بها . "[٣]

وتلعب صورة الذات دوراً هاماً في السلوك، وهى التى تساعد على التوفيق بين فكرتنا عن الحاضر وفكرتنا عن المستقبل ، فالإحساس بالذات والحفاظ على احترام الجماعة للفرد يحددان الأهداف التى يراد بلوغها .[٤]

---

١) شاكر عبدالحميد ، مرجع سابق، ص ٣٠٩ .

٢) مهنا يوسف حداد ، أثر الصورة الذاتية في الموقف العربى من دولة إسرائيل ، في : الطاهر لبيب (محرراً) ، صورة الآخر : العربى ناظراً ومنظوراً إليه ، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩، ص ٣١٢ .

٣) فتحى أبوالعينين، صورة الذات وصورة الآخر فى الخطاب الروائى العربى : تحليل سوسيولوجى لرواية محاولة للخروج، فى : الطاهر لبيب (محرراً)، صورة الآخر العربى ناظراً ومنظوراً إليه، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٨، ص ٨١٣ .

٤) ابراهيم أحمد أبوزيد، سيكولوجية الذات والتوافق ، الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ، ١٩٨٧ ، ص ١٢٩

إذن ، وبعد هذا العرض يمكن تحديد صورة الذات على أنها : صورة الشخصية المصرية كما تتراءى لدى جماعة النحن المشكلة لهذه الذات . فهى المركب الذهنى القائم في أذهان المصريين عن أنفسهم ، ويشمل الخصائص النفسية والاجتماعية والثقافية المميزة لهذا الشعب دون غيره ، وهذه الصورة تعتبر الإطار المرجعى الذى يمكن من خلاله الحكم على الآخرين .

ب- صورة الآخر : Image OF The Other

" من الشروط الأولية لبناء وحدة نفسية اجتماعية ، إنشاء صورة الآخر ، فبفضلها تتحقق نزعة الفرد إلى خلق انشطار بين النحن والهم ، وإلى تضخيم الفروق القائمة بين هؤلاء وأولئك ، فتلك هى النزعة التواقة إلى إنشاء (نحن) ذاتية تقرن بكل ما هو آخر لكى يصلح فصلها عنه لاحقاً" .(١)

من هنا يعد البحث في صورة الآخر جزء لا يتجزأ من البحث في العلاقات القائمة بين الجماعات الإنسانية " فهذه الصورة تتشكل بفعل الاختلاف بين الجماعات في ميزات معينة ، والأهمية التى تعزوها كل جماعة لهذا الاختلاف . وتتعلق هذه الأهمية إلى حد كبير بالقيم الأساسية لكل جماعة ، وكذلك بنوع العلاقات وظروف اللقاء والتفاعل بين الجماعات المختلفة "(٢)

إذن ، ليست صورة الآخر هى الآخر ؛ بل إنها بناء يتشكل فى ذهن الفرد أو الجماعة وتتطور بشكل مستمر بتأثير التحولات والتطورات المجتمعية ؛ فهذه التحولات " تؤثر في استعداد الأفراد والجماعات للتفاعل والتأثر وتبنى عناصر ثقافية جديدة ، وهذا الاستعداد والتفاعل والتأثر يفيد في صورة كل من الذات والآخر . " (٣)

---

١) آنا أندرنيكوفا ، صورة الآخرين كخلفية لتصور الذات في المجتمع الروسى . في : الطاهر لبيب (محرراً)، صورة الآخر : العربى ناظراً ومنظوراً إليه، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩ ص ص ١٥٧-١٥٨ .

٢)عزيز حيدر، الآخر العربى والآخر الفلسطينى والآخر الاسرائيلى في نظر الفلسطينين ، في : الطاهر لبيب (محرراً)، صورة الآخر : العربى ناظراً ومنظوراً إليه، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٨، ص ٧٠٠

٣)ميغوردن سيريك ، صورة الآخرين : المخاوف الحقيقية والكاذبة في العلاقات العربية الأوروبية ، في : الطاهر لبيب (محرراً)، صورة الآخر : العربى ناظراً ومنظوراً إليه بيروت مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٩ ، ص ٧١٩ .

وتكاد جميع التعريفات الخاصة بهذا المفهوم تتشابه فيما بينها ، فهى ترى صورة الآخر على أنها " مركب من السمات الاجتماعية والنفسية والفكرية والسلوكية التى ينسبها فرد ما أو جماعة ما إلى الآخرين . "(١)

ولكن هل للآخر صورة واحدة ؟ أم أن له صورا عديدة ؟ يجيب على هذا السؤال الباحث الإيطالي "فيكتوريو كوتاستا "، حيث يضع ثلاث صور للآخر : الصورة الأولى : يبدو فيها الآخر خطراً على المجتمع وثقافته ، وتناسبها استراتيجية الطرد والرفض. أما الصورة الثانية ، فأقرب إلى الحيادية المؤقتة، إذ لا يبدو فيها الآخر مقبولاً أو مرفوضاً بقدر ما يبدو قابلاً لأن يكون هذا أو ذاك. وهذه الصورة تناسبها استراتيجية الاحتواء بالتبعية. وأما الصورة الثالثة، فصورة الأخ الحامل لقيم إنسانية ، والذى يمكن أن يكون اختلافه مصدر ثراء ، وهذه الصورة تناسبها استراتيجية التعاون والمواطنة ... هذه الصور الثلاثة متداخلة في كل سياق اجتماعى وثقافى، وكذلك الاستراتيجيات التى توظفها لاكتساب شرعيتها(٢).

وبالرغم من واقعية هذا التقسيم الذى تبدو عليه صورة الآخر، إلا أن ذلك لا يعنى ثبات هذه الأنواع الثلاثة على ما هى عليه ؛ فإمكانية انقلاب هذه الصور وتبدلها أمراً وارداً ، سواء أكان ذلك على المستوى الشخصى أم الجماعى أم على مستوى المجتمع كله ، والأحداث التاريخية تشهد على ذلك ، فكما هو معروف " قد يكون أصحاب اليوم هم أعداء الغد ، والعكس صحيح . "

مما تقدم يمكن تقديم تعريف لصورة الآخر على أنها : بناء فكرى متصور من قبل الشخصية المصرية ، يحدد الإطار العام الذى تتفاعل من خلاله هذه الشخصية بكل مكوناتها مع الآخرين، وبخاصة الآخر المقصود في هذه الدراسة وهو الغرب .

ثانيا جدل الذات والآخر ...... رؤية اجتماعية :

إن الإقرار بوجود حالة ما من الاقتران والتلازم بين الذات والآخر ، يستلزم بالضرورة الإقرار بجدلية العلاقة بينهما ، فما هى أشكال هذا الجدل ؟ وما هى المسارات

---

١) فتحى أبو العينين، صورة الذات وصورة الآخر فى الخطاب الروائي العربى، تحليل سوسيولوجى لرواية محاولة للخروج في : الطاهر لبيب (محرراً)، صورة الآخر : العربى ناظراً ومنظوراً إليه، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ص ٨١٣ .

٢) الطاهر لبيب ، صورة الآخر : العربى ناظراً ومنظوراً إليه، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩، ص ٣٢ (المقدمة)

التى يتخذها ؟ إن الإجابة على مثل هذا التساؤل تتطلب تحليلاً يكشف طبيعة هذا الجدل ويقربه إلى الأذهان .... ولهذا كانت الرؤية اجتماعية .

وبداية ، فإن الاختلاف أو الفارق أياً كان نوعه ، يعد بيئة مناسبة لقيام تواصل بين الذات والآخر وذلك حسبما يقول " جيدنز " فهو يرى أن " الفارق سواء أكان فارقاً بين الجنسين أو فارقاً في السلوك أو الشخصية أو فارقاً عرقياً أو ثقافياً ، يمكن أن يصبح وسطاً تنشأ فيه روح عدائية . ولكنه يمكن أيضاً أن يكون بيئة لخلق تفاهم وتعاطف متبادلين . وهذا ما كان يعنيه " جادامر " بقوله التحام الآفاق ، والتى يمكن أن يعبر عنها في صورة دائرة فاضلة ، ذلك أن فهم الآخر من شأنه أن يهيئ قدرة أكبر لفهم الذات ، والذى يفرز بدوره التواصل مع الآخر "[1]

ويتطلب الحديث عن هذا الجدل ، وقفة قوامها التفكير العقلانى السليم ، ذلك أن فهم الآخر يستلزم وجود رؤية عميقة عن الذات أولاً ، هذه الرؤية هى في المقام الأول ، رؤية نقدية للماضى والحاضر والمستقبل ، وهى كذلك رؤية واقعية ، بمعنى أنها لا تفرط في تمجيد الذات أو تحقر من شأنها ، ولا تبالغ في الإعلاء من شأن الآخر أو التهوين من أمره[2] . فالخيار الآن لم يعد بين الذات والآخر ، بل الأنا والآخر في آن واحد ، ذلك أن البحث عن الذات النقية في المرحلة الراهنة هو ضرب من الوهم ، في عالم عصفت به رياح التغير قسراً وطوعاً ، وهو كذلك دعوة لعزلة من نوع جديد ولصيغة جديدة " إما الذات وإما الآخر "، وهى دعوة تنفى حقيقة واقعة ، وهى أن " الآخر – وبفعل حصاد التغيير العالمى – تسرب إلينا وأصبح داخلنا . وما محاولة نفيه وتجاهله في جوهرها سوى محاولة لانتزاعه من أنفسنا "[3] .

ويرتبط بالحديث عن جدلية الذات والآخر الحديث عن الوظيفة التى يؤديها الآخر للذات ، ولا شك أن الحاجة للكشف عن الهوية من خلال الاحتكاك بالآخر يعد من أبرز وظائف الآخر ؛ فالعين يحتاج للضد بغية رسم ملامحه .. فالآخر له دوره في

---

١) أنتونى جيدنز ، بعيداً عن اليسار واليمين ، ترجمة شوقى جلال ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت، مطابع السياسة، العدد ٢٨٦، ٢٠٠٢ ، ص ٢٩١ .

٢) سيد اسماعيل ضيف الله، الآخر في الثقافة الشعبية. الفولكلور وحقوق الانسان، القاهرة، مركز القاهرة لدراسات حقوق الانسان، ٢٠٠١، ص ٩ .

٣) أحمد عبدالفتاح البربرى، إشكالية العرب والغرب (صورة الذات وصورة الآخر)، المنصورة، دار عامر للطباعة والنشر، ٢٠٠٠، ص ٨٨ .

إعادة تعريف الهوية القومية، فهذه الهوية لا تعرف فقط من داخل الجماعة في إطار الخصائص المشتركة التى تجمع بين أفرادها، ولكن يتم تحديدها من الخارج بواسطة الآخر، فالهوية القومية تعين فقط من خلال التناقض مع الآخرين [٤] معنى ذلك أنه في اللحظة التى تتعرف فيها الذات على الآخر، تبدأ هى الأخرى في البحث عن هويتها الذاتية، وهو ما يتطلب منها رسم حدود بينها وبين الآخر. أي بين (الهم) و (النحن)، هذه الحدود تتخذ شكل مسارات حول الذات، وبقدر ضيق أو رحابة أفق هذه المسارات، أو انفتاحها أو انغلاقها على نفسها، وبقدر مرونتها أو تصلبها، تسامحها أو تعصبها، انعزالها أو تفاعلها، قسريتها أو طوعيتها، تتعين نوعية الحدود التى تريد الذات أن تقيمها بينها وبين الآخر. [١]

وخلاصة القول : إن البحث عن الهوية العربية لايمكن أن يتم دون أن نولى اهتماماً بالآخر الغربى ؛ لأن فهم هذه الذات يمر عبر تيار الغرب، قبل أن يصب في حركته التاريخية إلى نقطة المنبع ثانية، فمن خلال المواجهة بين ثنائية الذات والآخر، صار الغرب الحديث مرآة للذات تعكس فيها صورتها، كما صارت الذات ترى الآخر في مرآتها هى الأخرى . إلا أن القول بضرورة فهم الذات من خلال الآخر لايعنى على الإطلاق، نقد الذات بفك هذا الآخر ؛ ففى هذه الحالة يصير الآخر بمثابة النموذج المثالى الذى تسعى الذات إليه، ويصبح التخلى عنها أمراً وارداً في سبيل نقل النموذج المثالى، وفى ظل ذلك يتناسى البعض أو يتغاضى عن تحديات الآخر، وأهدافه المعلنة أو الخفية، فينقل منه وعنه، " وفى هذه الحالة تغترب الذات عن قضاياها، ويصبح الاغتراب حالة كامنة في داخل الشخصية ومكوناً أساسياً لها"[٢].

وبمعنى آخر، فإن هويتنا هى علاقة مزدوجة بالذات والآخر وهو ما يقتضى " أن نمارس هويتنا واختلافنا بشكل نعيد فيه العلاقة مع ذواتنا ومع الآخر. فالغرب هو

---

1)Anna Trialdaf yllidou, National identity and the other, vol (21) , No (4) , Routledge , part of the tayloer & Francis Group, 1998. http: // taylor and Francis. Meta press. Com / app / home contribution . asp.

٢) حليم بركات، المجتمع العربى في القرن العشرين . بحثفى تحول الأحوال والعلاقات ، بيروت ،مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٠، ص ٦١.

٣) أحمد عبدالفتاح البربرى، مرجع سابق، ص ٨٠

٤) أحمد مجدى حجازى، في إشكالية الثقافة العربية، أزمة النقد الذاتى. رؤية سوسيولوجية، مجلة كلية الأداب، المجلد الخامس والثمانين، العدد الثان جامعة القاهرة، وحدة النشر العلمى، ١٩٩٨، ص ٣٤.

وجه لنا أو بعد من أبعادنا ، وعلى هذا الأساس ينبغى التعامل معه ، من دون أن يعنى ذلك تقليده أو الرضوخ له. بل يعنى أن نفهم أسباب كونه . ندرك أسرار قوته ، ألا نجهله أو نتجاهله ، وألا نرفضه قبل أن نعرفه"[١] .

ونظراً لهذه العلاقة الجدلية بين الذات والآخر ، فإن الأمر يتطلب الوقوف على مدى الاهتمام العلمى الذى توليه الذات بهذا الآخر .

ثالثاً : صورة الآخر الغربى بين التحليلات الانطباعية والدراسات العلمية :

يذهب بعض الباحثين إلى أن سيادة الخطاب المركز على الذات من جانب العرب ، حال دون تطوير معرفة علمية بالغرب . فالغرب الذى تجاهله المسلمون في البداية، لم يكن غير صنف من أصناف الآخر في حقل أخرية ، كان يتميز بالتعدد والاتساع في مرحلة المد الحضارى الإسلامي ، وهو ما يعنى وجود مناطق وشعوب أخرى غير الغرب ، كانت ذات أهمية أكبر وعلاقات أوثق ، ومعرفة أدق .[٢]

لهذا لم يهتم المسلمون والعرب بهذا الآخر ، على عكس ما فعله الغرب ، الذى تطورت معرفته بالذات العربية مع تطور واتساع مصالحه في الشرق . وفى حين تخصصت مجموعة من الأفراد في الاشتغال بالشرق وشئونه ، فإن الأمر لم يكن هو نفسه بالنسبة للعرب والمسلمين "إذ أن تشكل النظرة إلى أوروبا كان يمر بالتطورات الداخلية لكل بلد على حدة ... ولم تشكل النظرة تخصصاً لفئة معينة ؛ بل على العكس من ذلك فقد كان الموقف من أوروبا الموضوع المشترك للسياسيين والدبلوماسيين ورجال الفكر والأدباء والشعراء ورجال الدين أيضاً . "[٣]

ويمكن تتبع ملامح الصورة التقليدية عن الغرب الأوروبى بين القرنين العاشر والثانى عشر مع رحلات " المسعودى والإدريسى وابن سعيد الغرناطى بشكل خاص وغيرهم من الجغرافيين"[٤] .

ومع الغزوات الصليبية ، والوعى العربى الإسلامي فى أوج الصراع بين الأنا المدافع عن نفسه ، والآخر الغازى ، ظهرت مرحلة جديدة من صورة الآخر في وعى الأنا ،

---

١) إلهام غالى شكرى، الذات والآخر في علم اجتماع الأدب، ورقة بحثية مقدمة للترقية لدرجة أستاذ مساعد،ص ١٤

٢) الطاهر لبيب ، الآخر في الثقافة العربية ، مرجع سابق ، ص ٢٠١ .

٣) خالد زيادة ، تطور النظرة الإسلامية إلى أوروبا ، بيروت ، معهد الإنماء العربى ، ١٩٨٣ ، ص ٦ .

٤) المرجع السابق ، ص ٢٧ .

في أتون المعارك، وتمثلت هذه الصورة في: التعصب والجهل والغزو والفتن .... إلى غير ذلك. وكان الآخر هم الفرنجة، حاملي الصليب في أول محاولة للغرب التوجه إلى الشرق تحت ستار الدين[1].

وفي الفترة التي تلت الحروب الصليبية، انطوت نظرة العرب والمسلمين - التي تكونت عن العالم الممتد شمال البحر المتوسط - على احتقار لهؤلاء الفرنجة ومن جاورهم. والملاحظ على هذه النظرة، أنها لم تنطو على شيء من العداء. ولكي تتأسس النظرة على شيء من العداء كان يتوجب أن يدرك العرب والمسلمين أمرين: "حقيقة القوى السياسية في الغرب، ومدى ما تشكله من خطر على وجوده. وإدراك هاتين الحقيقتين لم يصبح أمراً واقعاً قبل القرن الخامس عشر؛ فقد تجاهل العرب والمسلمون واقع الدول الأوروبية وسياستها وقوتها، كما أن تصورهم بالتفوق كان يحجب عنهم رؤية ما تشكله هذه الشعوب من خطر." [2]

وظلت صورة الغرب في نظر الذات العربية صورة أوروبا المسيحية وريثة الحروب الصليبية. أوروبا الرفاه والغنى. أوروبا الانحطاط الخلقي والرجال المخنثين، أوروبا الرغبة والحنين؛" ومنذ بداية الرحلة إلى الغرب في القرن الثامن عشر، بدأت هذه الصور المتعددة الأشكال تتوحد شيئاً فشيئاً. وعبر المسيحية التي أصبحت لا تدرك باللمس، وعبر أوروبا الشاسعة التي لا حدود لها، تحددت بدقة الصورة صوب غرب واحد رغم تعدده ..... ومنذ ذلك الحين أصبح باستطاعة الآخر أن يأتي من الشمال أو الشرق، غير أنه سيكون دائماً من الغرب، وسرعان ما أصبحت الكلمة غير ذات صيغة وغير محددة." [3]

وبدأت صورة الغرب من جديد تظهر مع قدوم الحملات الاستعمارية الحديثة، خاصة الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ م*. فقد كانت اليقظة العربية تحت وقع

---

١) حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، القاهرة، الدار الفنية للنشر والتوزيع، ١٩٩١، ص ٥٩.
٢) خالد زيادة، مرجع سابق، ص ص ٣٦ – ٣٧.
٣) عبدالله العروي، مرجع سابق، ص ٢٩.
*لا تنتمي فكرة غزو مصر إلى عصر الثورة الفرنسية، ولكنه أقدم من ذلك بكثير، فمنذ فشل الحملات الصليبية على الشرق، لم تغب عن الأذهان هذه الفكرة، واتخذت في العصور الوسطى طابعاً دينياً باعتبار مصر مفتاح القدس والطريق إليها....وفي العصور الحديثة اتخذت الدعوات لهذا الغزو طابعاً جديداً؛ فقد اهتمت فرنسا بمصر في القرنين السادس عشر والسابع عشر. وكان الاهتمام بمصر في ذلك الوقت جزءاً من الاهتمام الأكبر والأهم بالإمبراطورية المهيمنة على مصر، ألا وهي الإمبراطورية العثمانية....وكان الفيلسوف الألماني "ليبنتز" صاحب أبرز فكرة ودعوة لهذا الغزو؛ وذلك حينما أعد رسالة إلى ملك فرنسا

أقدام الحداثة الغربية ، مصحوبة باهتمام جديد بالغرب أى بالآخر -بأتم معنى الكلمة-" . وعبر هذا الاهتمام عن نفسه في شتى النزعات الإصلاحية التى انطلقت في الشرق ، وما يميز هذا الاهتمام، كونه مشوباً بالإعجاب. ونلمح في هذا الاهتمام كذلك بحثاً عن الحوار والتكامل كما تشهد بذلك مواقف المصلحين [١]

ومع الصدمة التى أحدثتها هذه الحملة فى وعى المصريين فى تلك الفترة ، وما ولدته من تناقضات شعورية حادة تتراوح ما بين الخوف من الخطر القادم وتحديات المواجهة ، بدأت هذه الشخصية فى البحث عن هويتها وثوابتها العقائدية والفكرية " وبدأت إشكالية الهوية على المستوى الحضارى ، فتلك الحضارة الوافدة(شكلت) نموذجاً ينبغى الأخذ عنه من أجل الوصول إلى التقدم العلمى ، فى حين (جسد) أصحابها أعداء ينبغى التغلب عليهم والتخلص من سيطرتهم ."[٢]

وتأتى أهمية الحملة الفرنسية باعتبارها حدث ذو مغزى عميق فى تاريخ مصر ؛لأن رد فعل المصرين تجاه الغزاة استحق النظر ؛ ليس فقط لأن الفرنسيين (الآخر) كانوا طليعة الحضارة الغربية الأوربية ، ولكن لأن هؤلاء مثلوا أول مجموعة أوروبية حاولت التحكم والسيطرة على مصر سياسياً واقتصادياً .[٣]

" لويس الرابع عشر " فى نهاية القرن السابع عشر . وكان جوهر فكرة " ليبنتز " أن تنهى أوروبة نزاعاتها الداخلية وحروبها العسكرية بأن تتوجه إلى الشرق ، لكن فكرته لم تلق الصدى الكافى عند الملك " لويس الرابع عشر " . وفى القرن الثامن عشر اهتمت فرنسا بمصر لذاتها ؛ فقد لفتت ثروات مصر الزراعية وموقعها الجغرافى الهام اهتمام الساسة الفرنسيين ، ويرجع الفضل فى ذلك أيضاً إلى كتابات الرحالة والقناصل الذين كتبوا بإفاضة عنها ، مؤكدين على ضرورة الاستيلاء على هذا البلد الغنى بموارده . ومن هنا ظهرت فكرة غزو مصر لدى الساسة فى القرن الثامن عشر ..... وهناك كتابات كثيرة عالجت هذا الموضوع ، منها على سبيل المثال :

- حلمى النمنم ، المصريون وحملة بونابرت . المشايخ . الأقباط . المرأة، مطابع أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٩٨ ، ص
- عبد الرحمن الجبرتى ، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، الجزء الرابع، الغزوة الفرنسية (صدمة الغرب)، اعداد وتحقيق : عبدالعزيز جمال الدين، مكتبة مدبولى، ١٩٩٧، ص ص ٣٤ _ ٣٥ .

[1]) أسماء العريف بياتركيس ، الآخر أو الجانب الملعون ، في : الطاهر لبيب (محررا)، صورة الآخر : العربى ناظراً ومنظوراً إليه ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٩٥ .

[2]) خليل الشيخ ، دوائر المقارنة : دراسات نقدية فى العلاقات بين الذات والآخر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الأردن ، ٢٠٠٠ ، ص ٢١٧ .

[3]) Laila Shukry El-hamamsy , The Assertion Of Egyptian Identity , OP.Cit, P 43.

جاء نابليون بونابرت إلى مصر ومعه جيشين أحدهما عسكري والآخر علمى ، وتمكن الجيش الأول من التغلب على المصريين الذين لم يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم؛ بسبب القوة العسكرية التى كان الجيش الفرنسى يمتلكها . أما الجيش العلمى فقد ساعد المصريين على اكتشاف مقدار تخلفهم وانحطاطهم الحضارى " لذلك اعتبر برنارد لويس حملة نابليون أول قوة مسلحة عبدت الطريق للغرب الحديث فى الشرق الأوسط ، وأول شرارة كهربائية فى طريق التغريب فى الشرق الأوسط . "(١)

فى هذه اللحظة راح المصريون يتساءلون عن سر الهزيمة التى لحقت بهم ، أكان سببها مجرد التفوق العسكرى ، أم أن الهزيمة يقف وراءها تفوق آخر فى العلم والصناعة والاقتصاد . هنا لم يكن التصادم بين المصريين – باعتبارهم عرب ومسلمين – وبين الفرنسيين – باعتبارهم غرب – مجرد صدام بين قوتين مسلحتين " ولكنه كان صداماً بين حضارتين ونظاميين . "(٢)

ولا يهمنا ، بالطبع هنا ، سرد الوقائع التاريخية المرتبطة بهذه الحملة ، كذلك لسنا معنيين بالجدل الدائر حول أهداف هذه الحملة ، وهل كانت أهدافاً استعمارية بحتة أم أنها كانت أهدافاً تنويرية ؛ بل إن ما ترنو إليه الدراسة هو محاولة الوقوف على أثر هذه الحملة على جموع الشعب المصرى ، وعلى الوعى المصرى فى تلك اللحظة التاريخية الحرجة.

ولعل أهم أثر لهذه الحملة هو كونها أعطت المصريين الفرصة كى يدافعوا بأنفسهم عن بلدهم ؛ فبعد قرون عديدة تحمل المصريون المسئولية الخاصة بحماية أنفسهم ووطنهم من خلال المواجهات الضارية بينهم وبين المحتل * ، فمع قدوم الحملة ، وهروب كل من " إبراهيم بك ومراد بك " صار المصريون وحدهم بلا دولة أو حكومة أو جيش يقف فى وجه المحتل ، وبدأت المقاومة اليومية وحدثت ثورة القاهرة الأولى والثانية . وظهر ما يمكن

---

١) محمد محفوظ، الاسلام. الغرب وحوار المستقبل، الدار البيضاء، المركز الثقافى العربى، ١٩٩٨، ص ١١

٢) السيد يس، الأسطورة الصهيونية والانتفاضة الفلسطينية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١، ص ٢٤٩

* كانت مصر قد وقعت فى قبضة الاحتلال العثمانى بشكل نهائى منذ يناير سنة ١٥١٨ م . ولم تعد دولة مستقلة ؛ بل أصبحت ولاية عثمانية . ولم يتاح أمام المصريين أن يدافعوا عن وطنهم ، فلم يكن ممكناً لهم أن يجندوا ويحملوا السلاح ، وصار الجند طبقة خاصة فى البلاد ، تأتى من الخارج مع تجار الرقيق ، ثم يجرى إعدادهم وتدريبهم ليكونوا مقاتلين وفرساناً ثم يصبحوا حكاماً للبلاد..... جاء ذلك فى :
- حلمى النمنم ، مرجع سابق ، ص ٢٨ .

تسميته بالحركة الوطنية المصرية ." هذه الحركة الناشئة هى التى رفضت فيما بعد ، ظلم الحاكم واستبداده ، وأطاحت بكل الولاة العثمانيين الذين بعثت بهم استنبول إلى القاهرة عقب خروج الحملة الفرنسية ..." (١)

وقد تمكنت هذه الحركة بقيادة العلماء من فرض إرادتهم ، وتعيين" محمد على" والياً عليهم . ومهما كانت التحفظات على حكمه وعصره (١٨٠٥ – ١٨٤٠) وأساليبه فى حكم مصر ، فإن هناك ثمة اتفاق على أن مشروعه النهضوى هو الذى أدخل مصر ، بل والعالم العربى إلى العصور الحديثة ، فقد كان نصيراً للتحديث وعمل على استثمار هذه الصورة بمهارة ؛ كى يستميل الرأى العام الأوروبى - خاصة الفرنسى - ويحصل على الحظوة لدى الحكومات"فهو المستمر فى إنجاز مهمة بونابرت فى مصر."(٢)

كانت محاولة محمد على محاولة تحديثية ، تهدف فى المقام الأول الأخذ عن التمدن الأوروبى بما يخدم أهدافه فى إقامة مشروعه التوسعى ، ولهذا اتجه للغرب كمعلم وقدوة له فى ذلك الشأن ، وفى ذلك يعلق " جان ماري كاريه " Jean -Marie Carre أحد المفكرين الفرنسيين على هذا الاهتمام الجديد فى تجربة محمد على قائلاً " هناك مصر ثانية تأتى إلينا بخطى نشيطة وواثقة ، وهى ترتدى ملابس على الطراز التركى ، وتنظر بإعجاب إلي زينا الغربى وتقاليدنا الأوروبية ، وبجرأة تتجه – بصفة خاصة – صوب فرنسا لتطلب منها تأثيث منزلها وزراعة أرضها وتدريب جندها"(٣)

يكشف النص السابق عن سياسة " محمد على " فى تعامله مع الغرب ، وانبهاره بالنمط الأوروبى فى الحياة ، مما يجعل من الاستعانة به فى كل الأمور أمراً حتمياً من أجل الحداثة التى يريدها لمصر.

ولأن الدولة الحديثة التى كان يبغيها "محمد على " ، كانت تحتاج مجموعة من الموظفين المدربين ، اهتم بالبعثات التعليمية ، لتساعده فى تحقيق مأربه . وهو الأمر الذى يراه البعض بدء الغزو الصحيح من جانب الغرب ؛فقد ترتب على البعثات نيوع نمط جديد من التعليم والأدب والفكر يختلف عما كان سائدا من قبل ، وهو ما أدى إلى زيادة الإقبال على الحضارة الغربية المتقدمة . " وبدأ أهل الغرب فى تصوير تاريخ الشرق تصويراً يجعل

---

١) المرجع السابق ، ص ص ٢٨ – ٣٠ .
٢) روبير سوليه، مصر ولع فرنسى، ترجمة : لطيف فرج، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩، ص ٧٢.
٣) أحمد يوسف، الولع الفرنسى بمصر، من الحلم إلى المشروع، ترجمة : أمل الصبان، المشروع القومى للترجمة، العدد (٥٢٠)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ٦٤ .

الناشئين من أهله يعتبرون بلادهم بطبيعة تاريخها غير أهل لما بلغت أوروبة ، وواجب عليها أن تذعن لقيام أوروبة بتعليمها وإعدادها للحرية وللحكم . "[١]

إذن ، أراد " محمد على " من خلال هذه البعثات إصلاح وتحديث نظام التعليم على منوال الغرب المتقدم ، كخطوة أولى لتحديث المجتمع كله ، إلا أن هذه البعثات عملت كذلك على ترسيخ نوع ما من التبعية الذهنية لدى أفرادها ، بحيث صار الغرب النموذج الأرقى الذى ينبغى اتباعه من أجل النهوض بواقع يسيطر عليه التخلف والجمود ، وهو الأمر الذى يغفل خصوصية المجتمعات وتفردها سواء المتقدم منها أو المتخلف .

وما ينبغى التأكيد عليه فيما يخص تجربة محمد على ، أنها كانت محاولة طموحة ، طرحت فى إطار البحث عن توازنات جديدة بعد انهيار السلطنة العثمانية ، وذلك فى محاولة من الجماعة العربية فى تلك الفترة تشكيل نفسها كمدنية فاعلة ضمن الحضارة الجديدة ، أى كذات مستقلة وعاملة . بيد أن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح وسقطت تحت ضربات التدخل الأجنبى الغربى " لأنها بقيت حركة عسكرية بيروقراطية وفوقية ، عاجزة عن تعبئة الطاقات (المصرية) والعربية الفاعلة فى تلك الحقبة . "[٢]

وهذا يعنى أن غياب الجماهير كفاعل أساسى فى تجربة " محمد على " كان أحد المرتكزات التى عجلت بفشلها، وهو ما يلقى الضوء على حقيقة غياب الشعب فى تلك الفترة ، والعمل على تجاهله أو تجهيله على حد سواء .

أما فى عهد خلفاء " محمد على " ، فلم يختلف الأمر كثيراً فيما يتعلق بطبيعة العلاقة مع الغرب ؛ حيث استمر التوجه نحوه على نفس الشاكلة. وكان " إسماعيل " أكثرهم إيماناً بالتقارب مع الغرب إلى الحد الذى دعاه للقول بأنه يريد أن يجعل مصر قطعة من أوروبة . وازداد التدخل الخارجى فى شئون البلاد الداخلية ، وكان الاحتلال البريطاني لمصر الخطوة الأخيرة لهذا التدخل .

وهنا سؤال يطرح نفسه : ما الصورة التى كان عليها حال المصريين فى هذه الفترة ؟ هل كان لأصحاب البلد مكان أو دور فى مجريات الأمور ؟

---

١) محمد حسين هيكل، الشرق الجديد، القاهرة، دار المعارف، ١٩٩٠، ط٢، ص ص ٥٩ ، ٦٤ .

٢) برهان غليون، إغتيال العقل. محنة الثقافة العربية بين السلفية والتبعية، القاهرة مكتبة مدبولى، ١٩٩٠، ط٣، ص ص ٥ ، ٦ .

وفى هذا الصدد تقدم "جانيت أبو لغد" صورة بالغة الدلالة والوضوح فى وصفها لمدينة القاهرة ، خاصة بعد أن فتح الخديو إسماعيل باب مصر على مصراعيه للأوروبيين : بأشخاصهم وسلعهم وخدماتهم ورؤوس أموالهم فى ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر، فهى تسمى ما حدث للقاهرة فى تلك الحقبة ب " قصة مدينتين " ، وهى تقصد بالمدينتين جزاين متميزين ومختلفين تماماً من مدينة القاهرة : أولهما : الجزء المصرى الذى عرف باسم الإسماعيلية ، وهو ما سكنه أساساً الأوروبيون والأغنياء الجدد من المصريين .أما الجزء الأخر، فهو الجزء المعروف الآن بمصر القديمة ، والذى كان يسكنه محدودي الدخل من المصريين " فبينما ترك هذا الجزء القديم من المدينة وشأنه ، وبقى تقريبا على حاله من بداية هذه الحقبة إلى نهايتها ، جرى تطوير الجزء العصرى وتشييده على الطراز الفرنسى بالأرصفة الحديثة والشوارع ....."(1)

يتضح هنا مدى التفرقة التى أقامها الحاكم بين أبناء البلد الأصليين من المصريين، وبين الأجانب . وهو ما يجعل من الممكن معرفة الازدراء والتجاهل الذى عاناه المصريون . وبمعنى آخر، لم يكن الهدف من الاتجاه إلى الغرب فى عهد خلفاء محمد على " النهوض بالمجتمع المصرى، بقدر ما كان تحقيق منافع شخصية لهؤلاء الحكام، أي أن الأوربة التى أرادوها كانت شكلية لم تنفذ إلى جوهر الحياة فى مصر، واقتصرت على الفئات العليا فى المجتمع الذين أتيح لهم بفضل أوضاعهم الطبقية المميزة الاقتراب من النمط الغربى فى الحياة . وهؤلاء بدورهم لم يعنيهم من حضارة الغرب إلا قشورها فى كثير من الأحيان . أما الفئات العريضة التى يتكون منها ذلك التشكيل الذى يطلق عليه الشخصية المصرية، فلم تكن سوى عبيد يستخدمه الحكام للعمل فى ممتلكاته الخاصة .

ومع فترة الاحتلال البريطانى لمصر منذ عام ١٨٨٢، بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ الشخصية المصرية فى علاقتها بالآخر الغربى، فلأول مرة بعد خروج الحملة الفرنسية يأتى الغرب غازياً مرة أخرى ، ويقابل الشعب المصرى هذا المستعمر الجديد " بمشاعر القنوط واليأس، وينمو شعوراً بأن العالم قد انتهى"(2)

---

١) جلال أمين ، العولمة والتنمية العربية من حملة نابليون إلى جولة أوروغواى (١١٧٩٨- ١٩٩٨) ، بيرقت ، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩، ص ٢٦ .

(2) Nadav Safran , Egypt In Search Of Political Community ;An Analysis Of The Intellectual And political Evolution Of Egypt,1804 – ، ١٩٥٢Harvard University Press , England , Second Edition , ، ١٩٨١P 60 .

وبالرغم من أن الأهداف الاستعمارية البحتة لهذا الغزو كانت واضحة وليست فى حاجة إلى برهان عليها ، إلا أن هناك بعض الأصوات التى تردد بين الحين والآخر أن هذا الاحتلال كان له أثر كبير فى النهوض بالمجتمع المصرى وإنجاز عدد من المشروعات الحضارية كمشروعات : السكك الحديدية والتلغراف، وهم يرون فى ذلك أن " اعتداءات الإنجليز على المصريين وعلى مؤسساتهم وتقاليدهم الدينية الموجودة كانت أقل بكثير من اعتداءات غيرهم من الحكام المسلمين السابقين عليهم . . كما وجدت معظم قطاعات الشعب أسباب مقنعة لتحمل وجود الإنجليز فى مصر ، خاصة الفلاحين وملاك الأرض الذين انتفعوا بصفة خاصة من مشروعات الرى التى قام بها الإنجليز ، (ويرى هؤلاء) أن كل إنسان مصرى تمتع بفرص نادرة من العدالة والحكم المنظم تحت الحكم البريطانى . "(١)

وهنا قد يكون هناك اختلاف مع الرأي السابق لعدة أسباب منها : أن المشاريع التى قام المستعمر بها لم تكن إلا لخدمة مصالحه الداخلية والخارجية ، ولم يكن يقصد من وراءها مصلحة الشعب ، كما أن ذلك يدعونا للاقتراب من ذلك الرأى الذى يرى أن هذا الاحتلال كان خطوة فى سبيل تحقيق الحداثة فى المجتمع ، وهنا يحق لنا أن نتساءل : هل كان من الممكن للشخصية المصرية أن تدخل عصر الحداثة دون وجود الاحتلال ؟ لاشك أن الإجابة على هذا التساؤل تكون نعم ، نعم كان يمكن لها ذلك ، لأن منطق التطور التاريخى كان سيقضى إلى ذلك بالضرورة ، والدليل على ذلك تجربة الغرب ذاته ، فقد استطاع تحقيق نهضته دون استعمارعسكرى .

هذا ، ويقدم أحد المفكرين الأجانب صورة للوضع فى مصر فى فترة الاحتلال الإنجليزى ، وهى صورة توضح الفرق الشاسع بين المصريين والأجانب ، فيذكر أنه تم توسيع نظام الامتيازات الأجنبية .... كما أن الأجانب فى مصر كانوا يعتبرون من النواحى القانونية والشرعية والمالية والإدارية ، ومن وجهة النظر الدينية كما لو كانوا لم يتركوا أوطانهم .... " أما المصرى فرجل ضعيف الشخصية وسلبى ، يخضع بسهولة إلى جميع أنواع الهيمنة ... إن هذا الشعب السلبى هو أيضاً : شعب طفل بصفة دائمة "(٢)

---

1) I Pid, P 61 .

٢)روبير سوليه ، مرجع سابق ، ص ٢١٩ .

وكانت هذه هى صورة المصرى فى تلك الفترة ، فهو لا يصلح لشيء فى هذه الحياة سوى أن يكون مستعبداً ، متلقياً سلبياً لكل ما يفعل به ، أمره ليس بيده فى ظل حياة التهميش الكلى التى يعيشها ، ومع ذلك ، فإن هذا لا يمنع من القول بوجود وعى قومى كان قد أخذ فى التبلور ، بحيث يمكن اعتباره المحرك والباعث لكل محاولات الرفض والثورة من جانب الشعب طوال فترة الاحتلال .

وفى أوائل القرن العشرين ، وبالذات فى الفترة التى تلت الحرب العالمية الأولى ، وبسبب وفود أعداد كبيرة من جنود الحلفاء إلى البلدان العربية ، ومن بينها مصر ، ازداد الاتجاه إلى تغريب المجتمع والثقافة المصرية العربية . وبانتهاء الحرب العالمية الثانية اتخذ هذا التغريب شكلاً جديداً نتيجة لتطور الأوضاع العالمية فى تلك الفترة ؛ حيث حلت الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي – باعتبارهما القوتين الجديدتين – محل إنجلترا وفرنسا . " وخلال السنوات التالية كان تأثر الثقافة العربية بالثقافة الأمريكية من ناحية ، وبالدعوة الشيوعية من ناحية أخرى ، متناسباً مع درجة نفوذ كل منهما فى المنطقة . "[1]

وهكذا يتضح أن صورة الغرب مرت بثلاث مراحل يمكن اعتبارها مفاصل أساسية في تاريخ العلاقة بين الشخصية المصرية وآخرها الغربى . تمتد المرحلة الأولى منذ الغزو الفرنسى لمصر وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، ورافقت هذه المرحلة بدايات الاستعمار والتحديث ، والمرحلة الثانية : وتمتد ما بين الحربين ، ورافقت توطد الاستعمار وحروب التحرير ، أما المرحلة الثالثة : فهى مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، أى مرحلة الاستقلال والثورة العلمية – التقنية التى حلت محل الثورة الصناعية ، وواكبت تبدلات كثيرة في العالم كله وتناولت القيم والبنى والأيديولوجيات الموروثة ... كانت العلاقة في كلتا المرحلتين : الأولى والثانية مع الغرب الأوروبي بالدرجة الأولى ، خاصة الدولتين العظمتين آنذاك : إنجلترا وفرنسا . أما في المرحلة الثالثة ، فقد ارتد فيها الغرب الأوروبي إلى المرتبة الثانية ، وحلت محله

---

١) ثناء فؤاد عبدالله، إشكاليات التفاعل والحوار الحضارى بين العرب والحضارة الغربية فى إطار متغيرات العالم الجديد، المستقبل العربى، العدد ١٦٧، السنة ١٥، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٣، ص ٥٢ .

الولايات المتحدة الأمريكية كقوة عظمى .[1] ولا شك أن تبادل الأدوار وتطور العلاقات بين العرب والغرب بكل تفريعاته القديمة والحديثة ، ألقى بظلاله على الصورة المتكونة عن هذا الغرب ؛ فكانت الصورة تساير تطور هذه العلاقات وتحولها .

وفيما يلى أقدم بعض أشكال الصورة عن الغرب كما طبعتها كتابات نماذج من الرحالة والمفكرين فى القرنين التاسع عشر والعشرين.

وفى مقدمة هؤلاء يأتى رفاعة رافع الطهطاوى، (١٨٠١ - ١٨٧٣) ، والتى كانت رحلته – كإمام لإحدى البعثات المصرية إلى فرنسا – أول علاقة مثمرة بين الشرق والغرب؛ وكان لكتابه " تلخيص الإبريز في تلخيص باريز " أثر كبير في تحديد صورة للغرب متمثلاً في المجتمع الفرنسى ، وعلى ذلك فهذا الكتاب كان بمثابة " خلاصة رحلة عن حضارة باريس في أوائل القرن التاسع عشر ، دقق فيها الكاتب النظر وأمعن التفكير والتأمل بين وشائج الحضارة العربية القديمة والحضارة الأوروبية الحديثة [2]

وعلى ذلك ، فالكتاب في جملته يعد بمثابة تقرير جامع عن فرنسا وصورتها يستشف من خلالها صورة مصر ، التى تبدو معالمها عبر الموازنات والحسرات والأمانى التى يعقدها بين بلاد الإفرنج وديار الإسلام . وكانت صورة الغرب عنده تجمع بين نظرتى الإعجاب والنقد في آن واحد ؛ فمن ضمن الأشياء التى لم يعجب بها الطهطاوى " أن الفرنسيين أقرب للبخل من الكرم ، وأن الرجال عندهم عبيد للنساء ، وتحت أمرهن سواء كن جميلات أم لا ."[3]

لكنه مع ذلك وجد فيهم الكثير مما يستحق الثناء " كالنظافة وتربية الأولاد بعناية وحب العمل وذل الكسل وحب المعرفة والمروءة والإنسانية. " [4]

ويكشف كتاب الطهطاوى عن البنية العقلية للأنا أو الذات العربية ، التى لم تكن تقبل إلا ما يتفق معها ، وترفض ما لا يتوافق معها ؛ لذلك لم يقبل صاحب

---

١) أنطوان مقدسى، للغرب دائماً وجهان، في : أحمد الشيخ، من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب . المثقفون العرب والغرب، المركز العربى للدراسات الغربية، القاهرة ، ٢٠٠٠، ص ١٧٥ .

٢)عبد السلام محمد الشاذلى، شخصية المثقف في الرواية الفنية العربية الحديثة بمصر ١٨٣٤ – ١٩٥٢، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨، ص ٢١

٣) رفاعة رافع الطهطاوى، تخليص الإبريز في تلخيص باريز،(١) التنوير، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣، ص ١٥١.

٤) المرجع السابق ، ص ١٥١ .

تلخيص الإبريز " من مظاهر التقدم في الغرب إلا ما رأى له سنداً عقلانياً لا يتعارض والشرع الذى كان يجسده رفاعة بثقافته الدينية ".[1]

ويعتبر " خير الدين التونسى " من أبرز المفكرين العرب الذين شددوا على ضرورة الأخذ عن التمدن الغربى الأوروبى والاستفادة من منجزات العلم الغربى ، وذلك بهدف درء الخطر المحتمل قدومه من الغرب ، وكان هذا الخطر هاجس خير الدين الأول الذى كابده طيلة حياته السياسية . وفى كتابه " أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك " نجد إشارات واضحة حول هذه المسألة ، فهو يرى : " أن تأكيد الذات إنما يتم عبر تجددها ومراعاتها للتنظيمات الدنيوية والسعى باتجاهها ؛ فالأخذ بالتمدن الأوروبي خير ضمانة لاتقاء خطره"[2]

وكان " على مبارك " من هؤلاء الذين رسموا صورة لأوروبا تقوم على التقدم والليبرالية ، دون الخوض في أى نوع من الجدل مع أوروبا ، فقد ذهب على مبارك إلى باريس بعد حوالى ربع قرن من زيارة الطهطاوى إليها ، وتمتعت عيناه بنتائج الثورة المعمارية التى قادها البارون " جورج يوجين هاوسمان " التى لم يرها الطهطاوى . ونجد في كتابه "علم الدين" تطرقاً لكثير من الجوانب التى لم يتطرق إليها الطهطاوى ، والفارق بين ما كتبه الطهطاوى عن باريس وما كتبه على مبارك عنها - كما يرى جابر عصفور – " هو الفارق في تحول الوعى بالموضوع من ناحية ، وتحول الموضوع نفسه من ناحية مقابلة ؛ فعلى أفندى نموذج لوعى أحدث تولد مع جيل الأفندية الذى جاء بعد جيل الشيخ رفاعة ، ومضى بعده إلى ما هو أبعد في مدى الوعى العمرانى والحضارى"[3]

ومع بداية القرن العشرين ، بدأت الأفكار الأوروبية في التغلغل داخل البلدان العربية . ولم يعد في مقدور أحد أن يعالج أية مسألة من مسائل السياسة أو العلم أو الفلسفة ، بغير الرجوع إلى ما تقوله أوروبا في هذا الشأن . إن صورة أوروبا التى كان من الممكن تأملها في بداية القرن العشرين لم تعد تقتصر على جانب التقدم العلمى والتقنى كما رآها المصري أو العربى في بداية القرن التاسع عشر ، ولم تعد كذلك ،

---

[1] جابر عصفور، الرحلة إلى الآخر في القرن التاسع عشر ، في الغرب بعيون عربية (الجزء الأول)، كتاب العربى، العدد ٥٩، وزارة الاعلام الكويتية –مجلة العربى ، الكويت ، ٢٠٠٥ ، ص ٣٨ .

[2] خير الدين التونسى، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك ، تحقيق : معن زيادة، المؤسسة الاجتماعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٨٥، ص ٨٩ .

[3] جابر عصفور ، الرحلة إلى الآخر في القرن التاسع عشر ، مرجع سابق ، ص ص ٢٩ – ٣٠

هذه الصورة تكتسب بعداً لبيرالياً فقط كما تمثلت في النصف الثانى من القرن التاسع عشر ؛ بل أصبحت صورتها طاغية وشاملة . ولم يعد الإنسان العربى قادراً على تجاهل هذه الصورة التى لم تعد تعنى شيئاً خارجياً ؛ بل أصبحت جزءاً من واقعه وحاضره .[1]

هذا فيما يتعلق بصورة الآخر كما تراءت فى الوعى العربى والمصرى . ولكن ماذا عن الاهتمام العلمى الخاص بالآخر وصورته ؟

يكشف البحث فى هذا الموضوع عن قلة الدراسات التى تعنى بدراسة الآخر الغربى في ميدان علم الاجتماع أو في غيره من فروع المعرفة الأخرى ،. واللافت للنظر حقاً في هذا الصدد أنه بالرغم من وجود وفرة من الدراسات الإستشراقية عموماً، فلا يوجد في المقابل دراسات استغرابية باستثناء قلة من المحاولات المتناثرة هنا وهناك . ومن ضمن هذه المحاولات يمكن عرض الدراسات التالية :

فمن الدراسات العربية فى هذا المجال : دراسة : نازك سابايارد : الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة (١٩٩٢) [٢]

اختارت الباحثة أدب الرحلة في القرنين التاسع عشر والعشرين موضوعاً لدراستها ؛ لأنه من أهم الفنون التى صورت احتكاك العربى بالغرب، وما نجم عن هذا الاحتكاك من مؤثرات صدمت الذهنية العربية والمجتمع العربى، وأدت إلى صراع سياسى واقتصادى وفكرى وحضارى لايزال من الأسباب التى تقلق الهوية العربية حتى اليوم . وعلى ذلك تهدف الدراسة في المقام الأول إلى تتبع مظاهر الصراع الفكري والحضارى في أدب الرحالين العرب . و المقصود بالصراع هنا الإحساس بالمفارقات الفكرية بين الأنا والآخر . ويتضمن هذا مبدأ التنازع بين الأضداد، كما يتضمن حيرة المواقف بين الثابت والمتحول، بين الموروث والأصيل في كافة ميادين الفكر والحياة .

وقسمت الباحثة دراستها إلى ثلاث مراحل زمنية :

الأولى : تمتد من رحلة رفاعة الطهطاوى إلى فرنسا عام ١٨٢٦ حتى الاحتلال الفرنسى لتونس ١٨٨١، فالبريطانى لمصر سنة ١٨٨٢ .

والثانية : تمتد من بدء الاحتلال إلى آخر الحرب العالمية الأولى .

---

١) خالد زيادة ، مرجع سابق ، ١٤٣ .
٢) نازك سابايارد، الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة، دارنوفل للطبلعة، بيروت : ط ٢، ١٩٩٢ .

أما المرحلة الثالثة : فشملت الفترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية .

واختارت الباحثة من رحالى المرحلة الأولى كل من : رفاعة الطهطاوى المصري، وخير الدين التونسى، وأحمد فارس الشدياق اللبنانى، وفرنسيس مراش الحلبى .

ومن رحالى المرحلة الثانية اختارت كل من : محمد أمين فكرى وأحمد زكى والمويلحى ومحمد فريد وجرجى زيدان .

ومن رحالى المرحلة الثالثة اختارت كل من : محمد كرد على، وشكيب أرسلان وأمين الريحانى، وطه حسين .

وتوصلت الباحثة في دراستها إلى أنه :

يمكن رد الصراع في أدب الرحالين إلى شعورهم بتفوق الغرب السياسي والاقتصادى والعلمى، ورغبتهم فى أن يدرك الشرق شأو الغرب في هذه المضامير، ولهذا السبب رأوا أن السبيل الوحيد إلى ذلك يكون باقتباس الحضارة الغربية، أو الأخذ ببعض منجزاتها . ولكنهم حرصوا أيضاً على الاحتفاظ بهويتهم الشرقية ؛ فعلى الرغم من اختلاف البيئات التى نشأ فيها هؤلاء الرحالين، وتباين تكوينهم الثقافى، فهناك عناصر مشتركة أشعرتهم بهذه الهوية وولدت الصراع في فكرهم جميعاً، فكونت قاسماً مشتركاً بينهم، على تفاوت ترسخهم في الأصيل واستمساكهم به، أو ميل بعضهم التخلى عنه للحاق بالغرب .

أى أن المشكلة المسببة لهذا الصراع تحددت في : إلى أى مدى يستطيع العربى، والمسلم خاصة، اقتباس الحضارة الغربية لتطوير حاضره من دون أن يفقد صلته بموروثه الماضى، وكيف يوفق بين المستقبل والماضى، بحيث لا تكون العناية بتطوير الذات وتحويلها سبباً في القضاء على أصالتها .

دراسة : دلال البزرى : الآخر المفارقة الضرورية (١٩٩٨)[١]

وتحاول هذه الدراسة الوقوف على السمات المعرفية للعلاقة بين الغالب والمغلوب، باعتبارها القاعدة التى تنبنى عليها العلاقة بالآخر، والباحثة في ذلك تتخذ من الغرب المعاصر في مواجهة الآخر الشرقى الإسلامي مثلاً لذلك . وهى ترى أنه لا يوجد توازن في

---

[١] دلال البزرى ، الآخر المفارقة الضرورية ، مرجع سابق .

المجال المعرفى بين ما يعرفه الشرق عن الغرب والعكس، وتتساءل بدورها : هل بوسع أحد الإدعاء بأن هناك علم استغراب يوازى الاستشراق قدماً أو قدرة أو عراقة ؟

وهى تحاول المقارنة بين الخطاب المعرفي الغربى حول الشرق، والخطاب الشرقى حول الغرب، واختارت من هذا الخطاب : المقارنة بين الخطاب الاستشراقى والخطاب الإسلامي، وبررت الباحثة اختيارها لهذين النوعين بالذات ؛ لأن الأول واضح النزوع نحو شرعنة الهيمنة الغربية، والثانى لأن الغرب دائم الحضور فيه وإن سلباً، وهو موجه ولو بطريقة غير مباشرة ضد المنظومة المعرفية الغربية .

وفى محاولتها الإجابة على سؤال : ما السمات المعرفية بالآخر ؟ توصلت الباحثة إلى عدد من النتائج منها :

١. الاختزال : فأكثر الصفات السوسيولوجية إلصاقاً بالشرق هى الاستبداد، وهو استبداد مرفق عادة بالصفة (العربية الإسلامية) عندما يتعلق الأمر بالشرق العربى ولا يؤخذ العرب إلا كجماعات لا فرادة فيهم ولا استثناء ...أما شرقاً فقد استنبطت هذه التصورات أولا ثم تشكلت طرق الرؤى ثانياً، فالأبلسة هى نفسها ...أمريكا هى الشيطان المطلق، والغرب هم الصليبيون المشركون الكافرون الوثنيون، ودارهم هى دار حرب حلت محاربته حتى آخرا لزمان. هذا بالنسبة للهوية، أما في الحكم السياسي، فهذه المجتمعات وضعية، تحكم بغير ما أنزل الله، وتقوم على الانحلال الخلقى والتفلت، ولذلك يطرح عند الحديث عن مواجهة الغرب إشكاليات مثل : إما مع الغرب أو مع التراث، إما مع الوضعية أو مع الشريعة، إما مع الاستبداد أو مع الديموقراطية

٢ - الجنسنة : يغزو الخطاب الاستشراقى الشرق بذكورية ترمز بشدة إلى العلاقة العادية بين رجل وامرأة : فالشرق عنده، صامت، خائر، واهن، رخو، ساكن، سلبى، والأهم ساحر ....أما الخطاب الإسلامي، فيؤنث الآخر الغربى وذلك من خلال الإكثار من الذكرنة، فتكثر مصطلحات : القوة، الاقتحام، الغزو، الحرب ... إلى غير ذلك .

٣ - الزمن المفوت : ويقصد به أن كل من الغالب والمغلوب يعيش زمناً يشتبك فيه الماضى والمستقبل، بحيث يصعب عليهما امتلاك الحاضر، فالغالب (الغرب) لا يكتفى بمصادرة تاريخ المغلوب والتكلم باسمه، بل يذهب إلى ما وراء التاريخ، فيما المغلوب (العرب) لايجد زوداً عن نفسه سوى اللجوء إلى ما قبل التاريخ، ليس

هناك شرق معاصر لدى الخطاب الاستشراقى ، بل خطف لذاكرة المغلوب ؛ فالعرب هم هم ، لا إبداع عندهم ولا تحولات ولا تجارب ، والأغلب أن هذه المصادرة هى بغرض إدراج العرب ضمن وحدانية الغرب الحضارية المستقبلية ، حيث لا وجود لمن يحتج على الهيمنة ، بسبب فقدان الذاكرة . وما يواسى الشرق العربى أن زمانه السالف صنع ما يشبه هذه الهيمنة ، وإذا ما قيس ببؤس الحاضر ، فسوف يجد فيه معلماً من معالم جبروته المحتملة ، لذلك فهو دائم الاعتصام به والمناجاة له

أما الدراسات المصرية التى تناولت هذا الموضوع فمنها : دراسة حسن حنفى مقدمة في علم الاستغراب (١٩٩١)[1]

وهى دراسة نظرية فلسفية بالدرجة الأولى، تقوم على دراسة " الآخر" من منظور " الأنا "، ففيها يطرح " حنفى " موضوع "الآخر الأوروبي " على بساط البحث ؛ بمعنى أنه يسعى لجعل هذا الآخر موضوعاً للدراسة والبحث العلمى بدلاً من كونه مصدراً للعلم والمعرفة . ويرى " حنفى " أن اعتبار التاريخ الأوروبى والثقافة الغربية كإطار نظرى مرجعى لفهم الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربى، نوع من التغريب النظرى والمنهجى . ومن البداية يقرر أن العلاقة بين الأنا (العربى –المسلم) والآخر (الأوروبى) علاقة تضاد لاتماثل . وينطلق في بحثه من رؤية تاريخية يحلل من خلالها : مصادر الوعى الأوروبى المختلفة، المعلنة والخفية، ثم الكيفية التى تكون بها هذا الوعى عبر التاريخ، ثم يحاول تحليل بنية هذا الوعى ومستقبله مطبقاً في ذلك المنهج التاريخى ومنهج الأثر والتأثر ومنهج التحليل والإسقاط، تلك المناهج التى طالما طبقها المستشرقون على الحضارة الإسلامية، والحضارات غير الأوروبية.

هكذا ينادى " حنفى " بقيام علم " الاستغراب " في مقابل " الاستشراق "، فإذا ما تم ذلك تحدث النتائج الآتية :

- السيطرة على الوعى الأوروبى أى احتواؤه بداية ونهاية، نشأة وتكويناً، وبالتالى يقل إرهابه لأنه ليس بالوعى الذى لايقهر، فيتحول الدارس إلى مدروس، والذات إلى موضوع ولا نصبح ضائعين فيه .

---

[1]) حسن حنفى ، مرجع سابق .

دراسة الوعى الأوروبى على أنه تاريخ وليس خارج التاريخ . صحيح أنه تاريخ تحقق على مراحل لايمكن القفز عليها أو تجاوزها، لكنه مع ذلك تجربة بشرية ومسار حضارى مثل غيره من التجارب.

- رد الغرب إلى حدوده الطبيعية، وإنهاء الغزو الثقافى، وإيقاف هذا المد الذى لاحدود له، وإرجاع الفلسفة الأوروبية إلى بيئتها المحلية التى منها نشأت ؛ حتى تظهر خصوصيتها التى أمكن تعميمها من خلال الاستعمار والسيطرة وأجهزة الإعلام في لحظة ضعف الأنا وتقليده الآخر، واقتصار تحرره على الأرض دون الثقافة .

- القضاء على أسطورة الثقافة العالمية واكتشاف خصوصيات الشعوب .

- القضاء على عقدة النقص لدى الشعوب غير الأوروبية بالنسبة للغرب، وقيامها بإبداعها الخلاق بدلاً من أن تكون مستهلكة للثقافة والعلم والفن.

- إعادة كتابة التاريخ بما يحقق أكبر قدر ممكن من المساواة في حق الشعوب .

- انتهاء " الاستشراق " وتحول حضارات الشرق من موضوع إلى ذات .

ومن هذه الدراسات أيضاً دراسة : حسن حنفى : جدل الأنا والآخر . دراسة في تلخيص الإبريز للطهطاوى (١٩٩٨)[1]

وفى البدء يقرر حنفى أن الحضارة الاسلامية عبر التاريخ كانت في علاقة مستمرة مع الحضارات المجاورة غرباً وشرقاً بل إن إبداعات الحضارة الإسلامية هى نتيجة هذا التفاعل بين الداخل والخارج ، بين الموروث والوافد .... بين الأنا والآخر .

هذا ، وقد اختار الباحث " تلخيص الإبريز " للطهطاوى (١٨٠١ — ١٨٧٣) باعتباره بحثاً في الآخر ، فلم تكن رحلته إلى فرنسا غايتها وصف الآخر بقدر ما كانت قراءة للأنا في مرآة الآخر ، فليست الغاية قراءة باريس في ذاتها ، بل قراءة مصر في مرآة أوروبا ، وليست الغاية الذهاب إلى باريس بل العودة إلى مصر ، ولذلك ينطلق حنفى في معاينته لهذه العلاقة بين الأنا والآخر من عدة ثوابت يجعلها محاور يرتكز عليها تحليله، فهو يجعل من الأنا إطاراً جغرافياً للآخر ومرجع تاريخى له ، ويخرج من قراءته لتخليص الإبريز بعدة ملاحظات إن :

---

[1]) حسن حنفى ، جدل الأنا والآخر . دراسة في تلخيص الإبريز للطهطاوى، في : الطاهر لبيب (محررا)، صورة الآخر : العربى ناظراً ومنظوراً إليه ، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٨ .

- كثير من الأحكام التى جاء بها الطهطاوى هى ملاحظات عامة أقرب إلى الانطباعات الشخصية، وهى فى النهاية انطباعات عالم أزهرى وقع تحت تأثير الصدمة الحضارية.

- الكتاب موجه إلى الجمهور العريض، لا على جمهور المتخصصين، وهو ثقافة عامة لاعلم خاص، لذلك غابت عنه الإحالات الدقيقة والتحليلات العلمية، وقد جعله ذلك أقرب إلى كتب السياحة منه إلى دراسة الغرب.

- يبدو الانبهار بالغرب والإعجاب بالتحدى الأوروبي قد أوقعا الطهطاوى، بل والفكر العربى الحديث كله فى اعتبار النموذج الأوروبى نموذج التحديث، وفى اعتبار فلسفة التنوير نموذج الحضارة الأوروبية، وهكذا غاب نقد الغرب وبيان حدود فلسفة التنوير، ولا سيما بعد أن آل ذلك الإعجاب والانبهار إلى تقليد، ثم إلى تغريب فى الأحيان الحالية.

- إن الغرب عند الطهطاوى هو المرآة المثالية التى تنعكس فيها عيوب الذات، فهو ليس موضوعاً للدراسة، بل هو الظهر الأسود للمرآة التى لا تعكس شيئاً.

- ما زال التقابل بين الأنا والآخر تقابلاً بين أولوية الدين والعلم، فالأنا أعطت الأولوية للدين على العلم، بينما أعطى الآخر الأولوية للعلم على الدين، وقد دفعت تلك القسمة المحدثين إلى أحد الحسنيين: دين الأنا وعلم الآخر، دين الأنا تقليداً وعلم الآخر نقلاً، فلا يتطور الدين ولا يتم الاجتهاد فيه، ولا تبدع الأنا فى العلم، وتظل ناقلة له، وتطمئن الأنا إلى سلامتها فى التقليد عن القدماء، والنقل عن المحدثين.

أما الدراسة الثالثة من الدراسات المصرية، فهى دراسة: إبراهيم البيومى غانم: الغرب فى رؤية الحركة الإسلامية المصرية[1]:

وعمد الباحث فى هذه الدراسة للوقوف على مدلول مصطلح الغرب بأبعاده المختلفة، وتحليل مكوناته التى تدركها الحركة الإسلامية المصرية الممثلة فى: الإخوان المسلمين، وجماعة الجهاد، والجماعة الإسلامية. وفى محاولته هذه عرض الباحث لأصول رؤية الحركة الإسلامية للغرب، وذلك بغرض معرفة الدوافع العقيدية والخلفيات التاريخية التى تقف خلف هذا الاهتمام الكبير الذى توليه الحركة للغرب، ولتتضح أسباب تغلغله فى وعيها على هذا النحو الذى يعبر عنه خطابها السياسى والفكرى. وتناول الباحث

---

[1] ابراهيم البيومى غانم، الغرب في رؤية الحركة الإسلامية المصرية، في: أحمد عبد الله " محررا "، هموم مصر وأزمة العقول الشابة، مركز الجيل للدراسات الشبابية والاجتماعية، القاهرة، مركز البحوث العربية، ١٩٩٤.

أبعاد " الغرب " في رؤية الحركة سواء من حيث دلالات المفهوم أو من حيث القضايا التى يثيرها لديها، كذلك حاول استشراف مستقبل الغرب في رؤية هذه الحركة، وذلك ضمن رؤيتها لمستقبل العالم في ظل الإسلام .

وخرج الباحث من دراسته بالنتائج التالية :

. ثمة دوافع متعددة لاهتمام الحركة الإسلامية بالغرب ؛ فهو عدو حضارى وسبب أصيل في تأخر المجتمع . كما أنه عقبة كؤود في طريق الإحياء الإسلامي وسيادة الأمة سياسياً . وهو بهذا مصدر خطر على البشرية كلها .

- تتخذ الحركة موقفاً نقدياً صارماً تجاه الغرب، وخاصة على المستوى السياسي المباشر . ولا تتصور الحركة مستقبلاً أفضل للعالم السياسى لا في ظل سيطرة الغرب على السياسة العالمية، ولا في ظل أنظمة الحكم العلمانية والديكتاتورية التابعة للغرب .

- معظم إدراك الحركة للغرب مركز حول الأبعاد السياسية بدرجة كبيرة ، والأبعاد الاقتصادية والثقافية والاجتماعية بدرجة أقل . والحركة في غفلة عن مخاطر التقدم العلمي الذى يقوده الغرب، وهى مقصرة بصفة عامة في نقد هذا التوجه والتحذير من تداعياته السلبية .

رابعا : صورة الشخصية العربية في الفكر الغربى :

منذ عصر الاكتشافات الجغرافية ، ومطلع عصر التنوير الأوروبي كان الفكر الغربى يعيش في عالم لا تشاركه في صنعه الحضارات الأخرى ؛" وكانت كتابات المفكرين تنطلق من فرضية وضعوها على أساس شرق متخلف ، في مقابل غرب متقدم "[1]

ويرى البعض أنه يوجد في الغرب عدة خطابات في هذا الشأن ، وهو الأمر الذى يترتب عليه تعدد وجهات النظر فيما يخص تلك القضية فهناك من جهة " خطاب غير رسمى – تتزعمه بعض القنوات الإعلامية وبعض الباحثين والأكاديميين والسياسيين – موجه نحو الرأى العام الغربى ، يتوخى رسم صورة مشوهة للعرب والمسلمين . كما يوجد خطاب آخر رسمى ، يتبدى في وجهين : الأول ، علنى يطالب

[1]) على شعيب، الاستشراق وكتابة التاريخ، الفكر العربى المعاصر، العدد ٧٠-٧١، مركز الانماء، بيروت، ١٩٨٩، ص ٥٩ .

بالتسامح والتعايش مع العرب والمسلمين واحترام الحضارات الأخرى . والخطاب الآخر، خفي وواقعي ، ينادي بعكس ذلك فيطرح مقولات وبدائل مثل التضييق على العرب والمسلمين ."[1] وغير ذلك من 'إجراءات لا تؤدى إلا لمزيد من تعميق الصورة السلبية عن العرب والمسلمين .

وعن صورة العرب في الفكر الغربي يدور التحليل التالي :

حيث يمكن تلمس البداية أو نقطة التماس الأولى منذ زمن الحروب الصليبية ؛ فقد كانت الجيوش الصليبية هي قناة الاتصال الأولية بين الغرب والشرق ، فمن خلال الاتصال اليومي المستمر على مدى سنين ، أخذت الأفكار الخيالية المتكونة عن الشرقيين تضمحل وتتلاشى . ومثل هذا الاتصال فرصة تم عبرها تعديل الصورة السلبية التي حملها الصليبيون عن أهل الشرق الإسلامي . وكان هناك إعجاباً من قبل هؤلاء بعدد من السجايا العربية والإسلامية : كالفروسية والضيافة والنبل ،" كذلك أعجب الصليبيون بالقيم والتقاليد العربية ، واستهوت هذه القيم الإنسانية وطريقة الحياة عدداً منهم ، وأقنعتهم بالتزاوج من أهل البلاد والاستقرار بها" .[2]

ولم يكن الصليبيون هم مصدر المعلومات الوحيد عن العرب في أوروبا، فقد أضافت أعمال بعض العلماء وكتابات التجار والرحالة صوراً جديدة عنهم . وفي القرون اللاحقة – وبخاصة في القرن السادس عشر الذى شهد ظهور مذهب التجارة في أوروبا الغربية – تم اختزال ثراء الحضارة العربية الإسلامية إلى صورة وضيعة وذلك لتبرير الدوافع السياسية والاقتصادية وخدمتها . وبدأت أوروبا الغربية تهتم اهتماماً من نوع جديد بالشرق .. ..وجرى تصوير العرب في كتابات هؤلاء الرحالة والكتاب والتجار على أنهم " شعب خطر ، فظ ، عدائي ، ولا يظهر المودة للمسافرين . ولم يقتصر هؤلاء على كتابة حكايات سطحية عن العرب ، بل إنهم خلقوا وألفوا بأنفسهم خرافات وصور هي في الواقع من نسج خيالهم ... لقد ذهبوا إلى الشرق ومعهم تصورات مسبقة وأفكار كانوا يحملونها في بلادهم ثم تبنوا ما شاعوا أن يتبنوه في أذهانهم على هذا الأساس دون أن

---

١) إدريس لكريني، الإسلام والغرب. نظرية الصدام وواقع الفهم الملتبس، المستقبل العربي، العدد ٢٩٣، السنة ٢٦، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ٢٠٠٣ ، ص ١٥١ .

٢) محمد عابد الجابري ، مسألة الهوية .. العروبة والإسلام .. والغرب ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ص ٢٦ .

يخالطوا العرب إنهم لم يكلفوا أنفسهم أن يسألوا من هم العرب، وما هو نوع ثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم، بل حاولوا ترتيب كل هذا في الصورة القائمة عنهم سلفاً في أذهانهم، " وبهذا كانت هذه الصور قد خلقت ذاتياً Self Created إلى حد كبير، بهدف ملاءمتها لحاجات سياسية واقتصادية وأحياناً فكرية . " (١)

واستمرت الصورة على هذا الحال في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وحمل الاستشراق* التقليدى بعض هذه الصور، وورثتها علوم الأنثروبولوجيا والاجتماع وفلسفات التاريخ، التى اعتبرت التقدم انتقالاً من الشرق إلى الغرب، أى من الذات إلى الآخر، من السحر والخرافة إلى العقل والعلم، من طفولة البشرية إلى نضجها . (٢)

ويشكل الغزو الفرنسى لمصر عام ١٧٩٨ م، الصيغة الأساسية للعلاقة بين الشرق والغرب، فقد أسس هذا الغزو الاهتمام الأوروبى بمصر على مستوى جديد وأضاف مصر إلى قائمة الأماكن التى اهتم بها الرحالة الغربيون . (٣)

فهذا الغزو كما يعتبره "إدوارد سعيد" كان على أكثر من وجه "النموذج الأكمل للمصادرة العلمية التى تمارسها ضد ثقافة ما ثقافة أقوى منها ؛ ذلك أن احتلال نابليون لمصر أدى لتحريك عمليات بين الشرق والغرب ما زالت تسيطر على منظوراتنا الثقافية والسياسية المعاصرة، وقد قدمت الحملة النابليونية بمأثرتها البلاغية" وصف مصر "منظراً أو وضعية للاستشراق ؛ لأن مصر أولاً ثم البلدان الإسلامية الأخرى، اعتبرت المجال الحى والمختبر والمسرح للمعرفة الغربية الفعالة بالشرق ." (٤)

وهكذا لعب الاستشراق دوراً كبيراً في رسم صورة معينة للعرب والمسلمين، وأهل الشرق بصفة عامة، وكان الاستشراق الأداة التى من خلالها، قام الغرب بعملية تفكيك "الآخر" وسلبه أناه وإقصائه وتحويله إلى مجرد موضوع، فالشرق بالنسبة له كان الآخر الذى لابد من عزله وتمييزه ليصبح في الإمكان بناء الأنا الأوروبى كذات وحيدة كل ما عداها موضوع لها . ولجأ المستشرقون في بناءهم ل(الأنا) الأوروبى إلى

---

١) المرجع السابق، ص ص ٢٧ : ٢٩ .

٢)حسن حنفى ،مقدمة في علم الاستغراب ، مرجع سابق ، ص ٧١٠ .

(3)Paul & jannet starkey , travellers in Egypt , London , Newyork , tauris parke paperback . 2001 , p 1.

٤) إدوارد سعيد، الاستشراق . المعرفة . السلطة، الإنشاء، ترجمة كمال أبوديب، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨١، ص ٧٣ .

جملة من عمليات العزل والإقصاء ل(الآخر) الشرق . وتمثل هذا الإقصاء في عدة نواح : الإقصاء الجغرافى ، والعرقى ، والعقلى ، و الحضارى " هذه الأنواع من الإقصاء للشرق من طرف الغرب كانت بهدف أن يتعرف هذا الأخير إلى ذاته ويبنى أناه ، وكان ذلك أيضاً سبيلا لاستعادة " الشرق نفسه " كموضوع للغرب . موضوع لابد من معرفته كي تتأتى السيطرة " [1]

وبقيت حاجة الغرب إلى معرفة الشرق قائمة تتجدد باستمرار ، واستمرت الدراسات الاستشراقية في تحديد صورة خاصة بالعرب والمسلمين حتى اليوم ، وبالرغم من اختلاف الأهداف الكامنة خلف هذه الدراسات ، واختلاف القائمين بها ، فإنها ظلت صور مجمدة لا مجال فيها للتطوير وليس هناك إمكانية لتغييرها " فالاستشراق كأداة إمبريالية ، اختزل ثراء الحضارة العربية الإسلامية ، وما فيها من طريقة حياة وثقافة إلى مجموعة من القوالب الثابتة التى يمكن التعامل معها بسهولة ، والتى تجاوزت كثيراً التعميم العلمى المعقول . واتخذت مطية لتسويغ وتعزيز سيادة الغرب الاستعمارية الماضية على الشرق العربى ، كذلك مصالحها ومطامعها الحاضرة في هذا القسم من العالم . [2] وتمكن هؤلاء المستشرقين سواء منهم العلماء أو الرحالة أو الكتاب ، من تكوين صور وأفكار مقولبة عموماً عن الشرق العربى ، وتحددت ملامح هذه الصورة في كون الشرق : قاس ، ومتخلف ، وشهوانى ، ومستبد .

وفيما يلى أقدم مجموعة من الصور النمطية التى جاءت عبر كتابات استشراقية متنوعة ، وذلك على سبيل المثال لا الحصر بغرض التعرف على صورة الذات العربية كما يراها الآخر ، وكما تتبدى في فكره .

وكان إدوارد لين E. Lane من بين المستشرقين المعروفين الذين أسهمت أعمالهم كثيرا في خلق صورة سلبية عن العرب والمسلمين ، وذلك في كتابه " تقاليد المصريين المحدثين وعاداتهم " عام ١٨٣٦ ، ومثل هذا الكتاب المرجع الأساس لكثير من الرحالة الذين أتوا إلى مصر في القرن التاسع عشر .. " ويشعر القارىء لهذا الكتاب أنه

---

١) حلمى خضر سارى ، صورة العرب في الصحافة البريطانية . دراسة اجتماعية للثبات والتغير في مجمل الصورة، ترجمة عطا عبدالوهاب ، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية ، سلسلة أطروحات الدكتوراة، ص ص ١٢٧ : ١٣٢ .

٢) محمد عابد الجابرى، مسألة الهوية . العروبة والاسلام . والغرب، مرجع سابق، ص ٢٤ .

مكرس من أوله إلى آخره لإفهام القارئ الغربى ، أن الإنسان الغربى هو الأحسن والأقوى والأذكى إذا قورن بالإنسان الشرقى . ثم إن الغربى بما أنه مسيحى يجب أن يحترس من الشرقى المسلم ؛ إذ أن لدى أهل الشرق شعوراً يربى فيهم ، منذ نشأتهم ، ويعلمهم أن يكرهوا كل ما هو غير مسلم . ومعنى ذلك أنهم يمثلون خطراً يجب الاحتراس منه"[1] وهكذا تظهر صورة الإسلام لدى هذا الكاتب " صورة مشوشة لعقيدة غير واضحة ، تثير الخوف في نفس الغريب عنها . "[2]

ونجد تلك الصورة عند الكاتب الفرنسى أندريه سرفيه Andre Servier ، الذى قدم دراسة نفسية ، يدور محورها الأساسى حول اعتبارين : دونية الآخر العربى المحتل ، و فوقية الذات الأوروبية المحتلة . والعرب من وجهة نظره لا يملكون ثقافة مستقلة ، وما يعرف بالثقافة العربية ما هو إلا ثقافة مستعارة من الشعوب الأخرى عن طريق النقل والاقتباس ، بما في ذلك الأدب والفنون والعلوم وحتى الديانة ، وبمرور هذه الثقافة من خلال العقل العربى الضيق، كما يرى بذلك سرفيه ، العاجز عن التصور الفلسفى الشامل ، تشوهت هذه الثقافة وأفسدت بكامل فروعها . أما الإسلام فهو " ليس غلا مجموعة من التقاليد المسيحية اليونانية واللاتينية ، جردت من شكلها الشعرى ، ومن معانيها الرمزية والفلسفية ، فنتج عن ذلك عقيدة متحجرة باردة في شكل نظرية هندسية تقول : الله ، النبى ، الإنسان . "[3]

أما صورة العرب كما يقدمها رافائيل بتاى Patai Raphael الكاتب الصهيونى ، فهى صورة لا تختلف عن سابقتها ، ففى كتابه " العقل العربى " الذى أصدره بعد هزيمة الخامس من يونيو ١٩٦٧ م . فالعرب كما يقدمهم بتاى للقارئ الغربى (الأمريكى - الأوروبى) " مفطورون على العداء للغرب ، قوم انفعاليون ، قليلى الحظ من التفكير الموضوعى بالواقع ، مستعصين على التطور ؛ بفعل دينهم الإسلامى

---

١) منى حسين مؤنس، مصر في عيون الغرب وأدبه، القاهرة، دار المعارف، ١٩٩٨، ص ٥٥ .

٢) منى حسين مؤنس، إدوارد لين و جوزيف ماك فيرسون : صورتان للإسلام، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد (٥٧) العدد (٣)، وحدة النشر العلمى، ١٩٩٧، ص ١٤٥ .

٣) هشام شرابى ، النقد الحضارى للمجتمع العربى في نهاية القرن العشرين ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٩٩ ، ص ٣٦ .

وروحهم التقليدية "[1]. وبهذا فقد وضع بتاى العرب موضع النقيض من نموذج الإنسان الغربى الحديث .

وفى كتابه : القافلة : قصة الشرق الأوسط ، يقدم الباحث الأنثروبولوجى الأمريكى : كارلتون كون Carleton Stevens Coon ، للعلاقة بين الغرب والآخر اللاغربى ، وتستند هذه العلاقة عنده على مفهومى : تقدم وتخلف ، أى علاقة الغرب الصناعى المتقدم بالعالم الثالث المتخلف ، حيث تختفى في نص كارلتون كون الأيديولوجيا الاستعمارية ليحل محلها أيديولوجيا متخفية وراء الاصطلاحات التقنية والمفاهيم العلمية الموضوعية ، من هذا المنطلق يصف كون المجتمع العربى بأنه مجتمع فسيفسائى ، أى مجتمع تنقصه الوحدة والانسجام ، وتحكمه التناقضات البنيوية الناتجة من تركيبه القبلى والطائفى والإثنى ، وذلك على عكس المجتمع الغربى الحديث بوحدته وتماسكه وتجاوزه الفروقات الاجتماعية السابقة للحداثة ... ويبدو الأفراد والجماعات — من وجهة نظره — دون هوية متميزة خارج الهوية التقليدية (القبلية أو الإثنية أو الدينية) ". وينتهى كون إلى إبراز صورة للآخر العربى ، تختلف عن صورة الذات الغربية إلى درجة تصبح فيها الهوة التى تفرق بينهما مستحيلة العبور ؛ فالعقلية العربية كما يراها ، غير قادرة لمدة طويلة أن تستوعب نمط السلوك الغربى "[2]

أما المستشرق المعاصر " لويس برنارد Lewis Bernard ، فيعتبر واحدا من الذين تميزوا بتقديم صورة مشوهة عن العرب والمسلمين ، وذلك في الكتابات العديدة التى قدمها في هذا الشأن ، والتى منها على سبيل المثال : " الاسلام والغرب " و " اكتشاف المسلمين لأوروبا " و " اللغة السياسية للإسلام " و " ثقافات متصادمة " و " أين الخطأ . التأثير الغربى واستجابة المسلمين " . وهو في هذا الكتاب الأخير ، يعرض لتخلف العرب والمسلمين وسؤالهم من الذى فعل بهم هذا التخلف ، فيقدم تحليلاً ويقدم إجابة عن السؤال السابق مفادها أن المسلمين ظلوا زمناً طويلاً يفضلون إلقاء التبعية على المغول ، واعتبار الغزوات المغولية في القرن الثالث عشر مسئولة عن تدمير قوة المسلمين والحضارة

---

١) محى الدين صبحى ، ملامح الشخصية العربية في التيار الفكرى المعادى للأمة العربية . دراسة في بعض بوادر نظرية عرقية تشوه الشخصية العربية في حضارتها وكفاحها وطموحها بيروت ، الدار العربية للكتاب ، ص ١٤٥ .

٢) هشام شرابى ، النقد الحضارى للمجتمع العربى ، مرجع سابق ، ص ص ٣٨ : ٤٠ .

الإسلامية.... ومع نشأة القومية – وهى المستوردة من أوروبا – أصبح بمقدور العرب أن يلقوا بتبعة متاعبهم على الأتراك الذين حكموا العرب قروناً طويلة... وأدت فترة السيادة الفرنسية والبريطانية على معظم مناطق العالم العربي في القرنين التاسع عشر والعشرين إلى ظهور كبش فداء جديد وأقرب للمنطق، ألا وهو الإمبريالية الغربية . وبرزت في الشرق الأوسط أسباب قوية لإلقاء التبعية عليه ؛ إذ أن السيطرة السياسية الغربية والتغلغل الاقتصادى، ثم التأثير الثقافى قد غير من وجه المنطقة، ومن حياة أهلها، فوجههم وجهة جديدة وبعث فيهم آمالاً قشيبة، وأثار مخاوف جديدة، وأوجد مخاطر وتوقعات لم يسبق لهم بأيها عهد في تاريخهم الثقافى ... ومع انتهاء الاحتلال البريطانى والفرنسى، كان من المحتوم أن يتحول دور الشرير في هذه الساحة منهما إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وإلى غيرها من مظاهر الزعامة الغربية . ولقيت محاولة نقل " الذنب " إلى أمريكا دعماً وتأييداً كبيرين، لكنها لاتزال غير مقنعة للأسباب ذاتها، فقد كان الحكم البريطانى والفرنسى شأنه شأن الغزوات المغولية من عواقب، لا من أسباب الضعف الداخلى للدول والمجتمعات في الشرق الأوسط[1] .

لايضع " برنارد لويس" في اعتباره الدور الخطير الذى لعبه الاستعمار بكافة أشكاله في تأخير النمو في البلدان العربية وربطها بروابط التبعية المختلفة، بل إنه يجعل من تخلف هذه البلدان قدراً محتوماً ؛ فهى شعوب لا تجيد سوى البحث عن كبش فداء، تلقى عليه بكل تبعات تخلفها . وهنا تبدو النزعة العنصرية واضحة بشكل جلى، ولهذا فليس من الغريب أن نجده يصف المسلمين بأنهم " قوم أوغاد بطبعهم، يكرهون الآخر، ويريدون ذبح الغرب واليهود انتقاماً لعجزهم وتخلفهم"[2] .

وفى كتابه الأشهر " صدام الحضارات " يكرس صامويل هنتينجتون، نفس الصورة السلبية للعرب والمسلمين، فهؤلاء من وجهة نظره قوم " يخشون ويمتعضون من القوة الغربية، وما يمثله ذلك من خطر بالنسبة لمجتمعاتهم ومعتقداتهم . وهم يرون الثقافة الغربية ثقافة مادية فاسدة، متفسخة ولا أخلاقية، ومن هنا يؤكدون أكثر فأكثر على الحاجة لمقاومة تأثيرها على أسلوب حياتهم . ويهاجم المسلمون الغرب

---

١) برنارد لويس، أين الخطأ : التأثير الغربى واستجابة المسلمين، ترجمة محمد عنانى، القاهرة، سطور، ٢٠٠٣، ص ص ٢٣٩ : ٢٤٠ .

٢) المرجع السابق، ص المقدمة .

بدرجة متزايدة ؛ لا لأن الغرب يتبع ديناً غير كامل أو خاطئ رغم أنه دين كتاب ، بل يهاجمونه لأنه لا يتبع أى دين بالمرة . " [١]

لقد نجح هؤلاء وغيرهم ، إلى حد بعيد ، في تشويه صورة الشخصية العربية في أنظار العالم ، ليس فقط بإعداد البحوث غير الموضوعية أو إصدار كتب ودراسات مغرضة ، بل كذلك باستغلال الأدب القصصي والروائي في تشكيل صورة غير واقعية وغير حقيقية عن الشخصية العربية ، والأمثلة على ذلك كثيرة منها : روايات إدوارد لين رباعيات الإسكندرية ، وروايات روبير سوليه : المملوكة والطربوش وسيمافور الإسكندرية .... إلى غير من ذلك من أعمال أدبية ذات مضمون أيديولوجي موجه بالدرجة الأولى لتقديم صورة نمطية زائفة عن العرب والمسلمين [٢] . ويجمل محسن جاسم الموسوى ، في كتابه " الاستشراق في الفكر العربى " الخصائص النمطية لصورة العربى في :

- العربى يمتلك نزعة للتناحر والاحتراب .
- العربى فردانى وأنانى
- رهين أنانيته ويمثل (الحنين والرجاء والإحساس بقصر العمر) الأبعاد الثلاثة التى تحد حياته .
- يميل العربى إلى الشورى ، ولكنه يميل أيضاً إلى الوساطة ، كما أنه مجبول على النزاع والامتثال مع إخوته .
- المباهاة والتفاخر والاعتداد بالكبرياء ملامح قائمة في الشخصية العربية ، وتقود إلى التكتم والتستر وخشية الفضيحة واعتماد المبالغة
- النهن العربى يختلف عن الأوروبى .
- العربى متقلب كالصحراء ، يصعب أن تقيم العواطف والأفكار والتناقضات في داخله طويلاً ، ولهذا فهو يتعامل مع الآخرين بقسوة دون إحساس

---

١) صامويل هنتيجتون ، مرجع سابق ، ص ٣٤٥ .

2) Ahmed Fathy Rezk , Limage des le svantins dons Louvere Ramanesque de Robert sole, these de Magistere , universite de Tanta , faculte des letters , Departement de Francais , 1999

بالذنب ، ويبقى الواقع بالنسبة له " داخلى خاص به " ، على خلاف الأوروبى الذى يبصر الواقع على أنه ما يقع خارجه .

- المجتمع العربى لا يمكن أن يواجه روح العصر أو يحتويها ، فهو مكبل بتقليدية خاصة به ، ولهذا يرى عظمته في بواكيره ، ولا يبحث بعد ذلك عن عظمة أخرى .[١]

كما توضح بعض الدراسات التى أجريت حول الصورة الذهنية للعرب في الغرب من خلال الكتب المدرسية ، أن الصورة التى ترتسم عن الشخصية العربية هى صورة سلبية ، فالعرب في هذه الكتب يظهرون على أنهم :

- أثرياء كبار يشترون أمريكا ، ويتسببون في ارتفاع الأسعار ، ولا سيما العقارات .
- العرب يكرهون الغرب ويشكلون خطراً .. والمسلون يكرهون المسحيين .
- العرب أعداء العالم ومثيرو الحروب .
- المعالم البصرية لصورة العربى المسلم هى لباس " الكوفية والعقال " للرجال والحجاب للمرأة ، وسيارات الليموزين الطويلة واللحية السوداء الضخمة والنظارات الشمسية السوداء . وهكذا " لم تشوه سمعة جماعة دينية أو ثقافية أو قومية ، ويحط من قدرها بشكل مركز ومنظم كما حدث للعرب . "[٢]

فمن بين شتى أصناف الآخر يكون العربى هو الآخر الحق وهو " ذلك الأجنبي بامتياز ، وذلك العدو المنعوت بالبنان . "[٣]

يبدو من العرض السابق مدى سلبية صورة الذات العربية في كتابات وفكر الآخر الغربى ، إلى الحد الذى يرسخ في الأذهان مقولة " من يجرؤ أن يكون عربياً " على غرار المقولة القديمة " من يجرؤ أن يكون فارسياً " . وتكمن خطورة هذه الكتابات وغيرها في أنها تكتسب قناعة القاعدة العريضة من القراء الغربيين ، هذه القناعة مؤكدة نظراً لمطابقتها لحقيقة متوقعة وقائمة من قبل " لأنها فى نهاية المطاف ترد على المجتمع

---

١) محسن جاسم الموسوى، الاستشراق في الفكر العربى، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٣، ص ص ٣٨ : ٤٠ .

٢) سليمان قناوى ، في أمريكا: الدراسات العلمية تؤكد أن الصورة قاصرة .. سطحية .. متحيزة وسلبية، في: مجموعة من الباحثين ، صورة العرب والمسلمين في المناهج الدراسية حول العالم ، الرياض، كتاب المعرفة ، مجلة المعرفة ، ٢٠٠٣ ، ص ص ١٣-١٤

٣) روبار شارفان، الآخر في فرنسا المعاصرة : العربى كبش الفداء، في : الطاهر لبيب (محررا)، صورة الآخر : العربى ناظراً ومنظوراً إليه ، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٩ ، ص ٥٨٨ .

الغربى صورته مدعمة بتحقير "الآخر" . وليس من شك في أن عملية المرآة هذه عملية جد خطيرة ، لأنها ملازمة لعملية المعرفة ، حيث تحدد الذات العارفة الآخر وتشكله في صوره موضوع . "(١)

يبدو الرأى السابق مقبولا بشكل كبير ، خاصة وأن الصورة التى ترتسم الآن في الرأى العام الغربى حول العربى المسلم ، والتفاعلات التى تتم مع هذه الصورة بكل زيفها وتشوهاتها وحقائقها ، ما هى إلا استمرارية وشبه استجابة للصورة التى تكونت عبر التاريخ الوسيط والحديث حول الشرق عموماً والعرب بصفة خاصة ، وهى الصورة المكثفة في وسائل الإعلام وفى الدوائر السياسية والتشريعية المتخذة للقرارات عبرا لمنظمات والدول .. وهى الصورة التى تتخذ أشكالاً متقاربة من حيث ارتسامها في ذاكرة المجتمعات الغربية ؛ إذ تختزل في أغلب الأحيان في الإنسان الذى لا يرتبط بالحياة البشرية بغير الخيمة ، والاجتماعية بغير القبيلة وروابط القرابة ، يرتحل على أرض قاحلة ووسيلته في ذلك الجمل ، ومجاله قفر مكنوز بالذهب الأسود ..... على غرار تلك الصورة النموذج ، المتكررة عبر الاعلام الموجه تنشأ الأجيال و تتشكل اتجاهات الرأى العام التى تتفاعل مع الأحداث السياسية والعسكرية ..." ولا تفتأ الصورة السلبية اللاموضوعية ، المشوهة أن تبرز من جديد حينما نتوقع أنها اختفت ، فتحدث اهتزازات في مرتكزات القيم والأفكار التى بدأت تترسخ في الشرق عن إنسانية الغرب وفضله على العالم . "(٢)

وإن كانت الصورة السلبية عن العرب والمسلمين هى الصورة السائدة فى كتابات الكثرة من المفكرين الغربيين ، إلا أن ذلك لا ينفى وجود بعض المنصفين الغربين الذين يحاولون تحرى الصورة الصحيحة عن العرب والمسلمين .

خامسا : محددات الصورة لكل من الشخصية المصرية والآخر .. عواملها وظروف تشكلها :

من الواضح وجود واقع معقد ، ذو عوامل متشابكة ، متداخلة أثرت وما زالت في تشكيل صورة كل من الذات والآخر . والحقيقة التى مراء فيها ، هى أن الصورة الذهنية الخاصة بالذات العربية والآخر الغربى تتسم بكونها صورة سيئة من كلا

---

١) محمد على الكردى، الشرق والغرب بين الواقع والأيديولوجيا، فصول، المجلد الثالث، الجزء الأول، العدد الثالث، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٣ ، ص ٢١٨.

٢) محمد نجيب أبوطالب، العلوم الاجتماعية والاستشراق : صورة المجتمع العربى الاسلامى، في الطاهر لبيب (محرراً)، صورة الآخر : العربى ناظراً ومنظراً إليه، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩، ص ص٤٣٣ : ٤٣٤ .

الطرفين تجاه الطرف المقابل . ويتجلى سوء الفهم المتبادل بين العرب والغرب في تصوير كل طرف للآخر بشكل مسيء . وهذ ما يجعل من السؤال عن أسباب تكون صورة ما دون غيرها أمر ملح في هذه الدراسة .

ويمكن تحديد أهم الأسباب الكامنة خلف ذلك إلى :

١ - الأسباب التاريخية : وتشمل هذه الأسباب على فكرة الصراع بين الشرق والغرب منذ الحروب الصليبية على الشرق وكذا الفكرة والواقع التاريخى المتعلقين بالعداء للإسلام والمسلمين .

٢ - الفكر الاستعمارى : وما ترتب على التبعية العربية لدول الغرب لفترة طويلة ، فقد كان ذا أثر في نظرة الغربيين للعرب على أنهم قوم تابعين وخاضعين ، ولهذا ينبغى الأخذ بيدهم من أجل العمل على تطويرهم . والسبيل الوحيد لذلك هو استعمارهم .(١) لقد وصفت الشعوب في العالم اللاغربى بأنها ناقصة في قدراتها السياسية والثقافية والحضارية ، واعتبرت أوضاعها الراكدة عاملا معرقلاً للتقدم البشرى ، وهذا ما جعل الرأى العام الأوروبى في القرن التاسع عشر يجند ويعبأ من أجل التهيئة للاستعمار . واعتبرت أوروبا نفسها مسؤولة عن القيام بدور حضاري تمديني لبلاد الشرق ، وتم تبرير كل الوسائل من أجل التدخل لإدماج الشعوب الأخرى في الحضرة الرأسمالية، فالحضارة الغربية اعتبرت خلاصة التطور ، كما اعتبرت باقى المجموعات والحضارات بدائية ، تعيش طور التوحش والهمجية والقبلية وشتى أوجه الانحلال والتخلف .(٢)

٣ - المركزية الأوروبية : حيث أقام الأوروبيون منذ القدم ثنائية تعارضية ين الشرق والغرب ، وضمنوها نزعة مركزية أوروبية تمجد الغرب ، وتحط من شأن الشرق ، واصطبغت هذه النزعة بألوان متباينة ومختلفة : جغرافياً وثقافياً وعرقياً ودينياً . وكان ثمة شعور — في البداية — بالنقص تجاه الآلام والعرب ، وأحياناً أخرى شعور بالخوف من هيمنة هذا العالم ، صحبه شعور بالإعجاب ..... وفى المرحلة الحديثة ، ومع تعاظم التقدم الاقتصادى والسياسى والتوسع الاستعمارى ، ترسخت صورة التقدم على الشرق الذى كان يقود العالم . وتعمقت الصورة السلبية القائمة على الحكم بدونية الآخر ،

---

١) عزة عزت ، صورة العرب في الغرب ، القاهرة، مصر العربية للنشر والتوزيع، ١٩٩٧ ، ص ٣٠٤ .
٢) محمد نجيب أبوطالب ، مرجع سابق ، ص ٤٣٨ .

وتمت صياغة العالم انطلاقاً من مركز أوروبي يتحكم سياسياً وعسكرياً وبالتالي ثقافياً وعلمياً .[1]

سادسا : مستخلصات عامة :

كان السؤال عن الآخر وهويته ، المحور الأساسى الذى دار حوله هذا الفصل ، لذلك تنوعت الإشكاليات التى تم عبرها تقصى كينونة هذا الآخر ، ومساراته التى لا تنفصم العرى بينها وبين مسارات الذات . وتحدد موقف الدراسة من هذه الإشكاليات كالتالى :

- في البدء كانت محاولة تحديد هذا الآخر شكلاً وموضوعاً ، ولذلك كانت التنويعات المختلفة الخاصة به ؛هى نقطة البدء ، وقد تبين أن هذا الآخر لا يحمل دلالة واحدة ؛بل تتبدل هذه الدلالة وتتغير تبعاً للموقف الذى يتم من خلاله التطرق لهذا الآخر . وأسفر البحث إلى تحديد آخر الدراسة الحالية في : الغرب (الأوروبى — الأمريكى) .

- وفيما يتعلق بالجدل الدائم بين ثنائية الذات والآخر ، تبين أنه لا يمكن للذات أن تعيش بمفردها ؛ فالآخر مكون لازم وضرورى من مكونات الذات . ونفس الشىء ينطبق على علاقة الآخر بالذات . والأمر في ذلك يتوقف على اللحظة أو الموقف التى يكون فيها كل طرف من أطراف العلاقة : أحدهما ذات ، والثانى (آخر) . هنا يبرز التساؤل عن مسارات الجدل بين الذات والآخر ، كيف تتشكل ؟ وما الرؤى التى تحكمها ؟ وفى هذه الحالة تأتى" الصورة " – صورة الذات أو صورة الآخر – كوسيلة وسيطة يمكن عبرها الإجابة على هذا التساؤل .

- وعبر تقصى تاريخية صورة الشخصية المصرية في فكر الآخر ، تبين وجود محددات كثيرة ذات أثر فعال في تشكيل هذه الصورة . وما يلاحظ على هذه الصورة أنها كانت دائماً وعبر تاريخها الطويل ، صورة نمطية بكل ما يحمله هذا الوصف من مثالب تنطوي عل التشويه والمبالغة . أما عن صورة الآخر في فكر العربى ، فلم تكن هى الأخرى صورة واحدة ؛ بل وجدت عدة صور ، حددها وأسهم في تشكيلها وصياغتها على نحو ما ، طبيعة العلاقة بين الغرب والعرب؛ فباختلاف المراحل التاريخية وما ترتب عليها من

---

١) المرجع السابق ، ص ٤٣٧ .

تطور لهذه العلاقة ، كانت تظهر صور معينة لهذا الآخر ؛ فتارة هو آخر حضاري ، بمفاهيمه الليبرالية التقدمية ، وتارة ثانية ما يلبث أن يتحول آخر استعماري ، تحدد العلاقة معه وفقا لقاعدة الغالب والمغلوب . وتارة ثالثة يتحول الغرب الأوروبي إلى غرب أمريكي . وما بين الغرب القديم والغرب الحديث تتباين الصور وتتعدد أشكالها بين البساطة والتعقيد .

وقبل البدء فى عملية التحليل الفعلى للنصوص الروائية ، فإنه تجدر الإشارة إلى عدة حقائق تمثل مرتكزات أساسية لهذه الدراسة وهى مستقاة كذلك من دراسات سابقة :

١ . إن ما يتشكل لدينا من صورة لذاتنا أو للآخرين لا تكون دائماً في جميع الحالات نقية ومحددة ؛ بل غالباً ما يختلط فيها الواقعي بالمثالي ، ويتداخل فيها الداخلى (أى رؤيتنا لحقيقة أنفسنا) بالخارجى (أى ما نريد إظهاره للآخرين من صفات خاصة بنا) . وقد تتشكل صورة الآخر لدينا من عناصر انتقائية هى ما نريد أن نثبتها في أذهاننا عن هذا الآخر ، في حين تغيب عنا عناصر أخرى لا نراها أو لا نريد رؤيتها أو الاعتراف بها [١].

٢ . إن تشكل صورة الآخر ، في أبعادها المختلفة (الذاتية والموضوعية) ، وفى أشكالها ومضامينها تمر عبر الذات المكونة لهذه الصورة ، بكل ما تحوره هذه الذات من موجهات أيديولوجية وسياسية وخبرات مباشرة ، تاريخية ومعاصرة . وهذا لا يمنع من القول بأن الآخر باختياراته وأفعاله وردود افعاله يسهم في تأسيس بعض مرتكزات صورته.[٢]

ولأن الدراسة الراهنة تتعامل مع آخر له خصوصيته، فلا شك أن صورة هذا الآخر تتحدد أبعادها لدى الشخصية المصرية ،عبر مستويين من الادراك : مستوى تاريخى، وآخر راهن يرتبط بتطورات اللحظة الراهنة. وبلا شك تسهم هذه التطورات في استدعاء الصورة التاريخية للآخر كلما سمحت معطيات الواقع الراهن بذلك .

بالإضافة لما تقدم، فإن هناك عدة مصادر محددة أثرت في إدراك صورة الآخر المتكونة لدى الشخصية المصرية ، وقد سقنا بعضاً من هذه المصادر عند الحديث عن

١) فتحى ابو العينين ، صورة الذات وصورة الاخر فى الخطاب الروائى العربى، مرجع سابق، ص ٨١٣

٢) عبد الباسط عبد المعطى، صورة الاسرائيلى لدى المصرى بين ثقافة العامة والدراما التليفزيونية، فى: الطاهر لبيب (محررا)، صورة الآخر : العربى ناظرا ومنظرا إليه، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٩ صص ٣٥٧-٣٥٨

محددات النظرة للآخر وعواملها في هذا الفصل ، ويمكن أن نضيف إليها كذلك : الدور الذى يلعبه البناء الاجتماعى للمجتمع وما يتعرض له من تغيرات وتحولات من فترة لأخرى بفعل عوامل داخلية وخارجية، وكذا التراث الثقافى والدينى للمجتمع، كما لا يمكن إغفال الدور الذى تقوم به وسائل الاتصال الحديثة فى تشكيل صورة ما أو فرضها على شعب من الشعوب .

الباب الثاني

الشخصية المصرية وصورة الآخر الغربى
بين الواقع الاجتماعى والواقع الأدبى



تمهيد :

اتضح من خلال ما تم عرضه فى الباب السابق وما تضمنه من فصول ، أن حضور الآخر الغربي في الوعي المصري والعربى بدأ مع بواكير عصر النهضة العربية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وهو حضور ما زال يطرح نفسه فى صيغ وأشكال متعددة .

وما أود التركيز عليه فى هذا الباب ، وما يتضمنه من فصول هو التناول الأدبى لهذه الإشكالية ، خاصة ما يتعلق بإسهامات الخطاب الروائى المصرى والرؤية التى تضمنها فيما يخص هذه الإشكالية .

فمن المعروف تاريخيا وثقافيا أن اللقاء أو التصادم مع الآخرالغربى لم يؤثر على بنية المجتمع العربى المادية فقط ، من حيث إعادة تشكيل القوى السياسية والاجتماعية والاقتصادية داخلها وإنما طال هذا التأثير بأشكال متعددة البنية العقلية والفكرية والأدبية للمجتمع العربى . ويمثل الأدب أحد المجالات التى تأثرت بشكل كبير بهذا اللقاء أو التصادم . ومن أبرز فروع الأدب التى عبرت عن قضية العلاقة مع الآخر الغربى كانت الرواية هى الفن الأكثر اهتماما ؛ فما يميز الرواية العربية منذ مراحلها المبكرة أنها كانت " الفن الأكثر تعبيرا عن تحديات الحداثة فى المجتمع العربى ، حتى صار الفن سجلا دقيقا للصراع الحضارى الذى تعرف فيه العرب إلى ذاتهم "[1]
والرواية العربية بهذا المعنى اتجهت فى جانب" الدفاع والبحث عن الهوية القومية ومحاولة تأكيد الخصوصية الاجتماعية والوطنية والثقافية والقيمية فى مواجهة الآخر الغربى ....."[2]

ونحاول فى هذا الباب تحليل الأعمال الروائية التى تم اختيارها لمعاينة صورة الشخصية المصرية وصورة الآخر الغربى ، حيث اشتمل هذا الباب على الفصول التالية :

---

[1]) عبدالله أبو هيف ، أزمة الذات فى الرواية العربية ، عالم الفكر ، المجلد (٢٤) ، العدد (٤) ، الكويت ، ١٩٩٦، ص ٢٢٥

[2]) ابراهيم أجمد ابراهيم حسين ، التفاعل الثقافى وبعض ايجابيات العولمة (قراءة في الرواية العربية) المؤتمر السنوي الخامس عشر لقسم أصول التربية (العولمة ونظام التعليم فى الوطن العربى) (رؤية مستقبلية) من ١٢- ١٣ديسمبر ١٩٩٨ ، جامعة المنصورة ، دار جامعة المنصورة للطبع والنشر ، ١٩٩٨ ، ص ١٨٠

الفصل الثالث : الشخصية المصرية وصورة الآخر فى الفترة من (١٩٥٢ وحتى منتصف السبعينيات) كما انعكست فى الأعمال الروائية .

الفصل الرابع : الشخصية المصرية وصورة الآخر فى الفترة من منتصف السبعينيات وحتى ٢٠٠١ م كما انعكست فى الأعمال الروائية .

الفصل الخامس: النتائج العامة للدراسة ... تحليل اجتماعى

الفصل الثالث

الشخصية المصرية وصورة الآخر الغربى

(١٩٥٢ وحتى منتصف السبعينيات)

كما انعكست فى الأعمال الروائية



تمهيد:

يحاول هذا الفصل الاقتراب من عالم النصوص الروائية التى عالجت إشكالية العلاقة بين الشخصية المصرية والآخر الغربى، وذلك من خلال معاينة القضايا التى أثارتها النصوص الروائية فى هذا الخصوص .

حيث يتعامل هذا الفصل مع النصوص الروائية التى تتناول الفترة التاريخية الممتدة ما بين ١٩٥٢م .وحتى منتصف السبعينيات من القرن العشرين .وهى الفترة التى تمثل مرحلة الاستقلال الوطنى بعد التخلص من الاستعمار . حيث مثلت هذه المرحلة لحظة من اللحظات الفارقة سواء فى تاريخ الشخصية المصرية أم فى تاريخ علاقتها بالآخر الغربى الذى اتخذ أشكالاً ومضامين جديدة .فرضتها اللحظة / الاستقلال بكل أطيافها .

ووفقا لذلك يضم الفصل محورين أساسيين هما :

أولاً : الواقع المصرى فى الفترة ما بين١٩٥٢ .حتى منتصف السبعينيات (تحليل اجتماعي. تاريخي) :

وفى هذا المحور أحاول تقديم تصور لواقع الشخصية المصرية فى علاقتها بالآخر، من خلال تقديم نظرة شمولية — قدر الإمكان — للواقع الاجتماعى العام بما يتضمنه من أحداث وجوانب : تاريخية واجتماعية واقتصادية وثقافية، كان لها أثر فى إعطاء دلالات أكثر عمقاً فى تحديد الاتجاهات الفعلية للشخصية المصرية إزاء الآخر .

وتهدف مثل هذه الخطوة إلى توضيح المناخ العام الذى طرح الروائيون .فى ظله . منظوراتهم وأفكارهم من خلال ما قدموه من نصوص روائية ، وذلك بما يتفق مع اتجاه التاريخية الحديثة الذى يشكل المدخل النظرى لهذه الدراسة .

ثانياً : وبناء على ما تقدم يأتى المحور الثانى فى هذا الفصل، والذى يتعامل مباشرة مع النصوص الروائية التى حاولت استكناه قضية الدراسة، وقد حددتها الباحثة فى خمسة نصوص روائية، هى على التوالى، وحسب تاريخ نشرها :

- رواية السيدة فيينا أو فيينا ٦٠ ليوسف إدريس (١٩٦٠)
- رواية محاولة للخروج لعبد الحكيم قاسم (١٩٦٦)
- رواية نجمة أغسطس لصنع الله إبراهيم (١٩٧٤)

- رواية قدر الغرف المقبضة لعبد الحكيم قاسم (١٩٨٢)
- رواية قالت ضحى : لبهاء طاهر (١٩٨٥)

أولاً : الواقع المصرى فى الفترة ما بين ١٩٥٢ —وحتى منتصف السبعينيات (تحليل اجتماعى-تاريخى) :

شهدت هذه الفترة تغيرات شملت جميع المجالات التى تمثل الهيكل العام للمجتمع المصرى، وقبل البدء فى رصد المشهد العام الذى كونت ، فى ظله ، الشخصية المصرية رؤيتها لذاتها وللعالم من حولها، أود أن أشير إلى أن من أرخّوا لهذه الفترة كانوا إما من المؤيدين المتعصبين لها، أو من الرافضين المتزمتين لما حدث فيها وما واكبها من تغيرات مست المجتمع المصرى .ولهذا سوف يكون منطق الدراسة هنا :رصد عدد من الآراء التى لاقت قبولاً عاماً بين الباحثين فى هذا الصدد، والتى تكرر سردها فى عدد من المراجع العلمية

فعلى الجانب السياسى : تمثل الهدف الأساسى لنظام ثورة يوليو، فيما بعد ١٩٥٢ م فى تحقيق الاستقلال الوطنى . وقد كان الضباط الأحرار_ فى السنوات الأولى للثورة _ مشغولين بإيجاد فلسفة خاصة بهم تتعلق بالتخطيط لتنمية المجتمع المصرى [1] . وارتبطت توجهات النظام الناصرى بالعمل على تقليص تبعية مصر لقوى الهيمنة الغربية فى النظام الرأسمالى الدولى " وكان مبدأ مقاومة الاستغلال داخلياً وخارجياً هو الخيط الرئيس الذى يفسر كل إجراءات ومعارك ناصر المحلية والإقليمية والدولية فى مضمار التنمية كما فى غيرها من المجالات[2]

وكان لسياسة عبد الناصر جانبان : أحدهما قومى عربى، والآخر داخلى مصرى وفيما يخص الجانب القومى العربى : آمن عبد الناصر بالدور المحورى الذى تلعبه مصر على مستوى العالم العربى، ولهذا تبنى مفهوم الهوية العربية لمصر . وأصبحت القومية العربية، والمفردات المتعلقة بالوجود القومى كياناً وهوية واضحة فى الخطاب الناصرى. واستخدمت مفردات من قبيل : الوطن الكبير والقومية والعالم العربى وغيرها. وارتبطت مصر ارتباطاً عضوياً بالوطن الأكبر " فهى كشعب تنتمى إلى الأمة العربية،

---

[1])Tom Little , Modern Egypt , Second edition , London , ErnestBennLimited,1968, P217

[2]) مصطفى مرتضى على، المثقف والسلطة، دراسة تحليلية لوضع المثقف المصرى فى الفترة من ١٩٧٠ — ١٩٩٠، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس، كلية الآداب ، قسم علم الاجتماع، ١٩٩٧ صـ١٢٦

وهى كجيش تسهر على أمن الأمة العربية، وهى كثورة تمثل طليعة كفاح الأمة، كما أنها اليد الأولى التى تقدم المساعدة للشعوب فى كفاحها ونضالها"[١]

أما فيما يخص الجانب الداخلى فى سياسة عبد الناصر، فكانت الاشتراكية هى المذهب الذى تبناه . وكان من أسباب توجهه الاشتراكى، رفض الغرب محاولته الخروج من جلباب الغرب الأوروبى، كذلك تأثره بالمناخ العالمى للنظام الشمولى وبالذات فى يوجوسلافيا " حتى وصل الأمر إلى أن الدساتير المتعاقبة كانت تستلهم الفكر الشمولى وتكرسه فضلاً عن الهيكل التنظيمى للإتحاد الاشتراكى " [٢]

وحول تجربة الاشتراكية التى جاء بها النظام الناصرى، يرى أحد الباحثين أن هذه التجربة اختلطت بالتسلط، مما أدى إلى حدوث أزمة فى البناء الاجتماعى، أدت بدورها فى النهاية للحد من مظاهر التحديث والتجديد .وظهرت هذه الأزمة كنتيجة للاعتماد على نظام الرقابة الصارم، وهو ما أدى إلى مزيد من التفكك فى القوى السياسية . [٣]

ومن الأحداث الهامة ، على الجانب السياسى ، ذات التأثير المباشر على الشخصية المصرية ، تأتى هزيمة الخامس من يونيو، فالبرغم من المعارك الأخرى التى خاضتها مصر، فإن هذه المعركة " تبقى أخطر معارك الحرب فى الشرق الأوسط، كما أنها أكثرها إثارة وأشدها ضراوة وأبعدها تأثيراً داخلياً وخارجياً [٤]" وذلك يعود فى جزء كبير منه إلى أن هذه الهزيمة كانت كارثة مروعة ومحزنة للنظام والجيش والشعب فى مصر والعالم العربى كله .ولم تقف عند كونها " مجرد هزيمة عسكرية، بل إنها كانت هزيمة للفترة الناصرية، وإيذاناً بفقدان قوتها الدافعة، تلك الفترة التى صدرت شهادة وفاتها الرسمية فى سبتمبر ١٩٧١ . [٥]

وتعتبر هذه الهزيمة إحدى المواجهات العسكرية مع الآخر الغربى عامة، ممثلاً فى الآخر الإسرائيلى خاصة . فكما انهزم الوعى المصرى والعربى أمام جيوش نابليون

---

١) إكرام بدر الدين . عبد الغفار رشاد، الرأى العام المصرى وقضايا الديموقراطية والهوية . دراسة ميدانية استطلاعية، القاهرة، مكتبة نهضة الشرق، ١٩٨٥، صـ ٤٣

٢) ميلاد حنا، قبول الأخر فكر واقتناع وممارسة، القاهرة ، دار الشرق، ١٩٩٨ صـ ١١١.

[3] Gehad Auda, The state of political control : The case of Nasser (1960 – 1970), in : The Arab Journal of The social sciences) Vol(2) n (1) April, 1987 , P 109

٤) محمد حسنين هيكل، الانفجار، مركز الأهرام للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٠ ص ٧١ .

٥) محمد الجوهرى وآخرين، المشكلات الاجتماعية، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٥، ص٤٣.

بونابرت وحضارته الغربية (١٧٩٨م)، وكما انهزم محمد على وتم القضاء على مشروعه النهضوى من قبل الغرب(١٨٤٠م) ، وكما ضاعت فلسطين (١٩٤٨)جاءت هزيمة الخامس من يونيو لتمثل هزيمة للوعى المصرى والعربى . فهذه الهزائم المتكررة لم تكن قدراً محتوماً، بقدر ما كانت ضربات قاتلة لمحاولات بناء مجتمع جديد، والرغبة الأكيدة فى تحديثه بعيداً عن هيمنة الآخر . وهى المحاولة التى مازالت تمثل محاولة محكومة بالفشل حتى يومنا هذا .

وأدت هذه الهزيمة إلى إضعاف الدولة المصرية إلى درجة جعلتها لا تستطيع القيام بأية مهام جديدة أو اتخاذ إجراءات ثورية من أى نوع، وأرغمت الهزيمة الدولة على تخفيف قبضتها الحديدية التى فرضتها على عقول الناس وحرياتهم " وكان للشعور بخيبة الأمل الذى أصيب به أبناء المجتمع فى القيادة العليا للأمة، وعدم قدرتها على الوفاء بالوعود التى قدمتها أثر كبير فى إضعاف الثقة بالسلطة والنظام القائمين . وشكلت كل هذه الأمورمقدمات نبأت بانهيار الأيديولوجيا التى تبنتها الدولة فى تلك المرحلة . وتجلت حقيقة هامة لأبناء المجتمع، وهى أن هناك أشياء أخطر بكثير من الاشتراكية والتخطيط وإعادة توزيع الدخل ... وبدا وكأن هذه الأشياء فقدت فجأة كثيراً مما كان يعلق عليها من آمال عريضة ..." [١]

أما على الجانب الاقتصادى : بدأت حكومة الثورة فى صياغة الإطار الفكرى للنظام الاقتصادى والاجتماعى فى صورة مفاهيم أربعة : المساواة والعدالة وتكافؤ الفرص وتنويب الفوارق بين الطبقات . ولم يكن غريباً أن تبدأ الثورة عهدها بإصدار القانون رقم ١٧٨ لسنة ١٩٥٢ بتقييد الملكية الزراعية ووضع سقف لها، ذلك أن الأحاسيس الطبقية والفوارق المادية بين طبقة الملاك والفلاحين كانت فى الريف المصرى أكثر وأشد . وكان القطاع الزراعى يكون الغالبية العظمى من السكان الذين كانت الثورة تنشد ودهم، لذلك كان يتعين تحديد الملكية الزراعية ". [٢]

---

١) جلال أمين، ماذا حدث للمصريين ؟ تطور المجتمع المصرى فى نصف قرن (١٩٤٥ – ١٩٩٥)، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٩صـ ٢٧٤.

٢) محمد نعمان جمعة . مجدى المتولى، هوية مصر، الجزء الاول، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٧، صـ ١٧٧- ١٧٨ .

وعملت الثورة على تمصير الاقتصاد كرد فعل للعدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦م، خاصة فرض الحراسة على أموال رعايا الدول المعتدية للتحفظ عليها، وكانت قرارات التأميم التى هدفت " إنهاء الهيمنة الأجنبية على الاقتصاد المصرى، واستكمال حلقات الاستقلال الوطنى، بإنهاء التبعية الاقتصادية، وإقامة هياكل وبنى إنتاجية وطنية قادرة على إقامة عملية تنموية كاملة، بمنأى عن الاعتماد على الآخر " (1)

أى أن مفهوم التحديث الذى تبنته الدولة فى ذلك الوقت، كان يعتمد على الأفكار الجديدة واستخدام التقنية الحديثة التى يمكن إنجازها عن طريق المصريين أنفسهم بعيداً عن السيطرة الأجنبية، مع الأخذ فى الاعتبار إمكانية الاستعانة ببعض العناصر الأجنبية فى حالة الحاجة إليها .(٢)

مما سبق يتضح لنا أن ما اتخذه النظام فى هذه الفترة من إجراءات اقتصادية ما هو إلا رد فعل ضد الآخر السياسى والعسكرى، المحتل المستعمر فى السابق، والمتربص فى حاضر هذه اللحظة التاريخية الماضية، من أجل إقامة نموذج للتنمية المستقلة المعتمدة على تفعيل دور المواطن المصرى، وإعطائه الفرصة للانطلاق .

وبالرغم مما اعترى هذه التجربة من عثرات شديدة فى مراحل تطبيقها، وحدوث كثير من الأخطاء، فإن ذلك لا يمنع من القول بجدية هذه التجربة، ورغبة القائمين بها فى القيام بنقلة نوعية فى المجتمع المصرى . ويمكن الاستناد إلى صحة ما تزعمه الباحثة فى ذلك على ما يذكره أحد أكبر المؤيدين للسياسة المصرية فى فترة حكم عبد الناصر، فقد ذكر أن " مصر استطاعت فى عشر سنوات من عصر عبد الناصر أن تقوم بتنمية تماثل أربعة أضعاف ما استطاعت تحقيقه فى الأربعين سنة السابقة على عصره . وكانت تلك نتيجة لا مثيل لها فى العالم النامى كله "(٣)

ورغم ذلك، شهدت معدلات التنمية تدهوراً كبيراً بعد هزيمة الخامس من يونيو، وانحدر معدل النمو الاقتصادى من ٦,٥٪ إلى ٢٪ سنوياً، " وتحولت معظم الموارد التى كان من الممكن استثمارها فى مجال تحقيق التنمية الاقتصادية إلى المجهود

---

١) المرجع السابق، صـ ١٨٤ .

(2) Laila shukry El hamasy, op ,cit, P 54 .

٣) محمد حسين هيكل، لمصر لا لعبد الناصر، القاهرة ، مركز الأهرام للنشر والتوزيع، ١٩٨٧، ص٩٤

الحربى، وإعادة تسليح الجيش، وهنا تجمدت فرص العمل، وتزايدت أعداد الذين التحقوا فى الجيش، فحرمت منهم بذلك قوة العمل فى البلاد ." [1]

وكان من أهم سمات هذه المرحلة تزايد الرغبة فى الهجرة، خاصة بين صفوف المتعلمين من خريجى الجامعات . وشهد عام ١٩٦٧ بداية سياسة جديدة للهجرة اتسمت بالغموض وعدم الحسم . " وقامت أجهزة الدولة بدراسة هذه الظاهرة الخطيرة فى ظل ما استجد من ظروف — الهزيمة — وتناولت أجهزة الإعلام هذه الموضوع بشكل كبير فى أعوام : ١٩٦٨، ١٩٦٩، ١٩٧٠ . [2] وبدأ الآخر العربى النفطى فى الظهور فى الواقع المصرى، واحتل مساحة لا بأس بها فى الوعى المصرى.

وعلى الجانب الاجتماعى : تزايد الحراك الاجتماعى نتيجة الإجراءات العديدة التى اتخذت فى المجالين الاجتماعى والاقتصادى فى هذه الفترة . ويمكن اعتبار هذا الحراك أحد نتائج مجانية التعليم التى استفاد منها أبناء المجتمع، وبخاصة أبناء الطبقات الفقيرة وأبناء العمال والفلاحين والطبقة الوسطى، فقد أتاح الاهتمام بالتعليم الفرصة أمام هؤلاء لنيل قسط أكبر من التعليم، وهو ما ترتب عليه تحقيق حراك تعليمى ومهنى واقتصادى لأعلى الهرم الاجتماعى، وانضمام هؤلاء لصفوف الطبقة المتوسطة . وبحدوث هذا الحراك ظهرت قيم وسلوكيات جديدة داخل هذه الطبقة .

وبمعنى آخر، فإن نمو بعض الفئات الاجتماعية، كان من أوضح ما اعترى الخريطة الطبقية فى مصر من تغيرات خلال هذه الفترة، حيث أصبح المهنيون والتكنوقراط والفئات البيروقراطية وعناصر الانتلجنسيا المختلفة يشكلون العناصر الأساسية للطبقة المتوسطة الجديدة فى مصر، وذلك بعدما كان " قوام هذه الطبقة صغار ومتوسطى التجار والصناع وأصحاب الورش والحرفيون وأرباب المهن الحرة ." [3]

هكذا اتجهت الدولة الناصرية للحفاظ على وحدة التكوين الاجتماعى عن طريق اكتساب تأييد الطبقة الوسطى فى الريف والمدينة ، فلقد أدرك عبدالناصر كما أدرك من قبله نابليون بونابرت، أن قوة المجتمع البر جوازى واستقراره إنما تكمن فى الطبقة

---

١) سنية صالح، هجرة الكفاءات العلمية من مصر ،القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ ص٩٨.

٢) المرجع السابق، صـ ٨٩

٣) محمود عبد الفضيل، الاقتصاد المصرى بين التخطيط المركزى والانفتاح الاقتصادى، بيروت ، معهد الإنماء العربى، ١٩٨٠ ، ص ص ٢٠٩ – ٢١١ .

الوسطى فى المدن ،وخلال الخمسينيات والستينيات نمت الطبقة الوسطى فى المدن نمواً عددياً مطرداً حتى أصبحت تمثل ٥٩ ٪ من عدد سكان المدن بحلول عام ١٩٧٠ . " وعلى صعيد آخر سعت الدولة لزيادة عدد ملاك الأرض فى الريف باعتبار أن هذا هو الحل الصحيح للمسألة الزراعية فى مصر ."[١]

تحولات عنيفة شهدها المجتمع المصرى، فى هذه الفترة، على الجانب الاجتماعى، هدفت فى المقام الأول تذويب الفوارق الطبقية والقضاء على الاستغلال الاجتماعى، إلا أن ما تحقق من جراء هذه التحولات كان مناقضاً مع ما هدفت إليه، وهو الأمر الذى يراه أحد الباحثين تغيراً أو تحولاً سطحياً، فلم يكن هناك تغير جذرى فى الطبيعة الطبقية للعلاقات الإنتاجية فى المدينة والريف، أو فى القضاء على العلاقات الاستغلالية . كما أن هذه التحولات " لم تحد بشكل كبير من نمو وتوالد الرأسمالية أو ظهور شرائح برجوازية جديدة .. ولم تحدث تغيرات على المستوى الكيفى فيما يتعلق بأوضاع الفلاحين والعمال وهو ما يدعو للقول إن الناصرية، فى كل خطواتها، أفرغت من أى مضمون اشتراكى "[٢].

وعلى الجانب الثقافى : هيمنت الدولة بصورة كبيرة على المؤسسات الثقافية المختلفة وفرضت عليها نظاماً من الرقابة الصارمة . وفى هذا الإطار السلطوى اختلفت العلاقات بين المثقفين والسلطة عن الفترة السابقة، وأصبحت ممارسة النقد الاجتماعى – وهى المهمة التى اضطلع بها المثقفون – " تحوطها قيود بالغة الصرامة، مما أدى إلى صدامات مشهورة بين المثقفين والسلطة "[٣] وفى بداية الستينيات بالذات ظهرت بوادر طغيان المؤسسة العسكرية وسيطرتها الكاملة على القيادة السياسية، وتبلورت فى هذه السنوات ملامح دولة بوليسية فى مصر، وسيطرت أجهزة المخابرات والمباحث على مقاليد الأمور، وضاقت الدائرة على شريحة المثقفين حتى بالنسبة لأنصار الثورة المخلصين "[٤]

---

١) تامر الميهى ، الاستقلالية النسبية للدولة الناصرية . مساهمة فى فهم طبيعة الدولة الناصرية ١٩٥٢ ـ ١٩٧٠ ، فى : إشكاليات التكوين الاجتماعى والفكريات الشعبية فى مصر ، بحوث ومناقشات الندوة المهداة إلى أحمد صادق سعد من ٣ ـ ٥ مايو ١٩٩٠ ، مركز البحوث الاجتماعية العربية ، مؤسسة عيبال للنشر ، ١٩٩٢ ، ص ص ١٧١ ـ ١٧٢

٢) شحاتة صيام، التصنيع والبناء الطبقى فى مصر (١٩٣٠ ـ ١٩٨٠)، تحليل بنائى تاريخى، القاهرة ، دار المعارف ١٩٩١، صـ ٢٢٣.

٣) السيد يس ، العالمية والعولمة ، ط٢، القاهرة ، نهضة مصر للنشر والتوزيع ، ٢٠٠١، صـ ١١١.

٤) السيد يس ،المثقفون وثورة يوليو، الأكاديميون نموذجا، فصول، العدد (٦١)، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٣، صـ ١٠٩

وحول أوضاع المثقفين فى هذه الفترة يذكره "جلال أمين" كان المثقف المطلوب من السلطة فى ذلك الوقت مثقفاً من نوع خاص : إما رجل بلغ به الحماس الوطنى حداً جعله يغضَ البصر عن كل التجاوزات، وإما رجل ليس له انتماء فكرى محدد، واستبدت به الرغبة فى الصعود والترقى على نحو لم يسمح له برؤية التجاوزات أصلاً . كانت هاتان الطائفتان من المثقفين تمثلان فئة (قلة) ضئيلة من مجموع المثقفين المصريين الذين آثرت غالبيتهم الصمت أو الاحتجاج، فأودعت طائفة كبيرة منهم السجون، وانعزل الآخرون عن الحياة الثقافية انعزالاً تاماً[1]

هذا عن التحولات التى أحدثها النظام الثورى فيما بعد ١٩٥٢ وحتى ١٩٧٠، ولكن أين مجموع الشخصية المصرية من هذه التحولات ؟ هل كان لها حضور فعال فى هذا الشأن أم أنها كانت دائماً تلعب دور المفعول به سواء أكان ذلك قبل الاستقلال أم بعده ؟

إن استقراء التاريخ ومحاولة التحليل الاجتماعى لتلك المسألة يتطلب الوقوف على الأبعاد التالية :

فمن ناحية أولى لم يكن الشعب شريكاً فى الثورة، بل تمت هذه الثورة فى غيبته، واستطاعت أن تقيم النظام الجمهورى أيضاً فى غيبته، وكانت كل قرارات الثورة قرارات فوقية، بغض النظر عن مدى تحقيقها لمصالح فئات الشعب المحرومة . ولم تكن التوجهات المختلفة لهذه الفترة ، والمتمثلة فى القومية العربية والحياد الإيجابى والاشتراكية ...وغيرها، لم تكن أياً منها مطلباً أو حلماً شعبياً أو ركناً أساسياً فى فكر عامة أبناء الشعب المصرى، أو حتى عناصره النشطة، أى أن الشعب لم يشارك فى أى من هذه الخيارات التى فرضت عليه، بل استجاب لها، لإنه كان فى وضع لا يسمح له بإبداء رأيه فيها . وتوقف الأمر على سياسة المنح أو المنع الخاصة بالمكاسب التى يهبها النظام للشعب "فالشعب لم يقاتل ابتداء للحصول على هذه المكاسب، ومن الطبيعى ألا يقاتل انتهاء حين يأتى من يسلبه إياها " [2]

ومن ناحية ثانية اقتصر التغيير الذى تم فى تلك الفترة على ما كانت تحدثه النخب السياسة الحاكمة، وهذه سمة من سمات المجتمعات المتخلفة، التى

---

١) جلال أمين، نحو تفسير جديد لأزمة الاقتصاد والمجتمع فى مصر ،القاهرة،مكتبة مدبولى، ١٩٨٩، ص١٢٧

٢) إبراهيم السايح، جذور السلبية الشعبية فى مصر . قراءة تحليلية موجزة فى التاريخ السياسى للشعب المصرى، القاهرة ، دار البستانى للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٠، ص ٩٢

تحدث فيها التغيرات الاجتماعية الحاسمة من أعلى – أى من قمة النظام السياسى – فى غيبة واضحة للتغيرات الاجتماعية الحقيقية على مستوى المجتمع نفسه، وهو الأمر الذى يقود فى نهاية المطاف لظهور الدكتاتورية والنظم الفاشية . وغدت الجماهير الشعبية الممثلة للشخصية المصرية معزولة عن النخب السياسية الحاكمة والنخب الحداثية، وتمثلت أسباب هذه العزلة من وجهة نظر هذه النخب فى كون الجماهير غير مؤهلة لإحداث التغيرات الأساسية فى البنى والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية، بسبب تفشى الأمية وسط جموع الشعب، تلك التى خلفتها وراءها عهود الاستعمار الطويلة [1]

هكذا أخفق النظام فى تحويل المادة البشرية إلى مورد طبيعى من موارد الطاقة الإنسانية الجسمية والعقلية والفنية فى جميع ميادين الانجاز والبناء، وأبعدت الجماهير عن الفعل الثورى الحقيقى "سواء فى عملية البناء الاشتراكى أو مواجهات التحديات الصهيونية.." [2]

وبعد، فإذا كنت قد حاولت أن أقدم تصوراً تقريبياً لواقع الشخصية المصرية فى الفترة من ١٩٥٢– وحتى منتصف السبعينيات من القرن العشرين، باعتباره الوسط الذى من خلاله تتفاعل مع ذاتها ومع الآخر، فإن السؤال الذى يطرح نفسه الآن على مسار البحث هو : كيف أعاد الخطاب الروائى المصرى صياغة هذه القضية عبر عوالمه الفنية ؟

وتقتضى الإجابة على هذا السؤال تحليل النصوص الروائية التى تم اختيارها لمعاينة هذه القضية، وسوف يتم ذلك عبر فهم بناها الداخلية والرؤى التى قدمتها فى هذا الخصوص.

ثانياً : الشخصية المصرية وصورة الآخر فى الخطاب الروائى المصرى :

وفى محاولة التعرف على الكيفية التى ظهرت بها الشخصية المصرية وصورة الآخر فى بعض الأعمال الروائية فى الفترة من ١٩٥٢ .وحتى السبعينيات من القرن العشرين، سوف يتم التركيز على عدة خطوات :

الخطوة الأولى : توصيف الرواية ودلالتها العامة ؛ بهدف إعطاء فكرة موجزة عن الحدث الرئيس الذى تناولته الرواية.

---

١) عبد العزيز حموده، المرايا المقعرة . نحو نظرية نقدية عربية ، عالم المعرفة ، العدد(٢٧٢)، الكويت، مطابع السياسة ، ٢٠٠١ صـ ٩٠.

٢) سهير سلطى التل، حركة القوميين العرب وانعطافاتها الفكرية، سلسلة الثقافة القومية (٣١)، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٦، صـ ٢٠٢

الخطوة الثانية : ويتم فيها الكشف عن الصورة التى ظهرت بها الشخصية المصرية فى أعمال هذه الفترة الروائية ، ومعرفة أى نمط من أنماط الشخصية تم تصويره .

الخطوة الثالثة والأخيرة : وفيها يتم الكشف عن صورة الآخر بالاستعانة ببعض المفاهيم التى تساعد فى تحديد هذه الصورة . وتشمل هذه المفاهيم : التقاطب * : ويعنى تناول العلاقة بين الشخصية المصرية والآخر باعتبارهما قطبين متنافرين متناقضين فى كثير من الخصائص ، ولهذا يكون التركيز على إبراز التناقضات بينهما . كما تعتمد الدراسة على مفهوم الصورة النمطية التى تقوم على رسم صورة مغلوطة يتبناها كل طرف عن الآخر . وفى هذا الصدد سنقوم بتحليل خمسة أعمال روائية، كما سبقت الإشارة، نبدأها بالعمل التالى:

١. السيدة فيينا أو فيينا ٦٠ ليوسف إدريس :

أ - توصيف الرواية ودلالتها العامة : -

تتناول رواية السيدة فيينا العلاقة مع الآخر الغربى من خلال خط محورى، هو الرحلة أو المهمة التى ينهب فيها " درش " إلى أوروبا . " فدرش " هو بطل الرواية، موظف فى إحدى المصالح الحكومية المصرية، تدفعه الرغبة فى التعرف على الآخر (ممثلاُ فى نساء الغرب) لأن يفعل كل ما فى إمكانه حتى يفوز بفرصة السفر للغرب ، ومن ثم الفوز بالمرأة الغربية وحينما تتحقق أمنيته، ويتم مهمته الرسمية الخاصة بعمله، يتفرغ لمهمته الشخصية ويبدأ فى البحث عن المرأة التى يريد، وحينما يفشل فى العثور عليها فى أمستردام، ينطلق إلى فيينا مدينة " الأنس والأحلام .. " [١] كما يذكر الراوى . والأمر الغريب أن البطل هنا لا يريد أية امرأة، إنه يضع لها صفات خاصة فهو يريدها سيدة أصيلة، حتى يكون اللقاء لقاء بحق . وبعد عدة محاولات فاشلة وقبل الوصول لمرحلة اليأس، يتقابل مع سيدة أوروبية، وتتطور الأمور بينهما حتى تصحبه فى النهاية إلى منزلها — فى غيبة زوجها — ويقضى الليلة عندها، ولكن تتعثر محاولته معها ويدرك بعد صراع طويل يعانيه مع نفسه وهو معها، عدم إمكانية التلاقى أو التواصل الذى يسمح بإذابة كل طرف فى طرفه المقابل، بل تظل هناك مساحة فاصلة بينهما،

---

* جاء ذكر هذا المصطلح فى دراسة محمد نجيب التلاوى الذات والمهماز، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨ واستعانت به الدراسة الراهنة لتوضيح المقارنات بين الشخصية المصرية والاخر الغربى

١) يوسف إدريس، فيينا ٦٠، فى يوسف إدريس، نيويورك ٨٠، القاهرة ، مكتبة مصر، ١٩٨٠، صـــ ٨٠.

تفصل بين هذه الشخصية المصرية العربية ذات الثقافة التقليدية وبين الآخر الغربي المتحرر . وتنسحب هذه الدلالة على الشخصية المصرية فى بعديها : الفردى والحضارى على السواء . ففى نهاية اللقاء بينهما يستطيع كل طرف أن يدرك حقيقة هامة : أنه لابد للذات أن تتقبل نفسها حتى يمكنها تقبل الآخر .

أما الإطار الزمنى للرواية : فيشمل فترة الستينيات كما يشير بذلك عنوانها، وتنطوى هذه الإشارة على عدة دلالات رمزية يمكن استنتاجها من تحليل هذه الرواية ؛ تتعلق فى المقام الأول بتأثير هذه الفترة على الشخصية المصرية وعلى صورة الآخر والكيفية التى ظهرت بها فى النص فى ارتباطها بالواقع الاجتماعى لهذه الفترة .

ويتحدد الإطار المكانى للرواية : فى مدينة فيينا الأوروبية ، ولهذا التحديد المكانى أيضاً دلالته الاجتماعية التى يأتى الحديث عنها مفصلاً فى موضع آخر من الدراسة .

ب - صورة الشخصية المصرية فى فيينا ٦٠ :

وتعرض الرواية للشخصية المصرية فى صورتين : صورة البطل والذى يمثل نمط الشخصية الفهلوية ، وصورة الشخصية القومية المصرية بصفة عامة من خلال تقديم بعض خصائصها ، وأعرض لكل منهما على حدة فيما يلى :

الصورة الأولى : صورة البطل (نمط الشخصية الفهلوية) : -

والشخصية الفهلوية كما يذكر " حامد عمار " هى نمط لشخصية المصرى تميزه سمات معينة ، تكونت نتيجة لظروف سياسية واجتماعية ، جعلت من تلك السمات التكيف الملائم لمواجهة مواقف الحياة المصرية وتحدياتها عبر عصور التاريخ . وينطبق هذا الوصف على مقومات الطبقة الوسطى ، وما انضم إليها من أفراد خلال مرحلة التحول الاجتماعى فى مصر فى الستينيات من القرن العشرين.[١]

ويمثلها شخصية " درش " شهرة الاسم المصرى مصطفى، الذى لم يذكره الكاتب صراحة وكما سبقت الإشارة، فهو موظف فى إحدى المصالح الحكومية، تتحدد صفاته الخارجية فى كونه : " محترماً جداً " فى مظهره، طويلاً أنيقاً، حليق اللحية و الشارب، لونه قمحى .. جاداً و وقوراً، يحدثك بصوت الواثق بنفسه .. مصرياً حرِّك، لا يترك فرصة للقفش والتنكيت إلا وانتهزها ... "[١]

---

١) حامد عمار ، مرجع سابق ، ص ص ١٦٨ - ١٦٩ .

وبهذا يحدد الراوى صفات البطل الجسدية الظاهرية التى تلعب دوراً هاماً فيما بعد فى لقائه مع السيدة الأوروبية .

أما عن سماته النفسية ومزاجه العام، فهو يضع حدوداً وفواصلاً بين حياته فى العمل وحياته خارج العمل، فبينما يظهر أمام الجميع بمظهر الوقار والاحترام، يفعل بعيداً عن أعين الناس ما يحلو له . وتمثل هذه الشخصية فى هذه الأمر مايطلق عليه ازدواجية بين الظاهر والباطن ، وبين القول والفعل . وفى ذلك يذكر الراوى "

فهو حريص على سمعته فى المصلحة التى يعمل بها كل الحرص، ويعامل الناس بالأصول، إلا أنه فى الوقت نفسه يزجى بعض الملق لرؤسائه ..." [٢] وبالرغم من أنه متزوج ولديه طفلة، فإن هوايته المفضلة هى النساء، وهى هواية " سرية يزاولها فى تكتم شديد .. هواية يمارسها بفن وحذق ... " [٣]

إن هذا الوصف الذى تظهر به شخصية " درش "، يأتى وصفاً ينم عن شخصية مستهترة، تتمحور حياتها كلها حول ذاتها، فما يهمها هو إشباع رغباتها الخاصة لا يحدها فى ذلك رادع ولا يثنيها ضمير . وهو الأمر الذى يمكن الكشف عنه بشكل أكثر عمقاً عند تحليل صورة الآخر كما تصورها الرواية .

وبالرغم من أن الأديب لم يعكس فى روايته أية أحداث على مستوى المجتمع المصرى، أو ما حدث به من تغيرات فى فترة الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، إلا أن اختياره لشخصية " درش " وما تفصح عنه من ممارسات فى مجتمعها أو فى خارج هذا المجتمع، إنما يشى بهذه التغيرات والتأثيرات العميقة التى أحدثتها سواء على مستوى الشخصية المصرية أو فى علاقتها بالعالم من حولها . وهو الأمر الذى يمكن تبيانه عبر تلافيف النص الروائى قيد الدراسة عبر تحديد أهم صفات الشخصية الفهلوية فى الآتى : ممالأة رؤسائه والتقرب إليهم طمعاً فى تحقيق مكاسب له . وهو كذلك شخصية مسطحة الثقافة، فعندما يذهب لفيينا، يخبر الراوى عنه أنه لم يكن يعلم عن فيينا سوى أنها عاصمة النمسا . والكاتب فى وصفه لهذه الشخصية بهذا الكم من الصفات التى تفصح عنه المواقف والسلوكيات التى يقوم بها، إنما يؤكد على

---

١) الرواية ،ص ص ٧٧ _ ٧٨

٢) الرواية ، صـ ٧٨ .

٣) الرواية ، صـ ٧٨ .

سيادة مثل هذا النمط من الشخصيات وتأثيرها على المجتمع . كما أنه بتركيزه عليها إنما يحاول الإشارة إلى نمط آخر من الشخصية، هو الشخصية الوطنية المتفاعلة مع مجتمعها، وذلك يتم على طريقة المسكوت عنه فى الرواية وعبرها .

. الإلتواء والمداهنة والتسلق : إن شخصية " درش " تمثل فئة التكنوقراط وهى الفئة التى شملت الأفراد الذين أتيحت لهم فرص التوظف فى جهاز الدولة الحكومى فيما بعد ثورة يوليو . و من خلال سلوكيات البعض منهم الملتوية، استطاع هؤلاء الوصول لمناصب هامة، متناسين دورهم الحقيقى فى خدمة مجتمعهم، ومستبدلين بهذا الدور دوراً آخر يقوم على الاستفادة من هذه الوظائف لمصلحتهم الخاصة، فها هو " درش "

" عمل ألاعيب الدنيا والآخرة وظل أكثر من ستة شهور يكافح ليوفد دوناً عن بقية زملائه فى تلك المهمة الرسمية الخاصة بالتبادل التجارى مع هولندا ... " (١)

. التكيف السريع للمواقف المختلفة، ويظهر ذلك فى تفاعله مع الآخر الغربى، فهو يتعرف على الآخرين بسهولة ويحاول أن يقيم معهم علاقات قوية دون سابق إنذار، مستخدماً فطنته وبداهته فى التظاهر بالسذاجة حيناً أو استخدام النكتة ليقرب ما بينه وبينهم . يتضح ذلك فى مواقفه مع إحدى الفتيات التى قابلها ليلاً فى أحد الشوارع، ثم فى موقفه من بطلة الرواية، التى تمثل الآخر الأوروبى .

. الفوضوية والتمركز حول الذات، فذاته أولاً قبل أى شىء آخر، ففى حديثه مع إحدى الفتيات التى وجدها بمفردها فى أحد الشوارع، وبعدما رفضت أن تذهب معه لأنها تنتظر صديقاً لها، يمسك بذراعها قائلاً فى فوضوية : -

" هيا بنا يا شيخة ودعينا من صديقك هذا ... أنا حاضر وصديقك غائب .. دعينا من الغائب واكتفى بالحاضر ... " (٢)

فالفوضوية يعبر عنها هنا بالسلوك نفسه وطريقة الخطاب الذى يوجهه إليها، فى حين أن منطق المنفعة الخاصة يبدو واضحاً من العبارة .

---

١) الرواية ، صـ ٧٨ .
٢) الرواية ، ص ص ٨٤ ــ ٨٥ .

ويتبدى قانون المنفعة الخاصة كمحرك لشخصية "درش" فى موقفه من السيدة الأوروبية فعندما يعلم أنها متزوجة ولديها أطفال، لم يتورع أويتراجع عن موقفه ؛بل استمر فى طريقه معها حتى النهاية . وفى ذلك يصفه الراوى" لكن ضمير درش لم يكن يتحرك أبداً لمثل هذه الأشياء، فهو لا يؤمن بأى قانون يحكم هذا العالم إلا قانون ما يريده، ما يريده هو الحلال وهو الصواب ... "[1] وفى موقف آخر يذكر الراوى" فكلمات مثل حرمات البيوت والأربطة المقدسة لم يكن لها أى مكان فى قاموسه الخاص . " [2]

من هنا تتضح الإشارة إلى غياب نسق القيم عند الشخصية المحورية والأساسية فى العمل .

الصورة الأخرى : خصائص الشخصية القومية المصرية : -

وكما سبق فإن الصورة التى تظهر بها الشخصية المصرية فى الرواية هى صورة إجمالية نستطيع أن نستشف منها تحولات الفترة وأثرها فى هذه الشخصية . وعموماً يمكن تلخيص خصائص الصورة التى ظهرت بها هذه الشخصية فى النقاط التالية :

. الإيمان بالخرافة والحظ، فعندما يفشل، فى بادئ الأمر ، فى الحصول على المرأة التى ينشدها يُرجع ذلك لكونه منحوساً لذلك يردد :

" لن يذهب هذا النحس الذى أصابنى، ولن ينفك كربى إلا بكويين محترمين من البيرة " [3]

كما أنه يظهر إيمانه بالأمثال الشعبية فهو يحدث نفسه " البلد اللى ما حد يعرفك فيها، اعمل اللى تعمله فيها ".[4] وهو فى ذلك يؤكد الازدواجية التى تحكم سلوكه بشكل عام.

- الإصرار والتحدى الذى تتمتع به الشخصية المصرية، فهو يُشبّه إصراره العجيب فى الاستمرار فى محاولته البحث عن المرأة الأوروبية، رغم ما يقابله من عقباته بإصرار الشعب المصرى الذى يتحدى ظروفه بالرغم من شدتها وضراوتها، ويستطيع النجاح فى النهاية، والوصول إلى ما يريد . وفى ذلك يعلق الراوى .

---

١) الرواية ، ص ١١٨ .

٢) الرواية ، ص ١٣٤ .

٣) الرواية ، ص ٨٩ .

٤) الرواية ، صــ ٩ .

" إن ما يريده إصرارنا نحن المصريين العنيد الغريب إصرار الأب الجائع الذى لا يكاد يجد اللقمة على أن يجعل من ابنه مهندساً أو طبيباً، وإصرار الفلاح الذى يريد سقى مساحة شاسعة من الأرض بشادووف يحمل فى كل دفعة حفنة ماء . والغريب أنه إصرار لا يخيب ... فالأب فعلاً يظل يعاند حظه وحاجته وطبقته حتى يجعل من ابنه مهندساً أو طبيباً، والفلاح يظل ينحنى ويعتدل ألف مرة .. مليون مرة .. عدد لا نهاية له من المرات حتى ينجح فى رى الأرض . " (١)

- الشخصية المصرية تحركها عواطفها وانفعالاتها بشكل أكبر من كونها شخصية عقلانية : " فدرش " شخصية تحركها غرائزها ورغباتها فى إشباع هذه الغرائز أيا كان المنحى الذى تسلكه، ففى بداية حديثه المفتعل مع السيدة كان محفزه الأساسى رغبته الجنسية التى يسميها الراوى حاسته السادسة . فكما يصفه فى هذا الموقف .

كان فى تلك اللحظات يتصرف بوحى من إحساسه أو بوحى من حاسته السادسة تلك التى كانت تعمل بلا هوادة ومنفعله إلى أقصى حد .. " (٢)

وعلى هذا يمكن القول أن ما يبدو لنا من هذا الوصف هو أن الشخصية المصرية " عاطفية " إلى حد بعيد .

. ويشير النص إلى روح الدعابة والفكاهة التى تميز الشخصية المصرية، فعندما تخبره السيدة بعملها كسكرتيرة فى إحدى شركات إنتاج الأدوات الكهربائية، يعلق الراوى .

" قال لها وقد استبدت به القفشة المصرية آه . لعل هذا هو السبب فى انى أحس انى مكهرب وانا جالس بجوارك . " (٣)

جـ - صورة الآخر كما ظهرت فى فيينا ٦٠ :

وعند الوقوف على صورة الآخر فى هذه الرواية يتضح عدة أمور :

---

١) الرواية ،ص ص : ١٠٤ – ١٠٥ .
٢) الرواية ، صـ ١١٦ .
٣) الرواية ، صـ ١٢٤ .

الأمر الأول : أن الفضاء الروائى الذى يظهر هنا هو فضاء الغرب الأوروبى المتمثل صراحة فى مدينة فيينا . وهو اختيار يبتعد عن صيغة الغرب الاستعمارى القديم (إنجلترا وفرنسا) . أى أن الغرب الذى يطل بوجهه فى هذه الرواية هو الغرب الحضارى، وهذا ما جعل الكاتب يتجه لحاضرة غير مألوفة فى الحواضر الغربية . وفى ذلك يمكن الأخذ فى الاعتبار أن الرواية كتبت فى مرحلة تاريخية كان فيه العداء للغرب الاستعمارى ظاهراً بشكل لا يمكن إغفاله.

أما الأمر الثانى فهو : تحديد الآخر من خلال صفاتهم الإثنية واللغوية وملامحهم الخارجية

" بشرتهم حمراء من شرب النبيذ، وعيونهم صغيرة زرقاء ماكرة .. " (٢)

وفى موضع آخر

" أناس أنوفهم تنحدر من الجبهة بنفس الزاوية، وعيونهم يكاد يكون لها جميعاً نفس اللون والبريق . أناس يعرفون بعضهم، ويفهمون لغتهم الألمانية ذات (الناخت) و(والفوخت) و (الأين) تسرى بينهم كالأسلاك الكهربية الخفية، تربطهم وتجعلهم يبدون كالجسد الواحد المتجانس الكبير " (٣)

وفى تحليل صورة الآخر فى هذه الرواية سوف أعتمد على ثلاثة محاور تمثل فئات تحليلية تقتضيها خصوصية هذه الرواية : التقاطبات بين الشخصية المصرية والآخر . تجنيس العلاقة فى النظرة للآخر، والصورة النمطية للآخر . وفيما يلى توضيح لهذه المحاور كما عرضت لها الرواية :

المحور الأول : التقاطبات بين الشخصية المصرية والآخر:

تقوم صورة الآخر، منذ البداية، على وجود بعض التقاطبات بين الشخصية المصرية والآخر الغربى، وتتبدى هذه التقاطبات فى عدد من الثنائيات المتعارضة بينهما. فمنذ بداية الرواية، يصف الراوى المكان والبناءات التى تحد الميدان قائلاً

---

١) الرواية ، صـ ٧٦ .

٢) الرواية ، صـ ٩٢ .

" مهيبة الطلعة .. ومطلية بألوان طوبية وقورة غير زاهية، وكأنما أختيرت خصيصاً لتلائم الجو شبه المظلم الذى يحيا فيه أهل الشمال .. " (1)

من خلال هذا الحديث يتضح أن البطل منذ البداية محمل بوعى يستطيع الفصل بين أهل الشمال فى مقابل أهل الجنوب، وبعبارة أخرى، فإن حضور أهل الشمال يستدعى فى المخيلة أهل الجنوب، ومن هنا تظهر الثنائية المشهورة شرق / غرب .

وعبر هذا التقاطب الأساسى تتفرع عدة تقاطبات أخرى، يحاول من خلالها البطل المقارنة الدائمة ما بين بيئتين حضاريتين مختلفتين . ويمكن رصد أهم هذه التقاطبات فى :

- أول تقاطب نلاحظه هنا هو ثنائية ذكورة / أنوثة : فالبطل ذكر شرقى عربى مسلم، وشخصية البطل المعبرة عن الآخر (أنثى أوروبية) ويترتب على هذه الثنائية اختلاف حاد فى طبيعة كل منهما من حيث التعامل مع المواقف المختلفة، فكلاهما ابن ثقافته وحضارته. وهذه الثنائية هى ما رصدته كثير من الدراسات التى اهتمت برصد العلاقة بين الذات والآخر فى مجال الأدب

- النظرة العقلانية الغربية فى مقابل الاندفاع الشرقى : وتتضح هذه النظرة من خلال موقف السيدة معه، فهى تطلب منه مساعدتها فى نقل ابنتها الصغيرة إلى غرفة أخرى حتى لا تزعجهما متغلبة على عاطفة الأمومة عندها، وهو الأمر الذى جعله يندهش.

" فالذى يحدث أمر غير عادى بالمرة .. أم تساعد طارق ليل مثله فى نقل ابنتها ليخلو لهما الجو... " (2)

فمنطق العقلانية الذى تمثله هذه السيدة، هو منطق حضارتها التى تؤمن بحرية أفرادها فى أفعالهم ، ولهذا فهى تفعل ما تفعله بلا خوف أو تردد، فهى توضح وتحدد أهدافها منذ البداية دون أدنى مواربة. وهذا ما يجعل "درش" منبهراً من تصرفاتها معه فها هو يعلن فى زهو

---

١) الرواية ،صـ ٧٦ .
٢) الرواية ، صـ ١٣٨

" هذه هي المرأة وإلا فلا، النساء في الشرق جثث لا تستطيع أن تنالهن إلا رغماً عنهن .. لكن هنا يا سلام ..هذه هي المساواة الحقيقية بين الرجل والمرأة."[1]

وهو يقدم في ذلك رؤية قاصرة وغير مكتملة لمبدأ المساواة بين الرجل والمرأة ؛ حيث يقصره على منظوره الشخصي القائم على الحسي وإشباع الغرائز، متناسياً بقية جوانب الحياة الأخرى التي تشارك فيها المرأة الرجل. وبالطبع ليست كل نساء الغرب بهذه الصورة التي يعرضها هنا . وما يؤكد عدم صدق هذه النظرة ما تورده إحدى الدراسات في وضعية النساء في الغرب وما يتعرضن له من اضطهاد ، فهذه الدراسة تؤكد على أنه " في الديموقراطيات الليبرالية الغربية لم تزل جماعة النساء أقل حرية من جماعة الرجال ، وهو ما لا يجب أن يكون مقبولاً في دولة ديموقراطية تعد كل البالغين فيها بمواطنة متساوية ؛ لأنه يعني أن النساء لسن مواطنات متساويات . إن كون الإنسان إمرأة لا يجب أن يحد من حريته في الديموقراطيات الليبرالية الغربية ، لكنه حتى الآن ما يزال يحدث . "[٢]

- حب الاستطلاع من جانب الشخصية المصرية في مقابل عدم المبالغة في التقصي من جانب الآخر، ففي حين كان " درش " يلتهمها بعينيه

" لم تفعل هي أكثر من أن ألقت عليه نظرة خاطفة سريعة لا تعني شيئاً، نظرة مثل الآف النظرات غير المحبة للاستطلاع التي كانت تلقى عليه في أي مكان يذهب إليه في أوروبا .. "[٣]

والأديب في تركيزه على هذا التصرف إنما يشير إلى اختلاف الطباع بين كل من " درش " و " السيدة الأوروبية " ففي حين يتصرف الأول على طريقة : كل ما هو ممنوع مرغوب ، تتصرف هي وغيرها من نساء الغرب وفقاً لطبيعة الحياة عندهن التي تخلو من كثير من الممنوعات التي تضجر بها الحياة في الشرق عموماً

- الفارق بين المرأة المصرية و المرأة الأوروبية : ففي حين يتاح للثانية قدر كبير من الحرية يمكنها من السير وحدها خارج المنزل لساعات متأخرة من الليل، كما فعلت

---

١) الرواية ، صـ ١٣٠

٢) ريان فوت، النسوية والمواطنة، ترجمة : أيمن بكر. سمر الشيشكلي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥، ص ص ١٠٤ ـ ١٠٥

٣) الرواية ، ص٩٨

السيدة الأوروبية، فإن ذلك لا يتاح للأولى فى ظل مجتمع شرقى ذكورى يلقى من القيود على كاهل المرأة ما لا تطيق . فى ذلك يعلق الراوى على لسان " درش "

" فالنساء عندنا فى مصر لا يخرجن وحدهن فى تلك الساعة المتأخر من الليل .. " (١)

-المقارنة بين أوضاع الغرب المتقدمة، وأوضاع بلدان الشرق ومصر المتخلفة : ويتم ذلك من خلال مقارنته بين حال الأطفال هناك والأطفال هنا، فبينما تتوفر الرعاية الصحية الجيدة لدى أطفال الغرب، ينمو هؤلاء أصحاء أقوياء ، وذلك عكس تخلف الخدمات الصحية المقدمة فى مجتمعه التى تخلق أطفالاً مرضى وضعفاء على الدوام . " فدرش " حينما يرى ابنة السيدة الأوروبية ذات الستة شهور من عمرها يُدهش لأن حجمها يوازى حجم ابنته ذات العام والنصف ولهذا يندهش قائلاً :

" عجيب أمر هؤلاء الناس أبناؤهم دائماً أصحاء أقوياء ملظلظون وأبناؤنا دائماً يعانون المغص والإسهال وعشرات اللفف والعيون الحاسدة ... " (٢)

المحور الثانى : تجنيس العلاقة فى النظرة للآخر :

ومن خلال هذا التجنيس يتم اسقاط صفة الأنوثة على الغرب، فيصير الغرب أنثى قابلة للاختراق والغزو من قبل البطل الذكورى الشرقى، وتلك رغبة صريحة يعلن عنها الكاتب على لسان الراوى، " فدرش " بعد أن انتهى من أمر النساء فى مصر، ذهب وفى نيته

" أن يغزو أوروبا المرأة ..... نساء نمساويات فيهن تتركز روح أوروبا، وكل واحدة لها ميزة ... " (٣)

هكذا يحاول النص إقامة نوع من التقاطع بين صورة المرأة و صورة أوروبا، بحيث يصير غزو المرأة والاستحواذ عليها تعبيراً عن غزو أوروبا وما تمثله من آخر تاريخى ذى صفة استعمارية.

---

١) الرواية ، صـ ١١٨.
٢) الرواية ، صـ ١٣٦
٣) الرواية ،ص ص ٧٩ ـ ٨٠ .

ومما يؤكد على هذه الناحية أن درش يريد أن تتم علاقته مع " سيدة أوروبية أصيلة ذات شخصية، تريده هو ولا تريد نقوده، وتعطيه نفسها بإرادتها . بمطلق إرادتها .. " (١)

المحور الثالث : الصورة النمطية للآخر الغربى :

وتظهر هذه الصورة النمطية لدى " درش " فى جانبين : أولهما : أن المرأة الأوروبية هى رمز للانحلال والانفلات الأخلاقى، فالصورة التى يقدمها عن الفتيات الأوروبيات ما هى إلى صورة ماجنة، فهن ينتظرن فى الشوارع مجموعات البحارة الأمريكان فى أوضاع غير مهذبة، وفى ذلك يصفهم الراوى

" وكان طبيعياً جداً أن بدأت تتكون جماعات من عدد من البحارة وعدد من الفتيات متخاصرين، سكارى، صاخبين، يغنون معاً وأحياناً يرقصون فى الشوارع هكذا عينى عينك .. " (٢)

أما الجانب الثانى : فهو الصورة المغلوطة التى يحملها العربى الشرقى عن صورته فى عيون نساء الغرب، فهى صورة تتضمن إنبهاراً من جانب المرأة الغربية بالرجل الشرقى وسحره الذى لا يقاوم . وهو الأمر الذى يتهاوى أمام الممارسة الواقعية للبطل، والتى تؤكد فشل هذه الصورة فها هو " درش " يحاول أن يلفت أنظار الجميلات فى فيينا بكثير من الحيل التى يجريها مع نساء بلده، لكنه لا يفلح بالرغم من ترديده لهم كلمة السر : إنه مصرى ! وفى وصفه عدم صحة هذه الصورة يذكر الراوى

" لقد خدعوه ما فى ذلك شك، هؤلاء الملاعين الذين قالوا له : يكفى أن تمشى فى الشارع بلونك الأسمر، وشعرك الأكرت حتى تجد النساء يتساقطن تحت أقدامك، بل يكفى أن تقول لأى واحدة إنك مصرى حتى ينتهى كل شئ .. وها هو ذا قالها إلى الآن ألف مرة، ولم يبدأ أى شئ .. " (٣)

وبسقوط هذه الصورة النمطية عن الآخر الغربى ، يستطيع البطل " درش " أن يكتشف وجود تقاربات عديدة بينه وبين الآخر، بالرغم من وجود اختلافات أخرى، وهى تقاربات

---

١) الرواية ، صـ ٨٦ .
٢) الرواية ، ص ٨٢ .
٣) الرواية ،صـ ٨٢

يجمعها الإطار الإنسانى العام الذى يشترك فيه البشر بغض النظر عن أية اختلافات عرقية أو إثنية . فحينما يشرع " درش " فى مسك يد السيدة ، يسترعى انتباهه

" أصابعها الرفيعة، القوية من الضرب على مفاتيح الآلة الكاتبة حتماً، ومن لمس الأصابع أحس بلحظة زمالة غريبة تربطه بها "(١)

فكلاهما موظف، وكلاهما يعمل وهذا ما يجعله يتعاطف معها لأنها فى النهاية زميلة له تعمل وتكدح من أجل العيش . وعندما دلف معها إلى شقتها يتبين له أنه لم يبعد عن مصر كثيراً، فحينما يدخل الحمام يلاحظ حبل غسيل مثل الموجود فى منزله، الذى تستعمله زوجته فى تعليق ملابس ابنتها الرضيعة، وهو الأمر الذى يجعله يتساءل " ما فائدة أوروبا إذن، إذا كان إناسها يستعملون نفس الأشياء التى نستعملها . "(٢)

ومن الملاحظات الهامة عند عرض صورة الآخر، أنه يوجد نوع من التلازم بين بين هذه الصورة وصورة الذات فالبطل فى كل مكان يذهب إليه فى فيينا، تتداعى له بعض الأماكن المشابهة فى الوطن ففى بداية الرواية يصف الراوى الميدان الذى وقف به البطل قائلاً

" والميدان لم يكن واسعاً بالمعنى المفهوم من تلك الكلمة، فأوسع ميدان من ميادين فيينا لا يمكن أن تبلغ مساحته مساحة أضيق ميادين القاهرة.. "(٣)

وكذلك عندما يقرأ كملة "مصر" فى إحدى الجرائد المضيئة فى الميدان، يبرق قلبه بانفعال فلابد أن الجريدة تتحدث عن شئ حدث بها، فى وصفه لحالته يذكر الراوى.

" وفى غمضة خاطر واحدة كان قد احتوى مصر بكل ما فيها، وماله فيها، غمضة جاءت سريعة وذهبت سريعة، ولكنها خلّفته خجولاً لا يكاد يطيق النظر إلى نفسه، إذ كان لا يزال واقفاً فى الميدان يفتش بعينيه عن المرأة "(٤)

---

١) الرواية ، صـ ١٣٠.
٢) الرواية ، صـ ١٤٤.
٣) الرواية ، صـ ٧٦ .
٤) الرواية ، صـ ٨١ .

وتبدو مصر دائماً حاضرة فى وعيه حتى وهو يشاهد البضائع فى واجهات المحال التجارية، حيث يبدأ فى مقارنة أسعارها بالأسعار فى القاهرة [1] كما أنه فى طريقه مع السيدة إلى منزلها يذكر

" والطريق بشكل عام كأنه أحد الطرق المؤدية إلى مصر الجديدة " [2]

وتبدو الرغبة فى الاكتشاف من كلا الطرفين واضحة، لكنه الاكتشاف الحذر أحياناً، والمندفع أحياناً أخرى، ففى موقف يدل على الشك الذى يشعر بها الشرق تجاه غربه ، نجد الأديب يعبر رمزياً عن هذا الشك من خلال الشعور الذى انتاب " درش " من السيدة الأوروبية عندما ذهب معها إلى منزلها، فهو يصف شعوره تجاهها قائلاً على لسان الراوى

" وانتابه شعور خاطف .. فهذه المرأة تكاد تفجر عقله من الحيرة .
لم يعد يدرى إن كانت شيطاناً أو ملاكاً، ساذجة أو ماكرة،
تضحك عليه أم هى معجبة به .. " [3]

وإذا كانت " الذات " هى التى تأخذ المبادرة الأولى فى محاولة التعرف على الآخر، فإن الآخر لديه هذه الرغبة فها هى السيدة تخبره برغبتها فى لقاءه معللة ذلك قائلة :

" الحقيقة أننا هنا فى الغرب نسمع عن الشرق كثيراً، وعن غموضه
ورجاله وسحره، وطالما داعب خيالى الأمير الشرقى الأسمر، داعب
خيالى وأنا بنت مراهقة .. وحتى وأنا متزوجة وأم. " [4]

فهى الأخرى لها أحلامها فى الرجل الشرقى الممتلئ بالبطولة ذى الجوارى والحريم ، كما أنه جاء خصيصاً ليبحث عن " المرأة الأوروبية ذات الشخصية والحضارة، فياله من لقاء .. " [5]

ولكن هل نجح هذا اللقاء، وهل حقق كل منهما أحلامه ؟

إن الممارسة الواقعية بين الإثنين أوضحت خطأ وزيف التصورات النمطية التى يحملها كل طرف عن الآخر . فكلاهما يعجز عن التواصل الحقيقى بالرغم من محاولة كليهما الوصول لحالة التواصل . فى توصيفه لهذه الحالة يعلق الراوى

---

١) الرواية ،صـ ٩٥ .
٢) الرواية ، صـ ١٢٨.
٣) الرواية ، صـ ١٢٧.
٤) الرواية، صـ ١٤١.
٥) الرواية، صـ ١٤٢.

" كان هذا كله فوق احتماله وأيضاً فوق احتمالها .. حاول " درش " أن يغمض عينيه عن العالم كله إلا عنها وعما يدور فى الغرفة، وحاولت هى بكل طاقاتها أن تساعده فى إغماض عينيه وليتها لم تحاول .. " [1]

وإذا كان "درش" لم يستطع النجاح فى محاولته مع السيدة الأوروبية، إلا عندما تخيل زوجته، وهو ما فعلته السيدة حينما تخيلت أن الذى معها هو زوجها (أميرها الشرقى الحقيقى)، فإن لذلك دلالته الرمزية، فكلاهما يمثل عالماً مختلفاً ومتمايزاً عن الآخر بحيث يجب أن يشعر كل منهما بخصوصيته وتفرده، فالشرق شرق والغرب غرب وهذا ما جعل درش بعد هذه التجربة وكما يذكر الراوى :

" كل ما أصبح يشغله فى تلك اللحظة هو شعور كان قد بدأ ينبثق فى نفسه، وحنين غريب جارف إلى بلده .. وعائلته الصغيرة والدنيا الواسعة العريضة التى جاء منها .." [2]

والنقطة الأخيرة التى أود أن أعرضها عند التحدث عن صورة الآخر، أنه لم يكن هناك صورة لآخر واحد ، فمع التركيز على صورة الغرب الأوروبى ظهرت على استحياء صورة الآخر الغربى الأمريكى، والذى تمثل فى مجموعة البحارة الشباب الذين قابلهم فى الميدان، وكانوا مثله يبحثون عن المرأة، وهؤلاء شعر تجاههم بالكره والعداء لسببين : الأول : لأنهم يعتبرون منافساً شديداً فى مقصده وإن كانوا يبحثون عن أوروبا العابثة، أما هو فيبحث عن أوروبا السيدة " وشتان ما بين الأوروبتين " [3] فالبطل هنا يدرك تعدد وجوه الغرب : فهو لا يريد الوجه العابث الماجن ، بل يبحث عن الوجه الجاد له .

أما السبب الآخر الذى دعاه لكرههم أنهم يمثلون الاستعمار الأمريكى الجديد، وهذا ما يجعله يدرك أو يتوقع عدم استجابة الفتيات الأوروبيات لهم.

وهنا يثور تساؤل، أتتنافر هذه الوجوه مع بعضها ام أنها تمثل نسيجاً واحداً ؟ وبالطبع ليس الغرب كله كتلة واحدة ، ولكن ذلك لا يمنع من القول بوجود تناغم يقف وراء هذه الوجوه، وهو الأمر الذى يكتشفه "درش" حينما تفشل توقعاته ويندمج البحارة

---

١) الرواية، ص ص ١٥٥- ١٥٦

٢) الرواية، صـ ١٦٣ .

٣) الرواية ، صـ ٨٧ .

الأمريكان مع الفتيات الأوروبيات فى سلاسة ويسر، وهنا يعلق " لابد أن هؤلاء الخواجات يتفاهمون مع بعضهم البعض بطرق لا نعرفها نحن الشرقيين ... " [1]

وبعد ، فقد حاولت فى تحليل هذا العمل. فيينا ٦٠. الاقتراب من الصورة التى قدمها لكل من : الشخصية المصرية والآخر الغربى . والآن أنتقل لمعاينة هذه الصورة فى عمل آخر ؛ للكشف عما قدمه من طرح مغاير أو مشابه فيما يتعلق بهذه القضية .

٢. محاولة للخروج : لعبد الحكيم قاسم (١٩٦٦)

أ – توصيف الرواية ودلالتها العامة :

وتأتى " محاولة للخروج " لتؤسس هى الأخرى رؤية لها من الدلالات العامة والخاصة فيما يتصل بالصورة التى ترسمها لكل من الشخصية المصرية والآخر الغربى .

فى " محاولة للخروج " يبدو البطل " حكيم " شخصية مأزومة على الدوام، وتتعدد مستويات أزمتها : على مستوى الذات، والمجتمع والوطن بشكل عام . لكنه بالرغم من تأزماته التى يقع فريسة لها مولدة لديه صراعاً نفسياً حاداً، إلا أنه شخصية تواقة للخلاص من هذه الأزمات وتتمثل محاولته الخلاص / الخروج من هذه الأزمات فى تقابله مع الآخر، ولكن هل نجح (حكيم) فى محاولته، هذا ما تكشفه أحداث الرواية المتتالية، فعبر الكشف عن العلاقة بين الذات والآخر، المتلبسة حيناً، والواضحة حيناً آخر، ومن خلال الأوضاع الداخلية لذات البطل الممثلة للشخصية المصرية، يتضح أنها ظلت محاولة، مجرد محاولة بكل ما فيها من إخفاقات أو نجاحات . ومن هنا فإن عنوان الرواية يتوافق مع مضمونها، وهو ما يجعل العنوان ذا أهمية خاصة فى تعميق وإثراء المغزى من الرواية ككل .

الحدث الروائى الرئيس فى الرواية هو قدوم الآخر إلى أرض الوطن، من خلال رحلة تقوم بها بعض الفتيات السويسريات لزيارة مصر . ويصحبهم البطل فى زيارتهم إلى سقارة، حيث يتم التعريف به من قبل زوجة أحد أصدقائه (إيفيلين) التى تعلمه اللغة الفرنسية . يحاول البطل عبر هذه الرحلة اكتشاف هؤلاء، وما يمثلنه من صورة مناقضة له . ويسترعى انتباهه إحدى الفتيات التى يشعر تجاهها بألفة غريبة، هذه الفتاة هى " الزيت " كما تخبره هى باسمها .

---

١) الرواية ، ص ٨٨ .

وشيئاً فشيئاً تتعمق الصلة بين " حكيم " و" إلزيث " بالرغم من اختلاف الطباع بينهما واختلاف النظرة للأمور والأشياء – فى بادئ تعرفهما ببعض – وتتكرر مقابلات البطل بإلزيث بعد رحلة سقارة، وبعد عودتها من رحلة أخرى لأسوان والسد العالى، تزور معه عدداً من الأماكن التاريخية فى القاهرة، وتكون هذه الزيارة فرصة للحوار بينهما حول : التاريخ وطبائع المصريين وعن بعض إنجازات الواقع ممثلة فى " السد العالى ". وبعد رحلة قضياها معاً فى القناطر الخيرية، يأتى عرضه عليها بزيارة قريته . وفى عالم القرية الصارخ بالتناقضات بين القرية والمدينة، يعيش البطل ذكرياته وحاضره خلال الآخر (إلزيث) التى يبثها أحزانه وأوجاعه المترسبة معه: طفلاً وشاباً ورجلاً ناضجاً . وفى اليوم التالى لزيارة القرية تقرر (إلزيث) الرحيل لوطنها، وهو الأمر الذى يخلق حزناً وكمداً فى نفس وقلب (حكيم) الذى تعلق بها أملاً وخلاصاً، لكن ها هى ترحل وتتركه مشدوداً بين ذاته وأمته بنفس القدر الذى يتمسك بها، ولإنه لا يستطيع التوفيق بينهما تتعمق أزمته وتتعثر محاولته . فى مشهد وداعه لها يقول :

" صراخ مجوسى فى داخلى .. لا لست متسامحاً ..
لا لست متسامحاً أبداً ". [1]

أما الإطار الزمنى للرواية : فيمتد فعلياً ليشمل عدة أيام قليلة ربما لا تتجاوز الأسبوع من شهر يوليو، فى عام ١٩٦٦م . يتبين ذلك عبر ما يذكره البطل / الراوى من أن اليوم الذى أبلغته فيه زوجة صديقه (إيفلين) بحضور فريق من السويسريات فى رحلة إلى القاهرة " كان ذلك فى اليوم السادس عشر من يوليو عام ألف وتسعمائة ستة وستين " [2] وكما يرى أحد الباحثين " أن هذا التحديد القاطع ليس مجانياً، بل إن له دلالة، ففترة الستينيات فى مصر كانت تشهد تناقضات حادة أشقت وعى المثقفين، وبخاصة الشباب منهم، الذين عاشوا متطلعين إلى آفاق جديدة للحياة والفكر والثقافة، لكنهم اكتشفوا بُعد الشقة بينهم وبين تحقيق ما يطمحون إليه، وراعهم حجم الفجوة بين الشعارات التى بنوا عليها آمالهم، والممارسات الفعلية لأجهزة الدولة البيروقراطية، ولبعض الفئات التى اتخذت من الشعارات الثورية ستاراً لتحقيق أهداف وميزات خاصة، ولتفريغ تلك الشعارات من مضمونها الحقيقى

---

١) عبد الحكيم قاسم ، محاولة للخروج ،القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧، صـ ١٧١
٢) الرواية ، صـ ٦

.وقد تموضعت هذه التناقضات كأزمات فى وعى المثقفين عموماً، والمبدعين الشبان خصوصاً، فضلاً عن أنها كانت تجسد أزمة كبرى تمسك بتلابيب المجتمع، وكانت بحدتها تمهد الأرض للهزيمة الكاسحة التى جاءت كإعصار فى يونيو ١٩٦٧ م [١].

وعلى ذلك فإن الزمن الفعلى وإن كان يستغرق بضعة أيام قليلة من عام ١٩٦٦م، فإن الزمن الرمزى يمتد ليشمل فترة الستينيات بكل تناقضاتها .

أما الإطار المكانى أو الفضاء المكانى: الذى تدور فيه حركة الشخوص فى الرواية : فهو يمتد ليشمل أماكن عديدة : القاهرة وسقارة والقناطر الخيرية والقرية الخاصة بالبطل، أى أن مصر / المكان بطولها وعرضها : القرية والمدينة، بأماكنها القديمة وأماكنها الحديثة (أسوان – سقارة – الفندق والشوارع) هى الفضاء الواسع الذى فيه وبه تتم المواجهة والاستكشاف بين الذات والآخر.

ب–صورة الشخصية المصرية فى محاولة للخروج :

وتظهر الصورة الخاصة بالشخصية المصرية فى هذا العمل فى ثلاثة أبعاد : صورة البطل وصورة الجماعة و وبعض خصائص الشخصية القوميةالمصرية . وفيما يلى تفصيل لها كل على حدة :

الصورة الأولى : صورة البطل:

" حكيم " هو بطل الرواية، وهو الراوى لأحداثها فى نفس الوقت . كما أنه الشخصية الأكثر تعبيراً عن صورة الذات المفردة . فالراوى / البطل منذ بداية الرواية يؤكد على هذه الذاتية حيث يفتتحها قائلاً :" أنا " [٢] ويفرد لها السطر الأول بأكمله .

و"حكيم " شاب مصرى فى الثلاثينيات من عمره، ريفى الأصل، متعلم، يقيم فى القاهرة مع شقيقه فى إحدى الغرف على سطح إحدى العمارات.

وهوينتمى لفئة المثقفين، وتتحدد هواياته فى تعلم اللغة الفرنسية بمساعدة زوجة صديقه (إيفيلين)، كما أنه يمارس تجربة كتابة القصص . أما خصائصه النفسية فتتحدد فى كونه صاحب شخصية تشعر بالحزن " أنا فقط حزين .. مثل منزل قديم " [٣] فهو يشبه حزنه وكآبته بالمنزل القديم المتهالك الذى لا يقوى على

---

١) فتحى أبو العينين، صورة الذات وصورة الآخر فى الخطاب الروائى العربى، مرجع سابق، ص٨٢٥

٢) الرواية ،صـ ٥

٣) الرواية ، صـ ٦٠

الصمود، وهو قلق مرهف الحس، له من الطموحات ما ليس له حدود فيما يتعلق بالثقافة والفكر، إلا أن شعوراً بالغربة والخوف يسيطر عليه

"أخافه أخاف أن تنسد الدروب بالظلام والصمت،

وتبرق فى الأركان عيون الوحشة فأعود كسيراً ." (١)

وتبدو أزمة " حكيم " واضحة من خلال رؤيته لنفسه ولمجتمعه وللعالم من حوله :

. ففى رؤيته لنفسه، يبدو لديه إحساس طاغ بهذه الذات، فهناك تبلور لهذه الشخصية، وإن كان يحده فى بعض الأوقات بعض الغموض الذى يجعل هذه الذات منسحقة فى ذات أكبر هى ذات المجتمع الضاغط، فهو يؤكد منذ البداية

" أصبحت فى الثلاثين ولم انجز بعد شيئاً، مع أننى كنت دائماً مفعم القلب بالرغبات العظيمة، ولم أقعد أبداً راكداً فى ظل جدار، وكل ليالى العمر لم أنم فيها إلا قليلاً ." (٢)

ويلعب القهر والخوف من الآخر السلطوى الذى تمثله الحكومة دوره فى تعميق أزمة هذه الذات ؛ فهو نتيجة لمعرفته بما تمثله السلطة فى المجتمع الشرقى من قوة، خاصة فى ظل وجود مناخ تسلطى، نجده دائم الرعب، ويحاول الابتعاد قدر الإمكان عن التماس مع هذا الآخر السلطوى، الذى يمكن اعتباره آخر داخلى أو مكون من مكونات الذات العامة، يتضح هذا القهر فى أحد المواقف التى تجمعه مع إلزيث وهما سائران على النيل، فعندما يريان رجلين يقفان يدخنان متبادلين حديثاً هامساً، يتخيلهما مخبرين يقصدانه هو ولا أحد غيره، بالرغم من أنه لم يفعل شيئاً يجعله يستحق ذلك . وفى حديث طويل لنفسه، يكشف عن مدى الرعب الكامن داخله نجده يتوقع فى قلق ما الذى سيفعلانه به قائلاً :

" سوف يتقدمان إلىَ حالاً، ويأمران بالقبض علىَ، وعندئذ يخرج من كل الجوانب المظلمة مخبرون على وجوههم أقنعة شرسة مروعة ..... أغمضت عينى . يفقد كيانى تماسكه يستحيل إلى

---

١) الرواية ، صـ ٦

٢) الرواية ، صـ ٥

كمية من الرمل الناعم، أغور .. أهوى كأنني معلق بين ساعدين حديدين يحملاني ماضيين بي .. " [1]

إن الشعور بالقبضة الأمنية وضراوتها على الشخص / المواطن العادي، هي ما تجعله يحاور" إلزيث " قائلاً :" إنسان هذه السنين .. ؟ عليه أن يقف في آخر الصف . "" [2]
ويتبين لدى هذه الذات بعض الترسبات القارة في أعماقها منذ مرحلة الطفولة والتي يراها حملاً ثقيلاً

" أيام طفولتي ثقيلة في قلبي كأنها هناك منذ ألف عام .. " [3]

فلا شك أن أوضاع الفقر والتخلف التي عاني منها تترك ندوبها في روحه . في أثناء زيارته مع إلزيث لمدرسة القرية يخبرها " كانت جماعتنا تسير في الصبح إلى المدرسة.الكراريس في حقائب من قماش رث..حفاة أو في أحذية متصلبة بالوساخة .."[4]

وتعاني هذه الذات من شعور بالكبت في المجتمع الذي لا يعطي الفرصة لمثل هذه الذات لتحقيق درجة ما من الإشباع لرغباتها، وهنا يغدو الشعور بالحرمان شعوراً يفرض نفسه على هذه الذات، ولذلك فهو يحاول اقتناص أية فرصة أمامه من أجل تعويض هذا الحرمان . لذلك نجد حكيم يقول لنفسه " إنني أفكر بغددي لا بدماغي "[5]

أما فيما يتعلق بأزمة هذه الذات في علاقتها بمجتمعها : فتتضح أبعاد هذه الأزمة عبر الربط بين ظروفه الشخصية وظروف مجتمعه ، فهو شخصية عاشت مشتتة أو موزعة بين عالمين مختلفين إلى حد كبير : عالم القرية بكل رثاثته وتخلفه، وعالم المدينة المتناقض ظاهراً وباطناً الممتلئ بالعوالم الخفية، هذا التشتت ما بين عالم القرية / الطفولة وما يمثله من محاولة للبحث عن البراءة والصفاء، وعالم المدينة الضاغط، هو ما يعمق من أزمة هذه الذات التي يتجاذبها العالمان، فلا هو بالقروي الخالص، ولا بابن المدينة الأصيل . إن هذا الاحساس بالتمزق يطغى على حياته كلها، لهذا يحكي لإلزيث عن نفسه قائلاً :

---

١) الرواية ، صـ ٩٦
٢) الرواية ، صـ ٧٣
٣) الرواية ، صـ ١٣٩
٤) الرواية ، صـ ١٤٣
٥) الرواية ، ص

" لا مكان لأريح ظهري، وسط الحطام وحيد لدرجة البكاء، خائف لدرجة الرعب، الجدران سمراء مدهوكة بالطين تملأ خيالى بالحداد . انتهت إلى الأبد أشيائى الحميمة، الأحلام والرؤى المنهبة، أصبح عالمى صلباً جافاً قبيحاً .. لكن لا حيلة لى .. " (١)

. وإذا كانت هذه هى رؤية الذات (حكيم)لنفسها ولمجتمعها، فلا شك أن هذه الرؤية التشاؤمية هى ما يؤطر رؤيته للعالم من حوله، وهناك من المواقف الكثير مما يدل على هذه الرؤية، فهو حين يتحدث عن الأحوال من حوله يقول :

" الصحاب أجدبت فروات رؤوسهم وحلقت على أطلال ملامح وجوههم الكآبة ... وغرف البيوت خانقة والحيطان متسخة مزينة بسوقية خالية من البهجة، والنساء ذابلات العيون ملولات والسلالم عالية مترية .. أطرق الصمت الأخرس وأنتظر قلقاً لينفرج الباب عن (لا) مبتسر قضجرة قانطة .. " (٢)

إن هذه الرؤية المأساوية التى تطبع العالم من حوله تكمن أسبابها فى الواقع المتخلف الغريب الذى يعيشه على كل مستويات وعيه، وعلى اختلاف مراحل عمره حيث تشكل مرحلة طفولته فى القرية منحناً خطيراً فى هذه الرؤية ، ففى أثناء زيارته مع إلزيت للمدرسة تخبره صديقتها " إلين " أنها أحبت أطفال القرية جداً ، وتتصورهم وهم يلعبون فى انتظار الجرس ، يرد عليها :

" وهم من هنا يا إيلين يرون مقبرة القرية بوضوح، فالمسافة قريبة جداً بين المساكن والمقابر .. " (٣)

وهنا يمكن ملاحظة أنه فى حين تحدثه إيلين عن الأطفال رمز الأمل والمستقبل، نجده يحدثها عن المقبرة رمز الموت / الفناء / اليأس وعموماً فهو يرى نفسه غريباً يسير فى عالم حافل بالعداء، فهو يذكر لنفسه :" أنا أسير فى هذا العالم الغريب الحافل بالشراسة والعداء .. " (٤)

---

١) الرواية ، صـ ٧٥ .
٢) الرواية ، صـ ٥.
٣) الرواية ، صـ ١٤٤ .
٤) الرواية ، صـ ١٥٢.

الصورة الثانية : صورة الجماعة (الشخصية الاجتماعية) :

وتقدم الرواية صورة للشخصية الاجتماعية لكل من : القرويين والمثقفين ، ويمكن توضيح أهم معالم هذه الصورة فيما يلى :

. صورة القرويين : القرية عند " حكيم " هى عالمه الذى يعشقه، برغم كل ما فيه من ألم وناسها هم جماعته الأولية التى يحن إليها، فيهم يقول :

" آخذ إلزيث إلى عالمى، ناس أعرفهم دون تبادل،

بعيونى أحس ملمس أيديهم ورائحة ثيابهم .. "(١)

وعلى ذلك فهو يشعر بالألفة والأمان وسط هؤلاء، عكس عالم المدينة (القاهرة) الذى يتحدث عنه قائلاً :

" فى القاهرة أعرف الشوارع والعمارات الشاهقة ، وأرى الناس لكنى لا أعرفهم، ثمة شئ حولهم كالأسلاك الشائكة، تمنعنى من الاقتراب منهم" (٢)

ومن خلال الزيارة التى يصحب فيها " حكيم " " إلزيث " و " إيلين " وصديقه " صلاح " للقرية، يكشف "البطل" بقدر كبير من الوعى كثيراً من مشكلات القرية المصرية وأحوال الناس بها، وهو وصف يقترب من وصف الباحث الاجتماعى. فهو عالم يقوم على علاقات الوجه للوجه والتضامن العضوى بين أفراده، فمنذ وصوله للقرية الكل يرحب به ويضيوفه بحفاوة بالغة .

ويمكن النظر لهذا الملمح القروى فى ضوء التفرقة التى أقامها " دوركايم "بين المجتمعات وما يسودها من علاقات . فهو يرى أن هناك نوعين من المجتمعات : المجتمع التقليدى والمجتمع الصناعى الحديث . ويسود كل من هذين المجتمعين نمط مختلف من العلاقات ؛ ففى المجتمع الأول يكون الأفراد متماسكين ؛ لأنهم يتشابهون ويقومون بنفس أشكال العمل ويؤمنون بنفس القيم والمحرمات ، وعلى الرغم من الاختلاف الكبير فى نظام الأدوار فإن أى عضو من أعضاء هذا المجتمع قادر تماماً على فهم أدوار . دوائر الفعل التى توليها الجماعة للفرد . العضو الآخر . فى حين يختلف هذا الوضع جذرياً فى

---

١) الرواية ،صـ ١١٦ .
٢) الرواية ، صـ ١٢١.

المجتمعات الصناعية التى تتسم بتقسيم متزايد للعمل، ولا يتضامن الأفراد مع بعضهم البعض لأنهم متشابهون، بل لأن أدوارهم ومهامهم تعتمد على بعضهم البعض .....إن التضامن الذى ينشأ من هنا لا يرتكز إذن على القيم والمعايير المشتركة، ولكنه اعتماد متبادل للمهام والأدوار ويستخدم دوركايم للنمط الأول من التضامن مفهوم التضامن الميكانيكى، وللثانى التضامن العضوى أو الوظيفى.[١] فالنمط الأول يربط الفرد بالمجتمع مباشرة من دون أية وساطة، بينما يعتمد الفرد فى النمط الثانى على المجتمع ؛ لأنه يعتمد على الأجزاء التى ستعمل على تشكيله (أى المجتمع) .[٢]

ويشير النص لنظرة الاحترام والتقدير التى يمنحها هذا المجتمع لأبنائه المتعلمين، وهو ما يدهش " إلزيث " التى تسأله " لماذا سلم عليك الناس جميعاً .. هل أنت رئيس هنا ؟ "[٣] ويجيبها أن ذلك سمة من سمات الريفيين، فحينما يرتدى صبى بذلة، ويحمل كتبه ذاهباً إلى المدرسة " يحبونه جميعاً ربما .. دهشة أو خوف .. أو أمل .."[٤] وتبدو هنا الأهمية النسبية التى يكتسبها الفرد فى جماعته، من خلال التعليم باعتباره معياراً من معايير المكانة الاجتماعية المتميزة، وخاصة فى الفترة التاريخية التى تتناولها الرواية .

وعن أوضاع ملكية الأرض فيما قبل وما بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ وأثرها على أهل القرية، وما تعرض له الفلاحون من إجحاف وظلم ، يحكى " حكيم " لإلزيث عن الأميرة التى كانت تمتلك الأرض التى كان أخوه الأكبر يزرعها وبقية فلاحى القرية، ويحكى عن الموظفين الذين يجمعون النقود لها من هؤلاء، فى وصفه لأهل قريته يقول :

" ويأتى الفلاحون خائفين يلقون أمامهم نقودهم .. قديمة ملوثة بعرق أيديهم. والموظفون يصرخون .. وأبى يتوسل .. "[٥]

وبالرغم من تبدل هذه الأحوال فيما بعد، وتوزيع الأرض الزراعية على هؤلاء وغيرهم. فى إطار ما قامت به ثورة يوليو من إجراءات فى هذا المجال. إلا أن مشكلات

---

١) بيير زيما، النقد الاجتماعى. نحو علم اجتماع للنص الأدبى، ترجمة : عايدة لطفى، القاهرة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩١، ص ٢٥.

٢) إميل دوركايم، تقسيم العمل فى المجتمع (١٨٩٣)، فى : ج .تيمونز روبيرتس. أيمى هايت، من الحداثة إلى العولمة. رؤى ووجهات نظر فى قضية التطور والتغيير الاجتماعى، ترجمة : سمر الشيشكلى، الجزء الأول، العدد ٣٠٩ ، الكويت، مطابع السياسة، ٢٠٠٤ ، ص ٧٥ .

٣) الرواية ،صـ ١١٧.

٤) الرواية ، صـ ١١٧.

٥) الرواية ، صـ ١٤٠

الفلاحين لم تنته، بل ظلت الصورة كما هي، تغير شكلها وظل المضمون كما هو، فموظفي الحكومة مازالوا يتعرضون للفلاحين " لكن لازال هناك موظفون يصرخون ... وفلاحون يتوسلون .. " (١)

وفي هذا الصدد تشير إحدى الدراسات إلى أنه نظراً لشدة تمسك الفلاح المصري وتعلقه بأرضه التي يفلحها ، وصفه الكثيرون من الكتاب بأنه أكثر الناس خضوعاً وإذعاناً ، فهو يؤثر الموت على العصيان . وليس معنى ذلك خنوعه للظلم ، وإنما معناه يأسه من أن ينصفه الباشا أو الحاكم ... " فأغلب ضروب البؤس التي يلقاها الفلاح يمكن إرجاعها إلى الحكام ، فهم جشعون ومرتشون وما يجدي الفلاح كثيراً أن يشكو حاكمه . والخلاصة أنه تولد عن الظروف التاريخية التي مر بها الفلاح المصري ، خوفه من الحكومة عموماً لأنها مظهر السلطة والتحكم والظلم ، ومن أجل هذا كان في البعد . كما يقال . عن الحكومة غنيمة . " (٢)

ويشير النص أيضاً لبعض الإنجازات التي تحاول الحكومة القيام بها من أجل النهوض بالريف المصري في تلك الفترة، فيخبرها عن مزرعة الحكومة التي يجربون ويبحثون فيها عن نباتات تعطي محصولاً أوفر، كما يخبرها عن المستشفى الذي سوف تبنيه الحكومة لعلاج أهل القرية، بالإضافة لوجود خزان يمد القرية بالماء النقي .و" حكيم " يعتز بانتمائه الريفي فهو يذكر لإلزيث :

" اتعرفين .. كل زعماء مصر تقريباً أتوا من القرية .. عرابي .. زغلول .. ناصر . " (٣)

ولذلك يشعر بالمرار لما يعانيه الريف من فقر وبؤس فعندما تعلق إحدى الفتيات الأوروبيات على منظر القرى التي يمرون بها في طريقهم إلى سقارة بكونها فقيرة وقذرة، هنا يحدث نفسه :

" نظرت حيث تنظر البيوت مكدسة ومتداعية وقذرة، والناس دؤوبون معلولون كقرية النمل، أحسست بالخجل والقهر ."(٤)

---

١) الرواية ، صـ ١٤٠

٢) حكمت أبوزيد ، التكيف الاجتماعي في الريف المصري ، القاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ٢٠٠٤ ، ص ص ٦٦ ـ ٦٧ .

٣) الرواية ،صـ ٤٧

٤) الرواية ، صـ ١٠

وهذا ما جعله يحدث إلزيث وصديقتها بخصوص هذه البيوت قائلاً: " إنها خير من بيوت الناس في قرى أخرى ".[1] إن الأديب هنا يتخذ من هذه المشاهد سبيلاً لعرض الأوضاع المجحفة التي عاني منها الريف المصري في بداية فترة الاستقلال . كما يعرض لقضية الفروق الريفية الحضرية .

ويتكرر نفس المشهد أثناء سيره مع "إلزيث " على النيل حيث المباني الرائعة على ضفافه والأضواء الباهرة، فيخبرها :

"لكن هذه ليست مصر، مصر تعيش في أكواخ طينية مظلمة في أعماق الريف.. هناك تعيش.. كسيرة .. تلبس السواد.."[2]

. صورة المثقفين : وتضم صورة الشباب المكون من " حكيم " وأصدقائه الذين يشاركونه الشعور باليأس والإحباط، كما يشاركونه الأحلام التي لا تتحقق . وعن هذا الجيل وما يعانيه في ظل تحولات فترة الستينيات يحاور " إلزيث " قائلاً :

" ماذا تطلبين منا .. إننا لسنا أسوياء يا سيدتي .. إننا مرضى .. جائعون .. أحلامنا نتاج حالنا .. مليئة بالمبالغة لأن حياتنا مليئة بالمأساة .. نحلم بأشياء خارقة للعادة لنستطيع أن نحيا حياة مليئة بالقبح .. "[3]

وبالإضافة لـ " حكيم " ، يوجد صديقه " صلاح " الذي يعمل مهندساً . وهو صديقه منذ أيام الدراسة في مدرسة طنطا الثانوية، وله معه ذكريات ممتعة، كمراسلة الفتيات الأجنبيات والليالي الطويلة التي كانا يقضيانها في تحرير الخطابات لهؤلاء الفتيات، لكن " صلاح " لم يعد هو الصديق القديم، فقد تبدلت أحواله في ظل ما يفرضه واقع المجتمع عليه من ممارساته في وصفه إياه يذكر حكيم :

" أتأمل وجه صلاح كيف تخبو إشراقة الروعة القديمة لكنه هنا طول الوقت في العتامة ... وما يكاد يفتح

---

١) الرواية ، صـ ١٠

٢) الرواية ، صـ ٤٦.

٣) الرواية ، صـ ١٣

النافذة فى باب الشقة حذراً مستطلعاً حتى ينشق باب الشقة المقابلة عن عينين بارقتين متلصصتين ."[1]

وتبدو آثار الجو الخانق لفترة الستينيات القائم على التلصص والمراقبة التى يعانى منها المثقفون على شخصيته " صلاح " الذى يفرض على نفسه نوعاً من العزلة، فهو يقضى معظم وقته فى شقته الرطبة " يهمس فى سماعة التليفون همسات تحمل من السعادة أقل القليل.."[2] فهو يشعر بالمحاصرة من " رؤسائه اللصوص فى الشركة، وجيرانه الذين يكرهون وحدته الباسلة، والفتيات اللاتى ينتشرن على أطراف خطوط التليفون .. "[3]

وهناك الكاتب النوبى الشاب صديق "حكيم " وزميله فى تجربة الكتابة القصصية . والذى لا تختلف أزمته كثيراً عن " حكيم " . يقابله فجأة " حكيم " أثناء سيره مع " إلزيث " على شاطئ النيل، ويخاطبه قائلاً : " بص أنا ماشى حافى .. الجزمة انقطعت .. رمتها فى النيل .. "[4]

وحينما تفزع " إلزيث " من منظره يقول لها " حكيم " :

" إنه ليس مخيفاً .. إنه حزين .. كلنا حزانى ..
بشكل أو بآخر .. أليس فيه شئ ما .. عذاب ما .." [5]

الصورة الثالثة : خصائص الشخصية القومية المصرية :

وتعرض الرواية لخصائص الشخصية القومية المصرية من زاويتين : -

الزاوية الأولى : الشخصية المصرية فى علاقتها بالتاريخ العام لها . فنجد " حكيم " يعود لتاريخ الشخصية المصرية القديم (الفرعونى) ليربط بطريقة رامزة بين ما تعانيه هذه الشخصية فى حاضرها وبين هذه الفترة السابقة، خاصة فى ظل نظرية (الإله الحاكم) التى تجعل الفرعون يتأله . ففى الرحلة إلى ممفيس، عندما أخذت السائحات فى التقاط الصور لتمثال رمسيس يذكر " حكيم " فى وصفه لهذا التمثال

" رجله اليمنى طاحت قدمها، مشرعة إلى الأمام فى خطوة شوهاء
مخيفة ماحقة ... لا شئ إنسانى فى وسامة الوجه، قبضة

---

١) الرواية ، صـ ١٠٧.
٢) الرواية ،صـ ١٠٨
٣) الرواية ،صـ ١٠٩
٤) الرواية ، صـ٤٣
٥) الرواية ، صـ ٤٤ .

جهنمية مضمومة إلى الصدر، مطبقة على ورقة مطوية لعلها تفويض إلهى، إمتلأت خوفاً وكراهية .."[1]

كما يشير للاستمرار فى خصائص الشخصية المصرية عبر التاريخ، فالاتصال بين مراحل هذه الشخصية موجود بلا انقطاع . يتضح ذلك من خلال أوجه الشبه التى يعرض لها "حكيم" بين حياة المصريين المعاصرة وحياة أجدادهم الفراعنة، ففى زيارته لمصر القديمة مع "إلزبث" و صديقتها "إيلين" وسط زحام المشترين والبائعين والسائرين وزحام البضائع والصيحات هنا وهناك، يتذكر زيارتهم لمقبرة الوزير (تى) بكل تفاصيلها المشابهة لهذا المشهد المعاصر فى وصفه لهذا التماثل يذكر :

" المصريون وقد مرت عليهم آلاف السنين، عشرات من الملوك وجيوش من الغزاة، هاهم يحبون الكثرة من كل شئ . من الولد والبضائع والنكات والتعليقات الساخرة . نحن فى مقبرة الوزير (تى)، لكن هنا حياة وليست صور . هنا الحياة بكل إمكاناتها المنهلة على جنبك وجهدك وإنعام خلاياك بالحيوية والحركة والحبور . "[2]

وبطريقة يحاول بها اسقاط التاريخ على الواقع، نجد البطل يخبر " إلزبث " عن تاريخ بيت القاضى قائلاً :

" فقط تخيلى .. آلاف الشاحبين الحافيين العراة مكنسين هنا فى هنا الميدان أمام هنا البيت يهتفون .. نريد محمد على .. فقد كان محمد على بالنسبة لهؤلاء حلم ... إلا أنه كان حلماً غير حقيقى .. "[3]

وهنا نلمح تشابهاً بين ما فعله المصريون عند اختيارهم محمد على والياً عليهم، وبين تجربة ناصر فى الستينيات من القرن العشرين، فكلاهما كان حلماً . ولكن حلماً شابته بعض الكوابيس التى خنقت التجربة الخاصة بكليهما .

---

١) الرواية ، ص ١٥

٢) الرواية ،صـ ٥٦

٣) الرواية ، صـ ٦٥.

وفى إشارته لسمة التدين كسمة أصيلة فى الشخصية المصرية، نجده فى زيارتهم لمسجد الحسين يخبر "إلزيث" هذا قبر حفيد النبى محمد ..أتعرفين إننى أحب القديسين ..هل تحبينهم "[1] .ويعتبر التدين من السمات الأصيلة التى تتسم بها الشخصية المصرية القروية ، فأبناء المجتمع القروى على عكس أبناء المدينة يعيشون فى كفاح دائم وصراع مستمر درءاً لخطر الطبيعة ، ولما كانت الطبيعة دائماً فوق إدراك القروى ، ولا يستطيع السيطرة عليها بإمكاناته البدائية ، لذلك فهو يعيش تحت رحمتها . " ولهذه الظروف أثرها العميق فى نفسيته وفى تكوينه وفى طبيعته ..ولذا نجد أن القروى تغلب عليه الناحية الدينية ، فيطلب على الدوام الرحمة والعون من خالقه . "[2]

و يشير النص لبعض الصفات السلبية فى هذه الشخصية كالإيمان بالسحر والشعوذة، فعندما يخبر " إلزيث " " فى العادة ..نحن طيبون ..فلاحون طيبون .. "[3] ويجدها ترد عليه بابتسامة ما كرة (أحقاً)[4] هنا يتذكر صورة لأحد الفلاحين، شاحب اللون كئيب الملامح

" يملك سراً رهيباً .. يستحضر من قاع العالم قوى شريرة سوداء
جبارة يسخرها لأمر . أحداً لم يعرفه، أحداً لم يره أو يدخل داره..
لكنهم يحكون عنه فى همس خائف عندما يهبط الظلام . "[5]

أما الزاوية الأخرى التى يعرض من خلالها النص لخصائص الشخصية المصرية، فهى المتعلقة بعلاقتها بالواقع كما تحياه، وتمثله فترة الستينيات، وهو يصور فى هذا الشأن ما تعانيه الشخصية المصرية من تخلف الأوضاع، وتخلف السلوكيات، فها هو " حكيم " يذكر أنه : وهم فى طريقهم لسقارة حيث وسائل المواصلات المكدسة بالركاب و المائلة من كثرة أحمالها، يجد عيون السائحات مركزة فى دهشة على ما يشاهدنه من مناظر . فى وصف هؤلاء يذكر :

---

١) الرواية الرواية ،ص ٦٧
٢) حكمت أبوزيد ، مرجع سابق ،ص ٥٠ .
٣) الرواية ، صـ ٣٤ .
٤) الرواية ، صـ٣٤
٥) الرواية ، صـ ٣٥.

" كل العيون خارج النوافذ يتفرجون علينا)، بالرثاثتنا وفقرنا،
كم نحن كآبى وشاحبون لكننا .. آه صدرى ممتلئ بالكلام .
واحداً لم يسألنى، أنا هنا وحدى." [1]

وتمتد عبر الرواية صور لشخوص يمكن من تأويل أفعالها القول بأنها صور للشخصية المصرية المتحولة فى هذه الفترة، فهناك المخبرون، والعساكر وما يمثلونه من رموز للسلطة والقمع فى المجتمع . وهناك صور للفتيات والنساء اللاتى يتخذن من البغاء وسيلة لكسب عيشهن، واللاتى يتعرف حكيم على بعضهن . وفى هؤلاء يقول :" لم أعرف أبداً الواحد الصحيح . كن جميعاً مومسات . " [2]

وفى مقابل هذه الصورة القاتمة لهذه الشخصية فى مجموعها العام، يبرز الوجه الإيجابى للشخصية المصرية فى هذه الفترة، الذى تتجسد فيه الروح الأصيلة الكامنة فى أعماق الشخصية المصرية، ويمثلها العاملون فى بناء السد العالى الذين يملأهم الحماس والنشاط، فها هى " إلزيث " تذكر "لحكيم " بعد عودتها من أسوان عن " الآلات الهائلة .. آلاف العاملين . هزتنى حقاً . المصريون هناك لم يكونوا كسالى.. " [3]

جـ- صورة الآخر كما ظهرت فى محاولة للخروج :-

قدمت فيما سبق الصورة التى ظهرت بها الشخصية المصرية . أما فيما يخص الحديث عن صورة الآخر الغربى كما ظهرت فى الرواية ، فنجد أنه حديثاً يقدم صورة أساسية ، هى صورة الغرب الحضارى المتمدين الذى ينادى بقيم إنسانية عالمية " : .. النظافة .. الشرف .. العدالة " [4] . هذا الغرب الحضارى يظهر من خلال شخصيات محددة، أبرزها شخصية " إلزيث " السويسرية، وهى تعد الشخصية النقيض لشخصية البطل " حكيم " . فمن خلال " إلزيث " وعبرها ترتسم صورة الآخر بكل تفاصيلها والتى تتمحور حول عدة قضايا يمكن اعتبارها الفئات التحليلية التى أستند عليها فى تحليل صورة الآخر : فهناك التقاطبات العديدة بين الشخصية المصرية و الآخر، وهناك نقد الذات الذى يتم من خلال

---

١) الرواية ، صـ ٩
٢) الرواية ، صـ ١٦٤ .
٣) الرواية ، صـ ٥٤
٤) الرواية ، صـ ٧٤

الآخر، كما يوجد تجنيس العلاقة فى النظرة لهذا الآخر، وعبر هذه القضايا يكون الغرب : الصورة / المثال . و انتقل لعرض تفصيلى لهذه القضايا فيما يلى :

المحور الأول : التقاطبات بين الشخصية المصرية و الآخر الغربى : ويمكن إيجاز هذه التقاطبات فى :

. الاندفاع فى التعبير عن العاطفة من قبل الذات فى مقابل التعقل من قبل الآخر : ففى كل المواقف التى تجمع "حكيم" و" إلزيث " وحدهما، نجد أفعاله تجاهها تتسم بالاندفاع، ففى بداية تعارفهما عندما يحاول الاقتراب منها تقفز مبتعدة ومنفلتة منه . فى ذلك الموقف يصفها " عيناها باردتان قاتلتان، شفتاها تلتويان اشمئزازاً . "[1] وعندما يحاول أن ينالها مرة أخرى تتملص منه قائلة : " حكيم .. لا أريد ذلك .. لا أريد الأمر هكذا ... لا .. لا .. لا "[2]

إذن هى لا تفهم هذه الغرابة المتمثلة فى اندفاعه الأهوج — من وجهة نظرها — فى سلوكه تجاهها . إلا أنه يمكن تفسير هذا السلوك، والفهم الملتبس من كلا الطرفين بإحالة الفعل الصادر منهما، ورد الفعل المترتب عليه إلى الإطارين الثقافيين لكليهما ؛ فكل منهما نتاج لإطاره الثقافى والحضارى ، فالأول " حكيم " ابن مجتمع شرقى أبوى، يقوم على الكبت خاصة فيما يتعلق بأمور العلاقة بين الرجل والمرأة ولهذا فهو يندفع خلف عواطفه فى محاولة لنيلها كغربية مباحة له بدرجة ليست متوفرة فى مجتمعه الأصلى . أما هى فابنة مجتمع متقدم، يعطيها من الحرية ما تشاء . لذلك تحاول ألا تكون مساوية له حتى فى هذه المسألة، وهو ما يعجز عن فهمه، وهذا ما يجعلها تصرخ منفعلة :

" إننى لا أفهمك حقاً ... هل تأخذنى حينما تريد .. لكنى أنا لا أريد .. أتأخذ الأشياء لنفسك هكذا .. ؟ !! "[3]

إن المسافة الفاصلة بينهما فى فهم كل منهما لهذا البعد، هى المسافة الفاصلة بين طبيعة الحضارتين : حضارة الذات وحضارة الآخر .

---

١) الرواية ، صـ٢٧

٢) الرواية ، صـ ٤٨.

٣) الرواية ،صـ ٤٨ .

ـ الفارق بين الحضارتين الشرقية العربية والأوروبية الغربية ، فيما يتعلق بالنظرة الروحية في مقابل النظرة المادية : ففى تبريره لموقفه المندفع تجاهها، يحاول أن يوضح خطأ تصورها الذى تبنيه على أساس مسلمات عقلية بحتة فهو يخبرها :"إنك تفهمين الناس من خلال مسلمات حمقاء، الإنسان ليس آلة مضبوطة على قواعد أخلاقية ثابتة، هل يجب أن نفهم كل الأشياء ونعللها تعليلاً صحيحاً ." [1] فهذه النظرة تقابل نظرته الشرقية التى تعطى العفوية والإحساس شأناً كبيراً فى الحكم على الأشياء

" ألا توجد أشياء فقط نحسها وفقط نحبها من خلال إحساسنا بها، ألا توجد أشياء شاذة ورائعة حقاً . كيف تصبح الحياة دون الخطأ والعفوية والصدفة غير المعقولة ! " [2]

. الفرق فى رؤية الطرفين لمفهوم الحرية السياسية : " فإلزيث " ابنة المجتمع الغربى الذى يرى — من وجهة نظر المركزية الأوروبية — أن الغرب قد وصل إلى أعلى مراحل الحرية السياسية والديموقراطية، وأنه على بقية الشعوب أن تسير على هذا النهج الغربى حتى تحقق التقدم المنشود فى هذا الخصوص . إن هذه النظرة هى ما تجعل "إلزيث" تعلن : " لكن .. حياتكم السياسية .. تبدو مخيفة .. لا أفهم حقاً .. " [3]

أما هو فمن وجهة نظر المقهور المستغَل، يحاول مجادلتها ليقنعها أن العالم ليس أوروبا، وما يصلح لأوروبا لا يصلح لغيرها، وأنها فى سياساتها مع الشعوب المقهورة لا تفعل سوى الخطب والمناقشات، وهنا يحدثها :" إلزيث .. إن أوروبا ليست العالم . هنا عالم آخر له أساليبه .. أنتم تناقشون .. تلقون كثيراً من الخطب .. يأتى ناس إلى السلطة وينهب ناس .. لكن النظام هو .. هو ، " [4] ولذلك عندما تعلق على حديثه بقولها : " تلك هى الحرية السياسية " . [5] فإنه يشرح لها الاختلاف والخصوصية التى تميز مجتمعه فى ضوء التحولات المرحلية التى يشهدها، فهو مجتمع ينظر لمثل هذا النمط من الحرية باعتباره شيئاً مضحكاً، فى ظل وجود هموم ومشكلات أكبر يعانيها المجتمع

---

١) الرواية ، صـ ٢٨
٢) الرواية ، صـ ٢٨
٣) الرواية ، صـ ٤٧
٤) الرواية ، صـ ٤٧
٥) الرواية ، صـ ٤٧

"إنها شئ مضحك لنا.. نحن نختلف هنا حول أشياء كبيرة، إما أن نعطى الأرض لبضعة بشوات.. أو لملايين الفلاحين.." (١)

.وتطرح الرواية تقاطباً آخر بين الطرفين فيما يخص نظرة المجتمعات للقيم الإنسانية العامة : فالبرغم من اشتراك الذات والآخر فى تشوف قيم إنسانية عامة مثل قيم : "النظافة .. الشرف .. العدالة "، فإن هناك من الموروثات والتقاليد البالية ما يعيق تحقيق مثل هذه القيم فى مجتمع البطل، ففى حين يعطى المجتمع الغربى أبناءه الفرصة لتحقيق هذا المسعى، فإن القهر الذى تمارسه المجتمعات الشرقية يقتل فى أبنائه الرغبة فى المعرفة والسؤال، فحكيم يتذكر أحد المواقف التى تجمعه مع أبيه وهو طفل.

" وبدأت أسأل أبى أسئلة صعبة .. نظر إلى بحزن .. يا بُنَى ... هذه أشياء لا تهمنا .. نحن هكذا .. لا زيادة .. " (٢)

وهنا تثار قضية الصراع بين المعرفة الموروثة وتلك المكتسبة، وما ينشأ عنها من صراع بين القديم والجديد، ومفاهيم الخطأ والصواب فى ظل بناء الأسرة المصرية الذى تنعدم فيه المشاركة الديموقراطية وتقوم على القدسية والسلطوية ، مما يدفع الفرد لقبول الأمور دون مناقشة أو معارضة . (٣)

المحور الثاني نقد الذات من خلال الآخر : -

وأقصد به أن وجود الآخر والتعرف عليه باعتباره نقيضاً فى حالات كثيرة ، يكون سبباً فى التعرف على ما تعانيه الشخصية المصرية والمجتمع من سلبيات . ومنذ البداية تطالعنا الرواية بصورة مثالية يكونها البطل عن الغرب؛ فهو يتعلم اللغة الفرنسية بمساعدة (إيفيلين)، ومن خلال الكتاب الفرنسى الذى يتعلم فيه، يطالع عدداً من الصور المعبرة عن حضارة الآخر وحياته التى يتمناها البطل ولذلك نجده يعلق على محتويات الكتاب قائلاً :

---

١) الرواية ، صـ ٤٧

٢) الرواية ، صـ ٧٥.

3) Selma , Botman , Egypt from independence to revolution (1919 – 1952) new york , syraccuse university Press , 1999 , p 6 .

" تتابع فى راسى صور الكتاب، برج إيفل، الكونكور، الحانات، التماثيل، النافورات، قُبل الوداع على أرصفة القطارات، الراقصات يُطيّرن ذيول المخرمات حول سيقان هيفاء . " [١]

هذه الصورة التى ترتسم فى ذهن البطل من خلال المعرفة غير المباشرة، تتعمق داخله بقدوم الآخر إلى أرض الوطن، حيث يصير الآخر هو المرآة التى من خلالها يتم نقد الذات فى بعديها الفردى والجماعى . وهنا لا يكون الآخر إلا خلاصاً لهذه الذات المتأزمة، ولهذا نجد " البطل " يعلنها لنفسه : " إلزيث هى خلاصى " [٢]

ويتم نقد الذات فى عدة مواقف يطالعنا بها النص الروائى " فحكيم " المعبر عن هذه الذات مُحمّل بصورة للآخر قوامها تفوقه وتقدمه، هذا الإحساس يجعله غير قادر على الوثوق بنفسه أو تأكيد هذه الذات فى حضرة الآخر، بل إن شعوراً بالخوف من رد فعل الآخر تجاهه يتملكه . ففى الموقف الذى تعرفه " إيفيلين" بالفتيات الأوروبيات باعتباره كاتب قصة وشخص ممتاز، يحاول البطل، كما يذكر هو بنفسه، استطلاع انعكاس هذه الكلمات فى عيونهن

" تعليق واحد ساخر أو تحديق مستريب يمكن أن يصبنى بالدوار " [٣]

وهنا يبدو فى موقف " حكيم " ما يمكن أن نطلق عليه : الشعور بالتخلف الثقافى الذى يشعر به الإنسان العربى عند مواجهة الغرب الحضارى . وجانب من هذا الشعور ناجم عن " إدراك تفوق الغرب فى ميادين العلم والتكنولوجيا والجوانب السياسية والاقتصادية ، والاعتقاد بأن ذلك يستتبع بالضرورة التفوق أو التقدم الثقافى " . [٤]

وعلى مستوى الوضع الاجتماعى والاقتصادى المزرى الذى تعيشه جماعته ومعاناتها الفقر والحرمان، يأتى الآخر ليلعب دور المحفز الذى يثير فى ذات البطل صورة جماعته التى يعيش وسطها، فحضور الآخر ملازم لحضور هذه الصورة، فعندما ركب مع السائحات فى سيارتهم شعر بالوحدة بينهم، وطغت على سطح ذاكرته منظر

---

١) الرواية ، صـ ٦.
٢) الرواية ، صـ ٨٦.
٣) الرواية ، صـ ٧.
٤) أحمد أبوزيد ، هوية مصر الثقافية ، القاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة الشركة الدولية للطباعة ، ٢٠٠٤ ، ص ٥٠ .

الغرف المتراصة على السطوح، الذى يسكن إحداها مع أخيه، فهى ليست إلا مكاناً قبيحاً لا يصلح غير قبر . وتطغى على مخيلته صورة ساكنى هذه الغرف حيث

" يخرجون من الغرف حفاة فى ملابسهم التحتية إلى دورة المياه القائمة وحدها بعيداً، يغسلون بضعة أطباق، يقرقعون بضعة ضحكات، بضعة صيحات كئيبة، ثم لا يلبث المكان أن يغرق فى السكون تحت هذا الوهج المسلط"[1]

وفى رؤيتها لمصر والمصرين لا ترى " إلزبث " فى مصر غير الناس الفقراء والبيوت القذرة " الناس فقراء وقذرين جداً وكسالى " [2]

و فى موضع آخر تذكر : " الناس هنا كسالى " [3]

المحور الثالث : تجنيس العلاقة فى النظرة للآخر :

بدأت العلاقة بين الذات والآخر فى " محاول للخروج " ذات وجهين مختلفين فهى قد بدأت عبر تجنيس العلاقة مع هذا الآخر، والنظر إليه فى حدود كونه أنثى، وكان ذلك فيما قبل الاكتشاف الحقيقى له . ثم انتهت الرواية بالرغبة فى التواصل مع هذا الآخر من منظور إنسانى عام، مع ما يحد هذه الرغبة من صعوبات ومنذ البداية، نجد النظر للمرأة فى حدود كونها أنثى، نظرة طاغية على أغلبية الشخوص فى الرواية . فزملاؤه فى السكن، حينما يعلمون منه بأمر سفره مع الفتيات السويسريات إلى سقارة، تظهر عليهم علامات الدهشة . وفى هذا الموقف يصفهم" أحاطونى بعيون ضفادع بلهاء . فرقعوا بضع ضحكات .. [4]

وهى أيضاً نفس النظرة التى يحملها صديقه " صلاح " " حتهيص انت مع السويسريات " [5] وهى بالتأكيد نظرة " حكيم " نفسه الذى يقول لنفسه عند مشاهدته الفتيات " إن الوضع ملىء بالاحتمالات الرائعة " [6] وهو ينمطهم منذ البداية فى إطار

---

١) الرواية ، صـ ٨.
٢) الرواية ، صـ ٤١
٣) الرواية ،صـ ٤٢.
٤) الرواية ، صـ ٩ .
٥) الرواية ، صـ ٣٠ .
٦) الرواية ، صـ٧

صفاتهم الجسدية وملامحهم الظاهرية " ذهبيات متوردات الوجوه دهشة ولهفة " .[1] أى أن النظرة للمرأة تنحصر فى حدود خصائصها الجسمية، دون الاهتمام بشخصية المرأة أو قدراتها العقلية والروحية .

وتبدو فكرة سحر الرجل الشرقى على الأنثى الغربية مسيطرة فى هذه الرواية أيضاً، ولهذا عندما ترفضه "إلزيث" فى البداية، يعترف " وخزنى رفضها بشدة " [2]

وعبر الرواية نجده يحاول أن يعزى نفسه عن هذا الرفض، فها هو يحلم يقظاً بأن هناك فتيات متيمات بحبه حتى يحفظ كبرياءه وغروره الذكورى

" تمددت فى كرسى وبدات أحلم، أتكلم مع فتيات متيمات بى، الكلام ينساب كالنهير والإعجاب يلتمع فى العيون، لا أغيض، نبع حكمتى يفيض فيضاً طبيعياً ."[3]

وتتضح هذه النظرة أيضاً حينما ذهبت معه إلى غرفته بإرادتها فى هذه المرة، وفى وصفه لحالة الانتصار الشرقى الذى شعر بها يقول :

" تجتاحنى حمى انتصار خارق، ارتمت فى كرسيها ملقية رأسها إلى الخلف كطائر منبوح ." [4]

وهكذا ، تقدم " محاولة للخروج " صورة للشخصية المصرية وللآخر الغربى تقوم فى مجملها على إبراز التناقضات بينهما . والرؤية التى تتضمنها هذه الرواية يؤطرها بشكل عام تحولات فترة الستينيات وتناقضاتها .

وإذا كانت هذه الرواية قد تشابهت مع " فيينا ٦٠ " فى تناولها لبعض القضايا واختلفت معها فى قضايا أخرى ، فإنه من أجل التوصل لرؤية أكثر شمولاً، فإن الأمر يتطلب تحليل عمل آخر للوقوف على أبرز ما قدمه فى هذا الخصوص، وهذا ما يمكن تبيانه من تحليل "نجمة أغسطس".

---

١) الرواية ، صـ ٧

٢) الرواية ، صـ ٧٦

٣) الرواية ، ص ص ١٢ ـ ١٣ .

٤) الرواية ، صـ ٩٩ .

٣ - نجمة اغسطس (صنع الله إبراهيم) (١٩٧٤) :

أ - توصيف الرواية ودلالتها العامة : -

تقدم "نجمة أغسطس" رؤية شمولية لحركة المجتمع المصرى ككل، وللشخصية المصرية فى عمومها عبر تاريخها وحاضرها على السواء .

هذا ، ويدور الحدث الروائى حول عملية بناء السد العالى، خاصة المرحلة الثانية فى هذه العملية . ويقوم البطل / الراوى . الذى يقوم بزيارة أسوان ـ بوصف كثير مما يراه فى هذه المنطقة، باعتباره العين التى تتجول هنا وهناك، لترصد عن وعى وبدقة ما يحدث فى مجتمع السد . وهى محاولة يبغى بها الكاتب تقديم صورة شاملة لما يجرى هناك . وتمتلئ هذه الصورة البانورامية بكثير من التفاصيل الجزيئة: العمال والفنيون والموظفون المصريون ، فى مقابل الأجانب من الروسيين والروسيات أى أننا أمام مجموعتين متمايزتين : (عرب مصريين فى مقابل أجانب)، (تنويعات مختلفة داخل المصريين أنفسهم : عمال – موظفون – سكان فقراء....) . وتأتى عملية بناء السد لتمثل رابطاً عضوياً يضم كل هذه الجزئيات بطريقة تكشف عن عدد من تناقضات مرحلة رفعت شعارات قومية براقة التف حولها جموع الشعب، فى حين أن الواقع شهد ممارسات تناقض هذه الشعارات . وهو الأمر الذى انطوى على مفارقة كبيرة بين أوضاع عالمين مختلفين بالرغم من جدلية وجودهما معاً : فهناك عالم الفساد واهتراء نسق القيم، " وهو عالم طارئ لكنه سائد، لأنه يرتكز على آلة عنف الدولة، التى تحاول إحداث إنجازات اقتصادية ضخمة بقرارات فوقية، فتنفصل عن الحركة الجماهيرية ، ولا تجد أمامها سوى الإتكاء على قوى متناقضة فى التعامل مع الجماهير، تتمثل فى أجهزة القمع الأمنى . ومن ثم ليس غريباً أن يحدث هذا الفساد ويستشرى مطوقاً الإنجاز الاقتصادى (بناء السد)، ودافعاً بمنجزيه إلى الجانب الآخر .. " [1] فى مقابل هذا العالم، يأتى عالم الفئات المصرية المناضلة التى تشعر بوطأة التحولات التى تعيشها . ومن خلال التقابل بين هذين العالمين فى وجود الآخر الغربى تتضح أبعاد العلاقات القائمة بين هذه العوالم

---

[1]) محمد بدوى، مغامرة الشكل عند روائى جيل الستينيات . مدخل اجتماعية الشكل الروائى، فصول، المجلد الثانى، العدد الثانى، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢ ، ص ١٣٤ .

جميعها فى سياق تحولات الفترة التى ترصدها الرواية . فوجودالآخر فى فضاء الذات يمثل واسطة يتم من خلالها تفسير كثير من تناقضات المجتمع فى هذه الفترة .

وعند الحديث عن الإطار الزمنى للرواية : يمكن اكتشاف أن هناك بعدين أساسين للزمن فى " نجمة أغسطس " البعد الأول هو الزمن الفعلى، وهو زمن بناء السد العالى، خاصة المرحلة الثانية منه، أى أنه يشمل فترة الستينيات . أما البعد الآخر للزمن فيمتد ليشمل أزمنة متداخلة، فهناك الماضى التاريخى البعيد (التاريخ الفرعونى خاصة حكم رمسيس الثانى)، كما يوجد زمن الاحتلال الإنجليزى لمصر، ثم الماضى القريب الخاص بتجربة البطل " زمن المعتقل " . هكذا تتداخل الأزمنة لتعرض فى النهاية قطاعاً طولياً لتاريخ الشخصية المصرية يجمع مراحلها جميعاً فى وحدة واحدة بالرغم من اختلاف الأزمنة .

أما عن الإطار المكانى : ففى الرواية مكان أساسى يعتبر أحد أبطالها، وهو مدينة أسوان، التى تدور بها الأحداث الفعلية للرواية، إلا أنه عبر ذاكرة البطل / الراوى يتسع المكان ليشمل مصركلها(القاهرة، الإسكندرية، الواحات .. إلى غير ذلك) .

ومع ذلك فالمكان / أسوان ما هو إلا رمز للمكان / مصر، فما يحدث به من ممارسات متعلقة بتحولات فترة الستينيات ما هو إلا دالة على ما يحدث على مستوى الوطن ككل .

ب-صورة الشخصية المصرية فى "نجمة أغسطس" :

وتقدم " نجمة أغسطس " عدة صورة لهذه الشخصية أبدأها بصورة البطل .

الصورة الأولى : صورة البطل :

و البطل هو الراوى لأحداث الرواية ، وهو شخصية يكتنفها بعض الغموض فيما يخص حياته الخاصة . فلا يوجد اسم محدد له وليس له مكان محدد يقيم به كذلك فقد عاش تجربة السجن . باعتباره مسجوناً سياسياً . . يعمل صحفياً وإن لم يصرح بذلك، كما أنه محب لفن ما يكل أنجلو . تتضح عبر النص رغبته الدائمة للاستطلاع والاستكشاف . و تتبدى أزمته الخاصة فى ارتباطها بتحولات المرحلة التاريخية التى يمر بها المجتمع، باعتباره أحد مثقفى هذه الفترة . وهو كذات يتميز بعدة سمات :

ـ الإحساس بالخوف والشعور بالقهر : من خلال العلاقة الملتبسة بينه وبين الآخر السلطوى، المتمثل فى الحكومة . تتضح أول خطوط هذه العلاقة منذ الصفحة الأولى فى الرواية، وذلك عبر الحوار ذى الدلالة الهامة، الذى دار بينه وبين عامل القطار الذى ركبه متجهاً إلى أسوان

" قال مشيراً إلى باب صغير فى الحائط . الغطاء هنا، واعتدل باسطاً قامته ثم قال : لو عزت حاجة اندهلى .

قلت : حاضر يا افندم . تطلع إلىَ مندهشاً قبل أن يغادر الديوان ويغلق الباب من خلفه"[1]

إن لهجة الأمر فى حوار العامل ، وتقبله لها بهذه الكيفية توضح طبيعة العلاقة الهرمية فى علاقته كمواطن بالسلطة، لا يستطيع سوى قول : حاضر يافندم . وهو الأمر الذى يكشف عن عدم التكافؤ فى جولات هذا المثقف مع السلطة والناتج عن استخدام " آلة عنف الدولة ضد رجال لا يمتلكون سوى وعيهم وحلمهم." [2] والحوار السابق يوضح كيف تنسحب مشاعر الارتياب التى ولدتها عنده تجربة السجن على علاقته بالآخرين ؛ فصورة عامل القطار ترتبط فى ذهنه بصورة السجان لذلك تعامل معه بنفس الطريقة التى يتعامل بها مع السجان . هكذا تنهض السلطة فى المستويات الاجتماعية رمزاً ودلالة ، فتقوم بإلغاء العلاقة العضوية بين الناس وتشوش عليها . فالبطل مثقف شيوعى ، والعامل ينتمى فى نهاية الأمر إلى المواطنين البسطاء، لكن السلطة الناهضة بينهما تغير الموقف لصالحها ، وتقيم بينهما سداً من الارتياب . ولذلك بوغت العامل بموقف البطل منه " واندهش من هذا الأفندى الذى يشى بموقع اجتماعى وثقافى متميز عن موقعه ، وهو يقول : حاضر يا أفندم . "[3]

ويطغى على شخصية البطل الشعور الدائم بالمطاردة والمراقبة، فهذا الشعور يلازمه مرات عديدة طيلة رحلته فى أسوان . ومن المواقف الكثيرة فى هذا الشأن، موقفه عندما كان جالساً فى إحدى المقاهى، فعندما رأى رجلاً طويل القامة يجلس على مقربة منه، خُيِّل إليه

---

١) صنع الله إبراهيم، نجمة أغسطس، ط٤ ، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٨٧، ص ص ١١ ــ ١٢ . وتجدر الإشارة إلى أن الطبعة الأولى لهذه الرواية صدرت عام ١٩٧٤ م عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق.
٢) محمد بدوى، مغامرة الشكل عند روائى جيل الستينيات ، مرجع سابق، ص ١٣٤
٣) محمد بدوى ، الرواية الجديدة فى مصر ، دراسة فى التشكيل والأيديولوجيا ، بيروت ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، ١٩٩٣ ، ص ١٤٧ .

أنه يحدق فيه، ويقترب من مكان جلوسه، مما أربكه وجعله ينهى قهوته بسرعة مغادراً المقهى متجهماً لأحد الشوارع . فى ذلك الموقف يصف حالته قائلاً " لمحت ممراً وسط صف من المبانى الحديثة فاتجهت إليه . توقفت فى مدخله لحظة ريثما تطلعت خلفى لكنى لم أر أثراً لرفيق المقهى . "(١)

ـ الإحساس بالاغتراب الناتج عن علاقته بالسلطة: فهذا الاغتراب نتيجة حتمية لأزمته المتولدة من تجربة اعتقاله فهو كمثقف رافض لبنى اجتماعية متخلفة كما أنه فى الوقت ذاته عاجز عن التأثير فى مجرى الأمور ولهذا يتمحور اغترابه حول انفصاله "عن طبقته وعجزه عن أداء مهمته بوصفه ذروة وعى الطبقة نفسها"(٢)

ويشمل هذا الاغتراب موقفه من الأحداث سواء على مستوى ما يحدث فى أسوان أو ما يحدث فى مصر بوجه عام . فما يهمه من أخبار الصحف التى يشتريها فقط البحث عن درجات الحرارة " قلبت صفحات الجريدة بحثاً عن درجات الحرارة ، وألفيتها بلغت فى أسوان ٤٦ ° بينما لم تتعد ٣٣ فى القاهرة " (٣) أما العناوين الأخرى الخاصة بالسياسة، فهو يكتفى بإلقاء نظرة عليها .

وعندما يخبره " فاليرى " المترجم الروسى عن الوضع السياسى فى مصر، وكيف أن مصر قطعت خطوات جبارة وبدأت تبنى الاشتراكية، اعترض البطل قائلاً : "لا أريد الحديث فى السياسة.. لقد مللت ترداد نفس الأشياء.. دعونا نتحدث فى شئ آخر.. ليحدثنا فاليرى عن فتاته." (٤)

وتوضح هذه المواقف السابقة ما يطلق عليه اغتراب العزلة Isolation وهو أكثر المفاهيم التى تستعمل فى وصف وتحليل دور المفكر أو المثقف الذى يغلب عليه الشعور بالتجرد ، وعدم الاندماج النفسى والفكرى بالمقاييس الشعبية فى المجتمع . وفى ذلك نوع من الانفصال عن المجتمع وثقافته " فالأشخاص الذين يحيون حياة عزلة لا يرون قيمة كبيرة لكثير من الأهداف والمفاهيم التى يقرها أفراد المجتمع . وتظهر هذه العزلة فى عدد من المؤشرات منها : عدم مشاركة الأفراد المغتربين لبقية الناس فى

---

١) الرواية ، ص
٢) محمد بدوى ، مغامرة الشكل عند روائى جيل الستينيات ، مرجع سابق ، ص ١٣٤
٣) الرواية ، ص ٨٩
٤) الرواية ، ص ١٣٨

مجتمعهم . وقد استخدم " ميرتون " مفهومى : اللامعيارية والعزلة بصورة متداخلة لتوضيح التكيفات التى يقوم بها الأفراد فى أوضاع ينعدم فيها التوافق أو التطابق بين الأهداف والوسائل . "[1]

الصورة الثانية : صورة الجماعة (الشخصية الاجتماعية) :

وتقدم الرواية ، فى هذا الشأن، صورة لكل من : المثقفون والعمال ؛ فهى تتناول أوضاع كل منهما فى ضوء متغيرات الواقع الاجتماعى ، وهو ما يمكن إيضاحه فيما يلى :

صورة المثقفين :

وإذا كانت " محاولة للخروج " فى تناولها لصورة المثقفين ، ركزت على أزمة هؤلاء بصفة عامة فى ظل تحولات فترة الستينيات ، فإن " نجمة أغسطس " استطاعت أن تقدم صورة للفرق المختلفة داخل شريحة المثقفين . وشملت هذه الفرق : االشيوعيون و الإخوان المسلمين ونمط المثقف غير الملتزم . وحول خصائص كل فرقة منهم يدور التحليل التالى :

صورة الشيوعيين :

وترسم الرواية صورة للشيوعيين تقوم على إبراز الاضطهاد الذى شهده هؤلاء فى فترة الستينيات ؛ فقد كان التنظيم الشيوعى من التنظيمات المحظورة التى تحاول الحكومة مناهضتها بكل الوسائل . فها هو ذا " سعيد " يخبر " البطل " أنه كان يتحاشى الاقتراب من الروس والسبب كما يذكر له " حتى لا يثير الشكوك من حوله"[2]

وينتمى لهؤلاء البطل ومجموعة من رفاقه الذين تعرضوا للاعتقال . وهؤلاء عانوا كافة أنواع المعاناة الجسدية والمعنوية فى السجون، بينما كانت شعارات الحرية والتقدم تملأ الأفق. ويمتلئ وعى البطل بكثير من المواقف المؤلمة التى تعرض لها الشيوعيون، فعبر تيار شعوره يتذكر رحلة اعتقالهم منذ لحظة القبض عليهم وترحيلهم:

" كانت محطة الجيزة قد أخليت لنا تماماً، وهبط علينا سكون شامل لا يقطعه غير صليل السلسلة الوحيدة التى تقيدنا جميعاً

---

١) قيس النورى، الاغتراب اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً، عالم الفكر، المجلد العاشر، العدد الأول، الكويت، مطابع السياسة ، ١٩٧٩ ،ص ١٧ .

٢) الرواية ، ص ٦١

وضجيج القاطرة التى تنتظرنا ..وعندما حانت اللحظة أخذوا يدفعوننا بعنف والقيود تحز فى أيدينا .. "[١]

وعبر لحظات التداعى التى يتذكرها البطل، نجده يتذكر منظر أحد أصدقائه الشيوعيين فى المعتقل، وكيف تعرض للتعذيب، وعندما أفرج عنه " فرضوا عليه أن يبقى حبيس منزله من غروب الشمس حتى شروقها ...واقتادوه حائراً واجماً من سجن إلى آخر .. "[٢]

وعن علاقة هؤلاء بالسلطة فى ذلك الوقت، يتضح أنه بالرغم من اختلافهم مع رموز هذا النظام، إلا أنهم كانوا مع الإنجازات والخطوات الهامة التى اتخذتها الثورة، وفى ذلك مثل لهم " عبد الناصر " الرمز، بالرغم من اختلافهم معه . فى تذكره لحياة السجن وصديقه الشيوعى الذى مات قبل إتمام البناء يذكر البطل : " الصحف تصل خلسة وتقرأ خلسة ، والصورة تخاطب بناة السد ، بقى ٣٧٥ يوماً على تحويل مجرى النيل، بقى ٣٠٠، بقى ٢٦٠، وخلف السور الحجرى والأسلاك الشائكة كانت الصحراء محيطة من كل الجهات، لكن قامته الفارعة كانت تتراءى عندها كل صباح ، ماداً البصر إلى أقصاه، كأنما بوسعه أن يرى، وقال إنه يتمنى أن يشهد ذلك اليوم، لكنه لم يتمكن .."[٣]

ويتذكر البطل / الراوى، ما قاساه أفراد هذه الفرقة خارج السجن، و ممارستهم الحياة العادية، حيث لم يتمكن هؤلاء من العيش كالآخرين، بل ظلت السلطة تمارس عليهم قهرها وملاحقتها مستخدمة فى ذلك أساليب التجسس والملاحقة . وفى أحد المواقف التى توضح الرعب الذى ملأ قلب هؤلاء أعرض لموقف البطل وصديقه سعيد حيث أخبرهما الخادم بأن هناك رجلاً سأل عنهما ، هنا ثار الشك فى قلب " سعيد " والبطل . فى وصفه لحالتهما يقول البطل :

" تطلع (سعيد) حوله فى أنحاء الغرفة، ثم انحنى فوق جهاز التكييف وصاح لا شأن لى بأى شىء ..ورفع رأسه إلى السقف ثم سار إلى الركن وهتف : -والله العظيم أنا مع الحكومة ...بدأت

---

١) الرواية ، ص ٣٤
٢) الرواية ، ص ٧٠
٣) الرواية ، ص ٣٦

أضحك فتحول إلى قائلاً : - أنا أقول الحقيقة . قلت : وهنا ما يضحكني " (١)

وفي إشارة إلى أنه يمكن أن يحدث لهما أي عقاب دون أن يرتكبا أي شئ مخالف يسأله سعيد : " - ماذا يمكن أن يحدث لنا ؟

- أي شيء " (٢)

. صورة الإخوان المسلمين :

وهذه الجماعة هي الممثلة للتيار الديني الأصولي، ومن المعروف أن هذا التيار كانت له مواقفه المختلفة مع النظام في تلك الفترة سواء فيما يتصل بعلاقته مع السلطة في الداخل، أو علاقته و موقفه من الآخر . فالآخر بالنسبة لهذا التيار لم يكن غير عالم الكفر الذي ينبغي معاداته ومحاربته، كما أنه يجب الرجوع إلى سيرة السلف إذا أرادت الأمة أن تحقق التقدم والنهضة .

والملاحظة المهمة في هذا السياق، أنه لا يرد ذكر الإخوان المسلمين عبر الرواية إلا من خلال الأخبار التي ترد عن إعتقالهم وعن المؤامرات التي يدبرونها للإنقلاب على النظام الحاكم . وذلك دون الاقتراب من فكرهم، أو محاولة نقده سواء سلباً أم إيجاباً، وهو ما يُرسَخ صورة واحدة عن هذه الجماعة، صورة العنف المسلح الذي يستخدمه أفراد هذه الجماعة لفرض أفكارها بالقوة على الآخرين .

ومن الإشارات الهامة في هذا الصدد، ما قرأه البطل مع صديقه سعيد في إحدى الجرائد من اعتقال عدد كبير من الإخوان، وهم على وشك القيام بإحدى مؤامراتهم، في ذلك يقول :

> **" قرأنا ان الأخوان أعدوا خطة واسعة لاغتيال رئيس الجمهورية وعشرات من الممثلين والمغنيين، كما وجدت معهم قائمة بأسماء عدد كبير من الشيوعيين وعناوينهم . وكانوا ينوون اغتيالهم أيضاً . " (٣)**

---

١) الرواية ، ص ٨٨ .

٢) الرواية ، ص ٨٨.

٣) الرواية ،ص ٨٩ .

فهذه الفقرة توضح نوعية الصورة التى تبثها الصحف عن هذه الجماعة ، وتركيزها على ما تقوم به من إرهاب وسلوكيات تتصف بالعنف وسفك الدماء بغض النظر عن صحة ذلك أو عدم صحته .

. نمط المثقف غير الملتزم :، ويمثله شخصية " سعيد " زميل البطل، والشخصية النقيض بالنسبة له . يقابله صدفة فى أسوان وهو نموذج الشخصية الانتهازية التى تحاول استغلال إمكاناتها من أجل الوصول لأكبر قدر من المكاسب : فهو كما يقول للبطل " أصبحت أصغر مدير تحرير فى الصحافة المصرية .. "[1]

لقد فهم " سعيد " أصول اللعبة الجديدة، فى إطار تحولات المرحلة الجديدة، فاستغل وظيفته كصحفى وكاتب ، وجعل من قلمه سلاحاً يدافع به عن إنجازات هذه المرحلة وانتصاراتها غاضاً الطرف عن سلبياتها ومسايراً الموجة السائدة بما يحقق منفعته الخاصة .

ولهذا تكشف جل مواقفه عن شخصية مهترئة، تعيش إحساساً باللامبالاة، فما يهمه ملذاته فهو يسرف فى شرب الخمر، ويطارد الأجنبيات الروسيات . وهو يحابى السلطة بكل الوسائل ويخاف من بطشها به . وفى أثناء قيامه بعمل تقرير صحفى عن العمال فى السد، يخبره أحد المهندسين ألا ينشر ما قاله عن جدية العمال الروس حتى لا يعطى صورة سيئة عن العمال المصريين، هنا يطمئنه " سعيد " قائلاً :
" لا تخش شيئاً فلست أريد أن يقال أنى شيوعى، أو أنى مصاب بعقدة الأجنبى وعاجز عن رؤية المعجزة المصرية "[2]

وعن الأسباب التى تدفع مثل هذا المثقف للتنازل عن مواقفه، ومحاباة السلطة يوضح النص الروائى بعضها، فعندما يخبر البطل عن نيته فى كتابة قصة عن السد العالى يحدثه قائلاً :

" أقول لك الحق ؟ لم أعد أرغب فى كتابة شئ على الإطلاق، أصبح كل ما أكتبه ممسوخاً مائعاً بلا روح .. مقالات تتوه فى سراديبها ولا هدف لها إلا تبرير كل شئ .. "[3]

---

[1] الرواية ، ص ٣٩
[2] الرواية ، ص ٥١
[3] الرواية ، ص ص ٥٣ ــ ٥٤

ويوضح هذا الاعتراف الجرئ جوانب خفية عن الصراع الذى يعيشه مثل هذا المثقف، فهو يحاول إقناع نفسه، بأن ما يفعله النظام هو الصواب ويكون بالتالى موقفه هو الآخر على صواب، لكن شيئاً فى نفسه يكون غير راض عن هذا السلوك، فهاهو يعترف

" كنت أقنع نفسى .. لقد كانت هناك أشياء ضخمة .. وكنا جميعاً نتجاهل الجوانب الأخرى عن عمد . ألم تكن السجون حاشدة . وكنا أيضاً نجنى شيئاً من الثمار " [١]

وهكذا تظهر ازدواجية مثل هذا المثقف فى ظل تناقضات فترة الستينيات .. وربما كان ذلك أحد الأسباب التى دعته للهروب من القاهرة لأسوان

" أنا أتي إلى هنا بأمل وحيد . أن أعيش بضعة أيام خارج كل ما ترمز إليه القاهرة . " [٢]

كانت هذه أهم طوائف المثقفين الذين عرضت لهم الرواية ، مبينة فى ذلك لبعض الاختلافات والخلافات فيما بينها .

صورة العمال المصريين فى السد . وتأتى صورة العمال باعتبارها إحدى الصور التى تمثل قطاعاً مهماً من الشخصية المصرية وتتحدد ملامح صورة العمال فى مجموعة من المواقف التى توضح طبيعة العلاقة بينهم وبين رؤساءهم فى العمل، ثم بينهم وبين بعضهم البعض، وفيما يخص أحوال هؤلاء يذكر البطل أنه أثناء مروره على الكورنيش عائداً لأحد الفنادق فى أسوان، شاهد عشرات من عمال التراحيل الذين يعملون فى بناء الكورنيش وهم مستلقون على شريط من الخضرة يمتد بطول النيل، وفى ذلك يقول :

" مشينا على حافة الإفريز عند أقدامهم، كانت أجسادهم متلاصقة تعرى بعضها، فتبدى أجزاؤها الحميمة للعيان .. " [٣]

وتبدو ملامح هذه الصورة عبر علاقات القهر / الطاعة بين هؤلاء و رؤسائهم فى العمل، دون مراعاة لاحتياجات الجماعة الأضعف (العمال) . ففى أحد المواقف التى يذهب فيها البطل مع " سعيد " لعمل تقرير صحفى مع أحد المديرين، يلاحظان مدى العنف الذى يعامل به المدير العسكرى العاملين، والذى يبرر تصرفه معهم قائلاً :

---

١) الرواية ، ص ٥٤
٢) الرواية ، ص ٥٤
٣) الرواية ،ص ٣١

" هؤلاء المصريون يخافون ولا يختشون "[1]

ويرجع المدير العسكرى سر نجاح العمل فى السد إلى " النظام والطاعة المبنيان على الخوف " [2] ثم يحاول أن يُجمِّل من الوضع، فيطلب من البطل ألا يكتب كلمة " الخوف " التى قالها فى تقريره الصحفى ، وأنه من الأفضل أن يستبدل بها كلمة "الإقناع "

" الأفضل أن تقول النظام والطاعة المبنيان على الإقناع حتى لا يسيء أحد الفهم " [3]

وباختصار فإن حال العمال يقوم على تناقضات كثيرة، وهم فى عملهم مُسخرون بشكل كبير، ولهذا فقد ثار هؤلاء حينما قرأوا فى إحدى الصحف خبراً يتناول حالهم فى مجتمع السد فى صورة مزيفة قوامها أن العمال يستطيعون أخذ أجازات لكنهم يرفضون وكل منهم مزود بعدة إمكانات لحمايته : ترمساً للشاى ووسادة من المطاط تمتص العرق ونظارة للوقاية من وهج الشمس . إن هذا الكذب الذى تمارسه الصحافة الكاذبة ، جعل أحد السائقين يؤكد للبطل كذب كل هذه الإدعاءات التى لا تمت للواقع بصلة . وفى نوع من السخرية من هذا الواقع المهترئ، يتوقف البطل عند أحد الأخبار التى توردها الصحيفة إمعاناً فى نقد الذات وتهكماً على ما وصل إليه الحال، فقد توقف البطل عند صورة أسد ضخم وقرأ أسفلها

" انه بكى من التأثر فى مطار القاهرة عندما وضعوه فى طائرة مغادرة .. " [4]

والراوى هنا يشير لمدى الكذب والتلفيق اللذين سيطرا على آلة الإعلام فى تلك الفترة حتى أنها تورد أخباراً هى من باب المستحيل .

وجملة القول، أن العمال يعانون الإهمال فى كل شىء، لذلك عندما انتشر بينهم أحد الأمراض، ومات بعضهم بصورة جماعية، لم يحرك هذا الأمر ساكناً، فى حين أنه إذا انتشر المرض بين كبار الموظفين أو المهندسين، فإن ذلك يمثل كارثة .. على حد قول سعيد فى إجابته على سؤال البطل عن ماذا سيحدث إذا انتقلت العدوى إلى هؤلاء، فقد أخبره سعيد " عندئذ تقع ثورة .. " [5]

---

١) الرواية ، ص ٥٩
٢) الرواية ، ص ٦٠
٣))الرواية .، ص ٦٠
٤) الرواية، ص ٨٢
٥) الرواية ،ص ١١٤

الصورة الثالثة :خصائص الشخصية القومية المصرية كما ظهرت فى " نجمة أغسطس ":

وتبدو خصائص الشخصية المصرية فى هذه الرواية عبر جانبين :

الجانب الأول : خصائص هذه الشخصية فى علاقتها بالتاريخ العام لها : وهنا يتم نوع من الإسقاط من خلال الرجوع إلى التاريخ القديم للربط بينه وبين واقع الشخصية المصرية الذى تمثله أحداث الرواية .

ففيما يخص الفجوة بين الحاكم والمحكوم، وإقامة نوع من التشابه بين ما يحدث فى عملية بناء السد، وما تم فى بناء وتشييد الصروح العملاقة فى عهود الفراعنة، يذكر الراوى . نقلاً عن أحد المراجع التى تتحدث عن تلك الفترة . عن أوضاع العمال فى عهد الفراعنة " وصاح العمال :

" نحن نموت جوعاً ... وتجمعوا فى أحد الميادين على مقربة من أحد الصروح يصيحون : لن نعود إلى أعمالنا .. أرسلوا لسيدنا فرعون، أرسلوا لمليكنا وسيدنا حتى يعطونا ما يمكننا من الحياة.."[1]

وعن استمرار نمط السلطة القائم على نظرية الإله الحاكم، تشير الرواية لشخصية رمسيس الثانى، حيث نجد الطبيب الشاب يذكر لمدى تسلطه وطغيانه قائلاً :

" سبعون سنة من السلطة أى الكذب والفجور والقتل والإدعاء والغرور والاستعباد .. وها هو مازال يعيش حتى أيامنا ونحن الآن نعمل ليل نهار ليخلد اسمه .. تماماً كما أراد . "[2]

وعبر ما يتذكره البطل فيما يخص فترة سجنه وزملائه فى سجن القلعة، يتعرف على عدة حقائق تتعلق بتاريخ القهر والظلم الذين شهدهما المجتمع المصرى قديماً وحديثاً ، فهناك فى داخل القلعة معتقلاً يعود إلى زمن الاستعمار الإنجليزى، كما توجد القاعة التى أجريت فيها مذبحة المماليك على يد " محمد على " حيث دعاهم لشرب القهوة، وأغلق عليهم الأبواب وأمر بذبحهم عن بكرة أبيهم " وفوق ممشى يشرف على ميدان المذبحة جلس محمد على يدخن النارجيلة، وقبلها كان يتبادل الزيارات العائلية مع زعيمهم شاهين بك .. "[3]

---

١) الرواية، ص ١٧١
٢) الرواية ، ص ٢٢٧.
٣) الرواية ، ص ٤٦

أما الجانب الآخر : فهو المتعلق بخصائص وأوضاع الشخصية المصرية فى فترة الستينيات ومنذ البداية تطالعنا الرواية برسم صورة للأوضاع المتخلفة التى تحياها الشخصية المصرية فالبطل عندما ركب القطار مسافراً لأسوان يذكر

" كنا قد خلفنا شوارع القاهرة، ومر القطار بمجموعة من المساكن الشعبية، بلونها الأصفر الباهت وزواياها البارزة المتجاورة وزحام الغسيل فى شرفاتها وأكوام القاذورات أسفلها .. وجاءت بعدها العشش ثم ظهرت بعض الحقول فجأة .. " [1]

فهذه صورة عن رثاثة المكان وتخلفه من الناحية الأيكولوجية . فماذا عن تحولات هذه الشخصية فى هذه الفترة ؟ عندما يسأله صديقه " صبرى عن حال الناس فى القاهرة يجيبه قائلاً بطريقة مختصرة " – كما هى . " [2] وعندما يخبره صديق آخر فى القاهرة قبل سفره لأسوان، بأن الأمور ستتحسن عند عودته، يرد عليه البطل " قلت : إنى لا أعتقد " [3]

وتلقى هذه الردود المقتضبة حالة القنوط التى تستشعرها هذه الشخصية فى ظل تحولات المرحلة وتظهر كذلك صورة هذه الشخصية فى علاقتها برجل السلطة فى هذه الفترة، فها هو الجندى (العسكرى) رمز السلطة الذى ينهر عاملاً صعيدياً حاول الركوب فى إحدى السيارات التى استوقفها الجندى للبطل وصديقه " سعيد " . فى وصفه لمنظر التعامل بين الجندى والعامل يقول البطل :

" توقف الصعيدى واجماً . ورفع الجندى يده وهوى بها على قفاه .. تطلعت إلى الخلف .. رأيت الجندى يمد يده محاولاً جنب شارب الصعيدى .. " [4]

كذلك نرى هذه الشخصية وهى تعانى الازدواجية بين الحقائق المبتورة التى تصلها فى إطار من التشكك والتجسس وصور الفساد فى كل مكان، خاصة من قبل المسئولين الكبار . فها هى المخالفات الأخلاقية لوكيل الوزارة ومأمور البوليس فى أسوان

---

١) الرواية ، ص ١١.
٢) الرواية ، ص ١٨ .
٣) الرواية ، ص ١٨.
٤) الرواية ، ص ٧٦ .

وها هو الطبيب الشاب الذى يعمل فى " أبو سنبل " يعيش منغمساً فى شرب الخمر ، فى نوع من الضجر من الحياة هناك لذلك نجده يخبر البطل : " ليس هنا مرضى ولا نساء . ولم يبق غير القمار والخمر وأنا لا أحب القمار . " [١] وهو لا يهمه سوى جمع المال لأنه كما يروى للبطل : " اللغة الوحيدة التى تتكلمها البلد كلها الآن. " [٢]

وتصور الرواية حالة العزلة الإجبارية المفروضة على الجماهير، مما يجعلهم بعيدين عن أمور السياسة ما دامت

" أمور البلد فى أيد أمينة ولا مجال لغيرها . " [٣]

كما يوجد أيضاً اختلال المعايير، فاحتلال الأماكن القيادية يتم من خلال ذوى الثقة وليس ذوى الخبرة أو الكفاءة، فها هو (مقاول الأنفار) الذى يترأس لجنة الاتحاد الاشتراكى . فالمقاولون هم " حكام المستقبل " [٤]

كذلك يوجد المهندس الشاب الذى ينحدر من إحدى العائلات الإقطاعية الناقم على الأوضاع وعلى كل ما حدث ويحدث، فالعمل فى السد جحيم على حد قوله ، فهو يعمل فى السد كارهاً " لست أريد البقاء هنا لحظة واحدة . " [٥] لكنه يضطر لذلك بتكليف من الحكومة لمدة أربع سنوات .

وتشير الرواية لبعض الجوانب الآخرى للشخصية المصرية، فهناك الجانب الإيجابى المتمثل فى تحقيق المصلحة العليا للوطن فى وجود خطر ما على سلامته، وفى هذا الصدد توجد مجموعات العمال الذين ضحوا بأرواحهم فى عملية بناء السد نتيجة انهيار النفق الخاص بالسد، فى وصفه للعمال يوم تحويل مجرى النيل يروى أحد المهندسين قائلاً :

" كان الكل مستعداً لأن يضحى بحياته ببساطة، فلم يكن هناك وقت للتفكير .. كانوا شعلة من الحماسة وشعروا بزهوة لأن مصر قالت لا لدول لم تتعود ان تسمعها. " [٦]

---

١) الرواية ، ص ٢٢٥.
٢) الرواية ، ص ٢٢٦.
٣) الرواية ، ص ٢٢٥
٤) الرواية ، ص ٢٢٥
٥) الرواية ، ص ١٦٤
٦) الرواية ، ص ١٤٥

وفى هذا الصدد أيضاً، فإن أحد المهندسين يذكر أنه :

" لم نكن نملك وقتاً للتفكير لا فى عائلاتنا . أو فى المستقبل أو النساء . كان لدينا عمل واضح محدد هو هدم الصخور ثم نقلها وإلقاؤها فى النهر حتى تعترض مجراه .. الجميع يتسابقون للحاق بيوم ١٤ مايو ١٩٦٤ وجميعهم على استعداد للتضحية بحياتهم ببساطة .. [١]

جـ - صورة الآخر فى نجمة أغسطس :

والآخر الذى تعنى الرواية بإظهاره هو الآخر الروسى، حيث ينتشر فى أسوان مجموعة كبيرة من الخبراء والموظفين والعاملين الروس، بالإضافة لوجود بعض الموظفات الروسيات أيضاً .وهذا الحضور الطاغى للآخر الروسى يكاد يكون ملمحاً اساسياً فى الرواية فأينما ذهب " البطل " يجد هؤلاء أمامه، فى النادى الروسى حيث الشبان والفتيات الروس يلتفون حول الموائد، وفى الفنادق المختلفة، وفى محطة الأتوبيس، بالإضافة للعاملين فى السد .

وعلى ذلك فظهور طوائف أخرى للآخر الغربى، يأتى على استحياء فى مشاهد متفرقة من الرواية، حيث يقابل البطل فى أحد الفنادق مجموعة من السياح أو فى القطار حيث يشاهد فتاة أوروبية شقراء .

ووفقاً لذلك، فالآخر هنا هو الغرب الاشتراكى الذى يظهر وجهه الصديق فى هذه الفترة، حيث التقارب بين مصر وروسيا، نظراً لاعتناق الأولى الأيديولوجيا الاشتراكية وعلى ذلك، فالمسكوت عنه فى الرواية هو الآخر الغربى الرأسمالى، الذى يظهر كعدو، خاصة الغرب الأمريكى .فها هى الملصقات التى تحذر من قراءة الصحف التى توزعها السفارة الأمريكية

" لمحت طرف ورقة بيضاء لصقت على العمود . قرأت عليها بياناً بتوقيع الوزير يحذر من قراءة مجلة الصداقة التى توزعها السفارة الأمريكية " [٢]

---

١) الرواية ، ص ٤٩

٢) الرواية ، ص ٧٢

ويمكن الحديث عن الآخر من خلال شخصية " تانيا " الروسية التى يحاول البطل أن يقيم معها علاقة حميمة . وهى شابة فى السادسة والعشرين من عمرها، تخرجت من معهد اللغات فى موسكو، واختارت العمل بمصر مفضلة إياها عن العمل فى الهند وغانا لأنها كما تذكر هى للبطل وصديقه " سعيد "

"خفت من حرارة الجو فى الهند وغانا، ثم أضافت بعد لحظة لقد رأيت عدداً من الأفلام المصرية من قبل وشعرت بنوع من الألفة لجو الحياة فى مصر . "(١)

وتظهر صورة الآخر فى " نجمة أغسطس " من خلال محاور ثلاثة : التقاطبات بين الشخصية المصريةو الآخرالغربى ، الغرب الصورة / المثال ، و الصورة النمطية للمرأة الغربية . وأعرض لهذه الملامح باعتبارها الفئات التحليلية الخاصة بصورة الآخر فى نجمة أغسطس .

المحور الأول : التقاطبات بين الشخصية المصرية والآخر:

وتأتى كلها لتكون نقداً للذات فى حضرة ووجود الآخر . ومن هذه التقاطبات :

- النظرة الجادة للعمل مقابل التراخى : - فيروى أحد المهندسين " للبطل " وسعيد كيف يتفانى العمال الروس فى عملهم، فى حين يتراخى العمال المصريين فى عملهم

" العمال الروس منهلون . رأيت مرة واحداً منهم عندما انهار النفق الثانى، كلنا جرينا .. أما هو فرفض أن يتحرك بدون الحفارة التى كان يسوقها وظل فوقها يعافر بجنون ليخرجها ... حتى أخرجها من النفق .. "(٢)

ثم يلتفت هذا المهندس إلى " سعيد " طالباً منه عدم نشر هذه المعلومة قائلاً " نحن لا نريد أن نعطى صورة سيئة لعمالنا ونبالغ فى تقدير الروس . "(٣)

وتعود هذه النظرة إلى طبيعة كل طرف من هذين الطرفين، فالعمل فى الغرب يفرض على العمال هناك نوعاً من الالتزام فى ظل حضارته المادية القائمة على الحسابات

---

١) الرواية ، ص ١١٨
٢) الرواية ، ص ٥١
٣) الرواية ، ص ٥١

والأرقام والكفاءة، أما فى المجتمع المصرى فالأمر يختلف فى ظل التسيب والإهمال الذى تعانيه الشخصية المصرية، تتضح هذه الرؤية للفارق فى النظرة للعمل فى حديث أحد العمال

" إن الروس فى بلادهم يسكرون بشدة، لكنهم يعملون على الأقل أضعاف ما نعمل، وأهم ميزة لديهم الصبر . أما نحن فكسالى لا صبر لدينا، نريد أن نحصل على كل شئ دون مجهود وبالفكاكة . "[1]

وفيما يتعلق بسمة الصبر التى تم ذكرها فى الحوار السابق، تجدر الإشارة. وذلك عكس ما يصرح به النص. إلى أن هناك بعض الدراسات التى أكدت على وصف الشخصية المصرية بها ؛ فالصبر ليس قيمة اجتماعية تمثل هدفاً فى حد ذاتها ؛ ولكنه قيمة اجتماعية وسيلية ؛ بمعنى أنها تساعد على بلوغ الأهداف الاجتماعية أياً كانت، وبصفة خاصة تلك التى تستدعى الكثير من بذل الجهد والتعاون والعون المتبادل . وبتطبيق هذا الفهم لما يعنيه الصبر يتضح أنه " قيمة سائدة وأساسية وعميقة الرسوخ فى الحياة الاجتماعية المصرية ؛ بحيث أنه يمثل سمة من سمات الشخصية المصرية ونمطاً سلوكياً يشترك فيه أفراد الشعب المصرى، ويظهر ذلك بصورة واضحة من دراسة تراثه الشعبى . "[2]

- اختلاف النظرة للحياة عند كل من الشخصية المصرية والآخر :

فبينما تنحصر اهتمامات هذه الشخصية فى الهموم اليومية للعمل ورتابة الحياة، فإن الآخر يقوم بتوزيع وقته ما بين العمل والراحة ليعطى نفسه الفرصة للاستمتاع بالحياة . يتضح ذلك فى عرض " البطل " لـ " تانيا " بزيارة بعض الأماكن السياحية فى أسوان حيث ترد عليه قائلة :

" الناس هنا تعمل كثيراً، ثم تعود إلى المنازل متعبة لتأكل وتنام ولا يعود ثمة مجال للذهاب إلى أى مكان . "[3]

---

[1] الرواية، ص ١٥٦

[2] السيد حافظ الأسود، الصبر فى التراث الشعبى المصرى . دراسة أنثروبولوجية، الإسكندرية، منشأة المعارف، ١٩٩٠، ص ص ٥٩، ٢٥٨ .

[3] الرواية، ص ١١٩

.ويأتى الفارق فى التعبير عن العاطفة ليشكل تقاطعاً آخر : ففى حين يندفع البطل فى التعبير عن مشاعره تجاه " تانيا " نجدها تقابله بفتور، فها هى ذى تقابله بجفاء بعد تهربها منه، وعندما يخبرها أنه ذهب لمنزلها تخبره " ما كان يجب أن تفعل " [1] وفى محاولته معرفة أسباب هذا العزوف المفاجئ عنه تقرر له فى لغة عقلانية لغة حضارتها

" لا فائدة من أن نلتقى مرة أخرى . فأنت ستعود إلى القاهرة وأنا سأرحل بعد عدة أشهر . والرسائل لا معنى لها وتصبح بعد فترة قليلة زائفة . " [2]

.الفرق بين المرأة المصرية والمرأة الغربية فى كيفية التعامل مع الرجال، فالنساء الغربيات " يتعاملن مع الرجال فى بساطة ولا يعقدن الأمور . " [3] وهو مالاتفعله المصريات .

ـ كذلك هناك تخلف الأوضاع الصحية مقابل تقدم الرعاية الصحية لدى الآخر، فالروس " يعتنون برجالهم عناية شديدة ويتخذون إجراءات وقاية صارمة " [4] من أجل عدم انتشار الأمراض بينهم عندما ظهرت حالات الموت الجماعى بين العمال المصريين . وهو الأمر الذى يؤكده " الطبيب " فى أبو سنبل، فهو يخبر " البطل " :

" هنا عدد كبير من الأوروبيين، وهؤلاء صحتهم ممتازة لأنهم تربوا على الزبدة .. " [5]

وتشير هذه العبارة لمدى الرفاهية التى يعيش فيها هؤلاء فى مقابل أحوال البؤس التى يعانى منها المصريون .

المحور الثانى : الغرب الصورة المثال :

فالغرب الاشتراكى (الذى يضم الجزء الشرقى من أوروبا) يمثل الصورة المثال التى ينبغى محاكاتها، سواء على مستوى الدولة ككل أو على مستوى الأفراد، فالدولة تتجه اتجاهاً اشتراكياً، وتحاول إحداث برامج تنموية لتحقيق النهضة والحداثة وفقاً للنمط السائد فى دول الغرب الاشتراكى . وعلى مستوى الأفراد نجد ولعاً بمحاكاة هذه الصورة الفاتنة التى ترتسم ملامحها فى ذهن الشخصية المصرية سواء أكانت هذه

---

١) الرواية ، ص ١٥٨
٢) الرواية ، ص ١٥٩
٣) الرواية ، ص ١٥٦
٤) الرواية ، ص ١١٥
٥) الرواية ، ص ٢٢٥

الصورة مستمدة من الخيال أو من التجربة الواقعية . فها هو أحد المهندسين فى السد عندما يخبر " البطل " وصديقه " سعيد " بأمر البعثة التدريبية التى زار فيها فنلندا لمدة شهرين ... يبادره " سعيد " قائلاً :

" عبيط لماذا لم تبق هناك " هز رأسه معك حق . الحياة هنا كالسجن . ولولا النقود ما بقيت لحظة واحدة .. " [١]

وتتأكد هذه الرغبة فى رسم صورة فاتنة عن مجتمع الرفاهية الذى يحقق لأفراده درجة عالية من الإشباع فى حديث " سعيد " لـ " أليونا " سكرتيرة كبير الخبراء الروس، فقد أخبرها :

" كم نود الذهاب إلى موسكو " [٢] **والتى ردت بدورها عليه " من فضلكم تعالوا "** [٣]

المحور الثالث : الصورة النمطية للمرأة الغربية :

نحصر صورة المرأة الغربية فى التأكيد على كونها جنساً؛ فالتعامل معها يأتى عبر صفاتها الجسدية فقط، دون اعتبار لفكرها أو شخصيتها وتتبدى هذه الصورة النمطية للمرأة الغربية لدى أكثر من شخصية من شخصيات الرواية، ففضلاً عن " البطل " الذى تجتنبه المرأة الغربية منذ بداية الرواية وعبرها، نجد مهندس الآثار فى أبو سنبل يحكى له عن النساء السويديات وعن الحرية المباحة لديهن " السويديات عندهم حرية .. الواحدة منهن تمشى معك بعلم زوجها .. " [٤] وهذا ما دعا البطل لأن يطلب منه مصاحبته فى السفر إلى هناك " فى المرة القادمة عندما تذهب إلى هناك يجب أن تأخذنى معك " [٥] ولا يقتصر الأمر على السويديات، بل إنه يحكى عن مغامراته مع اليونانيات فى الإسكندرية. ويحكى مهندس الخرسانة عن تجربته مع المرأة الغربية قائلاً بإن :

" الوقت الذى يستغرقه تعليق امرأة فى فنلندا أقل من ذلك الذى يتطلبه إخراج المنديل من الجيب . " [٦]

---

١) الرواية ، ص ٥١
٢) الرواية ، ص ٦٣
٣) الرواية ، ص ٦٣
٤) الرواية ، ص ٢١٩
٥) الرواية ،ص ٢٣٣
٦) الرواية ، ص ٥١

ولا يخفى هنا هذه النبرة الذكورية الشرقية التى ظلت سمة ملازمة فى النظر للمرأة الغربية . وهى نظرة على قدر كبير من عدم الدقة، لأن المرأة الغربية تتمتع بقدر كبير من الحرية ولكن ليس من الضرورى أن تكون دائماً سهلة المنال .

أما النقطة الأخيرة التى ينبغى الإشارة إليها فى نهاية عرض صورة الآخر، فهى أن الآخر بصفته الاستعمارية، لم يغب عن وعى البطل، بل كانت هناك إشارات للغرب بوجهه الاستعمارى ممثلاً فى الاستعمار الإنجليزى لمصر، فبمجرد رؤية " البطل " لثلاثة من السياح الإنجليز وهم يرفعون كاميراتهم إلى عيونهم، يتذكر

" وقبل ذلك جاءوا غزاة ومحتلين وصعدت جحافلهم إلى أعلى النيل تنشر الموت والفناء وامتزج ماء النهر بدماء الألوف الذين سقطوا برصاصهم عبر المستنقعات والغابات .. " [1]

وهكذا، لم تختلف " نجمة أغسطس " فى رصدها لصورة الشخصية المصرية والآخر الغربى كثيراً عما قدمه العملين السابقين ؛ خاصة فى تأكيدها على بعض القضايا التى ترتبط فى مجملها بتحولات المجتمع . وفيما يلى أحاول التعرف على الرؤية التى تضمنها عمل آخر

٤ . قدر الغرف المقبضة (لعبد الحكيم قاسم) ١٩٨١ :

إذا كان عنوان العمل الأدبى ذا أهمية فى تلخيص الدلالة العامة لهذا العمل ككل، فإن " قدر الغرف المقبضة " كعنوان، يرسم من البداية ويحدد هذه الدلالة، فالغرف المختلفة التى ينتقل عبرها البطل فى رحلة حياته " طفلاً وشاباً ورجلا " تبث فى نفسه الخوف والرعب، فكل غرفة من هذه الغرف يأتى الحكى عنها فى ارتباطها بتجربة من التجارب الحياتية التى عاشها البطل فى فضاء الذات أو فى فضاء الآخر معبرة فى حصارها له عن عدد من تأزماته فى نضاله من أجل البقاء، ومن أجل تجميل الواقع من حوله فى ظل عالم يزداد قبحاً ووطأة على هذه الذات المثقلة بأوجاعها وأحزانها سواء على مستوى أزمتها الخاصة أو العامة .

فالغرف هنا هى الفكرة المحورية التى تتجلى فيها هذه الأزمات، وكأنها شاهد عصر على ما مر به البطل من حوادث خاصة وعامة فى ارتباطها بأحوال المجتمع

---

١) الرواية ، ص ١٤٣

والوطن ككل . والغرف باعتبارها حيزاً مكانياً، مهما اختلف شكله ومعماره توحى فى نهاية الأمر بالتقييد بحدودها، وهو الأمر الذى يخلق الشعور بالقهر لدى البطل، لأن كل محاولاته التخلص من قيود وحصار هذه الغرف تبوء كلها بالفشل . وهكذا تمثل الغرف قدراً لا فكاك منه .

فى ضوء ذلك ، فإن عنوان الرواية يلخص الكثير مما يحتويه مضمونها . ولهذا يأتى الحديث فى وصف الغرف والأماكن التى يمر بها البطل بطريقة تفوق حديثه عن الأشخاص والأحداث . فالمكان يمارس سطوته على الأشخاص والأحداث بطريقة كبيرة ، وهذا ما جعل الراوى يتساءل حول مصير البطل

" أترى تنتظر عبد العزيز أيضاً نهاية مروعة، حينما تفترسه الغرف المقبضة وتقضى عليه . " [١]

ليس فى " قدر الغرف المقبضة " حدث روائي تقليدي، فالرواية عبارة عن امتداد من الأحداث التى يرويها " الراوى " نيابة عن " البطل " . وتقوم هذه الأحداث على سرد هموم البطل على عدة مستويات : ذاته كفرد، وكمواطن فى مجتمع يمر بتحولات كثيرة ثم مستوى ذاته كإنسان يحاول التواصل مع الآخر من خلال مشاركته قيماً وأخلاقاً انسانية، وعبر هذه المستويات يأتى الحدث الروائى معبراً فى جملته عن الصراع الذى يعانيه البطل داخل الوطن وخارجه .

وتؤسس البداية الاستهلالية للرواية هذه الحالة المتأزمة للبطل من خلال ربطها بالمكان الذى توجد فيه، وفى ذلك يذكر الراوى " كلمات أبيه تعاوده بين آن وآن، هذه الدار ريحها ثقيل " [٢] . ثم يذكر أسباب هذا الثقل، فقد كان باب هذه الدار يفتح ناحية الشرق " " وهذا الباب لو فتح، ما خلى إلى وسط الدار نسمة عصرية فهو مفتوح على الشرق . " [٣] ونلاحظ هنا تلازم بين الانفتاح على الشرق وثقل ريح الدار، وذلك فى مقابل الانفتاح على الغرب وما ينجم عن ذلك من نسائم حيث تأتى النسائم من جهة الغرب، فالأب يذكر " وهذه النسائم إنما تأتى من الغرب " [٤]

---

١) عبد الحكيم قاسم، قدر الغرف المقبضة، القاهرة ، مطبوعات القاهرة، ١٩٨٢، ص ٤٠ .
٢) الرواية ، ص ٣ .
٣) الرواية ، ص ٣.
٤) الرواية ، ص ٣ .

إذن ترتسم منذ البداية الثنائية القطبية المتعارضة : شرق مقابل غرب لتولد بتأويلها الرمزى كثيراً من الدلالات والمعانى التى تنطوى عليه الرواية ككل ؛ فالشرق رمز للأحوال المتأزمة ، والغرب منبع التقدم والتنوير .

ويحاول " الراوى " فى هذه الرواية الحكى عن تجربة البطل " عبد العزيز " عبر سرد لمحات ولقطات من حياته : طفل فى القرية، وصبى فى مرحلة دراسته الإعدادية والثانوية فى مدينتى (ميت غمر – طنطا) ثم شاب فى الجامعة (القاهرة – الاسكندرية) ثم موظف (القاهرة)، وعبر هذه الرحلة يعيش البطل أزماته النفسية والاجتماعية، التى تتلخص دوماً أسبابها فى أحوال الفقر والقبح اللذين يسيطران على كل ما حوله سواء قبل قيام ثورة يوليو أم بعدها . ولهذا تتوق روحه للهروب بعيداً، وتكون رحلته لـ (ألمانيا) التى تبهره فى البداية، لكنه فى نهاية الأمر يدرك خطأ تصوره، فالقبح ملازم له فى الداخل والخارج على السواء، ويتأكد له أن المعاناة واحدة فى كل مكان، وإن اختلفت أشكالها .

الإطار الزمنى للرواية : و نستطيع الكشف عنه عبر أحداث الرواية ككل، ففى أواخر الأربعينيات كان البطل ما يزال طفلاً صغيراً، وفى عام ١٩٥٦ م كان طالباً، أما فى عام ١٩٦٤ فكان قد خرج من المعتقل، وحول خروجه يذكر الراوى " أحسَ بالخوف . ليس له عنوان تقف أمامه العربة، أين سينهب . أين يبيت هذه الليلة . الظهر الرابع عشر من مايو ١٩٦٤ ." [١] وتتابع أحداث الرواية بعد ذلك، فلا يظهر فيها أية إشارة للزمن إلا إشارة واحدة حيث يعود البطل " عبد العزيز " بعد ثلاثين عاماً فى زيارة لخاله بعدها يعود مرة أخرى لبرلين . إن جلَ الأحداث يدور فى الزمن التالى لثورة يوليو ١٩٥٢ ، أى فى عقدى الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين . و الزمن هنا له دلالته القوية بالرغم من اعتباره خلفية هامشية للأحداث، وهو الأمر الذى يمكن النظر للرواية فى إطاره باعتبارها إفرازاً طبيعياً لهذه المرحلة .

أما عن الإطار المكانى : فالأحداث وحركة الشخوص لا تدور فى فضاء مكانى واحد، بل هناك فضاءات مكانية متعددة، سواء داخل الوطن أو فى فضاء الآخر المكانى . فعلى مستوى الوطن هناك عالم القرية المكان، بكل ملامحه وخصوصياته، وأشكال الأحياء السكنية به والبنايات الطينية وأحجامها وأوصافها الطبوغرافية . وبالمثل توجد

---

١) الرواية ، ص ١٠٤.

المدينة / المكان، والتى تتوزع ما بين : مدن يطبعها الطابع الريفى، بمعنى أنها فقدت طابع الحياة القروية وفى نفس الوقت بعيدة عن المدنية كطريقة للحياة . وتشمل مدينة (طنطا)، ومدن لها من البهاء والنظافة ما يجعله دائم العشق لها مثل مدينة (الإسكندرية)، كما توجد مدينة (القاهرة) بكل ما تحويه من عوالم متناقضة . وهناك أيضاً (البيوت والغرف والسجون) التى تنقل بينها . فلكل مكان من هذه الأماكن خصوصيته . أما على مستوى فضاء الآخر، فتأتى برلين . المكان بكل تفاصيلها : بناياتها الجميلة فى مقابل البنايات الفقيرة فى الشوارع الخلفية، غرفها ومصانعها وشوارعها .

فالأوصاف الطويلة المتعددة الجوانب التى يركز عليها الأديب على عشرات الأماكن فى الرواية، ليست مجرد أوصاف عادية، بل إنه يستخدمها كأداة يستطيع عن طريقها خلق المناخ الذى يتطلبه حدوث التناقضات الاجتماعية التى يبغى توضيحها فيما يخص أزمة الذات على متسوى الوطن أو فى علاقتها بالآخر .

ب -صورة الشخصية القومية المصرية كما ظهرت فى " قدر الغرف المقبضة" :

وتعرض الرواية لثلاثة أنماط من الصور المتعلقة بهذه الشخصية ،وأعرض لها فيما يلى:

الصورة الأولى : صورة البطل:

ويمثلها (عبد العزيز) البطل، فالرواية قطاع طولى من حياته، إنسان ذو ملامح وأصول ريفية وهذه الأصول راسخة فى تكوينه فهو يتذكر تفاصيل الحياة القروية بكل دقائقها : نمط الأسرة الممتدة المكونة من أجيال عديدة، والتى تمثلها أسرته كبيرة الحجم، وفى ذلك يذكر الراوى :

" أمه تحكى أن الجد غضب على الأب فأبعده بزوجاته وعياله من الدار الكبيرة إلى هذه الدار " (١)

وعند تناول هذه الشخصية، يمكن تقسيم حياتها إلى مرحلتين :

المرحلة الأولى : الطفولة والصبا وهى المرحلة الموازية لمرحلة ما قبل الثورة

المرحلة الأخرى : الرجولة والنضج وهى المرحلة الموازية لما بعد الثورة وحتى سفره إلى ألمانيا .

أما المرحلة الأولى: -ففيها عاش " عبد العزيز " متنقلاً بين القرى المختلفة ومدينتى ميت غمر وطنطا . فى هذه المرحلة تشعر الذات بقهر الظروف المتخلفة التى

---

١) الرواية ،ص ٤.

لاتمنحها الفرصة للتعبير عن نفسها كفرد له هويته الخاصة، ولهذا فغالباً ما يتم تحديد هذه الهوية من خلال الآخرين : الأب والأخوة الأكبر، ولذلك تأتى محاولة هذه الذات الاستقلال " وإذا كان عبد العزيز قد كبر وراهق، فإن جسده وروحه قد تمردا على الغرفة التى ينامون فيها جميعاً، وأراد أن يستقل بغرفة."[1]

وفى ظل مجتمع أبوى سلطوى، يمارس فيه الأب دور المسئول الأول عن تربية أبنائه، وفى ظل بيئة ثقافية تجعل الفرد تابعاً لفترة طويلة من عمره، تأتى محاولة " عبد العزيز " تحقيق هويته المتفردة بعيداً عن الجماعة، فيقوم بتنظيف غرفة فوق السطوح، ويدبر لنفسه سريراً وطاولة للكتابة وكرسى

" وإذا أغلق الغرفة على نفسه للمرة الأولى، فإنه أحس براحة عميقة . "[2]

وبقدومه لعالم المدينة (طنطا) تبدأ أولى خطواته البحث عن هويته ، فهو فى المدينة " مالك أمر نفسه يواجهها بمفرده، قد تحرر معصمه من يد الأب وانفتح قلبه لهذا الكيان الكبير يتسرب إليه رويداً رويداً " [3]

ويظهر انتقال " البطل " من بيت إلى بيت ومن القرية إلى المدينة، كدلالة على عدم استقرار الذات وتشتتها فى فترة ما قبل قيام ثورة يوليو . كما أن الأوضاع المتردية التى تحاصر هذه الذات تمنع محاولتها تأكيد هويتها، فالرتابة والملل يسيطران على كل شئ " هذه البيوت تبيت وتصبح مثلما كانت عليه بالأمس، لا شئ يتغير .. والناس يخرجون مارين مذعورين ويعودون مترددين خائفين .. "[4]

ويحدد " عبد العزيز " ذاته الطبقية من خلال المقارنة بين سكنه والبيوت الأخرى المجاورة له، فهو يسكن غرفة فقيرة فى سطوح أحد المنازل، فى حين يتمكن من التطلع إلى أحد البيوت عبر الشباك فيلاحظ ستائر النوافذ، وقطع الأثاث اللامعة وهنا

" تخنقه الحسرة والانقباض . ما يحل المساء حتى ينزل إلى الشارع . الأضواء الباهرة تكسره وتنسيه . لكن كان ثمة إحساس

---

١) الرواية ، ص ١٦.
٢) الرواية ، ص ١٦.
٣) الرواية ، ص ص ٤١ – ٤٢ .
٤) الرواية ، ص ٤٣ .

دفين بأن خلف هذه الأضواء ونوافذ العرض يوجد شيء فقير ممل ينطوي على قسوة ووحشية . "[1]

ولا يقتصر الأمر على الفرق بين المساكن ، فهناك أيضاً الاختلاف فى الملبس الذى يعمق هذه الفروق بينه وبين الآخرين ، فالملبس هنا رمز للمكانة التى يشغلها صاحبه ويغدو الملبس فى هذه الحالة " نوعاً من النشاط الذى يعطى معنى للأشياء ، فالوظيفة التى تقوم بها الأزياء على مر التاريخ إنما هى رمزية دالة .... ومن هنا فإن الملبس عملية اجتماعية عميقة المغزى تقع فى قلب النشاط الجدلى للمجتمع . "[2]

ويتعمق الشعور بالقهر لدى هذه الذات التى مازالت فى طور تكوين الوعى الخاص بها فى إطار واقعها المثقل بالتردى، وهذا ما يجعلها ذاتاً لا تنتمى لشئ، بل إن إحساساً بالضياع يطغى عليها . ولهذا كان " عبد العزيز " يشعر " بعدم انتمائه لشئ ثابت . "[3]

أما فى المرحلة الأخرى، مرحلة الرجولة والنضج ،فلم يشر النص صراحة لأحداث ثورة يوليو ١٩٥٢، بالرغم من كون البطل فى هذه المرحلة كان قد دخل الجامعة، بما يعنى إدراكه ووعيه بمثل هذا الحدث . وهو ما يضع علامات استفهام كثيرة، فلماذا أسقط الأديب هذا الحدث وغيره من الأحداث الهامة كهزيمة الخامس من يونيو ١٩٦٧، مع العلم أن البطل أعتقل بالفعل، أى أنه أحد أفراد التشكيلة الاجتماعية والثقافية ذات الوعى الثورى . ويمكن تفسير مثل هذا الموقف بأن الكاتب " عندما يعرض للأحداث التاريخية الهامة لا يختارها كموضوعات للكتابة، ولكنه يحرص دائماً على تطوير وتنمية الأسباب التى أدت إلى مثل هذه الأحداث من خلال وصفه لروح وأخلاقيات العصر، ومن خلال تقديمه للوسط الاجتماعى كله، بدلاً من التحرك فى مجال الأحداث السياسية الكبرى .. وهو فى ذلك يكشف بوعى عن القوى الحقيقية الدافعة للعملية الاجتماعية، وذلك بعيداً عن التصوير الواقعى القائم على المحاكاة الفجة .. "[4]

فالمرحلة الجديدة — واقع ما بعد الاستقلال — كانت الحلم، لكنه حلم شابه كثير من القصور . وإذا كانت الذات فى المرحلة السابقة، ذاتاً مشتتة غير مستقرة

---

١) الرواية ،ص ٤٨

٢) صلاح فضل، نظرية البنائية فى النقد الدبى، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٣، ص١٧٠

٣) الرواية ، ص ٥٦

٤) جورج لوكاتش، دراسات فى الواقعية الأوروبية : مسح اجتماعى لأعمال بلزاك وستندال، زولا، تولستوى جوركى وآخرين، ترجمة أمير إسكندر، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢، ص ٩٥

نتيجة تحلل وانهيار المجتمع، فإن الذات فى هذه المرحلة الجديدة، ونتيجة لتحولاتها المختلفة، تتحول إلى ذات تعانى إزدواجية فى مواقفها المختلفة . وهو الأمر الذى يمكن القول معه بأن أزمة هذه الذات لم تنته، بل تعمقت وظهرت لها أبعاد جديدة فى ظل ما استجد فى طبيعة العملية الاجتماعية ككل فى وصف حالة عبدالعزيز يذكر الراوى:

" تفكر فى كل الأيام التى مضت . كل السقوف الشائهة المبقعة التى نام تحتها . كل الجدران الكالحة التى أحدقت بفراشه . كل القبح والتشوه والغثاثة التى قتلت فيه كل طموح، التى حببت له المذلة والرغبة العميقة فى جرح الذات وسبها وإهانتها ."[1]

وبقدوم فترة الستينيات، تتعمق أزمة الذات الفردية " عبد العزيز " فهو ينتقل للعمل والعيش فى القاهرة التى لم تكن أحسن حالاً من الأسكندرية التى قضى بها سنوات دراسته الجامعية ، فضياعه فيها كان أكبر وحيرته صارت أكثر وضوحاً " لم تتغير الأشياء . الضجيج فى القاهرة أكبر، والكآبة أعمق والأسئلة لا تجد جواباً . "[2]
ونتيجة التحديات الكثيرة التى يفرضها الواقع على هذه الذات يكون أمامها خياران : إما أن تتمرد على هذا الواقع فى محاولة منها لرفضه وتغييره، وإما أن تنساق وراءه فى استكانة واستسلام . والبطل "عبد العزيز" كذات منسحقة، ومطحونة بين رحى المجتمع، يتولد لديه إحساس بالعجز . إلا إنه وفقاً لمبدأ : أن الضغط يولد الانفجار، فإن هذا العجز تحول إلى تمرد على سطوة هذا المجتمع الضاغط . وتمثل تمرد " عبد العزيز " فى كلمة " لا " التى قالها فى وجه القبح الذى يهيمن على كل ما حوله . إنها صرخة فى وجه مجتمع قاهر، قالها دون معرفة منه بمدى ما يمكن أن تحدثه له من مواجهات غير متكافئة مع هذا المجتمع ورموزه السلطوية . وهذا ما جعل الراوى يتساءل:

" هل كان يعرف المصير ؟ بالقطع لم يكن يعرفه ... القضية ... أن الواحد يلقى من حفرة إلى حفرة . وأنه يهان، وأن كل حس فيه بالجمال لا يحترم لدرجة تهدد بفقدانه لوعيه وإحساسه بذاته كبشر، عندئذ لابد أن يقول " لا " ليس بسالة ولا نبلاً ولا عشقاً

---

١) الرواية ، ص ٧٠.
٢) الرواية ، ص ٧٩.

للمخاطرة وإنما هو التأوه الإنسانى الطبيعى من وقع الإهانة .

تأوه لم يكن من الممكن كتمانه . لم يكن من الممكن كتمانه.." (١)

ويتم اعتقال " عبد العزيز " باعتباره مسجوناً سياسياً

" فى صباح يوم قبض عليه من عمله ، قلب المخبرون شقته بحثاً .

كسروا الأشياء القليلة التى تعب فى ترتيبها . أقتيد إلى السجن

ليقضى فيه أربعين شهراً . " (٢)

وتلعب تجربة السجن دورها فى تعميق إحساس الذات بالغربة الذى كان مقدمة أساسية لاغترابه فيما بعد . وعبر الانتقال من سجن لآخر تسحق هذه الذات، فى شكل يصل لأقصى درجات العنف الذى يمارسه الآخر السلطوى، لقتل حرية الآخر المختلف فى الرأى أو الفكر . وكانت فترة الستينيات — كما سبق وأشرت فى أكثر من موضع — من أكثر الفترات التى جرت فيها اعتقالات واسعة النطاق لكل من خالف أو اختلف مع النظام الحاكم آنذاك . وهو الأمر الكفيل بإحداث تمزقات عديدة وشروخ لهؤلاء . حول إحساسه بهذه التجربة يذكر الراوى فى حال " عبد العزيز " " أحسَ بالناس طيوراً داجنة هشة " محبوسة " فى قفص هائل من الحجر والحديد . أحسَ بقهر لا يوصف . " (٣)

ويكون السجن كمكان، تدور فيه حركة بعض شخوص الرواية، تجربة ذات أثر كبيرفى تدمير هذه الشخصية، فهو مكان ملىء بصور الفساد والتشوه فى كل شىء : العلاقات بين المساجين بعضهم البعض، وبينهم وبين إدارة السجن . يتأمل "عبد العزيز" هذا العالم الصغير " تسرى رجفة فى جسده، أترى يمكن أن يتحول الإنسان إلى كائن يهده الوسخ والقبح ويستمرئه ويعاف غيره . غيره . غيره . هل يوجد غيره . " (٤)

ومع خروجه من السجن فى منتصف الستينيات، يحاول " عبد العزيز " البدء من جديد فى إزالة القبح الذى يكسو الناس والأشياء والأماكن والزمن من حوله، ولكن

---

١) الرواية ، ص ٨٢ .
٢) الرواية ، ص ٨٩ .
٣) الرواية ، ص ٨١ .
٤) الرواية ، ص ٨٦ .

عبثاً يفعل ويسيطر عليه شعور بالكآبة واليأس، وتحاول أمه وإخوته تجميل بيتهم القديم فى القرية لإسعاده، لكن يظل الجو الخانق هو المسيطر عليه

" تلك الكتل والسطوح والتراكيب لا تزال تحمل تلك الكمية المروعة من الجهامة والكآبة برغم جهد الأم والأخوات فى الدهاكة والترميم . وحشة وجفاء وبلى فى كل ركن . " (١)

فى ظل هذه الأوضاع المجتمعية المتردية، تأتى تجربة السفر لألمانيا باعتبارها أملاً لحل كل اختناقات هذه الذات ، لكن هيهات . هيهات ؛ فذات البطل تستمر فى تأزمها حتى النهاية، حيث السقوط بلا أمل فى النهوض، فيمرض بمرض السكر . وهكذا يتضافر الذاتى مع الموضوعى ، الداخلى والخارجى للوصول لهذه النهاية . وفى تساؤله عن تضافر عوامل كثيرة فى مأساة البطل يقول الراوى :

" لكن متى أصيب ؟ هل كان ذلك يوم طرق النجار والد زميله وصاحب البيت الذى يسكن فيه على بابه فى عز الليل فقام مرعوباً يتخبط فى الحيطان ؟ أو أن ذلك كان فى واحد من السجون ؟ أم فى برلين فى ليلة من الليالى الكئيبة المليئة بالغربة والخوف تحت سقف كالح وحيطان كئيبة ... ما جدوى السؤال . لقد صرعته واحدة من هذه الغرف وقد سقط بلا أمل فى النهوض .. " (٢)

الصورة الثانية : صورة الجماعة (الشخصية الاجتماعية) :

وتعرض الرواية لصورتين : صورة القرويين ، وصورة المثقفين ، وأتناول كل صورة منهما فيما يلى :

صورة القرويين :

الجماعة القروية هى الجماعة الأولية التى ينتمى إليها البطل، وهو فى تقديمه الصورة الخاصة لهذه الجماعة، يصف الوضع الاقتصادى والاجتماعى القائم على الفقر والتخلف، ولا يكون هذا الفقر والتخلف قدراً محتوماً، بقدر ما يمثلان حالة أنتجتها الظروف المجتمعية التى تعيشها الجماعة . وكما نجد الكاتب فى " محاولة

---

١) الرواية ، ص ١٠٦ .

٢) الرواية ، ص ١٤٩ .

للخروج " يقدم وصفاً إثنوجرافياً لقريته وأحوال قاطنيها، نجد فى " قسر الغرف المقبضة " وصفاً أكثر عمقاً وأكثر تفصيلاً، وهو يلجأ فى ذلك لأداة يستخدمها لإبراز الفكرة التى يريد التأكيد عليها، وهى وصفه " للدور والبنايات الريفية " فحال البؤس والرثاثة التى تغلف هذه الدور والبنايات ما هو إلا دالة على حال قاطنيها . فهو يرى الدور القديمة البالية " تقف فى أماكنها هذه خالقة للناس ضيقاً وعنتاً فى حياتهم . " [1] وفى موضع آخر يذكر : " فالبلد متكومة مكبوسة تلتبك فى بعضها الدور والحارات كما تلتبك شلة الخيوط . " [2]

وفى وصفه للقرويين، يؤكد النص على السلبية التى يعيشها هؤلاء وركونهم إلى واقعهم المتخلف الذى يخلق فيهم عدم الرغبة الحقيقية فى تغييره . وهو الأمر الذى يحلم به البطل

" فهل يكون ثمة يوم يجتمع فيه الخلق قلباً واحداً ونظراً واحداً ويداً واحدة . ينحون ركام الحطب عن السقوف ثم يزيلون السقوف عن الجدران ثم يتدبرون . أى تيه من الخوف والجمود والبلاده ترسمه هذه الجدران على الأرض متعوجاً متداخلاً حاصراً الفكر والروح، ضاغطاً على القلوب .. " [3]

إن " البطل " باعتباره ذروة الوعى الذى تمثله هذه الجماعة يتمنى التغيير أملاً فى تحقيق الوعى الممكن، لكن واقع الخوف يخلق فى هؤلاء حالة من الاستسلام لذلك يظل التغيير مجرد حلم

" لكنها دائرة الخوف المقفلة التى لا خروج منها ... " [4]

ومن سمات الحياة الريفية نجد الجد الأكبر المسئول عن حل مشاكل أهل القرية، وهو يخصص " دواراً " بناه من أجل هذا الغرض، فهو يستضيف فيه الناس ويقيم الرجال فيه اجتماعاتهم فى ساعات العصارى والأماسى والاحتفالات ومجالس العزاء . فى وصفه لما يثيره هذا البناء فى نفس البطل، يذكر الراوى :

---

١) الرواية ، ص ١٢
٢) الرواية، ص ١٢
٣) الرواية ،ص١٣
٤) الرواية ، ص ١٣

" وهو بناء مرتبط فى نفس عبد العزيز بمشاعر غامضة . يرى عليه سيماء عظمة أصيلة قديمة، لكنها فى ذات الوقت بالية منقرضة ولا سبيل إلى استنقاذها . " [١]

ويأتى الإيمان بالحظ والخرافة كأحد سمات الشخصية القروية، فالأب فى تفسيره لاختلاف قسمة الحظوظ بين الخلق يرى أن عتبات الدور تلعب دورها فى ذلك فها هو يعلن :

" الناس هى الناس على كل حال .. لكنها العتبات . " [٢] **هذا الاعتقاد هو ما يؤمن به كذلك " عبد العزيز " متناقلاً إياه عن أبيه . ولذلك نجده هو الآخر يعتقد أن دارهم " منحوسة العتبة وأنها هكذا تحبس حظوظهم فى جوها المكتوم خلف جدرانها الصاهدة الرطبة . "** [٣]

صورة المثقفين : والصورة الأخرى المعبرة عن الشخصية الاجتماعية فى هذا العمل ، هى صورة المثقفين ، ويتم التركيز على هذه الصورة بشكل كبير. ويتم عرض صورة المثقفين من خلال شخصية " البطل " وصديقيه : " صلاح وشوقى"، وهما رفيقاه منذ أيام الدراسة الابتدائية والثانوية فى مدارس طنطا، واستمرت الصداقة بينهم بمرور الأيام . فهو يحكى عن ذكرياتهم أيام الدراسة " كانوا يقضون النهار فى المقاهى والمساء فى دور الخيالة " . [٤]

ويشهد هؤلاء التحولات التى حدثت فى عقدى الخمسينات والستينيات، ويكتووا بنارها. وتظهر محاولتهم السخرية من الواقع الذى يعيشونه، عبر الإسقاطات التى يمارسونها على هذا الواقع، فهم يسمون المقاهى التى يرتادونها بأسماء عواصم العالم " هذه باريس وتلك فيينا وهذه أثينا . "[٥] وذلك فى تشوف منهم لإسقاط صورة الآخر المتقدم بكل ما يرمز إليه من حرية على واقعهم الذى يقتل فيهم هذه الحرية .

---

١) الرواية ،ص ٦
٢) الرواية ، ص ١٥
٣) الرواية ، ص ١٥
٤) الرواية ، ص ٥٠ .
٥) الرواية ، ٩١ .

ويكاد يكون حال هذه الجماعة مكرراً كما فى الروايات السابقة . فهم أيضاً يعانون الازدواجية فى موقفهم من الثورة ونظامها . وهم قد عانوا تجربة السجن وما خلفته عندهم من مرارة وحزن داخلى . فى وصفه حال هؤلاء يقول الراوى :

" يتأمل عبد العزيز قامات الرفاق إزاء الأبواب الصلدة الخرساء .
يمتلئ قلبه حباً لهم . بماذا يمتازون عن بقية البشر . ربما بأنهم
أكثر حزناً، فهم لا يريدون ترويض أنفسهم على معايشة المأساة
ولا أن يشاركوا فى صنعها وهم أيضاً لا يعرفون المخرج منها .
إنهم أبطال تراجيديا فاجعة "[1]

و تظهر فى الرواية العلاقة الملتبسة بين هذه الجماعة والآخر السلطوى، وما يرمز له من قهر لها . يتضح ذلك عبر عدة مواقف تعرضها الرواية ، توضح مدى الشك المتبادل بين الطرفين، ومن أمثلة هذا الشك : موقف البطل ورفاقه حينما جاء وقت الإفراج عنهم . وفيه يذكر الراوى :

" عاشوا لحظات من التوتر المرعب لعدم معرفتهم ماذا يجرى ، وإذا
جاء ضابط يقول لهم : إنه صدر الأمر بالإفراج عنكم رفضوا
الخروج رعباً وبعد أخذ ورد وافقوا . وأوصوا أول فوج أن يرسل أقاربه
لتطمين الموجودين أن الذين خرجوا لم يذبحوا فى الخارج"[2]

كذلك أيضاً فإن القبضة الحديدية التى فرضها الآخر السلطوى المتمثل فى الحكومة، ظلت ملازمة لهؤلاء فى هذه الرواية كما فى غيرها من الروايات السابقة . فها هو " صلاح " يقبع فى شقته رهيناً لسيدة جارته تحاصره بمراقبتها الدائمة له " قابع سجين هذه الشقة، وهذه السيدة . يكاد يفقد عقله من رقابتها عليه ليل نهار . "[3] فالسيدة هنا ترمز للحكومة وسيطرتها وأجهزتها الأمنية فى فرض رقابتها الصارمة على أفراد هذه الجماعة المثقفة . ولهذا فإن " صلاح " يتخذ موقفاً من هذه الإجراءات يقوم

---

١) الرواية ، ص ٩١ .
٢) الرواية ، ص ١٠٤
٣) الرواية ، ص ١١٧

على الانعزال كأسلوب لحياته فى التعامل مع النظام فى تلك الفترة، فها هو " لا يجد ما يتسلى به سوى التليفون يهمس فيه ساعات طويلة .. " [١]

وعن أحوال الأدباء بصفة خاصة وأزمتهم التى يعيشونها باعتبارهم أحد رموز الجماعة المثقفة، فإنهم يشعرون مدى العجز الذى يسيطر عليهم، وهذا ما يجعل " عبد العزيز " حائراً يسأل نفسه عن مصير هؤلاء، وهل من الممكن أن تتولد لديهم المقدرة على الإفلات من هذا العجز الذى يُفرض عليهم

" هل يمكن أن يخلق هذا الجيل أدباً شامخاً بهذا العجز الذى يثقل الظهور، ترى أى لون من المعجزة هنا . ليس الفقر هو المشكلة، إنه لون من العجز يشمل الماضى والحاضر والمستقبل، يحولهم إلى لحظة عذاب واحدة ثقيلة الوطء حتى يستحيل الإفلات من قبضتها على العقل والقلب والروح .. " [٢]

الصورة الثالثة : خصائص الشخصية القومية المصرية :

وتتبدى هذه الصورة من خلال عرض الأديب لبعض الشخصيات التى تمثل فى مجموعها رموزاً لفئات اجتماعية معينة، فها هن زوجات العمال " يحملن السلال فى الطريق من وإلى السوق، رثات الثياب مجهدات الوجه " [٣] كما يوجد العاطلون والصبية الذين لا يجدون ما يعملون . كما يوجد الشخصيات المصرية الفقيرة التى تبيع نفسها من أجل المال، ويرمز لها بالفتاة الصغيرة التى تزوجها كويتى ثرى فهى " ابنة إمرأة غسالة فقيرة من حى بولاق .. يقضى عندها ساعة ثم ينصرف متلصصاً حتى لا يعرف أولاده بزواجه منها .. " [٤] وهناك صورة زملاء عبد العزيز فى سكنى الغرف الفقيرة فوق سطوح المنازل الذين " يفرشون حصيراً فى الظل ويأكلون جماعة ويشربون الشاى ويثرثرون ويضحكون ويتناولون فيما بينهم إحساساً خبيئاً بالهزيمة والانكسار . " [٥]

ولا يقتصر الأمر على تقديم صورة لهذه النماذج من الشخصية المصرية ، التى تعانى إحباطاً وفقراً وهزيمة على جميع الأصعدة، وإنما تظهر صورة أخرى للفئات

---

١) الرواية ، ص ١١٧
٢) الرواية ، ص ١٢٢
٣) الرواية ،ص ٧١
٤) الرواية ، ص ١١١
٥) الرواية ، ص ١١١

الطبقية ذات المستويات المعيشية المرتفعة، حيث تأتى ذات " البطل " باعتبارها ذاتاً وسيطة بين عالمين مختلفين أشد الاختلاف، بالرغم من وجودهما فى توصيف واحد يجمعهم معاً . ويمثل هؤلاء قراء الكتب الأوروبية، الذين يسكنون فى الزمالك . وهم من يتعامل معهم " عبد العزيز " فى مرحلة عمله فى إحدى المكتبات . فهو يتعامل معهم نهاراً، ثم يعود إلى عالم البسطاء ليلاً

" ينقله المصعد إلى عالمهم . يسمونه السطوح وكأنما يقصدون كوكباً منقطع الصلة بأمنا الأرض . "[1]

جـ - صورة الآخر كما ظهرت فى "قدر الغرف المقبضة" :-

ظهر للآخر الغربى فى هذا العمل "نوعان من الصور :

الصورة الأولى : تم التعرف عليها فى فضاء الذات وكانت الصورة المثال : وهى الصورة التى كونها " البطل " عبد العزيز " أثناء وجوده فى مجتمعه قبل سفره لأوروبا، وهى صورة نمت معه منذ أن كان طفلاً، ففى زياراته للقاهرة وهو طفل صغير، فى صحبة أبيه كان يشاهد السيدات الأجنبيات من الإنجليزيات واليونانيات والإيطاليات وهن يجلسن فى شرف صغيرة " نظيفات فى شرف صغيرة ، أنيقات يطرزن أو يتلهين بعمل صغير آخر . "[2]

كما أنه فى أثناء دراسته الثانوية، كان يراسل مع صديقه "صلاح" فتيات أوروبيات واستطاع عن طريق مراسلته لفتاة فرنسية، أن يرسم صورة للبلدة التى تعيش فيها " كان بوسعه أن يعرف شوارع المدينة واحداً واحداً . إنها مدينة ساحرة صغيرة، ومسكن الصديقة رائع، وكل زاوية فيه مزينة ومرتبة . "[3]

الملمح الرئيسى الذى تركز عليه الذات هنا، هو المقارنة بصورة غير مباشرة بين حال المدينة الفرنسية القائمة على النظافة والنظام، وحال المدينة المصرية (طنطا) التى طالما أرقه منها مناظر الفقر والرثاثة التى تحوطه فى كل مكان . فهو يبدل بهذه الصورة القاتمة صورة البلدة الفرنسية، فى ذلك يعلق الراوى :

" يلتقى هو وصلاح يتحدثان طويلاً عن الفتاتين

---

١) الرواية ، ص ١١٣
٢) الرواية ، ص ٥١
٣) الرواية ، ص ٥١

غائبين عن قبح المقهى وبشاعة المدينة . " [1]

ومن هنا فإن الصورة التى ترتسم فى مخيلة البطل هى : صورة الغرب الحضارى الذى يمثل المثال والقدوة، خاصة وأن وجود الشخصيات الغربية فى فضاء الذات فى فترات سابقة (ما قبل التأميم وهجرة أعداد كبيرة وعودتها لأوطانها الأصلية) أكد لهذه الذات تفوق الوضع الذى يحظى به هذا الآخر، فى مقابل الذات المنسحقة، فهؤلاء يعيشون " فى عمارات شاهقة فاخرة " [2] حيث السلالم الرخامية والأبواب اللامعة ذات " اللافتات النحاسية المنقوش عليها الأسماء الأجنبية . فى حين يسكن البطل فى غرفة متواضعة توحى بوضاعة مكانته ولهذا " أذلته نظرة الإستعلاء فى عيون الخواجات سكان العمارات الشاهقة فى شبرا . " [3]

أما الصورة الأخرى : فكانت الصورة الواقع، وهى الصورة التى تم التعرف عليها بعد سفر البطل لألمانيا، ويأتى السفر باعتباره محاولة يهرب فيها من واقعه المتأزم على أكثر من مستوى : فهو كذات مغتربة تعيش مأساة تعثر تحقق أحلامها على بساطتها، وهو كذات جماعية يشعر بالغربة حتى داخل أسرته الصغيرة التى لا يشعر بالانتماء لها " يعرف أنه لا ينتمى لهذا البيت . انتهى ارتباطه الروحى به وهو قاعد منتظر " [4] وهذا بالرغم من زواجه فى هذه الفترة من إحدى قريباته، فالعراك المستمر بين أمه وزوجته، والحياة القائمة على وجود صراع دائم بينهما يعمق من شعوره بعدم الانتماء لهما . وعلى المستوى المجتمعى، فإن أزمته لا تنفصل عن أزمة المجتمع ككل فى فترة الستينيات، إنه لا يملك القدرة على فعل شئ سوى التحسر والتألم لما يجرى حوله، ويأتى الإنزواء والتقوقع الذى يدفعه نحو الموت البطئ، الموت على كل مستويات حياته: كإنسان وكمؤلف وكمثقف .

فى وضع كهذا، يمثل السفر بالنسبة له (الخلاص) الذى ينشده، لهذا حينما يعرض عليه أحد القساوسة السفر لألمانيا لحضور مؤتمر هناك، يوافق بلا تردد، وفى وصفه لتلقيه هذا العرض يذكر الراوى :

---

١) الرواية ، ص ٥١
٢) الرواية ، ص ٥٢
٣) الرواية ، ص ٥٣
٤) الرواية ، ص ١٢٤

" تسلل نوع من الفرح غامض خافت إلى روح عبد العزيز . "(١)

فحلمه الوحيد هو السفر والابتعاد عن كل الرموز التى تذكره بواقعه المؤلم إنه

" يحلم بالسفر . بالابتعاد . " (٢)

إن البطل محمّل منذ البداية بصورة شائهة للذات، مصدرها القهر والكبت والمحاصرة الذى تعرض له، فالذات فى فضاءها، ذات منكسرة ومهمشة، لهذا يأتى الآخر وفضاءه المكانى باعتباره الحلم القادر على تخليص هذه الذات من كل مآزقها على اختلاف أسبابها . وهنا نجد البطل منذ وصوله برلين " مأخوذاً و عاجزاً عن السيطرة على مشاعره . " (٣)

ومن هنا يمكن رصد صورة للآخر فى قدر الغرف المقبضة من خلال المحاور الآتية :

المحور الأول : التقاطبات بين الشخصية المصرية والآخر : لا يتمثل الآخر فى " قدر الغرف المقبضة " فى وجود شخصية واحدة باعتبارها تمثل شخصية الآخر، ولكن البيئة الغربية الحضارية، المتمثلة فى مدينة برلين بمعالمها وأماكنها وأشخاصها يمكن اعتبارها الآخر على إطلاقه . ولهذا فإن وعى البطلً محملا دوما بمجموعة من المقارنات التى تتم بطريقة شعورية أو لا شعورية بين بيئة الآخر المتقدمة حضاريا، وبيئة الذات التقليدية المنعوته بالتخلف . و تتبدى هذه التناقضات بين عالم الذات وعالم الآخر فى عدة مواقف منها :

- عندما أوى البطل إلى فراشه شديد النظافة، ورغم شدة تعبه وحاجته للنوم، " عاوده بشدة إحساسه بالزنازين " (٤) وهنا نوع من المقابلة بين المكانين .

- على المستوى الأيكولوجي، وأثناء مروره بالشوارع يأخذه منظر البيوت "أيات فى جمال العمارة ورونق الألوان . كان عبد العزيز يتمنى أن يرى ما بداخلها . " (٥)

- يمثل الفضاء المكانى للآخر، الحيز الذى تشعر ذات البطل فيه بالاهتمام والتقدير، وذلك بعكس فضاءه المكانى، الذى لم يشعر فيه بغير التجاهل . إنه هنا يحتفى به ككاتب متميز . وعندما طلب منه إلقاء محاضرة بالأكاديمية فى برلين، وراح يلقى

---

١) الرواية ، ص ١٢٤
٢) الرواية ، ص ١٢٤
٣) الرواية ، ص ١٢٥
٤) الرواية ، ص ١٢٦
٥) الرواية ، ص ١٢٨

كلمته " كان غائباً كأنما يحلم، لأنه كما يوجد الجرح يوجد البرء، لكن كلمة الجرح مطلقة وكلمة البرء يرد عليها دائماً قيد الندبة حتى يجعل معناها مجازياً ." (١)

ولعلنا نلاحظ فى هذه الفقرة السابقة المقابلة بين كلمتى : الجرح مقابل البرء فالجرح كان فى الوطن بينما جاء البرء فى فضاء الآخر وعلى أرضه، وهى نفس المقابلة بين مجتمع الذات المظلم فى مقابل مجتمع الآخر المتميز بالأضواء ، ففى الموقف السابق وأثناء إلقاءه المحاضرة، يصفه الراوى :

" رغم الضوء الباهر، كان صوته يأتى من قعر خوفه الحالك الظلمة . " (٢)

.المحور الثانى : الصورة النمطية فى مقابل الصورة الواقعية :

فى بداية حضور" عبدالعزيز " إلى برلين تترسخ لديه الصورة النمطية للآخر الغربى التى كونها عنه من قبل، فهو يرى الغرب الفردوس المنشود " إن هذا لفردوس وإن الناس هنا لخليقون بأن يكونوا ملائكة . " (٣) كما أنه وهو على حافة الحياة فى برلين قبل الانغماس فى الواقع الغربى ينظر للبشر هناك باعتبارهم " شديدى التهذيب و شديدى الكرم .. " (٤)

وتبدو الصورة النمطية للآخر، من خلال الصورة البراقة التى يرسمها البطل له من خلال الإمعان فى نقد الذات وتحميلها كل ميراث للعداء يمكن أن يلحظه بينه وبين الآخر، فالغربيون وإن كانوا شديدى التهذيب معه فإن " ثمة حائلاً ما كالسلك الشائك يفرق الجانبين بالخوف . " (٥) وفى تفسيره للتخوف الذى يفصلهم عنه، فإنه يرده لطبيعة وظروف المجتمع الذى أتى منه، ولهذا نجده يتساءل :

> **"أهو الخوف من هؤلاء الذين أتوا من الشرق من حيث الفقر وتكدس الناس فى الجحور . وسأل عبد العزيز نفسه أترى يبدو فى سمته وشارته ما يدل على جروح روحه من عمر طويل قضاه فى حبس الغرف المقبضة. أتراه وصم بلا أمل." (٦)**

---

١) الرواية ، ص ص ١٢٧ ـ ١٢٨
٢) الرواية ، ص ١٢٨
٣) الرواية ، ص ص ١٢٨ ـ ١٢٩
٤) الرواية ، ص ١٣١
٥) الرواية ، ص ١٣١
٦) الرواية ، ص ١٣٢

فهو يرد تحفظ هؤلاء تجاهه لهذه الصورة المقابلة التى يرسمونها للشرقى بصفة عامة، ولذلك فهم يشعرونه بالغربة والوحدة

" يراهم فى عرباتهم الفارهة أو ماشين على الطوار . لا تقع عينهم عليه، رغم أنه يحدق فيهم، كأنما هو كيان شفاف لا يرى . يعمق فيه هذا تحفظه الشديد وإحساسه العميق بأنه غريب وغير مرغوب . " (١)

وعبر الممارسة الفعلية على أرض الواقع ، تتهاوى الصورة النمطية للآخر، ويمضى الكاتب فى تطوير الأحداث، بطريقة يحاول عبرها البرهنة على خطأ التصورات التى تحملها الشخصية المصرية عن هذا الآخر، وما يترتب على ذلك من ردة فعل من جانب الآخر، فمن خلال مجموعة المواقف والأحداث المتتالية تتلاشى هذه الصورة الزائفة، ويتعرف البطل على الوجه الآخر لهذه الصورة، التى تفرضها الأحداث . ويمكن تفصيل ذلك فى :

. الحياة الضاغطة التى يتحول فيها البشر لمجرد آلات لا تشعر ولا تحس بغير العمل ولا شىء غيره ، وهذه الحياة هى ما تجعله يعلن : " الصورة مقبضة والناس يعملون بدأب كالنمل يطاردهم خوف غامض لا يمكن إدراك كنهه . " (٢)

إن هذه الحياة الغربية عليه تحيل البشر إلى آلات حتى فى مشاعرهم، وهو ما يخلق لديه إحساساً بالألم تحت وطأة هذه الحياة التى تعتصر هؤلاء " يعود إلى سكنه مكسوراً يتفكر فى الجيوش التى تبكر فجر كل يوم إلى هذه البضائع، ثم تئوب فى المساء .. شىء يملأ القلب كمداً .. " (٣) ولعل هذا النمط الذى يمثله الإنسان الغربى المعاصر فى الرواية ، يقترب مما أسماه " هربرت ماركوز" الإنسان ذو البعد الواحد فى إطار المجتمع الصناعى الحديث ؛ فبعدما أصبحت التكنولوجيا هى " الشكل العالمى للإنتاج المادى ، أى عندما أصبحت تلك القوة الكلية المحددة لحياة العصر وثقافته فى ظل مجتمع طبقى قمعى اضطهادى ، أصبح منطقها الذى هو منطق سيطرة الإنسان على الطبيعة ، المنطق المحدد للعلاقات الاجتماعية أيضاً ، أى علاقات الإنسان بالإنسان .

---

١) الرواية ، ص ١٢٩
٢) الرواية ، ص ١٣٧
٣) الرواية ،ص ١٣٨

وهكذا وبدلاً من أن تكون قوة التكنولوجيا قوة تحريرية عن طريق تحويل الأشياء إلى أدوات ، أمست عقبة فى وجه التحرر عن طريق تحويل البشر إلى أدوات .... " [١]

- ليس الغرب كله نعمة أو رفاهية، فهناك مشكلات كثيرة يعانى منها البشر، ففى برلين يتعرف البطل على مشكلات " هجرة الشباب منها وارتفاع نسبة العجائز فيها عن أى بلد فى العالم . " [٢] كما يوجد عشرات الألوف من سكان هذه المدينة الذين " يبيتون مصمومى الآذان بالصمامات . يحمون أنفسهم من هدير السيارات فى الشوارع ويتنفسون فى نومهم هواء لوثته أدخنة المصانع . " [٣]

- وتوجد مشكلات البطالة والفقر والعوز المادى، مما يدفع البعض للعمل فى بعض الأعمال القاسية، " عجائز محالون إلى المعاش أو مرضى أو مشوهو حرب أو شباب مدمنون خمراً ومصابون بالضعف العقلى أو معوقون جسدياً أو ذهنياً . " [٤] فهؤلاء وغيرهم يعملون كحراس للأبنية القديمة، وهم فى ذلك يعانون الصمت والقتامة التى تلقيها عليهم هذه المبانى .

وهكذا، وبعد تعرفه على الصورة على أرض الواقع، يدرك أن الغرب ليس الفردوس الذى ينشده، ولذلك يعلن " إن هذا الجمال مثل شجرة مسمومة تمتد جذورها فى جثث الناس الذين تتكفى عليهم الغرف المقبضة . جمال مسموم يعيش جنب القبح ويتغذى عليه فى عالم ملعون . " [٥]

وفى النهاية، فإن صورة الآخر تكاد تتشابه مع صورة الذات، فالآخر فى بعده الإنسانى مشارك للذات فى شقائها وتعاستها، وهذا ما يتكشف للبطل الذى يشعر أنه :

" لم يبعد كثيراً عن القاهرة . تلك الرموز الفاجعة التى تلخص شيئاً يوشك أن يكون أسطورة من الشقاء والغباء والبلادة . " [٦]

---

١) هربرت ماركوز، الإنسان ذو البعد الواحد، ط ٣ ، ترجمة : جورج طرابيشى، بيروت، منشورات دار الآداب، ١٩٨٨، ص ص ١١، ١٨ .
٢) الرواية ، ص ١٤٣
٣) الرواية ، ص ١٤٣
٤) الرواية ، ص ١٤٦
٥) الرواية ، ص ١٤٤
٦) الرواية ، ص ١٣٩

المحور الثالث : تجنيس العلاقة فى النظرة للآخر :

إذا كانت المرأة فى النماذج الروائية السابقة، وما ينجم معها من علاقات قد اتخذت كوسيط من وسائط المعرفة بالآخر، ففى هذه الرواية لا نجد حضور المرأة بهذه الكيفية، بل تأتى على هامش حياة البطل، ولهذا لا ينحصر الاهتمام بهذه القضية إلا من خلال نماذج لشخصيات أنثوية قليلة، وينحصر الاهتمام بهن فى نطاق كونهن نساء بالدرجة الأولى، فهو بالدرجة الأولى مشدود لهذه الأجساد المتناثرة حوله بعريها، زوجات القسسين الذين يشاركونه فى المنزل الذى ينزل به ضيفاً فى بداية سفره لبرلين، وهو من خلال مشاهدته لهن، يتذكر حاله، كرجل شرقى يأتى من مجتمع يعانى كبتاً جنسياً وسياسياً، وفى وصفه لحاله يذكر الراوى :

" الآن يعرف أن ملامح وجهه على أقبح صورة ممكنة، وأن فى عينيه جوعاً مذعوراً كجوع الوحوش، وأن قلبه وروحه تتقلصان تقلصات شائهة . يعرف هذا ويريد أن يوقفه لكنه لا يستطيع . "[1]

يتكرر نفس الموقف مع زوجة القس ومع زوجة طالب اللاهوت، فكلها نماذج تبهره ويحاول فى داخله الوصال معها، لكن تظل هذه رغبة دفينة فى نفسه لأن كل منهما لا تظهر أية بوادر لمثل هذه المحاولة من جانبها .

. المحور الرابع: الآخر والدور الذى يلعبه فى تحديد هوية الذات :

من العوامل المهمة فى تحديد الهوية بشكل قوى الخطر الذى يشكله اغتراب الذات عن الوطن وبعدها عن كل مظاهر الانتماء لهذا الوطن، فذلك يؤدى لحدوث صدمة المواجهة مع الآخر، الذى يبهرها فى البداية، ولكن بمرور الوقت تحاول الذات التشبث بأصولها، فهاهم الطلبة المصريون المغتربون للدراسة فى ألمانيا، يتعجب " البطل " من أحوالهم، فهم يتمثلون مصر / الوطن فى كل لحظات حياتهم، فإذا جاءوا طبخوا الأكلات المصرية، وهم دائمو الاستماع لأغانى " أم كلثوم " وحريصون كذلك على متابعة أخبار الوطن عبر الجرائد والمجلات العربية . إن هذا الجو الذى يصنعه هؤلاء من حولهم، يجعل البطل يحس فجأة أن " برلين تلاشت من وجوده كلية، وأنه فى الحقيقة يعيش وقتاً قاهرياً . "[2]

---

١) الرواية ، ص ١٣٢

٢) الرواية ، ص ١٣٤

فالرغبة فى تمثل الوطن داخل فضاء الآخر، هو ما يفصح عن حقيقة مؤداها : إن اكتشاف الوجه الفعلى والحقيقى للآخر، لا يدعو للذوبان أو التلاشى فيه، فلا يمكن أن يكون " الآخر " بديلاً عن الوطن، بل إن الرفض فى محاولة للدفاع عن الهوية والتحصن بكل ما يرمز لها ، ما جعل هؤلاء يتناسون واقع الغربة، وهو ما يفسر العزلة التى يفرضونها على أنفسهم، إنهم باختصار " يرفضون برلين ويعيشون القاهرة فى قلوبهم . "[1] وهو ما يجعلهم يتمثلون الوطن (مصر) فى فضاء الآخر(برلين) .

٥ . قالت ضحى (بهاء طاهر) ١٩٨٥ :

أ - توصيف الرواية ودلالتها العامة :

فى " قالت ضحى " نحن أمام تجربة روائية تفيض بالعديد من الرؤى والدلالات، فهى رواية مثقلة بأوجاع وهموم مرحلة كاملة فى مساراتها المختلفة . وهذا ما تعلنه الرواية منذ البداية الاستهلالية لها، التى تنبئ بحدوث تغير كامل عما كان فى مجتمع النص ، فالبطل / الراوى يبدأ حديثه، بالكلام عن وضع جديد بدأ يسود المنطقة التى توجد بها إحدى الوزارات التى يعمل بها، ويتضمن هذا الحدث : تأميم بورصة الأوراق المالية وغلقها وهى التى كانت ملمحاً من ملامح هذه المنطقة ، من خلال الضجة التى كانت تحدثها هذه البورصة . فى ذلك يذكر البطل " انتهت الضجة وكانت جزءاً من الحياة فى مكتبنا . "[2]

وعبر تنامى الحدث وتعدد خيوطه، يبدأ البطل / الراوى فى سرد الكثير من تفاصيل حياته فى ارتباطها بما يحدث حوله من تحولات شخصية ومجتمعية، فعلى المستوى الشخصى : هناك قصة حبه لزميلته فى العمل " ضحى " التى يعجز عن البوح لها بمكنون مشاعره . والتى تسافر معه فيما بعد لروما فى منحة دراسية ، وهناك فى فضاء الآخر تقول ضحى ويقول البطل، وفى قولهما يتضح كثير من تأزمات الشخصية المصرية وتحولاتها، تلك التأزمات التى يرتبط فيها الخاص بالعام، والشخصى بالمجتمعى، والداخلى بالخارجى .

---

١) الرواية ، ص ١٣٤

٢) بهاء طاهر، قالت ضحى، مجموعة أعمال بهاء طاهر، ، القاهرة ، دار الهلال، ١٩٩٢ ، ص ٣٠٩ .

ويتضمن الإطار الزمنى للرواية، فترة الستينيات، فهناك من الأحداث والمواقف ما يشير لهذه الفترة ، فالرواية تبدأ بحدث تأميم البورصة، وذلك كما يذكر البطل " فى ذلك الصباح الصيفى، فى أول الستينيات، فى اليوم الذى تلا التأميم . "[1]

ولكن بالرغم من سيطرة هذه الفترة الزمنية بتحولاتها الطاغية على مصائر الشخوص فى الرواية، إلا أن الزمن يمتد لتتداخل معه عدة أزمنة . فهناك الزمن السابق لثورة يوليو، حيث الاحتلال الإنجليزى لمصر، ومظاهرات الطلبة التى يشترك فيها البطل وصديقه " حاتم " . وهناك زمن الماضى القريب " اعتقال البطل " وتتضمن الرواية بالإضافة لذلك الزمن البعيد عبر الإشارات لتاريخ مصر الفرعونى .

ويتسع الإطار المكانى ليشمل أماكن عدة : مصر / المكان فى مقابل روما / المكان وفى داخل مصر يتحدد المكان فى : المكتب الذى يعمل به البطل، ومكتب صديقه حاتم، و مبنى الوزارة، و بيت البطل، والقهوة التى يرتادها . أى أن الفضاء المكانى للذات يشمل التجربة الحياتية للبطل بأكملها، وذلك ليعبر عن أن مصر / المكان هى الفضاء المسيطر على الأحداث، وهو يقف فى تناقض مع فضاء روما / الآخر الذى يشمل : الحدائق الجميلة، و الملهى الليلى، والأكاديمية العلمية، و الفندق الذى يقيم به البطل وضحى .

ب – صورة الشخصية المصرية كما ظهرت فى " قالت ضحى " :

وعلى غرار ما تقدم فى تحليل صورة الشخصية المصرية فى النماذج الروائية السابقة ، يمكن تقسيم هذه الصورة إلى ثلاثة صور فرعية ، أعرضها فيما يلى :

. الصورة الأولى : صورة البطل :

البطل / الراوى شاب فى أوساط العقد الثالث من عمره، شخصية رومانسية يحب قراءة الشعر والقصص، يعيش قصة حب مع زميلته " ضحى " المتزوجة "، وهو الأمر الذى يولد داخله صراعاً ، لكنه لا يقدر على شىء سوى أن يحبها . يتعاطف مع الناس البسطاء، لأنه يشعر بتوحده معهم، يعيش متأملاً ما يحدث حوله فى حياته وحياة المجتمع من حوله، لكنه تأمل الشخص السلبى الذى يفرض على نفسه عزلة من نوع خاص، وهو لا يبحث عن مكانة إجتماعية أو ترقية يحصل عليها لكنه راض بوضعه

---

١) الرواية ، ص ٣٠٩

مستسلم له . في تحديد هويته يذكر لزميلته " ضحى " " أنا مجرد موظف .. لا أفهم كثيراً في السياسة ولا أريد أن أفهم . "[1] . إلا أنه في بعض الأوقات يشعر بالضجر من نفسه " أحياناً امتلئ بالغضب على نفسي وعلى حياتي، أحياناً تجتاحني أشواق لا أعرف ما هي بالضبط . "[2]

وتتضح أزمته في كونه . نظراً لما يحيط به من أمور تستعصي على الفهم . لا يرغب في شئ أبداً بحماس حقيقي ، وفي ذلك فليس لديه طموح معين بل إنه يتعجب " لا أفهم حتى لماذا يطمح الناس . "[3]

ولعل هذه السلبية الطارئة على هذه الذات، هي ما تجعل صديقه " حاتم " يدعوه لتغيير نفسه وأفكاره قائلاً له في أحد المواقف " تغير أرجوك . "[4]

. الصورة الثانية : صورة الجماعة (الشخصية الاجتماعية) :

وتتحدد في النص الشخصية الاجتماعية لكل من : المثقفين والطبقة الاقطاعيةوالعمال . وفيما يلي توضيح لأبرز ما تضمنه النص من خصائص لكل منها :

صورة المثقفين :

كان للمثقفين على اختلاف طوائفهم، هم واحد فيما قبل ثورة ١٩٥٢، تمثل في الكفاح الوطني من أجل تحقيق الاستقلال . وفي ذلك يذكر البطل : الحركات الطلابية العديدة، والمظاهرات التي يخرج فيها هؤلاء ليس من أجل الأمور الوطنية على مستوى الوطن / مصر . الجلاء والحصول على الاستقلال . ؛بل هناك الإحساس العروبي القومي المتدفق لدى هؤلاء، والذي يمكن اعتباره ملمحاً أساسياً من ملامح هذه الفترة . فالبطل يقرر : " لكننا نعتقد أيضاً أن كل شئون العالم تخصنا، توقع العراق معاهدة مع الإنجليز، لا تعجب الشعب هناك ولا تعجبنا فنخرج ... يقتل اليهود فلسطينيين في حيفا فنخرج : شهداؤك يا حيفا في الجنة وثارك يافلسطين في رقابنا .. وتخرج المظاهرة للشارع الرئيسي، ترتفع القبضات والهتافات من أجل مصر وفلسطين وتونس وسوريا والشرق كله .. "[5]

---

١) الرواية ، ص ٣١٠
٢) الرواية ، ص ٣١٨
٣) الرواية ، ص ٣١٧
٤) الرواية ، ص
٥) الرواية ، ص ٣١٢

لكن حال هؤلاء، لم يدم على ما هو عليه، فيما بعد ١٩٥٢ م ؛ فقد انقسم هؤلاء فرقاً في موقفها من تحولات هذه الثورة، ما بين مؤيد ومعارض . ومن هذه الفرق كان هناك ثلاث فرق عرضت لها الرواية :

الفريق الأول : المثقف المغترب : ولم يغترب هذا المثقف بعيداً عن وطنه، بل فرض على نفسه أو فرض عليه واقعه هذا الاغتراب . وتعبر عنه شخصية البطل / الراوى . فهو وإن كان متفاعلاً مع مجتمعه فيما قبل ١٩٥٢ م من خلال مشاركته فى المظاهرات واشتغاله بالسياسة ودفاعه عن بلده، فإنه فيما بعد يضحى شخصية أخرى، " مجرد موظف لا أفهم كثيراً فى السياسة " [1] . فموقفه من الثورة كما ينكر لضحى " لا يهم أن أكون معها أو ضدها .. " [2] أى أنه مجرد متفرج خارجى على الأحداث. وفى ذلك تعلق ضحى. "لا يضيع الدنيا الذين مع أو الذين ضد، ولكن يضيعها المتفرجون". [3]

ويتضح من خلال النص أزمة مثل هذا المثقف المغترب بالرجوع إلى الواقع كما يعرضه النص، فما الذى يدفع به للتخلى عن مواقفه السابقة، ويركن به للسكون والدعة وقراءة الشعر والروايات، فى شكل يدعو من حوله للاستغراب من هذا الوضع، فنجد "حاتم "يخاطبه

" لم أفهم سبب الخيبة التى حلت عليك . أنت الذى كنت أيام المدرسة والجامعة تمتلئ بالحماس والهتافات وصدورنا للرصاص فداؤك يا مصر؟ هل هكذا تريد أن تنتهى ؟ من المكتب إلى البيت والعكس حتى تخرج على المعاش ؟ قل لى لماذا هجرت السياسة وهجرت كل شئ آخر . " [4]

وفى وصف يوضح مدى ضبابية الرؤية لدى هذا المثقف، يصف الكاتب حالة البطل فى رده على صديقه"قلت ناظراً من النافذة إلى رقعة السماء الزرقاء، وإلى حدآت تحوم فى الفضاء دون أن تحرك أجنحتها : لو أعرف يا حاتم ما سألتك ماذا أفعل . " [5]

وتتبدى أزمته فى كونه يرى هوة شاسعة بين شعارات تردد، ويأتى الفعل مناقضاً لها . فهو لا يريد لنفسه أن يتحول ببغاء يردد ما يقال دونما فعل . ولهذا

---

١) الرواية ، ص ٣١٠
٢) الرواية ، ص ٣١٠
٣) الرواية ، ص ٣١٠
٤) الرواية ، ص ٣٣٣
٥) الرواية ، ص ٣٣٣

يعترض على الانضمام إلى الاتحاد الاشتراكى، الذى لا يقوم إلا على خطب واجتماعات لا طائل من ورائها . وفى ذلك يخاطب " حاتم "

" هل نضحك على أنفسنا يا حاتم " ؟ ... من يريد أن يخدم البلد حقيقة يا حاتم يفعل شيئاً محدداً ولا يتكلم . " [1]

إن ما ناضل من أجله مع رفاقه كان محاربة الظلم بكل أنواعه، والاستغلال الذى عانت منه البلاد فى ظل وجود الإنجليز، والملك والبشوات الذين يتحالفون سوياً ضد مصلحة الشعب والجماهير الكادحة، فهؤلاء يقضون الوقت فى أوروبا للسياحة فى حين يجوع الشعب ويعرى فى الداخل . وعندما قامت الثورة ظن هؤلاء، أن هناك مستقبلاً مشرقاً ينتظر الوطن ولكن وجد هؤلاء واقعاً آخر غير ما حلموا به، فى توصيف هذه الحالة يذكر لـ " ضحى " فى " روما "

" لما جاءت الثورة فرحنا . قلنا تحققت كل الأحلام سيخرج الإنجليز، سيتحقق العدل، فلا يعيش ناس فى بيوت كالجحور تملأها القذارة ويملؤها المرض، سيتعلم الناس فلا يصير جهل . ستنمو مدن وحدائق وسيمشى الإنسان عزيزاً على الأرض، لا يمسح الأطفال أحذية الآخرين ولا تتسول النساء فى الطريق ... ولكننا رأينا ملوكاً جدداً وبشوات جدداً يريدون أن يستولوا على البلد التى كنا مستعدين أن نفقد أنا وحاتم حياتنا من أجلها ." [2]

ـ الفريق الثانى : المثقف المؤيد للثورة :

ويمثله " حاتم " صديق البطل وزميله فى العمل، وإن كان يسبقه بدرجتين وظيفيتين ؛ نظراً لموهبته فى " حفظ القوانين واللوائح الإدارية بأرقامها ونصوصها . " [3] وهو رفيق المظاهرات والعمل السياسى فيما مضى، انضم بعد الثورة إلى هيئة التحرير، فى حين هجر البطل السياسة كلية، ومع ذلك ظلت صداقتهما كما هى.

وحاتم له من الأسباب المنطقية، ما يدعوه للإيمان بالثورة ومبادئها، والدفاع عنها فهو شخصية بسيطة، ليست ثرية، ووصل لمكانته عن طريق كفاحه وقدراته

---

١) الرواية ،ص ٣٣٧

٢) الرواية ، ص ٣٦٣

٣) الرواية ، ص ٣١٣ .

الشخصية ولهذا، في ظل السطوة الكبيرة التي تمارسها رموز هذه الثورة، وجد أنه لابد من الانضمام للاتحاد الاشتراكي ليحمي نفسه من بطش هؤلاء، ولذلك يحاول إقناع البطل بموقفه " أليس من حقي أن أحمي نفسي بالدخول في التنظيم الذي صنعوه هم ؟ .. ولهذا ألعب اللعبة بالقواعد التي وضعوها ... فهل لديك حل آخر ؟ "[1]

ومثل هذا المثقف يرى أن عمله بالسياسة، قد يخدم أسرته الفقيرة كبيرة العدد، التي تسكن الريف، فعندما ينصلح حال البلد ككل، سينصلح حال أسرته التعيسة، فما ينطبق على الكل ينطبق على الجزء . وهو في ذلك يشير للإصلاحات التي جاءت بها حكومة الثورة من أجل النهوض بالريف المصري، من بناء مدارس، ومجانية التعليم، والحق في التوظف داخل جهاز الدولة الحكومي، والحق في فرص حياة كريمة .... وغير ذلك . في ذلك الشأن يروي حاتم للبطل " أتخيل أن أعيش حتى أرى أولاد أخوتي الذين يتعلمون الآن في المدارس الجديدة التي بنتها الثورة في قريتنا كبروا . أتخيلهم يعملون في أشغال أفضل من آبائهم ويعيشون حياة أكثر إنسانية ونظافة .. لا أخدعك ولا أخدع أحداً، ولكني أحاول أن تسير المراكب . "[2]

ومع كل ما يسوقه " حاتم " للدفاع عن الثورة، فهو يدرك أن لكل نظام كبواته، وأن تحقيق العدل الكامل مطلب مستحيل، فالثورة على الظلم تحدثه ويأتي ثوار يعدون الناس بالعدل، ولكن تظهر أنواع جديدة من الظلم، فهناك " حية لا تموت أبداً "[3] وتستمر رؤوسها في الظهور في كل مرحلة، وباسم حماية الثورة من أعدائها يقضي على أصدقائها

" وباسم الاستقرار يجب أن يعود كل شئ كما كان قبل الثورة ذاتها ... وفي هذه الظروف يصبح لطالب العدل اسم جديد يصبح يسارياً أو يمينياً أو كافراً أو عدواً للشعب حسب الظروف .... "[4]

الفريق الثالث : المثقف المتسلق :

ويمثله شخصية " عبد المجيد " وهو زوج الأخت الصغرى للبطل، ريفي الأصل، يمت بصلة قرابة بعيدة للبطل، تعين في نفس الوزارة التي يعمل بها البطل بعد تخرجه من كلية التجارة، من سماته التملق والمحاباة والرياء، في بداية معرفته بالبطل يستمرئه

---

١) الرواية ،ص ٣٣٨
٢) الرواية ،ص ٣٣٩
٣) الرواية ، ص ٤٨
٤) الرواية ، ص ٤٠٩

" قال : إنه فخور بمعرفة موظف كبير مثلى، وإننى فى نظره عميد الأسرة ... نفرت منه على التو، ولكنه استمر يجئ . "[1]

بعد زواجه من أخت البطل، أصبح يمارس سطوة كبيرة عليه ومع انسحاب البطل شيئاً فشيئاً من الحياة المهنية، بدأ نجم " عبد المجيد " يلمع خاصة مع ترداده شعارات هذه المرحلة التى بدأت تتناثر فى بيت البطل ، حيث يعيش " عبد المجيد " وزوجته، فى ذلك يتذكر البطل :

" بدأت تتناثر فى البيت عبارات التصعيد التنظيمى ... ونقطة نظام .... والعناصر السلبية .وصنفنى فى خانة العناصر السلبية، فى مزاح خفيف أولاً ثم كلقب إعتمده لى بصفته اشتراكياً ."[2]

يمثل عبدالمجيد الشخصية المتسلقة، فهو يفعل كل ما فى وسعه للاقتراب من رؤسائه الكبار، مما جعله بمرور الوقت عضواً فى لجان وتنظيمات كثيرة، ويتعاون مع رؤوس الفساد فى الوزارة من أجل تحقيق مكاسبه فقط .

إن ايمانه بالثورة وانتماءه لها، لا يأتى كمبدأ يمكن من خلاله تحقيق مصلحة الوطن العليا ، لكنه يتقرب منها رغبة فى مستقبل أفضل عن طريق لحاقه بقطار الطبقة الحاكمة التى أصبحت من بين أفراد الطبقة الشعبية متخذاً من التعليم والمهنة قناتين لتحقيق طموحه الطبقى الذى يبغى به الصعود مادياً واجتماعياً عن الطبقة التى أتى منها، لذلك فى إحدى مجادلاته مع البطل، حول كونه خطراً على مستقبله السياسى، يروى البطل " قلت له : فى إحدى المرات يا سيد " عبد المجيد " فى ستين داهية مستقبلك السياسى، أعتقد أنه لو ضاع مستقبلك السياسى فسيصبح مستقبل البلد أحسن .. "[3]

وينطبق على هذه الشخصية، ما أظهرته إحدى الدراسات من أنه نتيجة لتوجهات النظام السياسى فى فترة الستينيات .خاصة مجانية التعليم وأسلوب التعيين بواسطة القوى العاملة .فقد أتيح أمام أبناء الطبقة الوسطى فرصاً هائلة للحراك الاجتماعى ، والسيطرة على الجهاز البيروقراطى فى مختلف المجالات .وكان الأداء الوظيفى للبعض

---

١) الرواية ، ص ٣٨٧
٢) الرواية ، ص ٣٩٢ .
٣) الرواية ، ص ٤٠٣ .

من هؤلاء محكوماً بأخلاق الطبقة الوسطى ذات الطبيعة المثالية، والبعض الآخر حركته الحرمانات التاريخية والشوق إلى المناصب وعشق الوظيفة الأميرية، فتخلى عن أخلاق الطبقة الوسطى ومثلها وانفصل عن الجماهير، فلم يدرك مشاعرها ولم يحس بنبضها [١] وبالطبع تنتمي شخصية " عبدالمجيد " لهذا الفريق الأخير .

هذا ، ويتضح مدى التطابق بين ما قدمته " قالت ضحى " من وصف للفرق المختلفة داخل شريحة المثقفين ، وبين ماأوردته بعض الآراء النظرية في الجانب التنظيري من هذه الدراسة ، فيما يتعلق بأوضاع المثقفين في فترة ما بعد الثورة .

صورة الطبقة الاقطاعية القديمة :

وتمثلها " ضحى " ابنة الطبقة الارستقراطية، متزوجة من رجل ينتمي لنفس طبقتها ، وهي ذات ثقافة رفيعة، وتعمل في نفس الوزارة التي يعمل بها البطل ، بل إنها تشاركه المكتب ، وفيها يقول :

> **" تأتي إلى المكتب دائماً وهي تحمل كتباً . روايات فرنسية، أشعاراً صينية مترجمة، مسرحيات يونانية قديمة، كتب عن النحت عن النبات عن التاريخ . تقرأ بنهم وبسرعة . "** [٢]

وتمثل " ضحى " في تصرفاتها وحديثها هذه الطبقة التي أضيرت من إجراءات ثورة يوليو ١٩٥٢ م فقد استولت حكومة الثورة على أرضها، ومع ذلك فهي تصرح بأنها مع الثورة، أي أن هناك إزدواجية ما تحكمها، فهي حزينة على ما أصاب طبقتها، ومع ذلك لا تعادي الثورة " منذ أن أخذوا الأرض لم يعد هناك ما يمكن أن نفقده .. زوجي أيضاً ... زوجي لم يبق لديه شئ .. ولكن أنا مع الثورة . " [٣]، وحول هذا التناقض في موقفها من الثورة تذكر للبطل " لا تضحك أنا لا أكذب .. في أوروبا المتقدمة ذبحوا أمثالنا أيام الثورة في فرنسا وفي روسيا .. هنا أنا أعمل مع حكومة الثورة .. كيف أكون ضدها ؟ .. [٤]

---

١) مونت بالمر وآخرين ، البيروقراطية المصرية . دراسة ميدانية ، ترجمة : على ليلة ، القاهرة ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، ١٩٩٤ ، ص ص ٦ ، ٧ .
٢) الرواية ، ص ٣٢٠
٣) الرواية ، ص ٣١٠
٤) الرواية ، ص ٣١٠

تبدو أزمة هذه الشخصية، فى إحساسها المتضخم بذاتها الطبقية، ففى كثير من المرات تقف موقف الدفاع عن هذه الطبقة، فى مقابل الطبقة الجديدة المناهضة لها، طبقة العمال، ففى حوارها مع " سيد " ممثل طبقة العمال، يتضح مدى العداء القائم بين هاتين الطبقتين "

" قالت : لم تكن سعيداً بأيام القطاع الخاص ؟

قال: من يرضى بالذل يا هانم؟كان اسمى على لسانهم دائماً يا ولد يا سيد .هنا أنا سيد القناوى لا غير

قالت: ... ومع ذلك فبعض هؤلاء الناس طيبون أليس كذلك ؟

قال : طيبون مع أنفسهم وليس مع الفقير يا هانم .

قالت ضحى : كانوا يفتحون بيوتاً مع ذلك . وكنت تعيش من خيرهم أليس كذلك .. " [١]

وينهى البطل هذا الموقف بينهما بعد احتدامه، وهنا تبدو لغة السخرية من " ضحى " تجاه " سيد " فتقول وهى تضحك بلا روح " هذا زائد على حده قليلاً . سيد الحناوى أو الحفناوى يتكلم عن القطاع الخاص وعن " هؤلاء الناس " ويريد أن يعطينى دروساً ! وضربت كفاً بكف [٢]

وتبدو هذه النبرة العدائية، حتى فى علاقتها بالبطل، الذى تعلم بحبه لها ،وتصرح هى له بهذا الحب فى أثناء وجودهما فى روما . فهى تضع الفوارق الطبقية بينها وبينه، عندما أخبرها برغبته فى الزواج منها " بعد أن تطلق من زوجها "، تبادره قائلة :

" من تكون لتتزوجنى ؟ من أنت ؟ أنت حتى لا تعرف أسماء الزهور .. " [٣] " أنا أسألك من أنت وماذا تريد منى ؟ ..ألم يكفكم كل الانتقام الذى حدث ؟ ماذا تريدون أكثر مما حدث " [٤]

ويشير النص لوضع المرأة فى المجتمع الشرقى " فضحى " على المستوى الشخصى تعيش أزمة كونها أنثى فى مجتمع ذكورى يفرض سطلته عليها، بالرغم من كونها ابنة طبقة ارستقراطية، فمنذ البداية، وهى حاملة لهذا الميراث ، فأبوها كان

---

١) الرواية ،ص ٣٢٢ .
٢) الرواية ، ص ٣٢٢
٣) الرواية ، ص ٣٥٠
٤) الرواية، ص ٣٥٠

يتمنى أن ينجب ولداً، ولهذا فقد صمم أن يجعلها أفضل من أى ولد، فعلمها وأحسن تربيتها بكل الطرق والوسائل، فى ذلك تذكر للبطل " وقتها كان ذلك يسعدنى ويشعرنى بالغرور، وكنت أشترك معه فى لعبته، لم أعرف إلا فيما بعد أنه سرق منى طفولتى وفرحتى ... "[1] وحينما حاول أن يرسلها لتكملة تعليمها فى أوروبا، رفضت وأخبرته أنها سوف تتزوج ممن تحب، وبالفعل تزوجت بالرغم من معارضة أبيها، إلا أن حياتها مع زوجها لم تكن أسعد حالاً، فكما أرادها الأب لعبة لتحقيق أحلامه، كذلك كان الزوج، وفى ذلك تروى للبطل : أن زوجها كان يريدها

" الزوجة النكية الجميلة التى يتباهى بها ، التى تقيم له الحفلات والولائم، وتنجب له الأولاد، بينما يعيش هو حياته الخفية اللنينة بعيداً عنها .... "[2]

ولذلك فهى تشعر بأنها محاصرة من هؤلاء جميعاً، وإن اختلفت أشكال هذا الحصار . فالأب : يريدها أن تكون امتداداً له ، والزوج : يريدها واجهة اجتماعية محترمة له ، والبطل يريدها لإرضاء عاطفته وهذا ما يجعلها تخاطبه

" ها هو واحد آخر ! .. يتحدث عن الزهد ويتظاهر بالبراءة، وهو يدبر كل شىء ليحطمنى، أليس كذلك.. دبرت أن تذلنى لكى ترضى غرورك ."[3]

صورة العمال :

ويمثلها شخصية " سيد القناوى " كان يعمل قبل التأميم منادياً للسيارات أمام مبنى البورصة، وعندما أممت طلب من البطل مساعدته فى الحصول على عمل، وهو دائماً كما يقول للبطل " أنا مع الحكومة، أنا كما يقول الريس ضد الإقطاع وأعوان الاستعمار . ولكنى أجرى على عيال وأمهم يا بك والحال كما ترى . " و " سيد " شخصية طموحة، بالرغم من قسوة ظروفه، إلا أنه استطاع الحصول على الشهادة الابتدائية، وهو فى طريقه للحصول على الشهادة الإعدادية . فها هو ينكر للبطل : " كنت أترك الأولاد وأمهم نياماً فى البيت، وأخرج لأذاكر فى نور الشارع . "[4]

---

١) الرواية ، ص ٣٤٩
٢) الرواية ، ص ٣٥٠
٣) الرواية ، ص ٣٥٠.
٤) الرواية ، ص ٣٢٤

ويستطيع بمساعدة " البطل " الحصول على عمل فى الوزارة كساع، واستطاع فى شهور قليلة أن يعرفه الجميع، ونتيجة لتحولات فترة الستينيات، رشح نفسه فى اللجنة النقابية لعمال الوزارة، ونجح فى الانتخابات

" كان ببساطته وحماسه الذى لا يبدو فيه اى تكلف أو إدعاء يجعل كل من يعملون معه أو يعرفه يحبه ويثق به . " (١)

ومع أنه بعد حصوله على الإعدادية ترقى فى عمله، إلا أنه ظل على عهده مع زملائه العمال الذين لم يتخل عنهم وعن قضاياهم التى طرحها عليهم الواقع الجديد، فهو يدافع عن عمال اليومية، ويطالب بحقوقهم من الإدارة، وهذا ما يعرضه للزجر من جانب بعض العناصر السلطوية فى الوزارة، ولهذا ينصحه البطل:

" إنك تأخذ المسألة بجد أكثر من اللازم غيرك يفكرون فى أنفسهم وفى أولادهم . ولكن أنت لم تمض عليك فى الوزارة شهور وها أنت تجر على نفسك المتاعب . " (٢)

ويأتى موقفه من قضايا زملائه فى العمل، نتيجة توحده معهم، باعتباره وإياهم من القطاعات التى حرمت فى السابق من كثير من الحقوق الأساسية، ولذلك فهو يرى فى الأوضاع الجديدة التى جاءت بها حكومة الثورة، فرصة لمثل هؤلاء لاستعادة هذه الحقوق المسلوبة . وفى شرحه لأوضاعه يذكر للبطل أحوال أسرته فيما سبق " كانت عيشتنا مرة . رغيف القمح لم نكن نذوقه إلا فى المواسم وكان دخوله للبيت عيداً .. " (٣) كما يحكى له عن مواقف أخرى توضح مدى الظلم الذى تعرض له فيما مضى ولذلك فالثورة هى الأمل " كل شىء قد تغير والبلد الآن أصبح بلدنا . الثورة جعلت البلد بلدنا . ويجب أن نساعدها ... " (٤)

وإيماناً منه بمواقف الثورة كلها سواء أكانت ايجابية أم سلبية، نجده يسافر للحرب فى اليمن مما يفقده ساقه فى هذه الحرب ومع ذلك يشعر بالفخر لكونه حاول على غرار " مينا "وجمال عبد الناصر " توحيد العرب ولذلك يمنطق ما حدث للبطل قائلاً:

---

١) الرواية ، ص ٣٢٢
٢) الرواية ، ص ٣٢٤
٣) الرواية ، ص ٣٢٥
٤) الرواية ، ص ٣٢٦

"من أجل خاطر مينا وجمال عبد الناصر، من أجل خاطرك يا أستاذ تركت ساقى فى اليمن "[1]

بالرغم من كونه يمثل وعياً ثورياً يدعو للتغيير، إلا أن هناك وعياً مغلوطاً، يجعله حائراً فيما يحدث حوله، ففى اليمن كما كان هناك المحاربون المخلصون، كان هناك أيضاً المفسدون الذين " يشحنون الطائرات بالثلاجات والغسالات والسجائر الأجنبية إلى مصر .. " [2] إلى غير ذلك من صور الفساد التى يرويها للبطل عن تجربته فى اليمن كما أنه يواجه كثيراً من هذه الصور الفاسدة داخل المجتمع فى مصر وهو ما يخلق لديه حيرة شديدة، فى ذلك يقول البطل

" ألا يقول الرئيس فى كل خطبه أننا يجب أن نحارب الفساد ؟ .... إن هذا البلد بلدنا ولو تركنا البكوات يخربونه فسيقع على رؤوسنا ... " [3]

إن التناقض الذى يحياه " سيد " هو ما يعمق من أزمته، ولذلك فهو يائس من مقاومة الفساد الذى يمارسه رؤساؤه داخل وخارج الاتحاد الاشتراكى .ولذلك يعلن للبطل :

" فى الأول يقولون لنا حاربوا الفساد فى كل مكان، وحين ندلهم عليه يقولون لا نريد بلبلة فى الجهة الداخلية، أكتب تقرير والدولة تتصرف ... الدولة تتظاهر بأنها تريد وهى لا تريد، والشعب يتظاهر بأنه يريد وهو لا يريد فماذا يمكن أن يفعل عبد الناصر، وماذا يمكن أن أفعل أنا الصغير ؟ أنا تعبت ." [4]

ـ الصورة الثالثة : خصائص الشخصية القومية المصرية :

وترصد الرواية فى أحداثها ومواقفها عدداً من خصائص الشخصية القومية، وأعرض لها فيما يلى :

- تبدل بعض العادات والتقاليد المرتبطة بالشخصية المصرية خاصة ما يتعلق بمظهر المرأة، ففى هذه الفترة كانت النساء، قد بدأن فى ارتداء الملابس القصيرة

---

١) الرواية ، ص ٣٨٤
٢) الرواية ، ص ٣٨٥
٣) الرواية ، ص ٣٩٥
٤) الرواية ، ص ٤٠٧

بدرجة ملفتة للنظر، وهو الأمر غير العادى الذى لفت انتباه البطل فى سيره مع " ضحى " فى شارع قصر النيل " كانت تلك أول مرة تظهر فيها طراز الفساتين التى تعلو الركبة .. والعيون تحاصر البنات اللاتى يسرن على الرصيف وقد تعرت سيقانهن الطويلة .... "[1] ولأن ذلك كان سلوكاً غريباً ومستحدثاً على الشخصية المصرية، فقد كانت هناك تعليقات فاضحة يصدرها المارة، وفى ذلك يعلق البطل على سؤال " ضحى " له عما إذا كانت تعجبه الفتيات الجريئات " نعم ولكن .. هذا استفزاز . "[2]

_ وعن سمتي البيروقراطية والروتين اللتين تتسم بهما الشخصية المصرية، يرصد البطل عدداً من مظاهرهما، فبعد قيام الثورة طُلب منه وضع تحديد بتخصصات كل قسم من أقسام الوزارة وصفات الوظائف وشروط الترقية حسب الكفاءة .. إلى غير ذلك ، وعندما تم تغيير الوزير تم إلغاء كل ذلك، فمع قدوم مسئول جديد، يلغى كل الخطط والبرامج التى وضعها سابقه وهكذا .. كذلك فهناك الروتين الممل الذى يقابل البطل، وهو يعد أوراق سفره للمنحة الدراسية، فقد كان عليه الحصول على موافقات لا نهاية لها من جهات عديدة، الأمر الذى دعاه للتفكير فى العدول عن فكرة السفر من كثرة ما عاناه فى الحصول على التوقيعات والموافقات . وفى ذلك وحينما يسأله " سيد " عن موعد السفر يقول له :

" بالطريقة التى تمشى بها هذه الأوراق يا سيد فأظن أننى سأسافر بعد أن تتم الوحدة العربية. "[3]

مشيراً بذلك إلى صعوبة تحقيق هذا الأمر كصعوبة تحقيق الوحدة العربية . لقد شهدت فترة الستينيات توسع نطاق جهاز الدولة مما أدى إلى مشكلة وجود بيروقراطية مسرفة الاتساع وعديمة الفاعلية . ومن العوامل الأخرى التى أدت إلى هذه الحالة الفجوة القائمة بين مهارات البيروقراطيين القائمين ، ومطالب قطاع عام آخذ فى التنامى السريع .... وإلى جانب ذلك مضت مشكلة عدم الكفاءة تتفاقم تحت ثقل اتساع وتزايد نطاق أعباء العمل ، والمسؤليات غير المألوفة ... يلى ذلك العبء الذى ينتج عن إنشاء عدد لا نهاية له من الوزارات والهيئات " وكان من شان هذا كله أن يؤدى إلى

---

١) الرواية ، ص ٣١٦
٢) الرواية ، ص ٣١٦
٣) الرواية ، ص ٣٣٧

تفاقم ظواهر : التراخى واللامبالاة وهبوط الكفاءة والانحلال ، كما تزايد الإحساس بالسخط نتيجة لمعاناة أغلب البيروقراطيين الافتقار إلى السلطة ، بينما الرسميون الذين يشغلون مراكز أعلى منهم كثيراً ما يكون لديهم قدر هائل من النفوذ ويتمتعون بامتيازات اقتصادية واجتماعية يحسدون عليها . "[١]

ـ وتأتى قضية عمل المرأة كملمح من ملامح الشخصية المصرية المتغيرة فى مرحلة الستينات وهى الفترة التى بدأت فيها المرأة الخروج للعمل بصورة كبيرة عن ذى قبل، لذلك فالبطل يندهش عندما تخبره أخته الصغرى " سميرة " برغبتها فى العمل، فى رد فعله يروى :

" لزمت الصمت، لم يدر ببالى أبداً أن تشتغل سميرة ...، كنت مثل أبى أنتظر أن يأتيها العريس وأعتبر واجبى أن أعولها إلى ذلك الحين .. "[٢]

فهكذا بدأت النظرة التقليدية من جانب المرأة لنفسها ومن جانب الآخرين لها فى التغير، نتيجة الأوضاع الجديدة التى فرضتها تحولات هذه المرحلة، خاصة وأن سياسة الدولة كانت تتجه فى اتجاه تعيين الشباب المؤهل . وفى تأييده لرغبة سميرة، يقول " حاتم " للبطل:

" لا توجد مشكلة بالنسبة لعمل سميرة، لأن سياسة البلد الآن هى تعيين كل الحاصلين على شهادة فى الحكومة . "[٣]

. كما تعرض الرواية لأنماط الشخصيات النفعية والفهلوية والمرتشية التى ظهرت فى تلك الفترة، فها هى شخصية "مصطفى " صاحب كشك السجائر الذى يسأل البطل بعد عودته من روما إذا ما كان أحضر معه سجائر أجنبية أو ويسكى أو دولاراته فهو يستطيع أن يصرفها له . وتوجد شخصية الطبيب الذى يعمل قوادا، بالإضافة لشخصية "سلطان بك " وكيل الوزارة، وأحد رموز مراكز القوى، الذى يقوم بمخالفات كبيرة فى عمله باسم مصلحة الوطن، إلى الحد الذى دعا "سيد "للقول"بأن "هذا بلد سلطان بك وضحى هانم وكل إنسان يعرف ذلك"[٤]

١) كيت فكتوريا ماكدونالد دانيلز ، مرجع سابق ، ٢٠٠٣ ، ص ١٩٦ .
٢) الرواية ، ص ٣٨١
٣) الرواية ، ص ٣٨٧
٤) الرواية ،ص ٤٠٧

ـ وهناك خصائص السلبية واللامبالاة والأنامالية التى ظهرت بها شخصيات تمثل بعض قطاعات الشخصية المصرية . فهاهم العمال الذين يدافع عن حقوقهم " سيد " معرضاً حياته للخطر، ومع ذلك يتركونه وحده خوفاً على أنفسهم من بطش المسئولين، وحجتهم فى ذلك " ربنا هو المدافع يا حاج سيد . لسنا قد وكيل الوزارة . أكل عيشنا فى إيده . " (١)

- صورة الآخر كما ظهرت فى " قالت ضحى " :

فى " قالت ضحى " نحن أمام أكثر من آخر، فهناك الآخر الغربى الحضارى المتمثل فى " روما " يأتى السفر إليها كحلم، بعد أن ركدت حياة البطل فى مصر، فهو يسافر فى صحبة " ضحى " فى منحة دراسية، فى محاولة للبحث عن ذاته الضائعة فى وطنه، محاولة ربما تساعده أن يبدأ من جديد، وهذا ما يؤكده له صديقه "حاتم" " حاول أن تنتهز المنحة إلى أوروبا وفكر فى بداية جديدة بعد أن تعود . يجب أن تتغير . " (٢) .وأيماناً من " البطل " بهذه الفكرة نجده يحدث نفسه " أخيراً السفر إلى روما . " (٣) وكأن السفر هو الغاية التى يبتغيها .

والغرب الذى يظهر فى الرواية أو على الأقل يحتل مساحة كبيرة هو الغرب الصديق، الذى يرتبط بعلاقات صداقة مع الذات القومية، فها هو البطل و " ضحى " ينهبا لروما فى منحة دراسية، وها هو " سيد " وغيره يسافرون فى وفود إلى بلدان الغرب الأوروبى الاشتراكية مثل ألمانيا الشرقية وغيرها من الدول ذات التوجه الاشتراكى . وذلك فى إطار التقارب الفكرى والأيديولوجى المصاحب للتوجهات المصرية فى تلك الفترة .

وقبل الوقوف على محاور التعرف على صورة الآخر الغربى فى وجهه الحضارى هذا، تجدر الإشارة إلى أن أصداء الآخر الاستعمارى بصورته القائمة على الاغتصاب تتردد فى جنبات الرواية عبر ذاكرة البطل، فهو يتذكر أيام الاحتلال الانجليزى لمصر، والمظاهرات التى كان يخرج فيها أيام دراسته الثانوية والجامعية، وفى ذلك يذكر:

---

١) الرواية ، ص ٤٠٦
٢) الرواية، ص ٣٣٣
٣) الرواية، ص ٣٤٠

" نتبارى فى الحماس وفى الوطنية ... ونقذف بالأحجار الدكاكين الإنجليزية أو الفرنسية التى تصادفنا حسب نوع الإضراب* ... كنا نهتف بحماس ضد الإنجليز وضد الملك ومن أجل الجلاء ... " (١)

ويمكن لكشف عن صورة الآخر الغربى من خلال المحاور التالية :

. المحور الأول : التقاطبات بين الشخصية المصرية والآخر : -

. وتبدأ هذه التقاطبات قبل سفر البطل و" ضحى " إلى روما، ففى حديثهما عن الثورة وأنها مع حكومة الثورة، توضح أسباب ذلك من خلال عقدها المقارنة بين ما تم فى ثورات العالم المتقدم فى فرنسا وروسيا، وما تم فى الثورة المصرية، ففى العالم المتقدم تم ذبح الطبقات الاقطاعية والتخلص منها، فى حين أنها رغم انتمائها للطبقة الاقطاعية فى مصر، فهى تعمل فى إحدى الوزارات الحكومية، وبالتالى فهى تعمل مع حكومة الثورة . ولذلك تخاطبه قائلة " فى أوروبا المتقدمة ذبحوا أمثالنا أيام الثورة فى فرنسا وروسيا .. " (٢)

- وتبدو التقاطبات بين التقاليد الشرقية التى تدعو للاحتشام والحياء فى مقابل الإباحية والانفلات الأخلاقى : فـ "باولا " وهى المسئولة عن مجموعة الدارسين فى الأكاديمية، تحاول التقرب من البطل فى غيبة " ضحى "، ولهذا تعرض عليه السهر فى إحدى الملاهى الليلية حتى يعرف أن روما " ليست متحفاً وأن الناس هنا أيضاً تعيش .. (٣)

. وعندما يذهب معها، ويشاهد أحد العروض المبتذلة أخلاقياً يتحرج البطل قائلاً " لباولا " : " ألا ترين أن الجمهور هنا مهذب جداً وما يشاهده .. " (٤)

---

*حول تغير وتبدل الظروف فى الفترة الحالية عن فترة الستينيات وما قبلها ، وفيما يخص الشعور بالانتماء الوطنى، وفى أثناء المقابلة مع الأديب فى إحدى المكتبات الكائنة فى أحد الأحياء الراقية فى مدينة القاهرة، وفى تعليق ساخر منه على قائمة المشروبات المكتوبة باللغة الإنجليزية باعتبار ذلك شىء عادى فى هذه الأيام، يذكر مؤكداً ما جاء فى الرواية بخصوص إلقاء الحجارة على المحال الأجنبيةومهاجمتها لأنها كانت تمثل رمزاً للاستعمار الأجنبى . أما الآن فهذه المحال تنتشر بصورة كبيرة دون أن يعنى ذلك شيئاً لأحد فى ظل العولمة .

١) الرواية، ص ٣١٢
٢) الرواية ، ص ٣١٠
٣) الرواية ، ص ٣٦٦
٤) الرواية ، ص ٣٦٦

.وفى تقاطبات هذه الفترة يتضح الاندفاع والحماس الوطنى من قبل الذات فى مقابل البرود فى الجدل والنقاش من قبل الآخر : ففى بداية وصول البطل وضحى لروما، تشرح لهما " باولا " الفرق بين توجه كل من مصر وروما وارتباط ذلك بدراستهما قائلة " كما تعرفان أيضاً فنحن ندرس الإدارة هنا على الطريقة الحرة وأنتما كما أظن من بلد اشتراكى " [1] هنا يرد " البطل " " نعم نحن من بلد اشتراكى، ولكن كما تعرفين فإن لشركتكم فرعاً كبيراً فيها . أظن أنه أكبر فرع فى إفريقيا، أليس كذلك ؟ " [2] فهذه اللهجة العنيفة التى يتحدث بها " البطل " مدافعاً عن توجه بلده الاقتصادى، هى ما جعلت " باولا " تفهمه أنه فى فضاء الآخر يمكنه أن يجد الاختلافات كلها تعيش مع بعضها دونما تعارض " بعد فترة ستتعلم أن تأخذ الأمور ببساطة، ستجد هنا اشتراكيين وشيوعيين ورأسماليين والجميع يتكلمون، ولكن لا أحد يقصد شيئاً . وهزت رأسها فى توكيد وهى تكرر، هنا لا يقصد أحد شيئاً . " [3]

.أما عن العاطفة فى مقابل العقل : فتوجد هنا فى شكل مختلف عما سبق عرضه فى النماذج الروائية السابقة، " فالبطل " هنا لا يحب سوى " ضحى " التى يمكن اعتبارها ذاته التى يبحث عنها، وبالرغم من تعثره فى الاهتداء إليها لا ينقطع أمله فى ذلك، فالبرغم من هجرها له، وانحرافها فى العمل، وفى حياتها الخاصة، وبرغم كل الشوائب التى دنست هذا الصفاء والجمال الذى تحمله " ضحى " أو إيزيس كما ترى نفسها فى أحد أحلامها، أقول بالرغم من كل ذلك فالبطل لم تبهره المرأة الغربية، وكانت " أيست " أو " ضحى " تكفيه، لذلك لم يظهر البعد العاطفى فى علاقته بالمرأة الغربية . أما المرأة الغربية، فقد حددت أهدافها معه منذ البداية، فـ " باولا" تخبره أنها تعلم عن الشرقيين الكثير " يأتى شرقيون كثيرون إلى دورتنا، وكل واحد منهم يعتقد أن الإيطاليات لم يكن ينتظرن غيره . الواقع يا صديقى أن هذا صحيح فقط بالنسبة لبنات فيافيتو وغيره من الأرصفة . "[4]

أى أن الصورة النمطية عن الرجل الشرقى تصبح مجرد وهم فى خيال الشرقى ليس إلا وفى حالة وجود علاقة مع المرأة الغربية، فإنها تصير علاقة عابرة لا تتعمق

---

١) الرواية، ص ٣٤٧
٢) الرواية ، ص ٣٤٧
٣) الرواية ، ص ٣٤٧
٤) الرواية ، ص ٣٦٨

لتصير علاقة حقيقية، تتخذ من المشاعر والعواطف بعداً لها، بل إنها لحظات لذة عابرة، " فباولا " تخبره إنها تحبه ثم تعود لتستدرك ذلك قائلة :

" أقصد أنك تعجبني .. يعني مسألة العواطف هذه ... معذرة ياسنيور .. ولكن مسألة العواطف انتهت من زمن ... يعني أنا أسفة جداً .. "[1]

وهذا يعني أن الوعي الأوروبي — كما تمثله باولا — وعي مدارك لصعوبة قيام تواصل حضاري ما بينهما .

.ويبدو الموقف من إسرائيل تقاطباً آخر بين الطرفين : ففي حين تترسخ لدى الغرب فكرة أساسية تتمثل في حب العرب للحرب والكراهية والعداء لليهود نجد هؤلاء يتعاطفون تجاه اسرائيل . وفيما يلي أعرض للحوار ذي الدلالة العميقة بهذه القضية ما بين البطل " العربي " و " باولا " الغربية .

" — هل يعجبك الآن ما يحدث في مصر ؟

- أي شئ تقصدين ما الذي يحدث في مصر ؟

...... أقصد أخذ أموال الناس .. طرد الأوروبيين واليهود .. الحرب مع إسرائيل .. "[2] وبالرغم من محاولته إقناعها، بأن إسرائيل هي التي تحاربه وهي التي بدأت بالعداء، إلا أنها تظل على موقفها . ويمكن تفسير ذلك في ضوء آلة الدعاية الصهيونية في الغرب التي تحاول بكل الوسائل تشويه الحقائق وتزييفها ، خاصة تشويه صورة العرب والمسلمين ، وقد أشرت لعدد من الدراسات التي تناولت هذه الصورة المغلوطة في الجانب التنظيري لهذه الدراسة .

وتتضح هذه النظرة العنصرية أيضاً من جانب شرطي الجوازات في المطار، الذي أمسك بأوراقهما وحينما تبين جنسيتهما، سخر منهما قائلاً :

" أه ايجيبتوا " .. ها هم المصريون الاشتراكيون الذين يطردون الإيطاليين من مصر .. "[3]

.المحور الثاني : الصورة النمطية للآخر :

---

١) الرواية ، ص ٣٩٦

٢) الرواية ، ص ٣٦٩

٣) الرواية ، ص ٣٤٠

وتبدو الصورة النمطية للآخر ظاهرة فى عدد من المواقف، فأوروبا بالنسبة لـ " ضحى " هى بلاد الحرية المباحة بلا قيود، ولهذا تسرف فى شرب النبيذ، وحينما يحاول البطل كفها عن ذلك تمنعه قائلة :

" لا .. أرجوك لا تفعل هذا دعنى أشرب كما أشاء ... نحن الآن فى روما .. " (١)

وترتسم الحياة فى أوروبا فى وعى الشخوص المصرية على أنها أرض السعادة والأحلام فبعد عودة البطل حزيناً من روما بعد جفاء " ضحى " وهجرها له، يتعجب " حاتم " من حاله وهو العائد من أوروبا .. ولذلك يسأله " ماذا بك ؟ ما هذا النحول والشرود ! الناس ترجع من أوروبا سعيدة لا هامدة هكذا .. "(٢) ومن مكونات هذه الصورة النمطية ينبثق الاعتقاد فى أن الحياة الحقيقية هى الحياة فى الغرب، فالغرب " وش الدنيا " المتقدم، فى حين أن ما عداه من عوالم ليس إلا قاع الدنيا . فها هو " مصطفى " يخاطب البطل بعد عودته من أوروبا قائلاً :" حمد الله على السلامة، أوروبا يا عم يا بختك، عشت كم شهر على وش الدنيا . " (٣)

المحور الثالث : تجنيس العلاقة مع الآخر :

وليس هذا التجنيس مقصوراً على البطل، " فضحى " نفسها وبالرغم من كونها أنثى، تستفسر من " البطل " عن سر ولعه بالمنحة إلى أوروبا " ما الذى تشتاق إليه هناك حقاً ؟ العلم الذى ستحصل عليه من المنحة أم البنات الأوروبيات .. " (٤)

وعندما تراه واقفاً على باب الفندق فى روما مع إحدى الفتيات، تضحك قائلة له :

" من أولها يا رجل ؟ أنت لا تضيع وقتك ؟ " (٥)

وعبر الشخصيات الأوروبية التى تقدمها الرواية، لا نجد غير المرأة / الجسد، فهذه " باولا " تحاول تجنيد "البطل " ليعمل كجاسوس ضد بلاده مستخدمة فى ذلك إمكاناتها الإنثوية لإغرائه، وهذه إحدى النساء التى يصحبها لفندقها فى إحدى الليالى التى هجرته فيها " ضحى " حيث تعامله هذه المرأة فى إطار كونها سلعة لا أكثر ولا أقل، فعندما سألها : لماذا تترك المرأة رجلاً يحبها مادامت هى الأخرى تحبه ، يظهر رد فعلها بارداً، قالت له :

---

١) الرواية، ص ٣٤٢
٢) الرواية ، ص ٣٨٠
٣) الراوية ،ص ٣٨١
٤) الرواية ، ص ٣١٤
٥) الرواية ، ص ٣٤١

" آه ... إذن أنت واحد ممن يحبون الكلام .. من حقك عشرون دقيقة فافعل ما تشاء .. "[1]

وتبقى الإشارة إلى أنه وراء كل صورة الآخر كانت تقف صورة الذات، أى أن فضاء الآخر، كان إطاراً جغرافياً للذات . ويتضح ذلك فى عدة مواقف . فمن وراء صورة روما تقبع صورة الإسكندرية، فغرفته فى الفندق فى روما مثلها مثل غرف فنادق الإسكندرية " حين صعدت غرفتى وجدتها كغرف فنادق الإسكندرية القديمة ... "[2] وهو كذلك يشبه حرارة الجو فى روما بحرارته فى القاهرة " كان العرق يغمرنى عندما استيقظت، واكتشفت أن روما لا تقل حراً عن القاهرة "[3]

وعندما يرى " ضحى " وهى آتية إليه من غرفتها تذكره بالتماثيل المصرية القديمة " كانت تترك شعرها ينسدل فى كتلتين أمام كتفيها وفوق صدرها على طريقة التماثيل المصرية القديمة .. "[4]

كذلك عندما يريا المسلة المصرية فى أحد ميادين روما، تقول " ضحى " للبطل :

" أد التحية .... إلى .... جدك .... "[5]

ويعلق على قولها " البطل " " ولكنى رأيت المسلة غريبة جداً ووحيدة فوق تلك السلالم ووسط ذلك الميدان .. "[6]

هذه هى أهم القضايا التى تضمنتها " قالت ضحى " فيما يتعلق بموقفها من تغيرات فترة الستينيات وأثرها على الشخصية المصرية وصورة الآخر .

وبعد ، فإنه من خلال تحليل مجموعة من النصوص الروائية للكشف عن الطريقة التى رسمت بها هذه النصوص صورة ما لكل من : الشخصية المصرية والآخر الغربى ، فى إطار التحولات والتغيرات التى ميزت الفترة التاريخية الزمنية التى تتناولها هذه النصوص . تبين أنها حاولت تقديم صورة لكل منهما فى حدود

.تطورات وتحولات الفترة التى يتناولها كل نص من هذه النصوص على حدة .

---

٦) الرواية ، ص ٣٧٦
١) الرواية ،ص ٣٤١
٢) الرواية ، ص ٣٤١
٣) الرواية ، ص ٣٤٢
٤) الرواية ، ص ٣٤٣
٥) الرواية ، ص ٣٤٣

.تجربة الأديب نفسه وموقفه الذى يتبناه .

أما عن ملامح هذه الصورة ، فيكاد يكون هناك بعض القواسم المشتركة بين هذه النصوص فى تناولها لهذه الصورة ، وهذا ما تم عرضه من خلال الفئات التحليلية الخاصة بتأكيد كل منها على عدد من القضايا مثل : تأكيدها جميعاً على وجود تقاطبات أو تناقضات كثيرة وفروق تفصل بين الشخصية المصرية والآخر الغربى ، كذلك تأكيدها على تجنيس العلاقة فى النظرة للآخر، واعتبار المرأة وسيطاً فى فهم العلاقة الملتبسة فى كثير من الأحيان مع الآخر . وتضمنت جلَ هذه النصوص صورة نمطية للآخر الغربى قوامها القصور أو التركيز على جانب واحد من جوانب هذا الآخر ، وإن كان البعض منها قد تدارك هذا الموقف التقليدى مظهراً زيف وخطأ بعض التصورات كما فى : فيينا ٦٠، وقدر الغرف المقبضة .

وإذا كان هذا الفصل فى مسعاه نحو الكشف عما تضمنته الأعمال الروائية من تصور لكل من الشخصية المصرية والآخر، قد اقترب بالفعل من هذه العوالم التخييلية محاولا رصد تفاصيل الصورة، فإن الأمر يتطلب فيما يلى معاينة ما لحق بهذه الصورة من تطور فى سياق ما طرحته الأعمال الروائية اللاحقة من رؤى فيما يتعلق بهذه القضية، وهو ما يسعى الفصل القادم لإنجازه .

الفصل الرابع

الشخصية المصرية وصورة الاخر

فى الفترة من (منتصف السبعينيات وحتى ٢٠٠١ م)

كما انعكست فى الاعمال الروائية

تمهيــد

يتعامل هذا الفصل مع النصوص الروائية التى تناولت الفترة التاريخية الممتدة من (منتصف السبعينيات – ٢٠٠١ م) وذلك للتعرف على الكيفية التى عالج بها الخطاب الروائى المصرى، إشكالية الدراسة الحالية : الشخصية المصرية وصورة الآخر، بهدف التحقق من فرضية أخرى تتصل بمدى التطور الذى لحق النظرة للآخر الغربى، فى ارتباطها بتطور الرؤى الفنية لهذه الإشكالية .

ونظراً لما حفلت به هذه الفترة من تبدلات وتحولات، اختلفت عن الفترة التى عالجتها الدراسة فى الفصل السابق، فإنه من الضرورى محاولة تقديم تصور لواقع الشخصية المصرية فى هذه الفترة، للتعرف على هذه الشخصية المتغيرة وما نجم عن التغير الذى لحقها فيما يتعلق بنظرتها لصورة الآخر الغربى .

ووفقاً لهذه الأهداف التى يسعى هذا الفصل لتحقيقها، فقد تضمن هذا الفصل :

أولاً : الواقع المصرى فى الفترة من (مننتصف السبعينيات. ٢٠٠١ م) : تحليل اجتماعى .تاريخى :

ثانياً : الشخصية المصرية وصورة الآخركما ظهرت فى الأعمال الروائية :

أ. نيويورك ٨٠ ليوسف إدريس (١٩٨٠م)

ب." الحب فى المنفى " لبهاء طاهر (١٩٩٥ م)

ج. " أمريكانللى " لصنع الله إبراهيم (٢٠٠٣م)

أولاً: الواقع المصري في الفترة من منتصف السبعينيات وحتى ٢٠٠١ تحليل اجتماعي - تاريخي:

ليس من قبيل المبالغة الإقرار بوجود عدد من التغيرات البنائية التى فرضت على الواقع المصري فى الفترة من (منتصف السبعينيات . ٢٠٠١) ، نتيجة للتحولات المتلاحقة التى شهدها المجتمع داخلياً وخارجياً . فعلى المستوى الخارجي شهد العالم ومنذ السبعينيات الصراع الحاد بين قطبي العالم فى هذا الوقت : الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي سابقاً، فى إطار الحرب الباردة بينهما ، والتى انتهت مع نهاية الثمانينيات من القرن العشرين ، وحيث بدأت تتشكل معالم وملامح عالم جديد ، يسوده القطب الواحد . وما تبع ذلك من مقولات : " العالم الواحد والمجتمع العالمى والثقافة العالمية والعولمة." [1] . وعلى المستوى الداخلى ، شهد المجتمع جملة من التغيرات ذات التوجهات السياسية والأيديولوجية المختلفة عما ساد الفترة السابقة عليها .

وتعتبر فترة السبعينيات واحدة من الفترات التى شهدت جدلاً واسع النطاق بين كثير من الباحثين والدارسين المهتمين بدراسة تاريخ مصر الاجتماعي ؛ فقد اتسمت بسرعة التحولات وعمق التبدلات وتغير الموازين، وبخاصة فى ظل اتباع سياسة " الانفتاح الاقتصادى " الذى لا يمكن النظر إليه باعتباره مؤشراً على علاقات كمية أو نسب فنية بين وحدات أو عناصر النشاط الاقتصادى فحسب ؛ وإنما باعتباره " واقعاً اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً يعكس حقائق التركيب الاجتماعى فى المجتمع المصرى." [2] وفيما يلى أحاول رصد ملامح هذه الفترة من عدة جوانب ، أبداها بالجانب السياسى :

فعلى هذا الجانب ، تمثلت أول خطوات النظام الجديد فى إحداث تغير جذرى للهوية الخاصة بهذا النظام فقد كان الشعار الذى رفع كموجه للسياسة الخارجية المصرية هو " مصر أولاً " ، والذى عنى فى شق منه التخلى عملياً عن أى

---

(١) محمد محمود أبوالعينين ، مرجع سابق ، ص ٣

(٢) سامية سعيد إمام ، من يملك مصر ؟ دراسة تحليلية للأصول الاجتماعية لنخبة الانفتاح الاقتصادى فى المجتمع المصرى (١٩٧٤ ـ ١٩٨٠) ، القاهرة ، دار المستقبل العربى ، ١٩٨٦ ، ص ٨ .

توجهات قومية بالمعنى الذى ساد فى عهد " عبدالناصر "، كما يمكن اعتباره مقدمة للخطوات التى اتخذت فيما بعد بشأن التسوية المصرية الإسرائيلية .[١]

وقام " السادات " بتقويض دعامتين أساسيتين من دعائم النظام السابق : الاشتراكية ورأسمالية الدولة الاحتكارية.[٢] وتم تكريس ديموقراطية شكلية ، تبدت مع قيام دستور ١٩٧١، الذى أكد على سيادة القانون والحريات الأساسية وحقوق الإنسان ، فى الوقت الذى تم فيه " إغلاق معظم المنابر الثقافية فى نفس العام، وما تبع ذلك من بطش بالحركات الطلابية، ...وفصل وإيقاف عدد من الصحفيين عام ١٩٧٢ م . "[٣]

ومن الإجراءات التى تلت ذلك، تحول صيغة الحزب الواحد إلى أجنحة ذات توجهات مختلفة . وبالرغم من أهمية هذه الخطوة، كخطوة ذات دلالة فى طريق الحرية السياسية، إلا أن " السادات " حينما سمح بعودة الأحزاب ومعاودة نشاطها، فإنه فعل ذلك معتقداً أن هناك " مجموعة من القواعد المحددة التى سوف تلتزم بها هذه الأحزاب ولا تحيد عنها . وهذا ما لم يحدث من قبل بعض الأحزاب، مما جعله يتخذ من الإجراءات والقوانين ما يعوق من نشاط هذه الأحزاب. "[٤]

ويكاد يجمع الدارسون على أن التحول إلى التعددية السياسية لم يكن إلا عملية إعادة توجه أو انتقال من شكل سلطوى إلى آخر " فكما قنن عبد الناصر السلطوية فى التنظيم الواحد، قننها السادات فى تفوق وغلبة الحزب الواحد . (حزب مصر العربى الاشتراكى، ثم الحرب الوطنى الديمقراطى) . وبدلاً من أن يصحح دستور ١٩٧١ م العلاقة غير المتوازية بين السلطات ويحقق فصلاً حقيقياً بينها، كرس هذه العلاقة لصالح السلطة التنفيذية . "[٥]

---

١) حسن أبو طالب ، عروبة مصر بين التاريخ والسياسة ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٤ ، ص ١٠٥ .

(2) John WaterBury , The Egypt of Nasser And Sadat , The political Economy of Two regimes , New Jersy , Princeton University Press ، ١٩٨٣ ،P429 .

٣) محمد حافظ دياب، الإسلاميون المستقلون . الهوية والسؤال، القاهرة ، دار ميريت للنشر والمعلومات، ٢٠٠٢، ص ٥٠

٤) أحمد أنور، الانفتاح وتغير القيم فى مصر، القاهرة، دار مصر للطباعة والنشر، ١٩٩٦ مرجع سابق، ص ٣٣٨ .

٥) عبد الباسط عبد المعطى (تحرير)، الطبقات الاجتماعية ومستقبل مصر، منتدى العالم الثالث، مشروع مصر ٢٠٢٠، القاهرة ، ميريت للنشر، ٢٠٠٢، ص ٨٣

وأدى التحول السريع من الاشتراكية إلى الليبرالية السياسية والاقتصادية لوجود خلل وتفكك أصاب هيكل البنية المجتمعية، وأفقد النخبة السياسية للقبول الحقيقى من جانب المحكومين، وتعود أزمة الشرعية السياسية فى مصر (١٩٧٤ - ١٩٨٠) إلى " طغيان السلطة التنفيذية على السلطة التشريعية، وسيادة النظرة الأمنية وتصاعد الدور السياسى لأجهزة الأمن فى تلك الفترة . " [١]

وعلى الجانب الاقتصادى : بدأت العوامل الخارجية تلعب دوراً كبيراً ومباشراً فى تشكيل ملامح السياسة الاقتصادية والاجتماعية فى مصر، فقد فرضت الدول الغربية ومؤسسات التمويل الدولية توجهات معينة على صانعى السياسة الاقتصادية ، تمثلت فى الأخذ بسياسة الانفتاح الاقتصادى . وساعد على هذا رغبة صانعى السياسة الاقتصادية فى مصر من جانب، ومصالح شرائح الرأسمالية المصرية المهيمنة اقتصادياً واجتماعيا من جانب آخر . وقد كان الهدف من تبنى سياسة الانفتاح متمثلاً فى تغلغل رأس المال الأجنبى، والغربى فى بنية المجتمع المصرى فى مختلف المجالات والأنشطة . [٢] كما أتاحت هذه السياسة الفرصة بشكل أكبر أمام القطاع الخاص لممارسة النشاط الاقتصادى، مع التقليص من دور القطاع العام . وصدرت مجموعة من القوانين التى تمنح كل من رأس المال المحلى والأجنبى حرية اقتصادية فى ظل شعار " شركاء التنمية " وهو الأمر الذى أدخل مصر من جديد فى دائرة التبعية للنظام الرأسمالى العالمى، ومحاولة إدماجه فى هذا النظام . وهذا ما دعى البعض للقول بأن : التحول للانفتاح الاقتصادى فى السبعينيات " لم يكن تحولاً عن الاشتراكية أو التوجه الاشتراكى إلى الرأسمالية أو التوجه الرأسمالى، بقدر ما كان تحولاً من الاستقلال إلى التبعية . " [٣]

ومن اللافت للنظر، وجود شواهد بحثية عديدة أجمعت على مجموعة من الظواهر السلبية التى ظهرت، كإفراز طبيعى لما شهده النسق الاقتصادى المصرى فى هذه الفترة . وتمثلت هذه الظواهر فى :

---

١) أحمد فاروق حسن، عوامل الاغتراب السياسى بين الشباب فى المجتمع المصرى، دراسة ميدانية مقارنة . رسالة دكتوراة غير منشورة ، جامعة المنيا ، كلية الآداب ، قسم الاجتماع ، ١٩٩٢ ، ص ٢٠٧ .
٢) مصطفى مرتضى على محمود، مرجع سابق ، ص ١٥٢
٣) محمد حافظ دياب، الإسلاميون المستقلون، مرجع سابق، ص ٤٧

١ - إعادة توزيع الدخل القومى لصالح الفئات القادرة، وتركز الثروة والمال فى أيدى القلة على حساب الأغلبية الكادحة من الجماهير . فهذه السياسة عملت على " إتساع الفجوة فى دخول الأفراد، وبالتالى مزيد من عدم العدالة فى توزيع الدخل القومى."(١)

٢ - سيادة الطابع الاستهلاكى : فمع تركيز وسائل الإعلام على الترويج للمنتجات الأجنبية (المادية والثقافية)، وهجرة كثير من أبناء المجتمع إلى الدول النفطية، تشكلت أنماط سلوكية استهلاكية شاذة وكمالية، تمثلتها فئات الرأسمالية الطفيلية التى اتجهت إلى محاكاة النمط الغربى فى الاستهلاك القائم على الترف والبذخ . وتتمثل خطورة هذه الأنماط فى كونها لا تهدف فى الأساس إلا الربح " بغض النظر عما يتمخض عن ذلك من نتائج سلبية تضر بالاقتصاد المصرى . كما أنها تعجز عن إشباع الحاجات الأساسية للمواطنين . "(٢)

٣ - واتسمت فترة السبعينيات بزيادة معدلات التضخم الاقتصادى، خاصة بعد عام ١٩٧٣، وسجلت أسعار السلع والخدمات فى السوق المصرية ارتفاعاً شديداً " وتراوح معدل التضخم ما بين ٢٠، ٣٠ فى المائة سنوياً وهذا معناه أن إعادة توزيع الدخل تمت لصالح العاملين فى التجارة الداخلية والخارجية وأصحاب الحرف والمهن الحرة، وعلى حساب أصحاب الدخول الثابتة من الموظفين وأصحاب المعاشات "(٣)

٤ - وتفاقمت عدة مشكلات اقتصادية : كالبطالة ومشكلات الإسكان، وانعدام فرص المواطنين فى الحصول على حقوقهم، وتراجع التخطيط الشامل وانتشرت الجرائم وتنوعت عن ذى قبل . " وأصبحت الطفيلية إحدى السمات التى ميزت الثقافة المصرية المعاصرة، بعد الإقبال الواضح على مزاولة الأنشطة الطفيلية التى تصحبها قيم سلبية، كالاستسهال والاسترخاء والتربح السريع، مما أدى إلى تدهور قيمة العمل المنتج، والعزوف عن ممارسة الأنشطة الانتاجية التى تدعم الهيكل الانتاجى فى المجتمع والتى تتطلب مزيداً من الجهد والوقت. "(٤)

---

١) نادية رضوان، الشباب المصرى وأزمة القيم . دراسة عن بوادر ومحاور أزمة الشباب . ثلاث دراسات (١٩٨٤ – ١٩٩٤)، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧، ص ص ١٩٥ – ١٩٦

٢) ضياء زاهر، القيم فى العملية التربوية ، القاهرة ، مطبعة نهضة مصر ، ١٩٨٤، ص ٤٨

٣) كمال التابعى، تشوهات قيم الذات فى المجتمع، مرجع سابق، ص ٣٧٥ .

٤) على طبوشة، الذات والمجتمع فى ضوء الثقافة المصرية المعاصرة، فى : أحمد زايد، سامية الخشاب (محرران)، الذات والمجتمع فى مصر، أعمال الندوة الثالثة لقسم الاجتماع (١١ - ١٢) مايو ، جامعة القاهرة، كلية الآداب ١٩٩٧، ص ٣٢

وعلى الجانب الاجتماعى يعتقد كثير من المهتمين برصد تحولات فترة الانفتاح الاقتصادى أنه إذا كانت فترة الستينيات هى فترة التحول نحو القاعدة العريضة من أبناء الشعب المصرى، والعمل – إلى حد كبير – على تحقيق مكاسب لهذه القاعدة، فإن فترة السبعينيات كانت فترة الانفتاح على الغرب، والاتجاه صوب الصفوة الرأسمالية، وهو ما ساهم فى إيجاد تحولات طبقية واسعة النطاق " ومن ثم إعادة تشكيل معالم البنية الاجتماعية القائمة . "[١] تشكيلاً مختلفاً إلى حد بعيد عن ذى قبل، فتلك البنية كانت قد شهدت بعض الاستقرار النسبى فى فترة الستينيات، وتمثلت عملية إعادة التشكيل هذه فى إصابة التوازن التقليدى القائم بالخلل واضطراب التقسيم الطبقى وظهور التباينات الاجتماعية الواسعة بين أفراد المجتمع وطبقاته المختلفة .[٢]

وفى هذا الصدد، يرى " ميلاد حنا "، أنه بإمكان الفرد أن يتحدث عن مجتمع مصرى انقسم إلى قسمين أو مصرين : فمصر الأولى، هى مصر الانفتاحية التى تتكون من مجموعة المستفيدين الحقيقيين من إجراءات الانفتاح الاقتصادى فى تكوين ثروات ضخمة، أما مصر الأخرى، فهى مصر الشعبية الوطنية التى تضم فئات الشعب العريضة، تلك التى " ارتبطت بالحكومة والقطاع العام، وتضم كبار الموظفين الشرفاء ... وصولاً إلى قاع السلم الوظيفي، حيث خريجى الجامعات حديثى التخرج الذين لا تتجاوز مرتباتهم مائة جنيه، وهم قابلون لذلك بعد سنوات عجاف من البطالة . "[٣] وهذه الفئات هى التى قاست الكثير من جراء الأخذ بسياسة الانفتاح الاقتصادى، فلم تستطيع بقدرتها المحدودة أن تصمد أمام هذا التيار الجارف من التحولات التى أصابت المجتمع، فسقطت فى هوة تناقضات هذه الفترة.

وتركت تحولات هذه الفترة بصماتها الجلية على القيم الاجتماعية، وما يرتبط بها من عمليات التقويم، فتشوهت قيم الذات الفردية والجماعية على حد سواء " وتجسدت هذه التشوهات فى حالة الخلل القيمى الذى أصاب الذات والمجتمع . والتخلى عن قيم أصيلة واستبدال بها قيم اجتماعية سلبية، لجأت إليها الذات

---

١) محمود عبد الحميد . ناجى بدر إبراهيم، التغير فى بناء المجتمع الريفى . مداخل نظرية وبحوث ميدانية، الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٥، ص ١٥٣

٢) كمال التابعى، تشوهات قيم الذات ، مرجع سابق، ص ٣٥٣

٣) ميلاد حنا، الأعمدة السبعة للشخصية المصرية ، ط٣، القاهرة ، دار الهلال، ١٩٩٣، ص ٤٩

باعتبارها آلية من الآليات الجديدة التى تمكنها من إشباع حاجاتها والمحافظة على بقائها فى محاولة منها التكيف والتوافق مع تلك التحولات . "[1] فعلى سبيل المثال سادت ونمت قيم الفردية وإعلاء المصلحة الخاصة على المصلحة العامة، خاصة فى غياب مثال يفرضه توجه أيديولوجى محدد، وفى مثل هذه الحالة يمارس الأفراد حياتهم وفقاً لمنطق المنفعة الخاصة التى تقدس فى إطارها الغايات الخاصة والشخصية والعمل على إنجازها بأية طريقة " حتى ولو كانت غير مشروعة فى بعض الأحيان (فالمعيار الأساسى) هو النجاح بغض النظر عن شرف الوسائل، مع ما يرتبط بذلك من إهدار لكل القيم والمقدسات التى تحمل تاريخاً من الاحترام "[2]

ونتيجة لإخفاق المواطن المصرى فى الحصول على كثير من احتياجاته الأساسية، عاش حالة من عدم الاستقرار والقلق، وهو ما أدى لسيادة مشاعر الاغتراب وعدم الاكتراث بالأمور العامة، وتمحورت هموم المواطن المصرى حول مشاكله الفردية والأسرية، وكانت الهجرة من أهم ظواهر هذه الفترة المترتبة على تردى الأوضاع الداخلية ، خاصة مع تسريح أعداد كبيرة من الشباب من القوات المسلحة بعد حرب ١٩٧٣ م . وكان على هؤلاء البحث عن عمل لهم، ولأن سوق العمل المصرية لم تف بمطالبهم وطموحاتهم، فقد طرق هؤلاء أبواب الهجرة المؤقتة للعمل بدول النفط . وتأثر النسق القيمى المصرى بهذه الهجرة بشكل كبير، فالهجرة تعد مؤشراً على تآكل الروابط بين الذات والمجتمع وتدهور قيمة الانتماء لهذا المجتمع . "[3]

ومن مؤشرات أزمة الشخصية المصرية فى السبعينيات وبداية الثمانينيات ظهور صور العنف المختلفة فى المجتمع، وبخاصة بين فئات الشباب . وتجمع شواهد بحثية كثيرة على أن أسباب هذا العنف يمكن ردها لمجمل المشاكل التى واجهت أفراد المجتمع، وكم المتغيرات السريعة التى كان من الصعب على هؤلاء استيعابها . فمع انتشار الطبقات الطفيلية، واتساع الهوة بين فئات المجتمع، مع عدم وجود القنوات الشرعية المناسبة من أجل تحقيق أحلام الشباب وطموحاته . انتشرت مظاهر السخط والرفض والانضمام لجماعات العنف . " ومما زاد من عنف هذه الجماعات، عنف

---

١) كمال التابعى، تشوهات قيم الذات ، مرجع سابق، ص ٣٥٤

٢) يوسف سيد محمود، تغير قيم طلاب الجامعة ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٩١، ص ١٧٠

٣) على طبوشة، مرجع سابق، ص ٣٠ .

السلطة فى التعامل معها، حيث أصبح العنف من جانب السلطة يولد مزيداً من العنف لدى هذه الجماعات . وهو الأمر الذى أدى فى النهاية إلى اغتيال قمة النظام (الرئيس السادات) على يد أحد أعضاء هذه الجماعات . "[١]

وتبقى إشارة هامة فى هذا الصدد، تتعلق بطبيعة الانفتاح الاقتصادى، فمهما يكن حجم التحولات التى تمت فى السبعينيات، وما أحدثته من آثار على المجتمع المصرى فى هذه الفترة وما تلاها، فإنه لا يمكن رد جملة ما اعترى المجتمع من جوانب سلبية لهذا الانفتاح وحده، فالقوانين التى جاء بها الانفتاح وإجراءاته " تتعلق فى نهاية الأمر بإباحة سلوك معين أو منعه، ولكنها لا تخلق هذا السلوك .... وكثير من المظاهر الاقتصادية والاجتماعية تتعلق بسلوك الأفراد . والقوانين فى ذاتها لا تخلق سلوكاً، بل وقد لا تنجح فى منعه، إلا إذا تطابقت هذه القوانين مع دوافع الأفراد وطموحاتهم"[٢].

معنى ذلك أن الانفتاح لم يكن السبب الرئيسى فى ظهور قيم سلبية اعتنقتها الشخصية المصرية، فهذه القيم السلبية ربما كانت ذات جذور فى البنية المجتمعية ذاتها، وتوقف دور الانفتاح على تدعيمها وتأكيد وجودها، أى أنه مهد الأرض لنمو قيم كانت كامنة

وما ينبغى التأكيد عليه، أن الانفتاح الاقتصادى، وما تبعه من التوجه نحو الغرب الأمريكى، والصلح مع إسرائيل، كان له أثر فى تطور النظرة للآخر ؛ فمن ناحية أولى : وعلى المستوى الرسمى، تحددت صورة لهذا الآخر تنم عن إعجاب شديد بالنموذج الغربى بعامة، والأمريكى بخاصة . وبدا ذلك واضحاً فى لغة الخطاب الرسمى، وفى التصريحات والممارسات المختلفة التى اتخذتها القيادة السياسية آنذاك. حيث " قامت هذه القيادة باستلهام النموذج الغربى فى إحداث التنمية، واعتمدته كإطار مرجعى على مستوى الفكر والممارسة، بل ظلت تحلم بأن تصبح مصر قطعة من الغرب" [٣]

ومن ناحية أخرى : وعلى المستوى الشعبى، كان هناك نمو واضح للاتجاهات الإيجابية نحو الثقافة الرأسمالية –خاصة الأمريكية– وأصبح المصرى ينظر لهذه الثقافة نظرة إعجاب . وتمنى الاقتراب من النموذج الغربى والانخراط فيه . وأصبح الفوز بمخرجات هذه النموذج على مستوى الفكر والممارسة هو الحلم الذى يراود المصرى . ومن

---

١) أحمد فاروق أحمد حسن، مرجع سابق، ص ٢١٠
٢) جلال أمين، ماذا حدث للمصريين ، مرجع سابق، ص ١٤
٣) على طبوشة، مرجع سابق، ص ٣١

ثم يتسنى القول : "إن المصرى ابتعد عن ثقافته وتراثه الوطنى، بقدر اقترابه من الثقافة الغربية والنموذج الرأسمالى . ومن هنا انتشرت ظاهرة الدونية فيما يتعلق بالمنتجات الوطنية . وتعاظم الإحساس بالتفوق الغربى وتفضيل الأجنبى، خاصة لدى فئات الشباب الذى راح يحاكى نمط الحياة الغربية . وهانت الرموز الوطنية وأصبح التمسك بها نوعاً من التخلف والجمود." [١]

وهكذا، اندفعت الشخصية المصرية فى انبهار غير محسوب نحو الحداثة الغربية غير مدركة للمخاطر التى تحملها هذه الحداثة المصطنعة لها ولهويتها الثقافية القومية، بل دفعها الإحساس بالدونية الشرقية فى مقابل التفوق الغربى إلى التقليل من شأن العقل العربى. " ومن منطق الرغبة فى التحرر من قيود ماض متخلف وتقاليد معوقة أسلمنا قيادنا إلى حداثة غربية مسيطرة انتهت إلى قهرنا وإخضاعنا هى الأخرى خدمة لأغراضها." [٢] ومن جديد ظهرت ثنائية التابع / المتبوع فى إطار التبعية الجديدة للغرب الرأسمالي فى ظل موجات التغريب التى اجتاحت المجتمع بكل طوائفه : قيماً وسلوكاً وأسلوباً للحياة .

ومع بداية الثمانينيات من القرن العشرين ترابطت العوامل الداخلية والخارجية فى منظومة متكاملة لتعطى فى النهاية صبغة معينة تصبغ الشخصية المصرية بملامح وقسمات خاصة . فتأثراً بما تحدثه العوامل الخارجية فى هذه الشخصية، لا مندوحة أن الإنسان المصرى تعرض فى هذه الفترة –ولا زال– لغزو خارجى شرس، لا يهدف للسيطرة على قراره الاقتصادى وموارده الطبيعية، بقدر ما يهدف أساساً للسيطرة على العقل والشخصية المصرية . والعمل من أجل "محو تاريخ الشعب ليتبنى قيماً غربية على ثقافته." [٣] فى إطار ما أسماه "دانييل ليرنر" زوال المجتمع التقليدى، والذى يعنى انسلاخ شعوب الشرق الأوسط عن طرقهم التقليدية وتبنيهم أشكالاً جديدة للمؤسسة الاجتماعية، رابطاً فى ذلك بين عملية التحديث والتغريب التى عنى بها تبنى شخصية أوروبا الغربية والولايات المتحدة العلمانية العقلانية . [٤]

---

١) المرجع السابق، ص ٣١

٢) عبدالعزيز حمودة، مرجع سابق، ص ٩٠

٣) طلعت رضوان، أبعاد الشخصية المصرية بين الماضى والحاضر، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٩، ص٥

٤) دانييل ليرنر، زوال المجتمع التقليدى، فى : ج . تيمونز روبيرتس . أيمى هايت، من الحداثة إلى العولمة، رؤى ووجهات نظر فى قضية التطور والتغير الاجتماعى، ترجمة : سمر الشيشكلى، عالم المعرفة، العدد (٣٠٩) الكويت، مطابع السياسة، ٢٠٠٤ ، ص ١٨١ .

وظهر في هذه الفترة، ما تم التعبير عنه بمفاهيم الغزو الثقافي ومرادفاته : التمثيل والاستعمار والإمبريالية والتغلغل والاستلاب والاختراق والاستتباع الثقافي . وكل هذه المفاهيم تقوم أساساً على استعارة البنية الاجتماعية الأضعف لبعض مظاهر البنية الاجتماعية المهيمنة . وتعمل الثقافة الغازية في هذه الحالة على طمس وتنويب الثقافة الأصلية، تساندها في ذلك قوى من خارج المجال الثقافي. وهو ما يطلق عليه " البعد الرابع " الذى يعنى إحكام الإلحاق من خلال الثقافة كبعد جديد، يضاف لأبعاد السيطرة الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية، بما يعنى أنها ليست سوى النقطة النهائية على السطر لإكمال الهيمنة والسيطرة . "[1]

أما على المستوى الداخلى وارتباطاً بما تحدثه التغيرات الخارجية على المستوى العالمى من تحولات فى بنية المجتمع المصرى ، فيمكن رصد أهم هذه التحولات فى الفترة من بداية الثمانينيات وحتى بداية القرن الحادى والعشرين على الجوانب المختلفة للمجتمع :

ففى المجال السياسى، سار المجتمع المصرى على نفس السياسات العامة التى ارتسمت خطوطها العريضة فى السبعينيات ، فكان الصلح مع إسرائيل، والتحالف المصرى الأمريكى والانفتاح على الغرب، أهم ملامح هذه الفترة . واتسمت هذه الفترة بنمو التجربة الليبرالية فى الممارسة السياسية الداخلية وكذلك اتساع الهامش الديمقراطى، وإن كانت هناك انتقادات عنيفة توجه للنظام السياسى، نتيجة بعض القيود التى تفرض على المواطنين، خاصة فى ظل العمل بقانون الطوارئ الذى يشيع عدم الأمان والترقب والتحفز .[2]

وعلى الجانب الاقتصادى، وامتداداً لسياسة الانفتاح الاقتصادى، شهد المجتمع المصرى عدداً من الإجراءات، فكان الأخذ بالإصلاح الاقتصادى وبرامج التكيف الهيكلى وبيع وحدات القطاع العام فى إطار الخصخصة أو التخصصية[*]،

---

١) محمد حافظ دياب، سؤال الخصوصية والكونية فى الثقافة المصرية، فى هوية مصر الثقافية، بحوث المؤتمر العلمى السنوى لكلية دار العلوم، جامعة المنيا من ١٩ – ٢٠ نوفمبر، ٢٠٠٠، ص ٢٦

٢) علياء رضاه رافع، مرجع سابق، ص ٧٤

*) يعتبر عام ١٩٩١ انعطافا استراتيجياً فى مجال السياسة الاقتصادية، حيث كان إصدار قانون قطاع الأعمال العام رقم ٢٠٣ لعام ١٩٩١. وإخضاع شركات قطاع الأعمال لقواعد السوق التنافسية وإعلان برنامج واسع للخصخصة من أبرز علامات هذا الإنعطاف . وكان الهدف من هذه الخطوة الإصلاح

وأهم ما يميز هذه الإجراءات أنها تقوم على تشجيع القطاع الخاص، وانسحاب الدولة بشكل تدريجى من تقديم مجموعة كبيرة من الخدمات كالصحة والتعليم وغيرها، بالإضافة إلى إلغاء الدعم . وهو الأمر الذى ترتب عليه تكاليف اجتماعية أضرت بما يسمى بالجماعات الأشد تعرضاً للمخاطر مثل " عمال القطاع العام والموظفين بالإدارات الحكومية من ذوى الدخول المحدودة والعاطلين عن العمل وعمال الزراعة وأصحاب المعاشات وغيرهم . "[١] ويعتبر قرار الموافقة على انضمام مصر لمنظمة التجارة العالمية (World Trade Organization) من أخطر القرارات الاقتصادية التى اتخذتها مصر فى منتصف التسعينيات من القرن الماضى وتكمن خطورة هذا القرار — كما يرى بعض المراقبين — فيما ينجم عنه من آثار سلبية تتعلق بدخول مصر من جديد فى إطار من التبعية بكل أشكالها : الاقتصادية والسياسية والثقافية، فمصر لا يمكنها التعامل تجارياً وحسب مع هذه المنظمة، وإنما تتفرع الآثار لتطول المقدرات الفكرية والحضارية للشعب المصرى كذلك.[٢] وفى هذه الحالة يتحكم الاقتصاد فى الثقافة بوسائل شتى. وتصير القوة الاقتصادية هى المحرك الأساسى الذى من خلاله يستطيع الطرف الأقوى ممارسة القهر الثقافى والحضارى على من هم دونه .

وتتزايد هذه المخاوف مع الدخول فى عصر العولمة بكل ما تعنيه من إندماج أسواق العالم فى حقول : التجارة والاستثمارات المباشرة وانتقال الأموال والقوى العاملة والثقافات ضمن إطار من رأسمالية حرية الأسواق . وبالتالى خضوع العالم لقوى السوق العالمية، مما يؤدى إلى اختراق الحدود القومية، وإلى الانحسار فى سيادة الدولة، وبالطبع فإن الوسيلة الأساسية فى هذه الظاهرة هى الشركات الرأسمالية الضخمة عابرة القوميات[٣] أو متعدية القوميات .

باعتباره هدفاً بدأت الدولة فى تحقيقه منذ الثمانينيات من القرن العشرين، نتيجة للضغوط الخارجية من قبل منظمات التمويل الدولية ... يراجع ذلك فى :

- التقرير الاستراتيجى العربى، القاهرة ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٩٢، ص ٥٥٣

١) رمزى زكى، التضخم والتكيف الهيكلى فى الدول النامية، القاهرة ، دار المستقبل العربى، ١٩٩٢، ص ١٧٩

٢) مصطفى عبد الغنى، الجات والتبعية الثقافية، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٩، ص ٤٤

٣) محمد الأطرش، العرب والعولمة : ما العمل، فى : أسامة الخولى (محرراً)، العرب والعولمة . بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التى نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٨، ص ٤١٢

وعلى الجانب الاجتماعي، يتسنى القول بأن التغير الذى شهده المجتمع فى هياكله القائمة خاصة الاقتصادية، كانت له آثاره الهامة فيما يخص هذا الجانب فنتيجة لإجراءات الخصخصة التى ترتب عليها تسريح أعداد كبيرة من العمالة، وتركز الثروة وملكية وسائل الانتاج فى يد القلة من الأفراد، احتدمت ظاهرة التفاوت الطبقى فى المجتمع وتفاقمت ظاهرة عدم العدالة الاجتماعية " وتردت أوضاع الفقراء، وتدنى إشباع الحاجات الأساسية لهم."(١)

وفى إطار العولمة، التى تسعى إلى إفراغ الهوية الجماعية والشخصية القومية من مضامينها تأتى ظاهرة الاندفاع الاستهلاكى الذى تنساق إليه الشخصية المصرية، وهى ظاهرة لا تقتصر آثارها على الناحية الاقتصادية، بل إن هناك بعداً سياسياً يكمن خلف هذا الاندفاع الاستهلاكى، فلو استطاع الآخر تغيير أسلوب حياة الأفراد ونمط معيشتهم اليومية يصبح من السهل عليه تغيير هؤلاء وإبعادهم عن مفاهيمهم الخاصة معطياً إياهم إحساساً بالدونية تجاه أنفسهم، وبالفوقية تجاه هذا الآخر، وهو الأمر الذى "يسلب الشخصية المصرية هويتها الحضارية ويجعلها مجرد مسخ لا أكثر ولا أقل."(٢)

ومع سياسات العولمة التى تسعى لربط الشعوب بعالم اللاوطن واللادولة واللا أمة تأتى مخاطر الهيمنة والاستسلام لعملية الاستتباع الحضارى التى تتطلبها تلك السياسات وهو الأمر الذى تكثر معه تحديات عدة يأتى فى مقدمتها " فقدان الشعور بالانتماء لوطن أو أمة أو دولة، وبالتالى إفراغ الهوية الثقافية من كل محتوى."(٣)

ويعنى ذلك استمرار كثير من السمات والقسمات التى ظهرت فى السبعينيات كغلبة القيمة المادية وفقدان قيمة العمل المنتج وتشيؤ العلاقات الإنسانية وتضاؤل الانتماء الوطنى .

---

١) أمانى قنديل، القطاع الخاص والسياسات العامة فى مصر، القاهرة، مركز البحوث والدراسات السياسية، مطبعة أطلس، ١٩٨٩، ص ٥٢

٢) نعمات فؤاد، أبعاد الشخصية المصرية والتغيرات الاجتماعية، فى : طلعت رضوان، أبعاد الشخصية المصرية بين الماضى والحاضر، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩، ص ٦٣

٣) محمد عابد الجابرى، العرب والعولمة . العولمة والهوية الثقافية، تقييم نقدى لممارسات العولمة فى المجال الثقافى، فى : أسامة الخولى (محرراً)، العرب والعولمة، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٨، ص ٣٠٠٣

ويمكن رد كثير من الأزمات التى تسم الشخصية المصرية لطبيعة المتغيرات التى تحاصرها، فالمصرى فى هذه الفترة، عاش وهو يحمل بين جوانحه شخصية ذات ثقافتين متباعدتين، بل ومتناقضتين أيضاً : الأولى ثقافته الأم، وهى ثقافة تراثية مفعمة بالمواطنة الأصيلة وحاملة فى ثناياها معانى الولاء والانتماء بكل مستوياته الشخصية والاجتماعية . أما الأخرى، فهى ثقافة تغريبية عولمية تسلبه الأولى، وتدفعه فى اتجاه عصرنة فردية كوكبية مصطنعة، وبين هذه وتلك يقف الإنسان المصرى، بل الإنسان العربى على إطلاقه عاجزاً عن الوصل بين ماضيه التراثى وبين عصرنة الآخر المغتربة عنه " فيصبح شأنه شأن غيره فى دول الجنوب الفقير، منفصماً عن ذاته، مغترباً فى ثقافته، لا يعرف كيف يواجه تجليات العولمة وإشكاليات الخصوصية ، فيعيش فى عالم من الوهم ونسق من الخيال يصنعه لذاته إما هرباً من واقعه، أو عجزاً عن الفكاك منه . "(١)

هذا الموقف جعل الشخصية المصرية تتأرجح فى تعاملها مع الآخر ما بين الرفض والقبول خاصة وأنها لا تستطيع التعايش الحر المتكافئ معه، وهو الأمر الذى عمق من إزدواجية الصورة التى تحملها عنه . فهى صورة تختلف باختلاف المواقف التى تتخذها منه . "لقد كانت هذه الفترة مُحمَلة بكثير من الأحداث المعادية للأمة العربية والمواقف العنصرية ضد العرب فى فلسطين والعراق وغيرهما من المناطق المسلمة فى العالم ، وهو ما ولّد مشاعر عدائية ضد هذا الآخر . وظهرت اتجاهات عبرت عنها عناصر وفئات ثقافية وسياسية، وبخاصة فى صفوف الإسلاميين والقوميين، أكدت على مقولات العداء والمواجهة بين العالم الإسلامى – وفى قلبه الوطن العربى – من جهة، والغرب من جهة أخرى، كما أكدت هذه الاتجاهات على وجود مؤامرة غربية تتزعمها الولايات المتحدة الأمريكية تستهدف تحطيم هوية العرب والمسلمين الثقافية والحضارية وتشويه عقيدتهم الدينية، بالإضافة للسيطرة المادية على مواردهم ومقدراتهم . واستمرت هذه الاتجاهات بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، وبخاصة مع تصاعد الحملات المضادة للعرب والمسلمين . "(٢)

---

١) أحمد مجدى حجازى، العولمة وتهميش الثقافة الوطنية . رؤية نقدية من العالم الثالث، مجلة عالم الفكر، المجلد الثامن والعشرون، العدد الثانى، الكويت، مطابع السياسة، ١٩٩٩، ص ١٢٤

٢) حسين توفيق إبراهيم، تحليل ردود الأفعال العربية تجاه أحداث ١١ سبتمبر وتداعياتها، فى : أحمد يوسف أحمد وممدوح عزه (محرران)، صناعة الكراهية فى العلاقات العربية – الأمريكية، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٣، ص ص ٣٢٧ – ٣٢٨ .

ومع ذلك فلم تكن صورة الرفض المطلق هى الصورة المتصدرة لهذه الفترة، بل ظهرت صورة أخرى ترى فى الغرب نقيضاً لا يمكن الاستغناء عنه . وتُبنى هذه الصورة على ضرورة الحوار بين الشخصية المصرية والآخر فى ظل عالم لم يعد الانغلاق فيه أو التقوقع الذاتى غير ضرب من ضروب الوهم الزائف . ومن هنا ظهرت صورة للآخر الغربى تحكمها رؤية نقدية للذات أولاً . وتبدو أهمية هذه الرؤية فى كونها لا تكشف عن الآخر الخارجى الذى غالباً ما يبلور عيوبنا ويتهددنا " وإنما أيضاً عن الآخر الكامن فى دخيلتنا، ولكننا نتغافل عنه ونتناساه بسهولة تحقيقاً لما نتوهم أنه هويتنا الحقيقية ومبدأ وجودنا الثابت والأبدى ."[١]

ثانياً : الشخصية المصرية وصورة الآخر كما ظهرت فى الأعمال الروائية :

ويتعامل هذا الفصل مع ثلاثة نصوص روائية هى بالترتيب : نيويورك ٨٠ ليوسف إدريس ، والحب فى المنفى لبهاء طاهر ، و أمريكانللى لصنع الله إبراهيم . وفيما يلى تحليل لكل من هذه النصوص على حدة وذلك بنفس الكيفية التى تم بها تحليل الأعمال الروائية السابقة، مستخدمة نفس المحاور : توصيف الرواية ودلالتها العامة، وصورة الشخصية المصرية وصورة الآخر الغربى.

١. : نيويورك ٨٠ : الصورة / التحدى :-

أ - توصيف الرواية ودلالتها العامة :

يتمثل الحدث الروائى الأساسى فى المواجهة المباشرة التى تحدث بين رجل مصرى شرقى مع سيدة أمريكية، فى إحدى المحلات العامة "بار" بمدينة نيويورك، تعمل هذه السيدة " بالبغاء "، ولا ترى فى ذلك شيئاً يعيبها، أو من الممكن أن تخجل منه، بل على العكس من ذلك، إنها تفخر بممارستها هذه المهنة، وتعلنها جزءاً من هويتها "..أنا (Call Girl) اتعرف معنى هذا ؟..أنا ممن يسمونهم " المومسات" ..." [٢]

يدهش " البطل " من هذه الصراحة، التى تعرى حقيقة الأشياء والمسميات، دون أدنى مواربة، ويسائل نفسه " مومس ؟ ! .. لماذا يسمى كل شئ هنا باسمه تماماً وعلى حقيقته ؟ ألا يخجلون ؟ .. على أية حال نحن أكثر أدباً ..." [٣]

---

١) محمد على الكردى، حوار الأنا والآخر فى عصر العولمة فى : هوية مصر الثقافية، بحوث المؤتمر العلمى السنوى لكلية دار العلوم، جامعة المنيا من ١٩ – ٢٠ نوفمبر، ٢٠٠٠ ص ٣٦

٢) يوسف إدريس ، نيويورك ٨٠ ، مرجع سابق، ص ١

٣) الرواية ، ص ٦

يتطور الحدث الروائى شيئاً فشيئاً، من خلال الحوار الجدلى ما بين البطل وهذه السيدة، بطريقة يتصاعد فيها الصراع بينهما إلى ذروته، فالسيدة واسمها " باميلا جراهام " تعمل طبيبة ومعالجة نفسية، وعلى قدر عال من الجمال والثقافة والذكاء، ومع ذلك تمارس البغاء بكامل إرادتها، وهذا ما يجعل " البطل " يقع فى حيرة من أمر هذه السيدة المتناقضة ؛ فهو منذ بداية لقائه معها ينفر منها معلناً كراهيته واحتقاره لها " أنا أحتقر تماماً نوعك .. " [1] وترى هى فى احتقاره لها خوفاً وعجزاً من جانبه " أنت لازلت طفلاً عاطفياً ونفسياً . " [2] ولا تيأس فى محاولتها معه، بل تحاوره محاولة أن تخترق تصوراته الرومانسية والأخلاقية عن طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة . وهو الشئ الذى تفشل فيه، فتطارده فى غرفته بالفندق، وهذا ما يجعله يشك فى أمرها فربما كانت تتجسس عليه، وبالرغم من سيطرة هذا الهاجس عليه، إلا أنه يتأكد من براءتها من هذا الاتهام، وإن كانت بالفعل متهمة أمامه أخلاقيا . وفى غرفته تعرض عليه أن تدفع له بدلاً من أن يدفع هو لها ." أفلت الزمام تماماً على الأقل من يده، أما هى فقد انهار الزمام وهوت بركبتيها على الأرض تحيط خصره بيدها .. تتكلم حالمة قائلة..حسناً ! لقد سحقتنى تماماً وأنسيتنى عملى، وأنا التى سأدفع . كم تأخذ ؟ " [3]

ويتمكن "البطل" من الإفلات من قبضتها، ويهبطان مرة أخرى للكافيتيريا ليستكملا حوارهما، كل يقدم رأيه وفكرته مدعماً إياها بمنطقه الخاص الذى يراه الحق والفضيلة . ويظل كل منهما على موقفه : هو الرجل الشرقى صاحب القيم الروحية والأخلاقية الشفافة، وهى المرأة الأمريكية الماجنة فى صورة مستحدثة، تستفيد فيها من إمكانات حداثة حضارتها ومطوعة إياها لخدمة أهدافها، وهكذا تنتهى الرواية بالرفض المطلق لها من جانب البطل، ولحضارتها التى تحيل الإنسان لمجرد سلعة تباع وتشترى . ولا تجد هى سوى الانهيار، وهى تجمع أشياءها متجهة لخارج المكان وهى تصرخ " أنا نظيفة جداً لأنى قذرة جداً جداً، أنا أنظف قذرة.. أنظف منكم كلكم.." [4]

---

(١) الرواية ، ص ٨
(٢) الرواية ، ص ٢٥
(٣) الرواية ، ص ٤٩
(٤) الرواية ، ص ص ٧٣ ـ ٧٤

أما الإطار الزمنى للرواية، فالبرغم من عدم وجود تحديد قاطع للزمن فى الرواية، فإن عنوان الرواية الصريح، يجعل من فترة الثمانينيات من القرن العشرين فضاءاً زمنياً تتحرك داخله الشخصيات والأحداث .

ويتمثل الإطار المكانى فى " نيويورك ٨٠ " وكما هو واضح من العنوان : فى مدينة نيويورك، أشهر المدن الأمريكية، والمعبرة عن حضارتها الغربية المادية . فالمدينة جزء من كل، لذلك تأتى بكل رموزها : " المومس — البنايات الشاهقة - ماديتها " للتعبير عن الكل متمثلاً فى الحضارة الأمريكية بكل ما ترمز له من إنهيار قيمى وفساد أخلاقى . وتحديد المكان بهذه الصورة هو تحديد، بالدرجة الأولى للحضارة المتضمنة فيه . وهذا لا يعنى هيمنة نيويورك / المكان بصورة أساسية على الرواية، فبين الحين والآخر، كان يظهر فضاء مكانى مغاير تماماً، وهو الفضاء المكانى للبطل الشرقى . بالإضافة لهذا الفضاء العام، يوجد فضاءين أقل حجماً واتساعاً هما : فضاء البار وغرفة البطل ." معنى ذلك أن الفضاء المكانى يتخذ حيزاً صغيراً وذلك للدلالة على إبراز الخصومة بين الذات والآخر فى فضائه، أو أن هذا الضيق يستخدم ليوسع على الذات فرصة الإنكفاء على نفسها، لا سيما وأن الوطن قد لاحق البطل وهو فى فضاء الآخر الأوروبى . "[١]

ب - صورة الشخصية المصرية كما ظهرت فى نيويورك ٨٠ :

ولم يهتم الكاتب بإبراز صورة الشخصية المصرية، بنفس القدر الذى يمنحه لإبراز صورة الآخر، ولهذا السبب فإننا نجد صورة هذه الشخصية تظهر على استحياء فى جنبات الرواية . إن النقد الذاتى الذى يوجهه الكاتب للمجتمع المصرى والعربى على السواء كان طفيفاً للغاية، بينما زادت النظرة النقدية للمجتمع الغربى، وللشخصية الغربية، وربما كان مرد ذلك أن الكاتب أراد أن " يضع ذاته الفردية الشامخة — وليس الذات (القومية) أمام انحلال الذات الغربية . وربما كانت هذه النظرة المتغيرة راجعة أيضاً إلى (تراكمات) هزيمة ١٩٦٧ وما أحدثته من تغيرات فى نظرتنا لأنفسنا وفى نظرتنا للآخر الغربى أيضاً "[٢]

---

(١) محمد نجيب التلاوى ، مرجع سابق، ص ١٥٩

(٢) شاكر عبد الحميد، صورة الذات وصورة الآخر من خلال بعض أعمال يوسف إدريس الروائية، فى : أحمد زايد . سامية الخشاب (محرران)، الذات والمجتمع فى مصر، أعمال الندوة السنوية الثالثة لقسم علم الاجتماع من (١١ - ١٢) مايو أجامعة عين شمس أ كلية الآداب أ ١٩٩٧، ص ٣٢٣ .

بناءً على ما تقدم، توجد صورة للشخصية القومية المصرية فى بعدين : صورة البطل، وخصائص الشخصية القومية المصرية

الصورة الأولى : صورة البطل :

و" البطل "، هو الشخصية التى يتوارى وراءها الكاتب نفسه، ففى كثير من المواقف، نلمح عدداً من التشابهات بينهما، فكلاهما كاتب، وكلاهما طبيب، مثقف . أما عن " البطل " فهو شخصية متزنة، جادة، لديه من النضج الفكرى والانسانى ما يمكنه من تحديد هويته بدقة فى مقابل الآخر الذى تمثله " باميلا جراهام " "المومس " كما أن هذا النضج يمنحه القدرة على إجراء حوار يتسم بالعقلانية الشديدة وقوة الحجة، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى انسحاب المومس بعدما فشلت فى إغرائه وإقناعه بالتنازل عن فكرته التى يحملها عنها وعن حضارتها التى تجمع بين متناقضات عديدة .

الصورة الثانية : صورة الشخصية القومية المصرية :

وتظهر فى " نيويورك ٨٠ " صورة الشخصية القومية المصرية من خلال لمحات بسيطة يشير إليها البطل فى بعض مواقف من الرواية ككل . وهو فى طرحه لهذه الصورة، إنما يؤكد على العوامل التى تعوق هذه الشخصية من النمو والتطور، ففى مواجهته مع السيدة الأمريكية يطالب نفسه بالهجوم بدلاً من أخذه دور المدافع الضعيف عن نفسه، وتلك حكمة تعلمها من المجتمع الغربى ذاته عكس مجتمعه، الذى يقتل فيه كل إمكانية لتحقيق ذاته، فهاهم المصريون والعرب عموماً لا يسمح لهم بناء المجتمع إلا بالخوف والاستكانة " أدبنا الزائد ومعاملتنا الدمثة اكتسبناها من كثرة ما تحدثنا بصوت خافت جداً لا نسمعه حتى لا يسمعه طغاتنا " [١]

كما تعرض الرواية فى صورة رمزية بالغة الدلالة والتعقيد، لبعض الأوضاع البالية التى تحد من قدرة هذه الشخصية على الانطلاق والصعود . وهى عوامل مجتمعية بالدرجة الأولى، أى أن أوضاع المجتمع وسياساته الضاغطة على هذه الشخصية، تشكل محوراً هاماً فى أسباب تخلفها، فالجموع الشعبية البسيطة كالحشائش التى تنمو " هلعاً ورعباً وخوفاً من الأشجار العالية المنقبة الباسقة . "[٢]

---

(١) الرواية ، ص ص ٢٦ - ٢٧
(٢) الرواية ، ص ٣٨

وهذه الجموع إذا حاولت التغلب على تلك الأوضاع، وواتتها الجرأة لتحقيق ذاتها كان الفشل هو طريقها المحتوم، فهى " تتسلل متخفية تحت الأرض، وإذا واتتها نوبة جرأة عاتية وتغلبت على خجلها وترددها تظل مرتعشة من الحشرات والديدان وأبو قردان، وإذا كبرت حصدها الموت المبكر أو حفر قناة السويس أو حرب يساقون إليها بلا محاولة واحدة لشرح كنهها أو أحياناً بمجرد الجرى وراء الأتوبيس .. " (٣)

وإذا قمنا بمحاولة لقراءة هذه الفقرة قراءة تحليلية وجدنا الآتى :

إن عوامل القهر تجعل جموع الشعب أشبه (بالحشائش الصغيرة الضعيفة) التى تسحق بواسطة الجماعات المسيطرة (اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً وثقافياً) والتى تشبه فى سطوتها وهيمنتها الأشجار العالية، حتى وإن استطاعت هذه الجموع الصمود والتحدى فهناك من الأخطار الداهمة الكثير مما يعترضها، فهناك الموت المبكر الذى يعود لتخلف الأوضاع الصحية المتردية، وهناك الحروب الكثيرة التى دخلتها هذه الجموع دون معرفة حقيقية بدوافع هذه الحروب، بل إنها تساق لها كما تساق الإبل، وإن لم يهلكها هذا أو ذاك، فيكفى لسحقها مصاعب الحياة اليومية التى تحياها هذه الجموع بدءاً من صراعها للحقاق بالأتوبيس !

جـ صورة الآخر كما ظهرت فى نيويورك ٨٠ : - الرفض المطلق للحضارة الغربية فى ثوبها الأمريكى :

تبدو صورة الرفض لكل ما يرمز إليه الآخر الغربى، وحضارته المتشيئة، هى الصورة الأساسية للآخر فى " نيويورك ٨٠ " وهى صورة تشيع بكل مفرداتها عبر النص الروائى ككل . بل إنها كذلك تكاد تطغى على صورة الذات، التى تظهر على استحياء فى بعض المواقف التى يستدعيها البطل لنفسه.

وتتضح قمة النفور من هذا الآخر، فى اختيار شخصية الآخر لتعبر عن " مومس " أو بغى . ففى استدعائه لصفات هذه البغى وشخصيتها، إنما يستدعى حضارتها ككل، بل إن تناقضات هذه الشخصية، ما هى إلا تناقضات الحضارة الغربية الحديثة نفسها، التى تنادى بقيم ومبادئ وتأتى بعكسها تماماً .

كما أن اختيار المكان " نيويورك " جاء ليؤكد هذا التصور، ويستجلى معالمه فـ" نيويورك " المدينة الأمريكية هى رمز لهذه الدولة الكبرى، التى تسيطر على عالم

---

(٣) الرواية ، ص ٣٩

اليوم، مدعية أنها عالم الحرية، المنادى بتحقيق الديموقراطية والسلام والمساواة بين جميع البشر، وهى فى جوهرها تقوم على العنصرية، خاصة فى تعاملها مع العالم الثالث وبلدانه النامية.

وتبدو صورة الرفض للآخر من خلال عدة محاور : إبراز التقاطبات بين عالم الشخصية المصرية وعالم الآخر، ونقد الآخر والهجوم عليه، أخيراً تجنيس العلاقة فى النظرة للآخر .

المحور الأول : التقاطبات بين الشخصية المصرية والآخر : -

يطرح " البطل " منذ البداية المفارقة بين عالم " النحن " وعالم " الهُم " بشكل واضح فعبر المونولوج الداخلى الذي يقيمه مع نفسه، تبرز هذه المفارقة، خاصة فى استخدامه للضمائر التى تشير لذلك " لماذا يسمى كل شئ هنا باسمه تماماً وعلى حقيقته ؟ ألا يخجلوا على أية حال نحن أكثر أدباً ... " [1] . وهو فى ذلك يضع تقاطباً بين عالم الذات وعالم الآخر إلى الحد الذى يجعله يصف هذا الآخر بكونه " عدواً " "فالمسألة عندى مسألة مبدأ وأنت وأمثالك أعتبرهن أعداء .. " [2] من هنا فإن العداء هو الصيغة التى يقبلها البطل كقناة من قنوات التعامل مع الآخر، إما إمكانية التلاقى والحوار فأمر مرفوض من جانبه " لست زبونك إذن، ولن أكون فإما أن تغادرى المكان، وإما أن تبحثى لك عن زبون ... " [3]

والملاحظ هنا فى رواية "نيويورك ٨٠" أن البطل يتحدث مع البغى، من موقع القوة، فهو يهاجمها ولا يهادنها، بل يصب جام غضبه عليها وعلى حضارتها فى شكل منطقى، وبأسلوب عقلانى، وهذا ما لم يظهر فى الروايات السابقة وتنحصر أهم التقاطبات بين الطرفين فى :

. تبعية الشخصية المصرية فى مقابل الاستقلال الشخصى للآخر الغربى : يعتبر كل من التبعية والاستقلال الذاتى نظاما قيم وتشكل اجتماعى، وفى حين ترتكز التبعية إلى الخضوع والطاعة وتنهض على أخلاقية السلطة، يقوم الاستقلال الذاتى

---

١) الرواية ، ص ٦
٢) الرواية ، ص ٨
٣) الرواية ، ص ٩

على الاحترام المتبادل والعدالة، ويعتمد على أخلاقية الحرية[1] ويشير النص للفارق بين هذين المفهومين من خلال المقارنة بين المجتمع العربى والمجتمع الغربى ، ودور كل منهما فى خلق شخصية : إما تتمتع بالاستقلالية أو تعانى من التبعية. ففى حين يطرح المجتمع الغربى أمام البشر الخيارات والفرص التى من خلالها تبنى شخصيته مستقلة وقوية، ومعتمدة على ذاتها، نجد عكس ذلك فى المجتمع العربى، الذى يخضع فيه البشر للموروثات والتقاليد التى تجعلهم دائماً متشبسين بها كمرجعية لسلوكياتهم، وهو ما يحد من قدرة هؤلاء على الانطلاق من إسار التبعية لكل ما يحمله ميراث المجتمع ، وفى ذلك تخاطبه السيدة الأمريكية " أنت إنسان أمك وأبيك وعائلتك ومجتمعك وتوقف نموك العاطفى والوجودى." [2] وقد نجد صدى لهذه النظرة للشخصية المصرية والعربية عموماً فى بعض التحليلات الخاصة بالعائلة الأبوية فى المجتمع العربى ؛ فالفرد يضيع فى العائلة التى يهيمن عليها الأب والمجتمع القائم على الأبوية المستحدثة ، وتكاتف هذين الطرفين يمنع إمكانية تحقيق الذات ؛ فالكثير من الوسائل التربوية التقليدية لا تساعد الفرد لأن يقارع ويناقش بقدر ما تنمى فيه الالتواء والازدواجية والاعتماد على الكبير (الأب ، الأخ الأكبر ، الرئيس). من هذا المنطلق لا تؤثر عملية التنشئة الاجتماعية فى تربية الفرد. فى المجتمع العربى. بل تؤثر كذلك فى مقدرته الداخلية على الوعى ، وتصوغ فهمه لنفسه وللآخرين .[3]

. علاقة الشك بين الغرب الاستعمارى والشرق المستعمر :

لم يكن استعمار الغرب لمجتمعات العالم الثالث ومن بينها مصر قاصراً على نهب الموارد المادية المتعلقة بهذه الشعوب ، لكنه طال نفسية شعوبها وولد لديها العديد من عقد النقص التى ظلت سمة ملازمة لها حتى بعد حصولها على الاستقلال بحيث رمز التقدم لكل ما هو غربى ، ونعت بالتخلف كل ما يتعلق بهذه الشعوب . ويرصد

---

١) هشام شرابى، النظام الأبوى وإشكالية تخلف المجتمع العربى ط٢، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٣ ، ص ٦٢ .
٢) الرواية ، ص ٢٦
٣) هشام شرابى ، النظام الأبوى وإشكالية تخلف المجتمع العربى ، مرجع سابق ، ص ص ٦٠ ـ ٦١ .

البطل فى نوع من التهكم هذه الظاهرة قائلاً : " فعلاً ... إنسان قادم من العالم الثالث بكل هواجسه ووساوسه وله كل الحق، تجاه عالم أول متقدم . " (١)

كما يتضح الشك فى سلوك البطل تجاه البطلة، فهو لم يصرح لها باسمه بالرغم من إلحاحها عليه لمعرفة اسمه، كذلك لم يصرح لها باسم بلده أو عمله " لن أقول لك أبداً من أنا وماذا أعمل.. " (٢) كما أنه يتوجس منها خيفة فقد تكون جاسوسة عليه من المخابرات، بالرغم من أنه رأى بطاقتها الشخصية باسمها وصورتها وعملها كطبيبة ومعالجة نفسية " هم بأن يقول : أى مخابرات زورت لك هذه البطاقة، ذلك التزوير المتقن ولكنه آثر أن يمثل وكأن اللعبة قد انطلت عليه.." (٣)

ويتضح هذا الشك أيضاً عند البطلة هى الأخرى . وهى فى ذلك تقرر " مشكلتك ومشكلتى معك أننا لا نتحدث نفس اللغة .. " (٤) وهى هنا لا تقصد اختلاف اللغة، وإنما اختلاف المفاهيم الحضارية التى تجعل كلاً منهما يتوجس خيفة من الآخر فى أمور كثيرة .وتعكس الرواية اختلاف النظرة للحياة وللعالم عند كلا الطرفين : - فمفهوم كل منهما عن التطور يختلف باختلاف مرجعيتهما الثقافية والأخلاقية، ففى حين يعنى التطور عنده، السمو والرقى الذى يعلو بالإنسان فوق حيوانيته، فإن التطور عندها والأرقى هو " الأكثر نقوداً بأقل جهد . " (٥) أما الحرية من وجهة نظرها، فتحدد بالتحرر من كل شئ فهى تعلن للبطل "حريتى أن أبيع نفسى" (٦) وهو ما يمقته البطل الذى يقرر " هذه الدعوات الزاعقة إلى الحرية الشخصية للرجل والمرأة ليست غريبة عليه منذ الـ ٦٠ ... لكن إطلاق الحريات الشخصية إلى نهايتها شئ وقبض أثمان للحرية شئ آخر .. " (٧)

و تختلف النظرة الغربية عن النظرة الشرقية فى نوعية الحياة والطموح الذى يحب كل منهما أن يعيشه . ففى حين تسعى الشخصية الشرقية للكد والتعب

---

١) الرواية ،ص ٣٨
٢) الرواية ، ص ٢٦
٣) الرواية ، ص ٤٢
٤) الرواية ، ص ٤٢
٥) الرواية ، ص ٦٢
٦) الرواية ، ص ٦٢
٧) الرواية ، ص ٥٧

من أجل تحقيق المطالب الأساسية للحياة من : مأكل ومشرب وملبس وتعليم ... إلى غير ذلك، فإن الأمر يختلف عند نظيرتها الغربية التى تسعى للحصول على كماليات الحياة والوصول إلى درجة عالية من الرفاهية، فعندما يستنكر عملها، لأنها كما يبدو من مظهرها لا تتضور جوعاً، بل ترتدى خاتماً يعول عائلته فى بلاده لثلاثة أعوام – على حد قوله – تبادره قائلة " جوعكم هو أبسط أنواع الجوع، جوع الحيوان إلى الطعام، ولكن جوعى هو جوع الإنسان إلى حياة الإنسان . جوع الحياة بمتعة، والحياة لمجرد البقاء هى حياة حيوانات متخلفة . إنى جوعى للسفر والرحلة والحياة اللذيذة . الفرق أنكم حيوانات جوعى، بينما جوعى أنا وجوع غيرى هنا هو جوع الإنسان، أبشع أنواع الجوع، لإنه ليس جوع معدات، إنه جوع مراكز عليا وخيالات وأحلام.. " [١]

ـ مادية الشخصية الغربية فى مقابل روحانية الشخصية المصرية :

تشيع فى رواية " نيويورك ٨٠ " الروح المادية التى تطغى على شكل ونمط الحياة والحضارة الغربية بشكل مكثف، للغاية، وهذا ما يمكن استجلاؤه بسهولة، فمادية الغرب فى مقابل روحانية الشرق، تعتبر من الثوابت الحضارية لدى كلا الطرفين، مما يعنى أن لهما بعداً تاريخياً وثقافياً وحضارياً . لهذا فالبطل والمومس كل منهما يسوق نظرته للعالم وللأشياء متأثرا فى ذلك بهذه الثنائية : مادية الغرب # روحانية الشرق . والرواية فى ذلك تعرض لهذه المادية بشكل مقزز ومنفر أيضاً، ففى ظل جرأة " المومس " فكراً و سلوكاً يتخيل البطل " أنها تعرض لحمها الحى فى فاترينة " ديب فريزر " فى سوبر ماركت حديث، ولحمها ملفوف فى ورق نايلون، ومقطعاً قطعاً، الساعة بمائة دولار، والليلة بثلاثمائة وهكذا " [٢] ...

وتوضح الفقرة السابقة، طبيعة الحياة الغربية الحديثة التى تجعل كل شئ خاضع للعرض والطلب، حتى الإنسان الحى، الذى يمكن توفره فى السوبر ماركت ولفه بالنيلون للجذب والغواية تماماً كأى سلعة أخرى، فها هو بريق الحضارة الغربية الزائف القائم على تسليع الإنسان مقابل الحصول على المال . وليست هذه صورة نمطية يرسمها البطل الشرقى، فالسيدة الأمريكية بنفسها تعترف " النقود أصبحت

---

١) الرواية ،ص ٦٨
٢) الرواية ، ص ٢٥

هـى الـولاء الأعظـم وحياة الـترف حلـم أى امـرأة مـسحوقة هنـا فـى نيويـورك وأى رجـل حتـى ولـو كـان الكرسـى الكهربـائى فـى نهايتهـا .. " [١] وهـذا مـا يجعـل البطـل يقـرر " انتهـت عنـدكم القيمـة تمامـاً فـى نيويـورك حتـى لـم يبـق إلا الـدولار قيمـة، والمتعـة الأنانيـة الذاتيـة هـى الهـدف ..." [٢] ولا يحتـاج الأمـر للتأكيـد مـرة أخـرى علـى الطـابع المتشىء للحياة الغربية الذى تعرضه الرواية .

إن هذه الصورة التى تقدمها نيويورك ٨٠ تتفق مع ما يعرضه " إيريك فروم " عن التأثيرات المختلفة للرأسمالية المعاصرة على بناء الشخصية الإنسانية ، فهـو يـرى أن الإنسـان فـى المجتمـع المعاصـر قـد تحـول إلى سـلعة قابلـة للاسـتخدام ، وأصبحـت علاقته برفاقه هى علاقة يمكن أن توصف بأنها ذات اتجاه سوقى ؛ فالإنسـان لا يعيـش ذاته كفاعل إيجابى وكحامل للقوى الإنسانية ؛ إنه مغترب عن هـذه القـوى ؛ فهدفـه أن يبيع نفسه بطريقة رابحة فى السوق . لقد أصبح جسد الإنسـان وعقلـه وروحـه هـى رأسماله الوحيد فى ظل الرأسمالية المعاصرة الذى يجب أن يستثمره بنجـاح مـن أجـل تحقيق كسباً لذاته وتفوقاً بين رفاقه، لذا يرى " فروم " أن الإنسـان المعاصـر قـد انحـدر إلى مستوى الشىء واغترب عن طبيعته الإنسانية.[٣]

دافـع البطـل عـن البعـد الروحـى الشـرقى ضـد الماديـة الأوروبيـة الغربيـة دفاعـاً قويـاً، واعتمـد فـى دفاعـه علـى القناعـة العاطفيـة الغـائرة فـى تكوينـه، كمـا اعتمـد كـذلك علـى " الأسـباب العقليـة الاسـتدلالية ليتفـوق علـى محاورتـه الماديـة " مـومس نيويورك " .. وبلغ نجاحه حد اقتناع محاورته وفشـل كـل محاولاتهـا، علـى الـرغم مـن جمالها الفاتن الذى دعته إليه، وعلى الرغم من ثقافتها الواسعة، إلا أن المحاور الشرقى جعلها تترك المكان فى عصبية وهى تهذى ... بسبب عجز مقاومتهـا لقناعـة الشـرقى بروحانيات الشرق، وسمو عاطفة الحب عنده التى لا تباع ولا تشترى بالطريقة الغربية المادية، التى تحسب اللـذة الحسية والكسب المالى كأبرز وسائل لتقييم نجاح علاقـة رجل بامرأة .. " [٤]

---

١) الرواية ، ص ٤٧
٢) الرواية ، ص ٥٥
٣) حسن محمد حسن، الاغتراب عند إيريك فروم، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والنوزيع، ١٩٩٥، ص ١١٩ .
٤) محمد نجيب التلاوى، مرجع سابق، ص ١٠١

المحور الثانى : نقد الآخر والهجوم عليه :

ويتم هذا النقد من خلال رصد بعض الظواهر التى ينطوى عليها المجتمع الغربى الأمريكى وتشمل هذه الظواهر :

- تشيوء العلاقات الإنسانية - عنصرية المجتمع الغربى
- طبيعة علاقة الرجل بالمرأة - تناقضات المجتمع الغربى ذاته

.وعن تشيوء العلاقات الإنسانية فى المجتمع الغربى يمكن القول : إنه فى مجتمع تحكمه قيمة التبادل ، فإن القيمة الداخلية للأشياء وقيمتها الاستعمالية تتجه إلى أن تطمس فى نظر الأفراد . وفى ظل هذا الوضع تتجه الأشياء إلى اتخاذ " طبيعة ثانية " مستقلة عن العمل الإنسانى والمتطلبات المادية للأفراد . هذه الطبيعة الثانية هى القيمة التجارية أو الكمية التى تقابل قيمتها الكيفية . وهنا لاتتوقف قيمة هذه الأشياء على صفتها الداخلية ، ولا على الاحتياجات الملموسة التى من المفترض أن تشبعها ، ولكن على القوانين الخفية للعرض والطلب وعموماً فإن سيطرة قوانين السوق على الحياة اليومية تؤدى إلى تحول العمل الإنسانى والفرد نفسه إلى موضوع تبادل أى تحوله إلى شىء .[1] – هذا المعنى لما يقصد بالتشيوء هو ما ترصده الرواية ؛ ففى عالم تحكمه قيم الدولار، والمنطق البراجماتى والنفعى الخاص، يتحول الإنسان إلى شئ، إلى سلعة، تحكمه نفس قوانين الشراء والبيع " نحن أمام الإنسان الذى حوله عالمكم الذى يسمونه للأسف الأول، إلى بضاعة، إلى ترس إلى سلعة إلى جزء من آلة إنتاج واستهلاك كبرى اسمها المجتمع . "[2]

ـ أما عن العلاقة المادية البحتة بين الرجل والمرأة فى هذه الحضارة : فنرى البطل يتعجب من طبيعة هذه العلاقة التى تقوم على أسس مادية بحتة ، وذلك بالرغم من الزعم المتواصل بتحضر المجتمع الغربى، وهذا ما يجعله يتساءل " كيف يقبل رجل يعيش فى أرقى بلاد العالم فى النصف الثانى من القرن العشرين، أن يحصل على امرأة، بصرف النظر عن أى إحساس آخر لديها، مقابل بضعة دولارات ينقدها إياها ثمناً لأنها قبلت أن تتعرى له من داخلها وخارجها . "[3]

---

١) بيير زيما، مرجع سابق، ص ص ٣٥ ـ ٣٦ .
٢) الرواية، ص ٦٤
٣) الرواية، ص ٣٠

.أما عنصرية المجتمع الغربى، فيشير لها البطل عبر حديثه مع السيدة الأمريكية " تريدين أن تزاولى طريقتكم المحببة : الهجوم والاتهام لأقف أنا موقف المدافع قليل الحيلة"[1]
ولا شك أن الواقع يشير لسياسات الولايات المتحدة الأمريكية العنصرية، وأشدها وضوحاً حربها ضد العراق، وتهديدها لكل من سوريا وإيران .
.وعن تناقضات المجتمع الغربى، يذكر البطل " إنى لمشمئز من حضارة تصعد بسمو علمها إلى القمر، ولازالت تنحط بجسدها إلى مدارك الرقيق الأبيض والأسود . "[2]
وهو ينتقد أيضاً مظاهر الحداثة التى تقزم قامة الإنسان الغربى، فها هى مدينة نيويورك رمز لهذا التناقض " نيويورك مدينة تعدت مرحلة الأساطير، ناطحات سحاباتها ترعب يسمونها الغابة المتوحشة الحديثة، والمرعب فيها أن الإنسان ضئيل ضئيل، والأجهزة قوية ومخيفة، والغنى فاحش، والفقر أيضاً فاحش ... "[3]
المحور الثالث : تجنيس العلاقة فى النظرة للآخر : -
ويستمر "يوسف إدريس" فى اتخاذه المرأة وسيطاً من وسائط العلاقة بين الشخصية العربية / المصرية والآخر الغربى، مع اختلاف الرؤية والشكل الذى يقدما به، فهو يرى الحضارة الغربية باعتبارها " مومساً " برغم ما تدعيه لنفسها من عزة وكبرياء . فحضارة الغرب هى " باميلا جراهام " المتناقضة فى شخصيتها تماماً مثل حضارتها . اختار بطلته " أنثى – جميلة – مثقفة " وهو بذلك يسقط عليها صفات حضارتها . ومع ذلك فهو يترفع عليها، ليضفى عليها طابع الضعف، حتى وإن بدا مظهرها مظهر القوة والسيطرة، فيكفى فى النهاية أنها " أنثى " .

وهذا ما جعله، يظهر بطله بصورة الرجل المثالى صاحب الأخلاقيات والقيم العليا، التى لا يقبل التنازل عنها مطلقاً، أما هى فتبادر بالجلوس جواره دون سابق معرفة، أى أنها صاحبة المبادرة " وقد لاحظت أنك حين جئت فتشت المكان بناظريك، ورغم خلو معظم المقاعد اخترت الكنبة التى أجلس على طرف منها، لتجلسى على الطرف الآخر ... "[4]

---

١) الرواية، ص ٢٥
٢) الرواية، ص ٣٠
٣) الرواية، ص ٤٦
٤) الرواية، ص ٧

ويعرض إدريس للمرأة بوصفها الأداة التى يستخدمها الغرب لغواية الرجل الشرقى عموماً، وذلك للاعتقادالسائد عن الرجل الشرقى وضعفه تجاه المرأة الغربية، وهو الأمر الذى يحاول البطل إثبات عدم صحته عبر الرواية ككل . فهو يقول فى الغربيين " فهم بارعون حقاً، يعرفون أن نصف عقل الرجل الشرقى يطير لمجرد أن هذه امرأة، وأن النصف الآخر من السهل إلغاؤه إذا داعبت، حتى بإصبعها الخنصر جلده..." (١)

و عبر هذا الحديث نلمح الصورة النمطية للمرأة الغربية، سواء فى تصورها عن الرجل الشرقى وولعها به – كما حدث مع باميلا التى وصل بها الأمر لأن تدفع له بدلاً من أن يدفع هو لها – أو فى استخدامها كأداة لإغراء الشرقيين عموما .

٢ - الحب فى المنفى ورؤية الذات فى فضاء الآخر : (*)

أ - توصيف الرواية ودلالتها العامة :

تعتبر رواية "الحب فى المنفى" رواية من روايات السيرة الذاتية، كما يمكن أن تندرج تحت مسمى "روايات الاغتراب"، حيث تصبح الغربة عن الوطن، المكان الذى من خلاله تدور أحداث الرواية . وتدور هذه الرواية بصفة أساسية حول راويها البطل، الذي يقوم بسرد أحداث الرواية كلها . وهو صحفى مصرى فى الخمسين من عمره يعمل مراسلاً لصحيفة مصرية، بعدما طرد أو نفى إلى الشمال، يقول عن نفسه "كنت قاهرياً، طردته مدينته للغربة فى الشمال" .(٢)

---

١) الرواية، ص ٣٧

(*) صدرت الطبعة الأولى من هذه الرواية عن دار الهلال عام ١٩٩ . وعن ظروف كتابتها يذكر الأديب : لهذه الرواية قصة طويلة، فقد استغرقت كتابتها عشر سنوات أو أكثر . ولكن لم أكن أكتب بانتظام، وبدأت فيها بعد أحداث "صبرا وشاتيلا" كنت مهزوزاً بعنف ومنفعلاً من هذه المذابح ولكنى قلت : من الافتعال أن أكتب عن تجربة لم أشاهدها ولم أشارك فيها، فتوقفت وبقى داخلى - رغم ذلك - شيء يلح على أن أكتب لأسدد الدين نحو هؤلاء الشهداء. كتبت فى هذه الأثناء "أنا الملك جئت" و"وقالت ضحى" و "خالتى صفية والدير"، وبقيت "الحب فى المنفى". وفى ١٩٨٤ كتبت منها حوالى سبعة فصول وبدأت فى نشرها على هيئة حلقات بناءاً على طلب أحد أصدقائى، فكنت أكتب فيها وهى ما زالت تنشر، .... جاء ذكر ذلك فى :

- البهاء حسين، قريباً من بهاء طاهر. محاورات وملامح، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤، ص ١٢٣ . وكذلك

- مقابلة أجرتها الباحثة مع الأديب بتاريخ : ٨ - ٤ - ٢٠٠٦ .

٢) بهاء طاهر ، الحب فى المنفى ، القاهرة ، دار الهلال ، ٢٠٠١ ، ص ٥

تبدأ الرواية بحدث رئيس، تتفرع منه كثير من الأحداث الأخرى التى يقوم عليها بناء الرواية ككل . فالبطل المصرى المسن بعدما تخبره الفتاة صغيرة السن "بريجيت" أنهما يجب أن يفترقا، يبدأ فى سرد تفاصيل لقائه الأول بها، حيث المؤتمر الصحفى الذى تعقده لجنة طبية تابعة لحقوق الإنسان عن انتهاكات حقوق الإنسان فى شيلى فى هذا المؤتمر يتعرف " البطل " على " بريجيت " التى تعمل مرشدة سياحية، وتقوم فى هذا المؤتمر بدور المترجمة للأسبانية التى يتحدثها "بيدرو" المواطن الشيلى الذى يدلى بشهادته فى هذا المؤتمر عن الانتهاكات وأنواع التعذيب التى تعرض لها هو وأخوه " الفريد " الذى توفى ، فى حين هرب " بيدرو " من بلاده . كما يتعرف كذلك على د / موللر رئيس اللجنة الطبية وأحد المدافعين عن حقوق الإنسان .

و يتقابل "البطل" . فى هذا المؤتمر . مع زميله القديم فى الصحيفة القاهرية " إبراهيم المحلاوى " الماركسى المغترب هو الآخر طوعاً إلى لبنان، فهو يعاصر حرب لبنان والمجازر التى حدثت فيها . وفى مقابلاته اللاحقة فى المدينة الأوروبية مع البطل يتذكران سوياً ما مر عليهما من أحداث وتقلبات على مستوى المجتمع المصرى وعلى مستوى الوطن العربى ككل، فهما يستعيدان الزمن الناصرى والزمن الساداتى، كل من منظوره، ورؤيته بما يكشف ويعرى كثيراً من حقائق الذات العربية فى حضرة الآخر الغربى وفى فضائه المكانى.

هكذا تتداخل الأحداث الماضية مع ما يجددها ويستدعيها من أحداث حاضرة فى نوع من الربط المتلازم الذى يقوم به "البطل" بطريقة واعية، فمن خلال لقاءاته مع "بريجيت " يتذكر مواقفه مع مطلقته وزميلته فى الصحيفة "منار" وكيف إنهارت علاقتهما الزوجية مع شروخ فترة السبعينيات التى عمقت من أزمة مثقف ناصرى يعلنها دائماً برغم مرور سنوات كثيرة، إنه أحب عبد الناصر ومازال يحبه.

فى " الحب فى المنفى " تتداخل القضايا الذاتية مع القضايا الموضوعية، ويلتقى الهم الوطنى المصرى بالهم العربى و بالعالمى، حيث تصير الرؤية أعمق وأكثر شمولا لكل من الأنا والآخر وتتعدد الوجوه والمواقف التى تعرضها الرواية لكل من هذين الطرفين . فى هذا السياق يأتى الحديث عن حرب لبنان لتعمق هذا المعنى من خلال إلقاء الضوء على المجازر الوحشية التى ارتكبتها إسرائيل الابنة المدللة للغرب فى

المواطنين الأبرياء فى "صبرا وشاتيلا" وعين الحلوة . كل ذلك والعالم يقف مكتوف الأيدى، معصوب العينين، فى عالم ردئ يدفع بأبطاله نحو مصير مجهول، فيصبح اقصى ما يمكن أن يفعلوه أنهم " اختلسوا من الزمن لحظات " [1] مجرد لحظات

ويأتى الإطار الزمنى للرواية : ليشمل عدة فضاءات زمانية : فهناك الزمن الحاضر زمن الأحداث الحاضرة فى الرواية، وهو زمن الثمانينيات من القرن العشرين، وبالتحديد عام ١٩٨٢ . فالبطل حينما يقابل " إبراهيم " ويحاول تذكيره ببعض ما حدث فى فترات سابقة، يخبره إبراهيم " أى أسرار تريد أن تشرحها لى فى سنة ٨٢ عن أشياء حدثت فى سنة ٦٩ ؟ ما أهمية ذلك الآن ؟.. " [2] كذلك فإن هناك إشارات بارزة للحرب الأهلية فى لبنان وهى حرب السبعينيات والثمانينيات.

وبالإضافة لفترة الثمانينيات فإن زمن الرواية يمتد ليشمل فترتى الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، من خلال المقارنة الدائمة بين هاتين الفترتين وما حدث بهما من سياسات متناقضة على مستوى الذوات الفردية، وعلى مستوى المجتمع ككل .

وعبر ذلك يأتى ذكر : عبد الناصر ونكروما ولومومبا والسادات ... إلى غير ذلك .

وبالنسبة للإطار المكانى، فإن رواية الحب فى المنفى تتخذ رواية " الحب فى المنفى " من إحدى المدن الأوروبية (ن) كما يسميها البطل إطاراً مكانياً لها . فيأتى وصف المدينة ببعض أحيائها وحدائقها وأشجارها بما يعكس الحالة المزاجية " للبطل " ففى حين تركته " بريجيت " عائدة إلى موطنها الأصلى " النمسا " وفى طريقه إلى قصر أحد الأمراء العرب الخائنين الذى كان السبب فى فصله وفصل " بريجيت " من عملهما يقول " البطل " " شعرت بالتعب فجلست على جذع شجرة مقطوع وكنت من مكانى أطل على المدينة فى ضفة النهر الأخرى ولكن ضباباً كثيفاً كان يغلف المدينة فبدت مبانيها كتلاً رمادية متباعدة . بدت شبحاً لمدينة.." [3]

وإن كانت مدينة (ن) هى المكان الذى يشهد الأحداث الحاضرة فى الرواية فهناك أماكن عديدة شهدتها الأحداث الماضية فى العمل، فمصر تتردد بصورة أساسية كمكان ووطن للبطل ولهذا فهى المكان الحاضر / الغائب فى الرواية ككل

---

١) الرواية ،ص ٢٤٥
٢) الرواية ، ص ٣٠
٣) الرواية ، ص ٢٥٠

بمدنها : (بورسعيد) التى ذهب إليها البطل متطوعاً للحرب عام ١٩٥٦ ، والقاهرة التى يعيش فيها أبناء البطل " خالد وهنادى " الذين يتصل بهما تليفونياً بصفة دورية . وهاهى البلدان العربية، خاصة لبنان التى تحتل أحداث الحرب بها مساحة كبيرة من أحداث الرواية .

ومن الملاحظ، أن الراوى / البطل لم يذكر اسم مدينته صراحة، وربما يعود ذلك لإحداث نوع من التعميم، فما ينطبق على هذه المدينة (ن) الواقعة فى الشمال، ينطبق على بقية مدن الغرب الأخرى .

ب- صورة الشخصية المصرية فى "الحب فى المنفى" :

وفى " الحب فى المنفى " تظهر أكثر من صورة للشخصية المصرية أتناولها فيما يلى :

الصورة الأولى : صورة البطل :

ويمثلها البطل / الراوى، المراسل الصحفى المسن، الذى تدفعه أزماته متعددة الوجوه للغربة والاغتراب عن وطنه وعن أسرته، بعد انفصاله عن زوجته ، وتطليقه لمرحلة كاملة من حياته . ويعيش البطل فى غربته عزلة يفرضها على نفسه. وتمثل هذه العزلة له كما يذكر : "جزء من فترة العقوبة التى أقضيها فى المنفى، والتى لم أكن أعرف لها نهاية." [١]

وتتبدى لدى البطل بعض الخصائص والأزمات التى تخلعها عليها ظروف وتحولات المجتمع، وهو ما خلق لديه نوعاً من عدم القدرة على ملاحقة هذه التحولات ؛ فما تربى ونشأ عليه يختلف عما يعيشه وهو فى سن متقدمة . هذه الحيرة التى يعانيها هى ما تجعله يتساءل " أين هو العطب الذى ينهشنا ويسبب الدمار . " [٢]

ومن أهم خصائص البطل التى تعرض لها الرواية، أنه على المستوى الشخصى : يمثل ذات فشلت فى تجربة زواجها، بالرغم من الحب الكبير الذى ربطه بمطلقته " منار "، فاختلاف الرؤية لكليهما، خاصة مع قدوم فترة الانفتاح وتبدل الطموحات والأهداف، جعل من حالة الاحتقان الدائم بينهما سبباً فى الانفصال، فكما يروى "

---

١) الرواية ،ص ٧٠

٢) الرواية ، ص ٤٠

كنا محاريين استسلما للعدو لا يجروء أحدهما أن يرفع عينيه فى وجه الآخر من الخزى .ولكن من كان العدو؟ .. "[١]

وتجىء غربته بعيداً عن أبنائه : " خالد وهنادى " كبعد من أبعاد أزمته على المستوى الشخصى، ولهذا فهو دائم التأنيب والمحاسبة لنفسه على بعده الاضطرارى عنهما " لماذا لم تفعل شيئاً لتقترب منهما أكثر ؟ ....ألم تكن طول الوقت خارج البيت فى الصحيفة، أو فى الاتحاد الاشتراكى أو خارج البلد ؟ ... " هل يعنبك هذا حقاً كما ينبغى ، أم أنك مازلت مشغولاً بنفسك قبل كل شئ.. "[٢]

وإن كان قد فشل فى زواجه، فإنه كذلك فشل فى حبه لبريجيت، بالرغم من توحده معها وشعوره معها بالسعادة، إلا أنها سعادة لم تدم، فقد وقف العالم بكل ضراوته فى وجه هذا الحب، وهو الأمر الذى أشعره بالأسى والحزن العميق، وهذا ما جعله يردد لنفسه " انتهت وانتهى كل شئ . "[٣]

وعلى المستوى الفكرى والوجدانى : يحيا ممزق الوعى والوجدان بين ماضيه الذى ينتمى إليه ورمزه "عبد الناصر"، وبين حاضره الممتد من بدء الأخذ بسياسة الانفتاح وما تبعه من إجراءات، أحدثت له شروخاً كثيرة فى ذاته، فهو ناصرى قومى يرى أن إيمانه بأحلام عبد الناصر، كان إيماناً بأحلامه فهو يعلن فى أحد المواقف : "وأدرك الآن – أدرك بصفاء كامل – أن تشبسى بحلم عبد الناصر أيامها لم يكن مجرد إيمان بالمبدأ الذى عشت مقتنعاً به، بل كان أيضاً تشبساً بحلمى الشخصى . بأيام المجد والنجاح والوصول ... "[٤] .

ويمكن تفسير هذا الحب من جانبه لشخص عبدالناصر، والذى يعد سمة مشتركة بين أغلبية أبناء هذا الجيل الذى ينتمى إليه البطل ، لأنه إنسان مصرى ذى أصول ريفية بسيطة رأى فى " عبد الناصر " البطل الكارزيمى الذى يحاول العبور بهؤلاء من واقع البؤس والاجحاف الذى يعيشونه .فقد كان أبوه يعمل فراشاً فى إحدى المدارس القروية، وهى المهنة التى كان زملاؤه يعيرونه بها، ولهذا نجده يخاطب " إبراهيم " قائلاً : " أيامها

---

١) الرواية ، ص ٤٠

٢) الرواية ، ص ١١ ، ص ٤٦

٣) الرواية، ص ٢٥٠

٤) الرواية، ص ٢٨

كنا نحن الفقراء حفنة صغيرة فى المدرسة وسط أبناء ملاك الأرض وأبناء الموظفين فى المدينة يجدون فى إهانتنا متعة وفخراً .ويزيد العداء لو تفوقنا فى الدراسة ... " [١]

ولهذا جاء إيمانه بعبد الناصر وبكل سياساته ،لأنه الذى أعطاه الفرصة ولغيره من أبناء الطبقات الفقيرة والكادحة فى إمكانية الصعود والحلم بالنجاح، وكان عصره، العصر الذى به وفيه حاول هؤلاء العيش وفقاً للمبادئ والمثل التى تعلموها " أيامها كنت أقرأ ساطع الحصرى والقوميين العرب، وأعتقد مع عبد الناصر أن دولتنا الكبيرة ستقوم غداً .... كنت أحب الرجل ومازلت أحبه أراد أن يغير الحياة فى بلادنا فحاربتموه أنتم وغيركم . " [٢]

ويمكن النظر للعلاقة الحميمة بين أبناء المجتمع المصرى وعبدالناصر فى هذه الفترة فى إطار ظاهرة المخلِّص [٣] الذى يتمثل عادة فى صورة فرد ذى شخصية خارقة وقدرات غير عادية تجعل فى مقدوره أن ينقل المجتمع الذى يظهر فيه من نسق ثقافى (يتصل بالقيم وأسلوب الحياة والفكر) لم يعد متوائماً مع الظروف المتغيرة التى تواجه ذلك المجتمع ، إلى نسق آخر أكثر تواؤماً مع هذه الظروف المتغيرة ، وذلك من حيث أن هذا النسق الآخر يستطيع أن يتعامل مع المتناقضات الأساسية التى ظهرت أو تراكمت فى المجتمع وتجاوزت قدرته علىا احتوائها ، سواء أكانت هذه المتناقضات نتيجة لتطورات داخلية تتصل ببنية المجتمع أم جاءت نتيجة لظروف فرضت نفسها عليه من الخارج ، أم كانت .كما يحدث كثيراً .نتيجة لظروف داخلية وخارجية مترابطة بشكل عضوىَ أو ظرفىَ أدّى أحدهما إلى تفجر الآخر أو شجع على ذلك . [٤]

---

١) الرواية، ص ٦٧

٢) الرواية،ص ص ٢٣، ٣٢

٣) من الجدير بالذكر أن دور المخلص يتصل بموضوع الأنساق القيمية التى تحدد سمات السلطة وشرعيتها التى تمكن من التغيير، وفيما يتعلق بموضوع المخلص يوجد نسقان بالضرورة : أحدهما النسق السائد قبل التغيير الذى يحدثه المخلص، ويمثل هذا النسق السلطة التقليدية فى المجتمع . أما النسق الآخر فهو الذى يرتكز عليه دور المخلص وتمثله السلطة الكاريزمية . وفى هذا النسق تقوم القيم التى تؤدى إلى شرعية السلطة على أساس من سمة خاصة بشخصية الفرد ـ الذى يقوم بالتغيير ـ هى الكارزما، وهى سمة من شأنها أن تميز هذا الفرد على زملائه، وفى هذه الحالة يعامل على أنه يملك قوى فوق طبيعية أو فوق انسانية، ليست فى متناول الشخص العادى وإنما تنبعمن الالهام والموهبة الإلهية : يراجع فى ذلك :
ـ محمد أحمد بيومى، علم اجتماع القيم، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٠، ص ١٩٢
ـ ــــــــ، علم الاجتماع الدينى، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٧، ص ٢٢٨

٤) أمل فضل حركة ، ظاهرة المخلص بين الفرد والمجتمع . دراسة فى المجتمع المصرى بين ١٩٥٢ و١٩٦٩ ، جامعة الإسكندرية ، إصدارات مجلة كلية الآداب ، ٢٠٠١ ، ص ١٠ .

ولذلك فإنه مع قدوم السبعينيات من القرن العشرين وما شهدته من تغيرات مست هذه الجماهير الغفيرة التى تعلقت بالنظام السابق ورمزه الأساسى "عبدالناصر"، شعرت هذه الجماهير بتبدد الحلم، وظهرت أباطرة الإنفتاح وملوكه الجدد، الذين بسطوا نفوذهم على كل مناحى الحياة فى المجتمع المصرى. وكان البطل ضمن هؤلاء الذين تم إقصاؤهم بعيداً نظراً لولائه الشديد للنظام السابق ...وهذا ما يجعله يطلق على هذه الفترة " محنة " ولما جاءت محنة السبعينيات التى أدركتنى وترقيت فى الصحيفة مستشاراً لا يستشيره أحد.. "(١)

وبإبعاده عن عمله، لم يعد هناك ما يفعله، ولهذا جاء القرار بإرساله للعمل كمراسل فى هذه المدينة " ن "، ببساطة لإنه لم يقبل أن يكون مسخاً يمسح جوخ الآخرين، وينشد ودهم، بل تمسك بما يؤمن به، ولذلك كان عليه أن يدفع الثمن " أظن أن إبعادى كان مقرراً من أول يوم فى انقلاب السادات ... رقونى إلى مستشار للتحرير لكى لا أفعل شيئاً ....ولما فتحوا مكتباً للصحيفة كان ذلك يناسبنى .. " (٢)

وتمر السبعينيات لتسلم للثمانينيات ، ويظل البطل يعانى التجاهل فى غربته من قبل رؤساء الصحيفة فى مصر ، فالصحيفة لا يهمها أن يرسل لها أخباراً أم لا، وهو الأمر الذى يزيد من عذابه فى منفاه " لم أكن أعمل شيئاً فى الحقيقة ، كنت مراسلاً لصحيفة فى القاهرة، لا يهمها أن أراسلها، ربما يهمها بالذات ألا أراسلها .."(٣)

إن حالة الإحباط واليأس التى يعشها " البطل " تجعله يحتقر نفسه، واصفاً إياها بالوضاعة، فهو لا يعنى شيئاً على الإطلاق، ولهذا فكل ماضيه وما ينطوى عليه من كفاح لا يعنى شيئاً " من أكون ؟ .. ها أنا ذا أعرف أخيراً من أكون لست مهتماً على الإطلاق ! لم أكن مهماً فى أى وقت ! ابن فراش ... نائب رئيس التحرير ... دخلت بورسعيد ... صعدت جبال اليمن ... طظ طظ طظ ... ماذا فعلت فى حياتك بعدها ؟ ... رحت تعتبر نفسك ضحية وشهيداً ... شهيداً لكل شئ .. " (٤)

الصورة الثانية : صورة الجماعة (الشخصية الاجتماعية) :

والشخصية الاجتماعية التى تظهر فى الحب فى المنفى تتحصر فى شخصية المثقفين على اختلاف طوائفهم :القوميين والماركسيين والجماعات الإسلامية و جيل الشباب المغترب.

---

١) الرواية ، ص ٢٣
٢) الرواية ، ص ٣٤
٣) الرواية ، ص ٥
٤) الرواية ،ص ١٥٠

. القوميون ويمثلهم " البطل، الراوى " ولهذا فإن ملامح هذه الشخصية على المستوى الفردى سوف تتداخل مع ملامحها على المستوى الجماعى . فهو كما سبقت الإشارة أحد مثقفى فترة الستينيات الذى يعايش بمرارة التحولات الكثيرة التى يمر بها مجتمعه فى سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين . يعايش كل هذه التحولات فى غربته من خلال الانكسار والانزواء لفكره وفكر أمثاله الذين أفل نجمهم وخبا ضي أفكارهم فى ضباب الواقع المهترئ الذى يفرض سطوته عليهم . رداً على سؤال د / موللر " ألا تظن أن عصر الثورات القومية قد انتهى، يقول " ...... ما أهمية أن أقول أى شئ فى هذه المدينة الغريبة لهذين الغريبين ... سامحنى يا دكتور، ولكنى الآن مثلك تركت الاهتمام بالسياسة منذ زمن، ولعلى فى الواقع لم أعرفها أبداً، كنت متطفلاً عليها . توهمت فى وقت من الأوقات أننى أفهم، والآن أعرف أننى كنت مخطئاً ... " [1]

تشير الفقرة السابقة للعزلة التى يفرضها البطل على نفسه فى منفاه الاختيارى محاولاً بهذا أن يتناسى اهتمامه القديم بالسياسة، والتى يقرر قطع صلته بها نهائياً، لأنها لم تكن له سوى وهم ! أو لأنها ارتبطت بمرحلة معينة، وما دامت هذه المرحلة قد انتهت، فلابد من اختفاء الأفكار التى ارتبطت بها فها هو يعلن فى حزن : " عندما كان الرئيس واحداً منا، نحن أبناء الفقراء، وعندما إنحاز إلينا، عندما لم يكن الفقر عاراً ...... انتهت جنة الفقراء . لم توجد يوماً جنة للفقراء . كانت تلك أيضاً كذبة يجب أن ننساها ." [2]

وتتضح النزعة القومية لدى " البطل " من خلال المقارنات الكثيرة التى يعقدها بين أيام ازدهار التيار القومى فى مصر (الستينيات)، وما تبعها من فترات اضمحل فيها هذا التيار، ففى حين كانت الستينيات فترة الالتفاف حول القومية العربية، فإن ما تلتها من فترات لم تظهر بها هذه الفكرة بنفس القوة . فى وصفه للفارق بين ما كان وما يعيشه فى حاضره يروى : " أيام كانت الصحف تقول إن انتصار الناس فى أى بلد يعنى الحرية لنا، أيام بكينا على نكروما وعلى لومومبا . أيام كان راديو القاهرة يغنى لبورسعيد والجزائر والملايو وشعوب كالبشائر تنبت الأزهار

---

١) الرواية ، ص ٥٦
٢) الرواية ، ص٦٧

من قلب المجازر ... الآن لا يبكى على هذا أحد ...... الناس الآن أعقل، العواطف الآن أهدأ . الدموع الآن لا تنزل إلا من إدمان النظر للتليفزيون ... " [1]

و تتمحور المشكلة الأساسية لأنصار هذا التيار القومى فى شعورهم بأن ما كافحوا وناضلوا من أجله سقط وسط المتاهات التى دخل فيها المجتمع بعلاقاته الجديدة داخلياً وخارجياً، خاصة فى ظل التبعية للغرب بشكل متزايد ، ولهذا يظل الصراع النفسى الذى يعانيه البطل ، صفة ملازمة له كدالة على أزمته كمعبر عن هذا التيار القومى . وهذا ما يفسر تذكره الدائم لعبد الناصر وفترة حكمه، وكأنها الإطار العام الذى يتمنى على مستوى اللاشعور الرجوع إليه والتشبث به مع علمه التام بعدم إمكانية حدوث ذلك .. وفى ذلك يقول فى حاله وحال زميله إبراهيم الماركسى " فعلمت أنه مثلى .. يتشبث بيقينه لكى لا ينتهى عالمه . لكى لا يضيع الحلم الذى دفعنا فيه ثمناً العمر بأكمله ! " [2]

. الماركسيون : ويعبر عنهم " إبراهيم المحلاوى " الصحفى اليسارى، الذى يعمل فى إحدى الصحف اليسارية فى بيروت، بعدما ترك مصر . وهو زميل قديم للبطل فى إحدى الصحف المصرية فى الستينيات. ومع أنه ينتمى لطبقة ملاك الارض الزراعية إلا أن نشأته المرفهة، لم تؤثر فى فكره، بل إنه تشيَع منذ صغره للمظلومين من المقهورين، فهو يتعاطف مع أمه التى يخونها أبوه، ويشفق على الفلاحين الفقراء الذين كان أبوه يسرق منهم الميزان فى محاصيلهم الزراعية، فى ذلك يروى للبطل " ما كان يشقينى هو الظلم لا العقد الوهمية، ما أشقانى مع أمى هو نفسه ما عذبنى حين كنت أرى أبى ورجاله يسرقون الفلاحين بعد ذلك .. " [3]

عاش تجربة المعتقل فى أواخر الخمسينيات، وبالرغم من الاختلاف الفكرى والمنهجى بينه وبين " البطل " فإن " البطل " يقرر " ولكننى حزنت بالطبع عندما قبضوا عليه بعد ذلك ضمن من اعتقلوهم من الشيوعيين فى سنة ١٩٥٩ وكنت أفتقده ... " [4]

---

١) الرواية ، ص ١٢
٢) الرواية ،ص ١٠٠
٣) لرواية ، ص ٨٤
٤) الرواية ، ص ٢٣

وعلى الرغم من الاضطهاد الذى عاناه أنصار هذا التيار من قبل النظام فى الستينيات إلا أنهم ظلوا ينظرون لرمزه "عبد الناصر" نظرة الاحترام والتقدير، فها هو يتحسر على أيامه بكل ما فيها من إيجابيات وسلبيات، مخاطباً البطل: "يا سيدى أين نحن من تلك الأيام ! ... كان معك حق فى كل ما قلته عن عبد الناصر أيامها وكنت أنا المخطئ .. " (١)

وبالرغم من اندثار الفكر الشيوعى، أو حتى على الأقل محاولات تحجيمه لأقصى حد، خاصة فى ظل سيطرة الغرب الرأسمالى، إلا انه لديه أمل كبير وحلم فى عودة وإحياء الثورة الشيوعية من جديد فى الشرق والغرب، لذلك نراه يخاطب البطل بحماس " العالم لم يمت والثورة لم تمت، وإلا فما معنى ما يحدث فى لبنان وفى نيكاراجوا وفى الفلبين ؟ من الشرق إلى الغرب تتحرك الدنيا وغداً يتغير العالم كله ! حتى هنا سيتغير ... " (٢)

. الجماعات الإسلامية :

وهى الجماعات المتفرعة عن التيار الأصولى، الذى يرى أن العودة لصحيح الدين ومنهج السابقين من المسلمين الأوائل، هو الحل الذى به يتحقق تقدم الأمة الإسلامية . وما يميز هذه الجماعات هو موقفها الرافض من الحضارة الغربية بصفة عامة وإن كان هذا الموقف يتعرض للتغير وفقاً للتطورات الداخلية فى بنية هذه الجماعات وما يتفق وتحقيق مصالحها التى ترى أنها تهدف صالح المسلمين كافة .

وهذه الجماعات ليست كتلة واحدة، بل إنها تتفرع وتختلف فيما بينها . إلا أن بقية جموع المجتمع لا يمكنها التفرقة بسهولة بين فكر كل منها على حدة، وإنما تضعها جميعاً فى بوتقة واحدة .

وقد شهدت فترة السبعينيات وما تبعها من فترات نمواً وانتشاراً كبيراً لهذه الجماعات. ويمكن القول :" إن بروز الحركة الأصولية ومقالها الفكرى كان ردة فعل مباشر لانهيار النظام الليبرالى، وبالتالى انهيار المقال القومى الوحدوي فى الأنظمة العربية ككل من جهة ، واحتكار السلطة للشرعية الأيديولوجية لنفسها وضربها

---

١) الرواية ،ص ٣٠
٢) الرواية ، ص ٧٩

الأحزاب الوطنية ذات التوجه القومي أو الاشتراكي وإغلاق باب الحوار في المجتمع من جهة أخرى . وكانت نتيجة ذلك ... أنه لم يعد يسمع في ساحات النقاش العامة سوى صوت واحد ، هو صوت السلطة ... وجاء الخطاب الأصولي ليملأ هذا الفراغ الأيديولوجي ؛ باعتباره الخطاب الوحيد القادر على فرض نفسه بلجوئه إلى الشرعية الدينية والشعارات الإسلامية تلك التي تعتمدها السلطة القائمة أساساً لشرعيتها . بهذا تمكنت الحركة الأصولية من تحريك القطاعات الشعبية الواسعة، ومن جذب جزء من القطاعات المثقفة التي تنازلت عن انتماءاتها الحزبية السابقة . ومن هنا يجب اعتبار هذه الحركة، حركة سياسية لا حركة دينية ، في توجهها العملي إن لم يكن في محتواها الفكري؛ فالإسلام بالنسبة إلى الأصولية وسيلة عملية لاختراق الحواجز والسدود التي تقيمها السلطة السياسية لحماية نظامها وتبرير قمعها للأحزاب السياسية . لكن موقف الحركة الأصولية تجاه الأنظمة القائمة يتميز بكونه موقفاً ذا وجهين : أحدهما يعادي السلطة والآخر يهادنها ، في حين أنه إزاء الأحزاب والحركات العلمانية (القومية والماركسية) موقف العداء الخالص . "[١]

وتظهر في " الحب في المنفى " صورة هذه الجماعات من خلال مجتمع الجامعة، حيث يفرض الطلبة المنتمون لهذه الجماعات على غيرهم من الطلاب، سيطرتهم، في محاولة منهم لنشر فكرهم وحده ومحاربة أي فكر غيره، في ذلك يذكر " يوسف " الشاب المصري المغترب للبطل عن مأساته هو الآخر في السبعينيات حينما كان في الجامعة في كلية الإعلام، وكان يصدر صحيفة حائط يقوم فيها بانتقاد الأوضاع في تلك الفترة " جاءت بعد ذلك جماعات أصحاب الجلاليب التي أطلقتها علينا الحكومة، فكانوا يمزقون صحفنا كلما علقناها، وإن قاومنا كانوا يضربوننا بقبضات حديدية يشبكونها في أصابعهم أمام أعين حرس الجامعة الذي كان يحرسهم وحدهم ... "[٢]

ويرمز لهذه الجماعات في فترة الثمانينيات شخصية " خالد " الابن الأكبر للبطل، الطالب في كلية الهندسة، والذي يتجه بقوة في اتجاه الأسلمة، فيحرص

---

١) هشام شرابي ، النقد الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين ، مرجع سابق ، ص ص ٢٥ - ٢٦ .
٢) الرواية ، ص ١٦١

على أن يبدأ تحيته بـ " السلام عليكم .... " ويمنع أخته من مشاهدة التليفزيون، وكذلك الذهاب للنادى وحجته فى ذلك " أصل النادى فيه مساخر وفيه شباب فاسدين .. " [١] . وهو كذلك يعتذر عن الاشتراك فى مسابقة دولية للشطرنج لأنه قرأ فتوى بتحريمه " بصراحة أنا قريت فتوى بتقول إن الشطرنج حرام ... وأنا مقتنع بالكلام ده ... " [٢]

وحينما ترتدى أمه الحجاب يقول عنها " أنا شاعر كده إن ماما ربنا هداها فى الفترة الأخير.... " [٣] . وعموماً ومن خلال شخصية " خالد " يقدم النص صورة لهذه الجماعات تتسم بالخصائص التالية :

. العزوف عن الأمور الدنيوية : فالمستقبل هو ما بعد الموت، ولهذا فهناك انعزال عن المشاركة فى هذه الحياة التى تعتبر داراً للكفر والشرور . وهذه النظرة هى ما تسبب ألماً للبطل، الذى يقارن بين حاله فى شبابه، وحال ابنه خالد، فهو لا ينكر عليه أن يكون صاحب قضية، ولكن يتعجب مما يفعله، لذلك يقول لإبراهيم " إن ما كنا نفعله فى شبابنا كان من أجل المستقبل .. من أجل الحياة .. ما ألاحظه بالتدريج عند خالد نوع من النفى الكامل للحياة .. المستقبل هو ما بعد الموت فقط ... " [٤]

وفى هذا الرأى تناقض شديد مع ما يقول به الدين الإسلامى الذى يدعو لتحقيق التوازن بين الجانبين : الديني والدنيوي . وليس أدل على ذلك من قول الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام : " اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لأخرتك كأنك تموت غدا " . وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ـ الجمود والانغلاق الفكرى وأحادية الرأى : يتضح ذلك من خلال موقف خالد من المحيطين به، فهو يتدخل فى شئون أمه وأبيه وأخته، محاولاً فرض رأيه عليهم جميعاً اعتقاداً منه، أن رأيه وحده هو الصواب، وفى ذلك لا يوجد هناك مجال للحوار أو المناقشة . وهذا ما يجعل أباه يتساءل " إلى أين ستنتهى يا خالد ؟ نعم كنا صاحبين ...

---

١) الرواية ، ص ١٨٧
٢) الرواية ، ص ٨٩
٣) الرواية ،ص ١٨٩
٤) الرواية ، ص ٩١

ولكننا كنا دائماً نتناقش قبل أن تقول رأيك، الآن أنت تريد أن تقرر وحدك وأن تنفذ وحدك . تريد أن تنفذ ما تريده لهنادي ولأمك ولي ... " (١)

إن هذا الكهف الذي يحبس خالد أفكاره داخله هو ما يجعل أباه يحذره " ولكن إحذر يا خالد ! إحذر لأن كل الشرور التي عرفتها في الدنيا خرجت من هذا الكهف المعتم، تبدأ فكرة وتنتهي شراً : أنا على حق ورأيي هو الأفضل ... أنا الأفضل إذن فالآخرون على ضلال ... " (٢)

- الملمح الأخير الذي تقدمه الرواية لهذه الجماعات هو استخدام الدين وشعاراته لتحقيق مصالح بعض قيادات هذه الجماعات، وهؤلاء في سبيل ذلك يؤولون الدين ويسخرونه لهذا الشأن، فتصبح إقامة العلاقات المشبوهة مع العدو الذي يقتل ويدمر المسلمين ضرورة لابد من الأخذ بها، فها هو " الأمير حامد بن ... " الأمير العربي، الذي يشارك " إسحاق دافيديان " اليهودي الذي هجر مصر بعد حرب ١٩٥٦، وأصبح أشهر تاجر للخيول العربية في أوروبا بعد حصوله على الجنسية هناك . والأمير يستطيع أن يستحوذ على " يوسف " مستغلاً ظروف الإحباط النفسي التي يعيشها . ولهذا يدافع عنه أمام البطل قائلاً " هذه الدنيا يا أستاذ غابة مليئة بالوحوش، ولن ينقذنا إلا أن نصبح أقوياء ولن نصبح أقوياء إلا إذا استخدمنا عقولنا ورجعنا إلى ديننا وإلى أصلنا ... " (٣) ولهذا يبرر ما يفعله الأمير من تقديم المسكرات لضيوفه والعمل مع أعداء الأمة من اليهود بقوله " للضرورة أحكام" (٤)

إن هذا الفهم المغلوط لحقائق الدين، وقلب الأوضاع هو ما يخافه البطل على ابنه " خالد "، لهذا يسأل نفسه بعدما سمعه من يوسف ودفاعه عن الأمير " هل سيصبح خالد هكذا ؟ " (٥)

. جيل الشباب المغترب (يوسف) : -

وهو الجيل الذي عايش ما أسفرت عنه فترة السبعينيات من متغيرات جديدة في طبيعة العلاقات داخل المجتمع، وما تمخض عن سياسة الانفتاح الاقتصادي من أزمات عانت منها الطبقة المتوسطة والفقيرة التي تمثل السواد الأعظم للشعب المصري . " فيوسف " أحد أفراد هذا الجيل، مصري مغترب إلى نفس المدينة (ن)، كان متفوقاً

---

١) الرواية ،ص ١٩٠
٢) الرواية ، ص ١٩١
٣) الرواية ، ص ٢٢٥
٤) الرواية ، ص ٢٢٥
٥) الرواية ، ص ٢٢٦

منذ صغره وعاشق للصحافة، واستطاع الالتحاق بكلية الإعلام، ومن خلال صحيفة الحائط التى أصدرها وهو طالب، والتى أسماها " النديم "، كان ينتقد الأوضاع المجحفة التى تعيشها الطبقة المتوسطة التى ينتمى إليها، مقارناً بين فترتى الستينيات والسبعينيات . وكانت صحيفته هذه متميزة عن غيرها من الصحف التى كانت تملأ الجامعة فى هذه الأيام " سنة ٧٥، ٧٦ " [1] كما يروى بنفسه، وفى وصفه لما عاناه وأسرته فى تلك الفترة يروى " وازددت حباً لعبد الناصر وأنا أرى ما حدث لنا بعد موته، أرى أبى العجوز يتعذب لكى يدبر أمورنا بمبلغ المعاش الذى لم تعد له قيمة، بينما اللصوص الجدد يزدهرون فى كل مكان، وكنت أكتب عن ذلك فى صحيفة الحائط، كنت أقارن بين حال الإنسان البسيط مثل أبى أيام ناصر وما أصبح عليه فى عهد الانفتاح ..." [2]

ونتيجة اشتراكه فى المظاهرات ضد السادات فى الجامعة، قبض عليه وحكم عليه بالسجن، إلا أنه تمكن من الهرب " كنت فى السنة الثالثة بكلية الإعلام، وكان محكوماً على بالسجن ستة أشهر، لأنى اشتركت فى مظاهرة هتفت ضد السادات واشتبكت مع حرس الجامعة، هربت إلى ليبيا بعد صدور الحكم ومن ليبيا جئت إلى هنا" [3]

ويمثل " يوسف " هذه الفئات من الشباب المصرى والعربى، الذى يضطر لأسباب متعددة (سياسية – اقتصادية) الهروب من بلاده، واللجوء إلى الغرب باعتباره المكان الذى يمكن لهم فيه إيجاد الحرية للتعبير عن رأيها، وتحقيق مستقبل أفضل ، ولكن يصدمها واقع الغربة بكل قسوته . فيوسف يتعثر فى البداية فى الحصول على عمل، ولا يجد أمامه فى النهاية سوى الزواج من سيدة مسنة صاحبة المقهى الذى يعمل به " إيلين " التى تكبره بسنوات كثيرة ، فالفارق بينهما لا يقل عن عشرين عاماً . كما يذكر البطل .

وتبدو أزمة " يوسف " ومن يمثلهم من ناحيتين : الناحية الأولى هى المتعلقة بافتقاد هذا الجيل القدوة والمثل، فما قرأوه وتعلموه فى الصغر، وجوده مجرد شعارات فارغة، ولهذا يمكن وصف هذا الجيل بأنه جيل بدون آباء . وهذا ما قصده " يوسف "

---

١) الرواية ،ص ١٦٠

٢) الرواية ، ص ١٦١

٣) الرواية ، ص ٧٦

من حواره مع البطل " نحن قرأنا لكم وتعلمنا منكم ونحن صغار . ولكن لما وقعت الفاس فى الراس وبحثنا عنكم لم نجدكم . " (١)

أما الناحية الأخرى : المتعلقة بأزمة هذا الجيل، فهى أنه يشعر بخيبة أمل فى كل ما حوله وبأن المبادئ التى عانى من أجلها تباع رخيصة . وأن الاستغلال له وجوه كثيرة سواء فى الداخل أو فى الخارج . يتضح ذلك عندما علم من البطل، بحقيقة الأمير العربى الذى يثق به، ويتمنى العمل فى الصحيفة التى يريد هذا الأمير إنشاءها فى الغرب . فحينما يعلم بحقيقة نواياه، يسخر من نفسه قائلاً للبطل " تظاهرت ضد السادات، وحكم على بالسجن وهربت من بلدى ومن أهلى لأنى كنت أعتقد أنه يفرط فى مستقبل البلد وضاع مستقبلى أنا الفقير فى المبادئ، بينما الكبار والأغنياء .. أهلاً يا مبادئ! .. ماذا أفعل الآن ؟.. أبقى هنا وأعيش طباخاً وأموت طباخاً أو قهوجياً ؟ أرجع إلى البلد لأعيش عاطلاً ؟ ... أهج فى دنيا الله؟ .... أين ؟ وهل سيختلف الحال فى أى مكان. ماذا أفعل ؟ ... " (٢)

الصورة الثالثة : صورة الشخصية القومية المصرية :

تقدم " الحب فى المنفى " صورة لهذه الشخصية القومية المصرية من خلال عرض لبعض الخصائص الجديدة التى أصبحت سمة عامة للشخصية المصرية ككل سواء فيما يتعلق بأوضاعها الداخلية، أو فى علاقتها بالوطن العربى ككل، ناهيك عن علاقتها بالآخر الغربى الذى يأتى الحديث عنه مفصلاً عند عرض صورته .

وفيما يتعلق بما قدمته الرواية من صورة للشخصية المصرية على مستوى المجتمع المصرى، أستطيع القول إنها عرضت لتحولات هذه الشخصية المتغيرة فى فترة الانفتاح من عدة أوجه :

.فالرواية : توضح ما اعترى الأسرة المصرية بشكل عام من تغيرات فرضتها ظروف المجتمع الجديدة، خاصة خروج المرأة المصرية للعمل، وبداية ظهور الأصوات التى تنادى بضرورة المساواة بين المرأة والرجل . فقد أدى خروج المرأة للعمل لظهور ظواهر اجتماعية جديدة طرأت على الأسرة المصرية سواء فيما يتصل ببناء الأسرة أو وظائفها . فظهرت مشكلات

---

١) الرواية ،ص ١٦١
٢) الرواية ، ص ١٧٤

الطلاق لدى الزوجين، وظهور مشكلات الأبناء . في ذلك الصدد يشير "البطل" إلى أن خلافاته المستمرة مع زوجته " منار " كان أحد أسبابها قيامها بأعمال إضافية فى الصحيفة، فى حين كان يرفض هو ذلك " كنت أعتقد أن الأولاد أحق بأن تقضى معهم وقتاً أطول فى البيت .... كنت أعتقد أن الأمومة أهم من أى شئ آخر .. " [1]

. و تشير الرواية، لبروز ظاهرة ثقافة الاستهلاك [*] التى تزايدت فى هذه الفترة نتيجة إغراق السوق المصرية بكثير من المنتجات والبضائع المحفزة على الاستهلاك لدى الجميع، المتعلم وغير المتعلم، الإنسان العادى، والإنسان المثقف، ولذلك نجد البطل يقرر" لم ينج من هذا الانفتاح أحد ... " [2] فزوجة البطل السابقة (منار) كانت تشترى الفضة من خان الخليلى ثم تعيد بيعها عندما ترتفع الأسعار، وكذلك تتاجر فى كسور التاكسيات وتقوم بشراء قطع الأراضى التى تطرحها النقابة بالتقسيط لتتاجر فيها بعد ذلك . وهذا ما كانت زميلاتها فى العمل تفعلنه، بطريقة أخرى كما ينكر البطل " كن يبعن فى مكاتب الصحيفة ذاتها الملابس المستوردة والنظارات والأدوات الكهربائية . وزملاء محترمين كانوا يعملون بتجارة " الشنطة " بين القاهرة وبيروت . " [3]

- وتعرض الرواية للتطور الذى لحق مظهر المرأة المصرية فى سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين واستمر فى تصاعد، وأقصد به انتشار ظاهرة الحجاب بشكل ملحوظ عن ذى قبل . وهو الأمر الذى ظهر بشأنه جدل واسع النطاق بين كثير من التيارات الفكرية فى المجتمع المصرى بين مؤيد ومعارض . تعرض الرواية لذلك من خلال شخصية " منار " التى كانت فى السابق إحدى النساء المتحررات، التى تنادى بحرية المرأة وضرورة تحقيق المساواة بينها وبين الرجل فى كل شئ، فى عملها وفى مظهرها . لكن " البطل " يفاجأ وهو فى منفاه، بصورتها فى الجريدة التى تكتب بها مقالها الأسبوعى وهى محجبة مما يدهشه " طرأت على بالى لحظات من حوارنا معاً، وهى

---

١) الرواية ، ص ٢٦

*) كانت ظاهرة ثقافة الاستهلاك من الظواهر التى عالجتها أقلام كثيرة سواء من حيث التنظير أو فى مجال الأدب، وفى مجال الأدب أفرد الأديب "صنع الله إبراهيم" عملين كاملين لرصد تداعيات وأسباب هذه الظاهرة فى ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين . يراجع فى ذلك :

- صنع الله إبراهيم ، ذات ، القاهرة ، دار المستقبل العربى ، ط ٢ ، ١٩٩٨ .

- ———— ، شرف ، القاهرة ، روايات الهلال ، دار الهلال ، ١٩٩٧ .

٢) الرواية ، ص ٤١

٣) الرواية، ص ٤٢

تدافع عن حقها فى أن تختار العمل الذى تشاء، وفى أن تلبس ما تشاء وفى أن تفعل مثلما أفعل بالضبط . وإياك أن تقول لى رجل وامرأة ! .. [1] والبطل يرى فى موقف " منار " هذا موقف ارتدادى لكل مواقفها السابقة ، وأنه إذعان لقوى أخرى تفرض سيطرتها عليها، أى أنها لم تختر الحجاب عن قناعة، بل لتجارى المناخ الذى شاع فى هذه الفترة مع صعود التيار الإسلامى الذى يهدف لأسلمة المجتمع . ولذلك نراه يحدث نفسه " قل لى أنت ماذا تفعل لو ظللت تكتب ٣٠ سنة لتقول الكلام نفسه ... يجب تحرير المرأة ... فإذا بالمرأة لا تريد أن تحرر ولا يحزنون .. ماذا تفعل فى النهاية ؟ .. إن لم تهزمهم فاتبعهم ! " [2]

وإن كنت أود أن أشير فى هذا الصدد ، أن حديث البطل هنا وربطه بين الحجاب ورفض المرأة التحرر كلام ربما يجانبه الصواب ؛ فتحرر المرأة هو فى حريتها فى اختيار الأسلوب الذى تريده سواء فى حياتها الخاصة أو العامة ، طالما كان هذا فى حدود القيم والعادات والتقاليد المقبولة من المجتمع ، وهو ما يعنى عدم الربط بين الحجاب والانغلاق والجمود . وفى ذلك أشير لأحد الأراء الموضوعية حول هذه القضية ، حيث يرى صاحب هذا الرأى " أننا يجب ألا ننخدع كثيراً بالحجاب الذى ترتديه المرأة المصرية بكثرة فى أيامنا هذه، فنظن أنه يقترن برجوع المرأة إلى الوراء ، فالحقيقة غير ذلك تماماً ؛ لقد حققت المرأة المصرية فى الخمسين عاماً الماضية درجة تستحق الإعجاب حقاً من الاستقلال الاقتصادى ومن التفتح العقلى ومن الثقة بالنفس ومن الجرأة على التعبير عن نفسها ومشاعرها الحقيقية . وكما أن الحجاب ليس هو الدليل على الفضيلة ، بل الفضيلة توجد معه أو بغيره، فإنه ليس أيضاً عنواناً على التخلف العقلى كما يذهب البعض للأسف ؛ بل التخلف العقلى أو التفتح العقلى يوجدان أو ينعدمان بالحجاب أو بدونه . " [3]

. و ترصد الرواية أيضاً الازدواجية التى عانتها الشخصية المصرية، خاصة على مستوى القول والفعل، وتتمثل هذه الازدواجية فى : تغيير بعض الفئات الاجتماعية جلودها لكى تتناسب مع الأوضاع الجديدة، فهاهم الصحفيون الذين غيروا جلودهم لكى

---

١) الرواية، ص ١٨٥
٢) الرواية ، ص ١٨٥
٣) جلال أمين ، ماذا حدث للمصريين ، مرجع سابق ، ص ١٥٣ .

يحافظوا على مناصبهم، مهاجمين فى ذلك ما سبق من سياسات، ولك لإرضاء النظام الجديد وسياساته فى حال هؤلاء يذكر البطل " لإبراهيم " " ألم يتسابقوا على لعن سياسته (عبد الناصر) التى كانوا يسبحون بها لمجرد إرضاء السادات ؟.."[1] كما يحدثه عمَن " صعد نجمهم على غير توقع، وعمن أبعدوا دون إنذار تطبيقاً لسياسة السادات فى الصدمات الكهربائية .. "[2]

وتبدو هذه الازدواجية لدى هؤلاء الذين يقنعون البسطاء بمبادئ العدل والتضحية ثم تأتى أفعالهم مناقضة لأقوالهم، فى محاولة منهم لتزييف وعى الجماهير الغفيرة والتى تتحمل وحدها تبعات هذا الوعى المزيف . ففى محاولته فهم ما حدث له و لزوجته فى ظل تحولات المجتمع الهادرة، يُساءل البطل نفسه ويحاول إيجاد مبرر له فيقول لنفسه " لم أفعل سوى ما كان يفعله غيرى ! ... أن نقنع الآخرين بكلماتنا .. بالعدل والمساواة والثورة والتضحية ولكننا نعيش مع ذلك كله فى درجة أرفع . فى رفاهية أكثر كى يواتينا الإلهام ! لم أر ولم ير غيرى أى تناقض فى ذلك كله ... "[3]

. كما تعرض الرواية لبعض ردود الشعب المصرى لبعض الإجراءات التى اتخذها النظام فى فترة السبعينيات، مثل الانتفاضة التى قام بها الشعب فى ١٨، ١٩ يناير، وردود الفعل تجاه زيارة " السادات " للقدس وتوقيع معاهدة كامب ديفيد ١٩٧٩ .

" ماذا فعلنا ليلة زيارة القدس ؟ .. اعتبرنا أننا أدينا كل ما علينا حيث اجتمعنا فى المقهى وتناقشنا وصرخنا وبكينا . طظ ! ما علاقة هذا حقيقة بالثورة ؟ ... "[4]

أما فيما يتعلق بعلاقة الشخصية المصرية بجيرانها العرب فتشير الرواية إلى علاقات المقاطعة بين مصر والدول العربية، بعدما وقعت مصر على معاهدة الصلح مع إسرائيل .

فالبطل يوضح لإبراهيم أنه لم يكن من السهل عليه العمل فى بيروت، لأن الصحيفة التى يعمل بها فى مصر لم تكن لها مكاتب فى بيروت بعد هذا الصلح " لم

---

١) الرواية ، ص ٣١
٢) الرواية ، ص ٣٤
٣) الرواية ، ص ٤٢
٤) الرواية ، ص ص ٤٢ ـ ٤٣

تكن أمامى فرصة للاختيار . تعرف أن صحيفتنا ليس لها مكاتب فى أى بلد عربى منذ الصلح، وأنا احتاج للمرتب لكى أربى الأولاد .."[1]

وعندما يذهب "البطل" ليطلب مساعدة بعض السفارات العربية فى تنظيم المظاهرة التى يتزعمها ويشارك فيها بخصوص الحرب الدائرة فى لبنان، ترفض هذه السفارات تقديم المساعدة له ، بل قال له مستشار صحفى بشئ من التهكم " ولكن لماذا تهتم مصر بهذه المظاهرة ؟ .. ألم توقع على كامب ديفيد ؟ .."[2]

جـ صورة الآخر فى " الحب فى المنفى " : الوجوه المتعددة للغرب

تكمن وظيفة الغربة أو المنفى التى تقوم عليها رواية " الحب فى المنفى " فى كونها أداة يستطيع عبرها "البطل" مراقبة ورؤية الذات من مكان بعيد، وهى بذلك " تعين الراوى بواسطة عزله عن المجتمع وحياته اليومية، على أن يتأمل حياته ومجتمعه عن بعد، ويقدر من الهدوء النسبى . ومن هنا جاء صفاء الرؤية "[3] فيما يتعلق بنقد المجتمع وماينطوى عليه من ظواهر . أما فيما يتعلق بصورة الآخر، فهى ليست بالصورة أحادية الجانب، ولكنها ذات وجوه كثيرة، تختلف باختلاف المنظور الذى يتبناه منتج هذه الصور و يمكن الكشف عن هذه الصور، من خلال المحاور التالية:

الغرب نظام متعدد من الصور

نقد الوضع العربي من خلال الآخر

التقاطب بين الشخصية المصرية والآخر

صورة المرأة فى الحب فى المنفى .

المحور الأول : الغرب :نظام متعدد من الصور :-

فالصورة التى يظهر بها الغرب فى "الحب فى المنفى" ليست صورة واحدة، ولكنه يطل علينا بأكثر من وجه وأكثر من صورة . وتتمثل هذه الوجوه فى . الغرب / العدو المستغل : وصورة الغرب باعتباره العدو المستغل، الذى لا يسعى إلا لإقهار الشعوب الضعيفة الفقيرة، هى صورة تستمد من الخلفية التاريخية المترسخة فى أذهان هؤلاء

---

١) الرواية ، ص ٣٩

٢) الرواية ، ص ٢٢٧

٣) محمد مصطفى بدوى، الحب فى المنفى لبهاء طاهر، المجلس الأعلى للثقافة، مؤتمر القاهرة للإبداع الروائى، فبراير ١٩٩٨، ملخصات الأبحاث والشهادات، القاهرة ، مكتبة القاهرة الكبرى، ١٩٩٨، ص ٥

الذين رأوا فيه صورته الاستعمارية القديمة . وتتضح هذه الصورة لدى أنصار كل من: الاتجاه القومى، والتيار الإسلامي، فبالنسبة للاتجاه القومى، نجد " البطل " ومن خلال إقامته لفترة طويلة فى إحدى مدن الشمال يدرك أن الغرب سواء أكان يميناً أم يساراً فهدفه قهر الشعوب الأضعف، لذلك يقرر " إننى لا أرى فرقاً هنا بين يسار ويمين، وأنهما عندما يتوليان الحكم يتساويان على الأقل فى استغلال بلاد عالمنا الفقير ويبتزوننا بالديون ... " [1] (*)

وفى حديثه مع " إبراهيم " عن غزو أندونيسيا وتشيكوسلوفاكيا يقول له " دماء الأمم الفقيرة لا تهم ولو كانت دماء ملايين ... " [2]

فالغرب هنا ينظر إليه على أنه يحارب تكوين كل دولة قومية، ويسعى دائماً لإقامة الفرقة والتشرذم بين أبناء الوطن الواحد، وفقاً لمبدأ فرق تسد . فهذا ما يؤمن به البطل لذلك نجد زميله " إبراهيم " يعترض على قوله أنه ترك السياسة قائلاً فى غضب " .. وقولك لى مرات ومرات أنهم بنوا قوتهم فى الغرب بفضل الدولة القومية، وأنهم يحاربون الآن وحدتنا لكى لا نصبح أقوياء مثلهم ! .. " [3]

وتتشابه هذه الرؤية مع رؤية أنصار التيار الإسلامى، وإن كانت المنطلقات الفكرية لديهما تختلف اختلافاً كبيراً . " فيوسف " وبعد استقطابه من قبل الأمير العربى، يردد هذا الفكر فى إحدى مقابلاته مع البطل " هذه الدنيا يا أستاذ غابة مليئة بالوحوش، ولن ينقذنا إلا أن نصبح أقوياء، ولن نصبح أقوياء إلا إذا استخدمنا عقولنا ورجعنا إلى ديننا وإلى أصلنا ... " [4] وذلك فى قطيعة معرفية مع الغرب .

---

١) الرواية ، ص ٣٨

(*) يؤكد الأديب على هذه القضية فى مؤلفه أبناء رفاعة ، ويعرض للأسباب التى تدفع الغرب لاتخاذ هذا الموقف من العرب والمصريين وغيرهم من أبناء العالم النامى . كما أنه يؤكد من خلال المقابلة معه أنه من خلال خبرته وإقامته فى أكثر من دولة أوروبية، أن نسبة من يتعاطفون مع هؤلاء من الغربيين لا تتجاوز ٢٠ أو ٢٥ فى المائة . يراجع فى ذلك : -

- بهاء طاهر ، أبناء رفاعة ، القاهرة ، كتاب الهلال ، العدد (٥١٤) ، دار الهلال ، ١٩٩٣ .
- مقابلة مع الأديب

٢) الرواية ، ص ٥٤

٣) الرواية ، ص ٥٦

٤) الرواية ، ص ٢٢٥

ـ الغرب العنصري :وتتضح هذه العنصرية في المواقف التي يتخذها الغرب من الذين لا ينتمون إليه، وهي عنصرية تشمل الاحتقار لغير الغربيين .وتمتلئ الرواية بعدد من هذه المواقف العنصرية، فـ" بريجيت " تحكي للبطل عن رفض والدها وزملائها الطلبة في الجامعة وأهل بلدتها الزواج من الشاب الأفريقي " ألبرت " الإفريقي الذي يدرس معها في الجامعة، فالطلبة ينادون الأفارقة وجميع أفراد الجنس الأسود بعبارات غليظة، وها هم أهل البلدة يقاطعون الجمعية التي كونها " ألبرت " باسم " من أجل عالم واحد " " حتى الذين كانوا يخفون عنصريتهم أصبحوا يتباهون أيامها بأنهم ضد وجود السود في البلد ويظهرون العداء لكل الملونين .. "[1] أما أبوها فاعتبر أن زواجها منه " دنس للجنس الأبيض كله لا يغفره أحد.."[2] وبعد الزواج الذي انتهى بالفشل لم يعد أحد يزورهم في منزلهم . أما عن الاضطهاد في الجامعة فتذكر " كان الطلاب يسيرون خلفنا في مجموعات لا ينطقون ولكنهم يلاحقوننا في كل مكان بنظرات الكراهية.."[3]

وتشير الرواية لبعض الإجراءات التي يتخذها الغرب العنصري ضد العرب وشعوب العالم الفقير، ففي المظاهرة التي ينظمها البطل، يقوم أستاذ جامعي غربي ليعلن عن استغلال الغرب وشركاته الكبيرة لبلاد العالم الثالث، وأن البلاد الفقيرة تدفع ثمن رفاهية البلاد الغنية .[4]

ويظهر الغرب الأمريكي هنا كغرب عنصري يحابي إسرائيل على حساب العرب ، بالرغم مما يشيعه عن نفسه بأنه المنادي بالحرية والمساواة وحقوق الإنسان فأمريكا (الغرب) تدفع لإسرائيل في حربها على لبنان سبعة ملايين دولار من المعونات يومياً وذلك لتستخدمها إسرائيل لقتل " الأطفال والنساء في بيروت ... "[5]

وفي التشبيه بين ما فعلته أمريكا بالهنود الحمر، وبين ما تفعله إسرائيل بالعرب بمساعدة أمريكا، يتحدث الأستاذ الجامعي في المظاهرة قائلاً " ... ألم تعط أمريكا

---

١) الرواية ، ص ١١١
٢) الرواية ، ص ١١٢
٣) الرواية ، ص ١١٢
٤) الرواية ، ص ٢٣١
٥) الرواية ، ص ١٣٤

العرب إلى إسرائيل لكى يلعبوا بهم هنوداً حمراً ؟ ..... إن قتلت منهم إسرائيل الآلاف فهم مجرد أرقام، وإن سقط إسرائيلي واحد فهى الكارثة والإرهاب ! " [1]

- إزدواجية الغرب وتناقضه : -، فالغرب الذى ينادى بالحرية فى الرأى والتعبير، يطارد " إبراهيم " الشيوعى، ويراقبه فى كل مكان ينهب إليه، وحينما يعلم بهذه المراقبة من البطل، يضحك مردداً " غير معقول ! حتى ..هنا ؟ ..وبالذات هنا ! أتظن أنك تأتى مندوباً لصحيفة فلسطينية ويسارية أيضاً، ثم تتركك الديمقراطية تغيب عن عينها ؟ .. [2]

كما أن الصحيفة التى يعمل بها صديق " البطل " برنار الصحفى ترفض نشر الصور والشهادات الحية والأسماء الخاصة بحالات لبنانية عربية تعرضت للتعذيب من قبل إسرائيل، وذلك مغبَة اتهامها بمعاداة السامية وتشجيع الإرهابيين . وتعرض الصحيفة للحقائق ناقصة، فهى تتحدث عن استخدام إسرائيل للقنابل المحرمة دولياً ضد المدنيين فى لبنان، إلا أنها مع ذلك لا تتحدث عن أمريكا التى تمدها بهذه الأسلحة لكى تجربها فى لبنان، كل ذلك مخافة من ردود الفعل الأمريكية، و فى ذلك يذكر " برنار " للبطل : " وتريدنا أن نذكر أمريكا أيضاً ؟ ... ألا تكفى رسائل الاحتجاج التى تصلنا من أصدقاء إسرائيل ... ؟ هل تريد رسالة احتجاج من أمريكا نفسها ؟..تريد أن نغلق الصحيفة؟ " [3]

ومن أبرز تناقضات الغرب، أنه ينسى دائماً أن له دوراً كبيراً فى الأزمات المتوالية التى يعانى منها العالم، فالغرب يدعى لنفسه محاربة العنصرية وهو يساندها وهو ينادى بحقوق الإنسان، ثم يهدر هذه الحقوق بما يتفق ومصالحه . ويتأكد هذا الكلام من خلال شخصية " برنار " الذى ينتقد هذا الموقف المزدوج للغرب : " حاول مرة أن تكتب مقالاً حقيقاً عن دورنا فى أزمة هذا العالم الذى نذرف عليه الدموع ! ... حاول أن تعطى لما يحدث فى لبنان الاسم الذى يستحقه ! ... أين هى الحرب فى هذه المذبحة اليومية إسأل ... هل رأيت أحداً فى صحفنا استطاع أن يسأل ؟ " [4]

---

٦) الرواية ،ص ٢٣٢

١) الرواية ، ص ٣٨

٢) الرواية ، ص ٢٠٢

٣) الرواية صص ٢٠٢ – ٢٠٣

. الغرب / الصورة المثال : وهى الصورة النمطية عن الغرب ويتبناها فى الرواية التيار الماركسى، الذى يرى فى الغرب وحضارته المثل الأعلى، خاصة الغرب الاشتراكى . فى ذلك يتحدث " إبراهيم " محاولاً اقناع " البطل " بهذه الصورة " لو عرفت بعض اليساريين لرأيت صورة مختلفة من الحياة ... إننى أعيش فى أوروبا دون أن أراها، وإنها مازالت رغم كل شئ هى الأمل فى المستقبل ... أنا لا أتكلم حتى عن العلم أو عن الحضارة، بل عن الإنسانية ذاتها يا صديقى " [١]

- الوجه الإنسانى للغرب : وهو أحد الوجوه التى ترتسم للغرب فى هذه الرواية . واستطيع تلمس ملامح هذا الوجه الإنسانى للغرب فى عدة شخصيات ترمز له : فهناك الممرضة النرويجية " ماريان " التى تعود من لبنان، وتحكى فى أحد لقاءاتها مع " البطل " الفظائع اللاإنسانية التى يتعرض لها السكان هناك . وكانت قد ذهبت إلى لبنان كما تقول بناءاً على إعلان فى الجرائد، فهى قد ذهبت للمساعدة دون أن يكون لها مذهباً سياسياً معيناً تعتنقه فهى تعلن للبطل : " لست شيوعية ولا يسارية ولا عضوة فى بادرما ينهوف، ولا فى الجيش الأحمر كما كان يقول لنا الإسرائيليون على سبيل الإهانة . لست عضواً فى أى حزب أو منظمة من أى نوع ... " [٢] . إن هدفها إنسانى بحت دون الالتجاء إلى عنصر أو دين، فهى تروى ما رأته قائلة " لم أصدق أن شعباً بأكمله يمكن أن يكون مباحاً للقتل، وأن يكون دمه رخيصاً إلى هذا الحد ... " [٣]

ويمثل " برنار " الصحفى وصديق " البطل " هو الآخر هذا الوجه الإنسانى للغرب، فهو يهتم بأمور المظلومين من أبناء العالم الثالث ويحاول أن يقف فى وجه الظلم الإنسانى الذى يتعرض له البشر فى كل مكان، مستخدماً قلمه الشريف فى ذلك، بالرغم مما قد يتعرض له من متاعب . فهو ينتقد موقف إسرائيل ويشبه الجرائم التى ارتكبتها فى صبرا وشاتيلا ومخيم عين الحلوة وغيرها بأنها تفوق الجرائم التى ارتكبها هولاكو وهتلر فى سنين ويبلغ انتقاده ذروته لحد اعترافه صراحة أنه معاد للسامية " أفهم بالطبع بعد هذه الكلمة أنى معاد للسامية، فلا داعى لأن يكتب أحداً لكى ينبهني إلى ذلك . " [٤]

---

١) الرواية ، ص ٣٨

٢) الرواية ، ص ١٣٢

٣) الرواية ، ص ١٣٢

٤) الرواية ، ص ٢١١

المحور الثانى : نقد الذات العربية من خلال الآخر :

تتخذ الرواية من أحداث الحرب اللبنانية فى الثمانينيات محوراً خاصاً، تحاول من خلاله إبراز أوضاع الفرقة والتشرذم التى يعانى منها أبناء الوطن العربى فمع وقوع الحرب وتداعياتها وما يتعرض له الشعب العربى هناك من إبادة على يد الإسرائيليين، ووقوف الدول العربية صامتة إزاء هذا العدوان، تذكر إحدى الصحف العربية التى تصدر فى باريس " حتى متى الصمت ؟ ماذا جرى. أين ضاعت النخوة التى تجعل الإنسان ينتفض لنجدة أخيه ؟..."[1]

هذا الموقف السلبى من جانب العرب هو ما يجعل "إبراهيم" ينتقد مفهوم العروبة الذى تم اختزاله فى هذه الفترة ليصير مجرد شعارات جوفاء تردد بلا معنى، ففى حين يتوافد المتطوعون والمتطوعات من العالم الغربى لمناصرة الناس فى بيروت وفلسطين وهم على قناعة بمصيرهم الذى ينتظرهم هناك، فإن الأمر يختلف تماماً بالنسبة للعرب . فى ذلك يتحدث " إبراهيم "للبطل قائلاً" فى المستشفيات وفى المخيمات فى بيروت رأيت ممرضات متطوعات من السويد ومن هولندا ومن إنجلترا ومن بلاد أخرى كثيرة فى أوروبا يعرفن ما الذى ينتظرهن وسط الحرب الأهلية والقتل .. أتحدث عمن يتطوع، عمن يعطى من نفسه للآخرين بالفعل لا بالكلام العالى الصوت .. نعم أعرف من العرب عشرة أطباء متطوعين أو عشرين أو ثلاثين . مائة فدائى أو مائتين أو ألفا . ولكن هل هذه يا صديقى هى العروبة التى عشت تحلم بها ... "[2]

وتنتقد الرواية موقف اللامبالاة فى البلدان العربية وردود أفعالها السلبية تجاه هذه الحرب . فكل منها تنشغل فى المقام الأول بأمورها الداخلية، دون مراعاة لما يحدث فى بيروت، فالكل يستنكر ويشجب ما يحدث ثم لا يحرك ساكناً . فى ذلك يذكر البطل " مصر تعرب عن الأسف واللجنة الاقتصادية تعقد اجتماعاً لبحث الخطة الخمسية وصور تسقط وصيدا تسقط ... والسعودية تعرب عن الأسف وتعلن ثبوت رؤية الهلال وتبعث رسائل للملوك والرؤساء . والجزائر تستنكر وتعلن تيسيرات جديدة للمستثمرين الأجانب ... وفى غير بيروت لا شئ يحدث .. "[3]

---

١) الرواية ، ص ١٣٤

٢) الرواية ، ص ٣٨ ـ ٣٩

٣) الرواية ،ص ص ١٢٣ ـ ١٢٤

المحور الثالث : صورة المرأة فى الحب فى المنفى : -

تمثل المرأة هنا الوجه الإنسانى الذى به يتمنى البطل الخلاص من همومه الذاتية والمجتمعية، سواء فى غربته أو فى جراحه التى خلفها له الوطن . لكن يظل هذا الوجه الإنساني مطموساً خلف الوجوه والصور الأخرى للغرب، مما يعنى فى النهاية عدم إمكانية التواصل أو الوصول إلى صيغة " المركب من النقيضين " الذى يكون شيئاً مختلفاً عن المركبين اللذين أسهما فى تكوينه . نعم قد يتلاقى الطرفان، لكنه لقاء سرعان ما يتلاشى حيث تحكمه من الآليات الخاصة بكلا الطرفين، ما يجعلهما كيانين مختلفين عن بعضهما البعض . والمرأة هنا التى يتركز حولها العمل هى " بريجيت " النمساوية التى تعمل مرشدة سياحية فى المدينة (ن) المغترب فيها " البطل" . يتعرف عليها فى المؤتمر، وتنمو العلاقة بينهما شيئاً فشيئاً، لتصل إلى ذروتها ثم تبدأ فى التلاشى من جديد، لتعلن عدم إمكانية قيام تواصل حقيقى بينهما . فالاختلافات كبيرة بينهما، فهو الرجل المسن المريض، وهى الشابة الجميلة " طويلة منتصبة القامة. وأرانى خلفها بخطواتى البطيئة وثوبى الداكن نقيضين كاملين وقلت لنفسى هازئاً: الربيع والخريف . النهار والليل ... " (١)

ولأنه يدرك منذ البداية، تعثر محاولته معها، نجده يستهل الرواية قائلاً " اشتهيتها اشتهاءاً عاجراً، كخوف الدنس بالمحارم . " " كانت صغيرة وجميلة وكنت عجوزاً وأباً ومطلقاً . لم يطرأ إن الرغبة فى البوح، كانت هى الجسر الذى من خلاله أفضى كل من " البطل " و" بريجيت " بما يشغله من جراح وآلام، فى ذلك يذكر " لم أكن أعرف أيضاً لماذا أشعر بالرغبة القاهرة فى أن أتكلم عن نفسى وعن همومى ... " (٢) . وبالرغم من شعوره ببعد العالمين اللذين ينتمى كل منهما إليه، إلا أنه يحسها تنفذ إليه " لماذا استطاعت حكايتها البعيدة عن عالمى وعن كل ما أعرف أن تنفذ إلى قلبى بهذا العمق ؟ .. فهمت حكاية عالمك النائى عن دنياى .." (٣)

إن التطور الذى طرأ على النظرة للمرأة فى " الحب فى المنفى " يكمن فى أن " البطل " لم ينظر إليها فى حدود جنسها كامرأة أو فى حدود جسدها المادى، بل إن

---

١) الرواية ، ص ٥٨
٢) الرواية ، ص ١٢٠
٣) الرواية ، ص ٦٥

نظرته الرومانسية الحالمة، جعلته ينظر لها كند ونظير، لها آلامها وأحلامها، كما أن له آلامه وأحلامه . ولهذا نجده يقول : " ولعلها هى أيضاً شعرت أن هناك شيئاً آخر يربطنى بها – غير الاشتهاء والحب – جعلها تحكى لى بكل بساطة منذ الليلة الأولى فى شقتها فرايتها وعرفتها .. " [١] من هذا المنطلق، تمثل " بريجيت " محاولة للتواصل، لكنها كما سبق محاولة فاشلة، فهى تخبره برغبتها فى إنجاب طفل منه " طفل هو أنت وهو أنا .. نعلمه أن يحب الأشجار والزهور والشعر ... " [٢] وهنا يعلق " البطل " " تبحث عن طفل مستحيل فى عالم مستحيل " [٣]

٣. امريكانللى (صنع الله إبراهيم) ٢٠٠٣ :

أ – توصيف الرواية ودلالتها العامة :

تدور أحداث رواية " أمريكا نللى " حول سفر أحد أساتذة الجامعة المصريين " شكرى "، أستاذ التاريخ المقارن للتدريس فى أحد المعاهد المتخصصة فى أمريكا، بناءً على دعوة وجهها له زميله المصرى " ماهر " مدير هذا المعهد . ومن خلال هذه الرحلة إلى أمريكا، يتعرف " شكرى " أستاذ الجامعة على المجتمع الأمريكى الحقيقى، حيث الوجوه الكثيرة التى يتبدى خلالها هذا المجتمع .

إنه مجتمع كرنفالى بحق، يضم تنويعات مختلفة من البشر . ويحتوى على عوالم متباينة أشد التباين، يتعرف عليها " البطل / شكرى " من خلال معاملاته اليومية، ومن خلال الحلقات النقاشية التى يعقدها مع طلابه ذوى الأصول العرقية القومية المختلفة: "فادية "ذات الأصل المصري، "روزيتا" ذات الأصل الإيطالي، و"سابك" ذو الأصل الهندي و" موينا " اليهودية و "شارلى" الأمريكية و "فرنون عبد الرحمن" الزنجى المسلم . ومن خلال ما يعده كل من هؤلاء من مناقشات وبحوث ينبنى عالم الرواية الذى يضم حقائق مختلفة ليس فقط عن المجتمع الأمريكى أو الغربى، ولكن عن المجتمع المصرى والعربى بصفة عامة والرواية، بهذا الشكل هى سجل يضم العديد من الأحداث والمواقف التى تشمل التاريخ والإنسان والعالم، فى حلقات متصلة . قديماً وحديثاً، شرقاً وغرباً .

---

١) الرواية ، ص ١٠٧
٢) الرواية ، ص ١٨١
٣) الرواية ، ص ١٨٢

ويضم الإطار الزمنى للرواية، عدة أزمنة : فهناك الزمن الماضى الذى ينقسم بدوره إلى : الماضى البعيد (الفتح العربى لمصر، وعهد صدر الإسلام والعصر الفرعونى، فترة حكم حتشبسوت . تاريخ مصر الحديثة منذ عهد محمد على). وهناك الماضى القريب (المتمثل فى زمن ثورة يوليو وما تلاها من سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين)، يوجد كذلك الزمن الحاضر (المتمثل فى فترة التسعينيات من القرن العشرين)، حيث يسافر البطل "شكرى" إلى أمريكا فى عام ١٩٩٨ للتدريس هناك . أما عن الزمن المستقبل فيمتد حتى عام ٢٠٠٠ وما بعدها، أى فترة سياسات العولمة والكونية.

ويشمل الإطار المكانى : المجتمع الأمريكى، خاصة مدينة كاليفورنيا التى يقيم بها " شكرى "، بالإضافة لوجود أماكن أخرى عديدة تشملها الرواية، سواء فى مصر أو فى أمريكا، فالمكان يمتد ليشمل مصر كلها، وأمريكا كلها باعتبارهما فضاءين مكانيين متباينين شكلاً ومضموناً .

ب – صورة الشخصية المصرية كما ظهرت فى " أمريكا نللى " :

تظهر فى " أمريكا نللى " ثلاث صور للشخصية المصرية . أحاول تفصيلها فيما يلى :

الصورة الأولى : صورة البطل :

ويمثل هذه الصورة " شكرى " الأستاذ الجامعى . شخصية موسوعية، قارئ جيد للتاريخ ويحاول استقراءه بطريقة مختلفة، فهو يرى التاريخ " علم حى وليس مجرد قائمة بالأحداث"[(١)]

ووفقاً لهذا المبدأ ، ينأى عن التفسير السطحى لحوادث التاريخ، الذى يقف أنصاره عند الملامح الشخصية والنفسية وأثرها على ما يقع من أحداث . " وشكرى " شخصية ليست مسطحة، بل إنه شخصية إشكالية، تطرح كثيراً من القضايا . يحاول من خلال الحلقة النقاشية مع طلابه " تبيان العوامل المختلفة التى ساهمت فى تكوينه كمؤرخ محدد . "[(٢)] أى أنه فى عرضه لسيرته الذاتية فى علاقتها بأحداث الوطن، يحاول تقديم التاريخ الشخصى له كمؤرخ عربى معاصر قضى أكثر من

---

١) صنع الله إبراهيم، أمريكا نللى، القاهرة ، دار المستقبل العربى، ٢٠٠٣، ص ٣١٨
٢) الرواية ،ص ١٣٣

ثلاثين عاماً في المهنة " وتتبع العوامل التى ساهمت فى توجيهه إلى دارسة التاريخ واعتماده منهجاً معيناً فى أبحاثه .. " (٣)

ويطغى على هذه الشخصية الإحساس المتضخم بالذات، فهى شخصية متمركزة حول ذاتها بشكل كبير، وهو يسرد حياته الشخصية فى ارتباطها بالأحداث العامة، بطريقة تشعر القارئ بأنه الرجل الأوحد فى هذا العالم، حتى إنه فى بداية تكوينه الثقافى وشخصيته العلمية كانت وسيلته " تكوين أرشيف من الصور العارية للنساء .. " (١) التى حدث أنها كانت تنشر بالتوازى مع صور الزعماء السياسيين وفضائحهم " هكذا اتسع أرشيفى بالتدريج ليضم شخصيات سياسية، كما اتسعت اهتماماتى وامتدت إلى الصحف التى حملت لواء المعارضة للملك وكبار الملاك، ودعت إلى طرد الإنجليز من قواعدهم بمنطقة السويس وإنهاء احتلال دام سبعين سنة . " (٢)

و يمثل" شكرى " الشخصية المصرية، التى عايشت تحولات مختلفة مر بها المجتمع منذ قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ م وما أحدثته من تغيرات فى بنية المجتمع المصرى، ثم هو أيضاً معاصر لفترة السبعينات التى كثرت فيها أزماته الشخصية خاصة ما يتعلق بدراسته و حياته الخاصة، أما فترة الثمانينيات والتسعينيات وما بعدها، فكلها تحمل له إحساساً عميقاً بالأزمة الشخصية والمجتمعية، وهو لذلك يرصد ما يحدث حوله من بعيد، دون تدخل منه أو مشاركة فعالة غير الرصد والتحليل، فقد هجر السياسة منذ زمن بعيد، حينما كان صبياً وسار فى إحدى المظاهرات ضد الملك، وعندما حضر أحد الاجتماعات المنادية بالاستقلال نالته صفعة هائلة من قائد الشرطة، جعلته يهجر العمل السياسى إلى الأبد.

الصورة الثانية : صورة الجماعة (الشخصية الاجتماعية) :

والجماعة الأكثر بروزاً فى هذه الرواية التى تمثل الشخصية الاجتماعية هى المثقفون، على اعتبار أنها الجماعة التى ينتمى إليها بطل الرواية "شكرى"، وهو الأمر الذى يجعله قادرا على رصد تحولاتها، من خلال مقارنته بين وضع المثقف فى فترة الستينيات، وبين وضعه فى السبعينيات وما بعدها، راصدا طبيعة العلاقة بين

٣) الرواية ، ص ٣٤
١) الرواية ، ص ٩٦
٢) الرواية ، ص ٩٦

المثقفين والسلطة فى هاتين الفترتين . فى ذلك يذكر " بعد عقد من التجارب والشكوك المتبادلة بين سلطة الثورة والمثقفين الليبراليين استطاع " عبد الناصر " أن يمد جسراً بين نظامه العسكرى والمثقفين الذين وجدوا مكاناً لهم فى مشروعات التصنيع والتحديث . لكن التعقيدات الداخلية والعدوان الخارجى أجهضا المحاولة وسرعان ما ألقت الطبقة بالراية وبدأ مد الراية فى الاتجاه المضاد . فمع صعود الحقبة النفطية وعلى جناح عوائدها الضخمة، جرت محاولة تجسيد العلاقة بين المثقف والأمير بدلاً من تجسيدها بين المثقف والثائر . ووجد كثير من المثقفين الطليعيين أمكنة لهم مربين لولى عهد أو مستشارين لملك أو سلطان أو ألسنة لأمير أو رئيس"[١]

تقترب هذه الصورة من تخوم الصورة التى حددها " هشام شرابى " للمثقف فى المجتمع الأبوى ، فهو يقرر أن العامل الذاتى ليس هو العامل الحاسم فى تقرير انتماء المثقف واتجاهه الفكرى والحياتى، بل الواقع التاريخى الذى يعيشه والسياق الاجتماعى والفكرى الذى يعمل ضمنه . وفى المجتمع الأبوى هذا الواقع وهذا السياق واضح المعالم . ففيه لا يمكن للمثقف حتى ولو لم يكن راديكالياً وثورياً إلا أن يهدف بشكل أو بآخر إلى التأثير فى النظام القائم (لكنه فى الوقت نفسه يحاول الابتعاد عنه وعدم التعرض له مباشرة خشية بطشه) . وهذا ينطبق على الواقع القائم فى الأنظمة الأبوية كافة، المحافظة منها والتقدمية، الأمر الذى يدفع الكثيرين من المثقفين نحو الإنصراف إلى الأمور الشخصية وبالتالى الابتعاد عن مجابهة الواقع السياسى المعاش[٢]

وتعرض الرواية لشخصية (حلمى) باعتبارها شخصية (مضادة) لشخصية " شكرى " فهو نموذج للمثقف المتسلق الذى يتلون بأطياف كثيرة تبعاً لما يحقق مصلحته الذاتية . أى أنه مثقف لكل العصور . ففى الستينيات كان ينتمى لإحدى المنظمات الشيوعية السرية، لكنه انقلب عليها وهاجم الشيوعيين بعد تخرجه من الجامعة، وتعينه معيداً فى نفس القسم الذى تخرج منه " شكرى " . فى ذلك يقول " شكرى " "و ظهر لأول مرة فى بزة جديدة كاملة . "[٣] فقد كان هو الآخر، من أبناء

---

١) الرواية ، ص ٤٥٥

٢) هشام شرابى ، النقد الحضارى للمجتمع العربى ، مرجع سابق ، ص ٨٦ .

٣) الرواية ، ص ١٣٣

الطبقة الفقيرة، "يرتدى ملابس لا تناسبه ويخلو جيبه من النقود . "[٤] وهذه الإشارة للملابس هذه الشخصية توضح ما أشرت إليه سابقاً من كون الملبس يعد دالة يمكن من خلالها معرفة الوضع الطبقى لصاحبها .

واستطاع "حلمى " أن يصل لمنصب مساعد رئيس منظمة الشباب التى شكلتها الحكومة عام ١٩٦٥ . وشاع عنه أنه يكتب تقارير أمنية عن الطلبة . وتكرر ظهور اسمه فى الصحف والندوات والمؤتمرات " فقد كانت النخبة الحاكمة تلتقط من هو قادر على تقديم غطاء نظرى لسياستها القومية المعادية للاستعمار ولسيطرة رأس المال بعيداً عن الشيوعية والشيوعيين."[٢]

وعن تناقضات هذا النوع من المثقفين يوضح النص السلوكيات المتضاربة التى يقوم بها " شكرى " فهو يعود للظهور فى التسعينيات، بعد عودته من العمل فى جامعات العراق، حيث كان من المدافعين عن الحرب ضد إيران، وعن غزو الكويت عام ١٩٩٠ . وفى نفس الوقت كان يتقرب من الكويتيين أنفسهم، فها هو البطل يذكر " ولمحته مرة فى فندق شيراتون وسط مجموعة من الكويتيين الذين أقاموا به إلى أن حررت لهم القوات الأمريكية بلادهم .. " [٣]

بعد عودته يتملق أصحاب السلطة فى مصر، فيشرف على رسالة زوجة رئيس الوزراء التى تعدها لنيل درجة الدكتوراه . ويمكنه وضعه من الإشراف على توفير الكتب والمراجع للطلبة، إلا أنه يستخدم هذا المشروع لتحقيق أرباح مالية له بالدرجة الأولى .

الصورة الثالثة : صورة الشخصية القومية المصرية:

لا يمكن عرض الصورة التى ظهرت بها الشخصية المصرية فى " أمريكا نللى " بالاقتصار على الفترة من (منتصف السبعينيات — ٢٠٠١) م . وذلك لأن النص غنى بالإشارات الواضحة التى تعرض لهذه الشخصية فى أبعادها التاريخية والمعاصرة على حد سواء ولهذا فإننى أعرض لصورتها من خلال قضيتين أساسية :

القضية الأولى : الخصائص العامة للشخصية المصرية

---

٤) الرواية ، ص ١٣٠

١) الرواية ، ص ٢٠٧

٢) الرواية ، ص ٣٧٤

القضية الثانية : تحولات الشخصية المصرية منذ السبعينيات وما تلاها .

. القضية الأولى : الخصائص العامة للشخصية المصرية . وفيها يحاول البطل كمؤرخ أن يفسر الملامح والخصائص التى تميز الشخصية المصرية فى عمومها . عارضاً وجهة نظره هذه من خلال نقده وتحليله لمجموعة من الكتابات المتعلقة بهذا الموضوع، منها على سبيل المثال : كتابات جمال حمدان وأحمد صادق سعد .

وبداية يرى " البطل " أن المركزية الشديدة والقهر المتواصل على يد الغزاة الأجانب من الأسباب الهامة التى يمكن فى ضوئها تفسير تحولات هذه الشخصية . كما أن الانقطاع والانكسار الذى تم فى تاريخ هذه الشخصية يعتبر لحظة فاصلة فى تاريخها " وسواء أكان الانقطاع والانكسار فى التاريخ المصرى قد حدث عند سقوط الدولة الفرعونية أو عند تغيير اللغة فإنه قد تمحض عن انكسار فادح فى الشخصية المصرية .. " [١] وفى ذلك يرى " شكرى " أن المصرى احتفظ بصفاته التقليدية التى ولدها النظام النهرى الفيضى :كالكرم والشهامة والتسامح والاتزان فى القول والعمل والتأنى وعدم التهور . ومع ذلك عمل الاحتلال المتواصل على إبراز سمات جديدة نفذت إلى صميم الشخصية " الأسى والحزن اللذين طبعا أغانيه وموسيقاه، والإيمان بالمصادفة والحظ المكتوب واحتقار العقل والمنطق، وإلغاء الإرادة والمبادرة، والحماس المفاجئ الذى يعقبه فتور نابع من إحساس باللاجدوى . " [٢]

وهذه الملامح أو الخصائص التى صاغها المؤلف على لسان شخصية " البطل " هى ملامح وخصائص واقعيةتدعمها نتائج دراسات كثيرة، وهو يربط بين ظهورها وبين عوامل خارجية متمثلة فى الاحتلال المتواصل وتغيير اللغة . وهذا تفسير قد يبدو قاصراً فى فهم شخصية الشعوب، إذ أن كل البلاد التى خضعت للاستعمار أو غيرت لغتها لا تأخذ هذه الصفات . وهو الأمر الذى يوحى بوجود عوامل داخلية تتكاتف مع هذه العوامل الخارجية فى إحداث وظهور هذه الصفات .

وفى ذلك يرى عاصم الدسوقى " أن التدين هو العامل الحاسم فى تحديد تلك الملامح وكذا الظروف الطبيعية، التدين الذى جعل المصرى منذ زمانه ينتظر

---

١) الرواية ، ص ٤٠٨

٢) الرواية، ص ٤٠٨

الفرج من السماء ... والطبيعة السهلة غير الغادرة التى طبعته بالتواكل والاعتماد على ما تجود به.."[1]

وتشير الرواية على لسان " فادية ". الطالبة التى تقوم بتقديم قراءة لجغرافية مدينة القاهرة . لسمة التدين فى المجتمع المصرى باعتباره سمة أساسية من سمات الشخصية المصرية، وأن محاولات التغريب التى شهدها المجتمع هى السبب فى فشل المشروعات التحديثية فى مصر . " قالت : إن جغرافية " القاهرة " وتاريخها يؤكدان أن التدين هو سمتها الأساسية، وأن التغريب أدى إلى فشل مشروعات التحديث . "[2] وهذه العبارة تحتاج لبيان ما يعنيه التغريب، فإذا كان يعنى التثاقف مع الغرب، فإن الأمر يحتاج لوقفة . فليس التغريب وإنما هجوم الغرب (مرحلة الاستعمار) هو السبب فى تعطيل نمو قوة مصر الذاتية، وهذا يعنى أن مصر لو تركت لحالها لكانت سوف تتطور من حالة إلى أخرى حسب مقتضى الحال . والدليل على ذلك أن المشاريع التحديثية التى قام بها كل من محمد على والخديوى إسماعيل ثم جمال عبد الناصر، باءت بالفشل، لأنها كانت تتناقض مع أهداف الغرب الاستعمارى " وإذا فهمنا أن التغريب يتناقض مع التدين كما توحى (العبارة السابقة) ومن ثم فشل مشروعات التحديث، وأن التدين فى مصر قديم قدم البشرية حتى قبل نزول الأديان السماوية، فإن هذا قد يعنى أننا أمام حتمية تحول دون التحديث، تشبه القول بحتمية الجغرافية "[3] فى فهم الشخصية المصرية .

وتوضح الرواية أن خصائص الاستقرار والاستمرار والثبات هى خصائص تتميز بها الشخصية المصرية وإليها يعود الفضل فى تكوين الحضارة، ومنها تنبع " القدرة العجيبة على استيعاب الغزاة .... "[4] كما يشير لخاصية الاستبداد التى تتعرض لها الشخصية المصرية على طول تاريخها، فيأتى ذكر " قراقوش " الذى

---

٣) عاصم الدسوقى، مناقشة الأبعاد التاريخية فى رواية صنع الله إبراهيم "أمريكا نللى" الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ٨ فبراير ٢٠٠٤ ، مخطوطة حصلت عليها الكاتبة منه شخصياً

١) الرواية ،ص ٢٣٧

٢) عاصم الدسوقى، مرجع سابق

٣) الرواية ، ص ص ١٥٧ – ١٥٧

أشرف على بناء قلعة صلاح الدين، والذى صار اسمه مرادفاً للاستبداد . فى ذلك يعلق " شكرى " تعليقاً ذهنياً " هل جمع الإثنان بذلك خلاصة التاريخ المصرى ؟ " [١] مشيراً فى ذلك " لصلاح الدين " كرمز لمقاومة التدخل الأجنبى، ولـ " قراقوش " كرمز للاستبداد .

. القضية الثانية : تحولات الشخصية المصرية منذ السبعينيات وما تلاها :

وتعرض الرواية لمقارنات عديدة بين فترة الستينيات (حكم عبد الناصر) وفترة السبعينيات (حكم السادات) وفترة الثمانينيات حتى بداية القرن الحادى والعشرين (حكم مبارك) . ولأن الفترة التى اهتم بها هنا هى من بداية السبعينيات فإن التركيز سوف يتم عليها وما تلاها من فترات .

ف "فادية" فى حديثها عن " جغرافية مدينة القاهرة " تشير إلى عمليات الهجرة الداخلية من الريف للمدينة، وتركزها فى القاهرة " لأن كل شئ مركز بها " [٢] ونتيجة لسياسة الانفتاح والهجرة الداخلية والخارجية على السواء، حدثت تطورات كان من نتائجها كما تذكر " صعود نخبة من المضاربين والسماسرة ووكلاء الشركات الأجنبية قفزت على تضحيات البلاد واستغلتها لصالحها وتخلت عن أى خطط استراتيجية للتنمية فى صالح المكاسب الآنية ... " [٣]

كما نجد " شكرى " فى عرضه لتاريخه الشخصى يذكر فترة السبعينيات حيث مجتمع الجامعة الذى يموج بالحركات الطلابية والاعتصامات التى تطالب بشن الحرب من أجل تحرير الأراضى المحتلة، وكذلك يذكر اقتحام قوات الأمن المركزى للجامعة لفض هذه الاعتصامات . وهو الوقت الذى ظهرت فيه الجماعات الإسلامية . فى موقفه وتصويره لهذه الأحداث يذكر " قبعت فى المكتبة نائياً بنفسى عن كل هذا ...... وظهرت جماعات الطلبة المسلحة بالسكاكين والجنازير التى تكونت بتشجيع من السادات . " [٤]

---

٤) الرواية،، ص ٢٣٠
١) الرواية، ص ٢٣٦
٢) الرواية ،ص ٢٣٦
٣) الرواية، ص ٢١٦

وتعرض الرواية لتحولات الشخصية المصرية فى عدد من الملامح التى تشكل خطاً متصلاً منذ بداية السبعينيات وحتى بداية القرن الحادى والعشرين . ويمكن عرض هذه التحولات فى الآتى :

. المجتمع المصرى وثقافة الاستهلاك : ففى زيارة البطل لـ " جمالات " زوجة حلمى بعد عودتها من السفر، فى منزلها فى بداية الثمانينيات، يعلق على منظر الحى الذى تسكن به والذى يعتبره رمزاً على التحولات الاجتماعية التى تجرى فى مصر " من البنايات التى بنيت على عجل بعد حرب أكتوبر لتستوعب شريحة جديدة من البشر انفردت بثمارها، وتغزت بدماء ضحاياها واستفادت من فضلات العوائد البترولية . وعزمت على إلحاق البلاد بركب العصر بتزويدها " بـ " سفن أب " و " وكوكاكولا " و " مارلبورو " وأربعين نوعاً من السيارات الحديثة " .[1] وهو بهذا يؤكد على شيوع ثقافة الاستهلاك التى استشرت فى المجتمع فى هذه الفترة وفى ذلك يحدد " مايك فيذرستون " السمات الأساسية لثقافة الاستهلاك فى كونها ثقافة آنية معدة للاستهلاك اليومى وترفض كل تصنيف ثقافى لها ، لأنها أنتجت أساسا بهدف إقناع الجماهير والترويح عنها بعد عناء العمل اليومى المضنى .[2]

. الشخصية المصرية والسياسات المتغيرة : وفى هذا الصدد تشير الرواية للآمال الكثيرة التى علقتها الشخصية المصرية على السياسات المتلاحقة لأنظمتها المختلفة، وإخفاقها فى تحقيق هذه الآمال، يشير النص للتضحيات التى تحملتها هذه الشخصية فى سبيل تحقيق الاستقلال وقيام المشروع التحديثى الذى تبناه " عبد الناصر " قانعاً بالحصول على احتياجاته الأساسية من مؤسسات القطاع العام . وبعد تحمله لحروب ١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٧٣، عاش المصرى حلماً جديداً قوامه تحقيق مستقبل أفضل له . لكن فى ظل التحولات المتلاحقة من انفتاح على الغرب وانتهاج سياسات الخصخصة والتكيف الهيكلى، والتبعية للغرب ومؤسساته الدولية وأخيراً الوقوع فى شرك العولمة، كان عليه مواجهة هذه التحديات، وهو الأمر الذى كلفه الكثير فى محاولته التوفيق بين الوافد والمحلى . فى ازدواجية السياسات التى عانت منها الشخصية المصرية بين ماضى الستينيات . وحاضر اللحظة

---

١) الرواية،، ص ٢٨٤

٢) مايك فيذرستون، الثقافة الاستهلاكية والاتجاهات الحديثة، ترجمة : محمد عبدالله المطوع، بيروت، دار الفارابى، ١٩٩١، ص ٨

الراهنة، كما تتبدى فى النص ينكر البطل " فوجئ (الإنسان المصرى) بنفس الطبقة الحاكمة تقول له : إن سياسة التصنيع والتخطيط والقطاع العام هى السبب فيما يعانيه من متاعب، وأن فرصة التقدم الوحيدة أمامه تكمن فى الانفتاح الاقتصادى والخصخصة واتباع نصائح البنك الدولى ومن جديد آمن بالفلسفة المعروضة عليه وانتعشت آماله عندما رأى السلع الأجنبية تغرق السوق رغم عجزه عن شرائها، وبدا مستعداً عن التغاضى عن ارتفاع تكاليف المعيشة وفساد الجهاز الحكومى واتساع الهوة بين الطبقات وزيادة التبعية للخارج فى انتظار المستقبل الزاهر الموعود . لكن الأعوام تمر لا تحمل معها سوى الوعد بمزيد من المعاناة . "[1]

والنص فى ذلك يشير إلى استمرار نفس سياسات النظام الحاكم، بالرغم من تبدل رموزه، فيما يخص الإتجاه للغرب وحدوث عدة تأزمات فى أوضاع المواطن المصرى نتيجة الإجراءات المختلفة التى لا يتحمل تبعاتها سوى السواد الأعظم من الشعب المصرى ذوى الإمكانات المحدودة . يتضح هذا من المخطوطة التى يرسلها أحد العمال لـ " شكرى " بعنوان " حكم العسكر فى مصر المحروسة من الدولة الفرعونية إلى حكم مبارك "، حيث يعلق على ما جاء بها قائلاً " كما أعجبتنى جسارته عندما وصف كيف تم فى العهد الحالى بدهاء تنفيذ البرنامج الساداتى / الأمريكى لتحطيم القومية العربية، وتخريب الإنسان المصرى مادياً وروحياً بإحداث تغيرات جذرية فى كل شئ من أول الخصخصة .... إلى طرد الفلاحين الفقراء من أراضيهم .... ومن تفكيك طبقات المجتمع وهدم الطبقة المتوسطة والعاملة والتراجع عن المكتسبات الاجتماعية التى حققها عبد الناصر . "[2]

. التحديات الخارجية التى تواجه الشخصية المصرية : والتى تحاول طمس هوية هذه الشخصية، وتحويلها للفردية والاستلاب الحضارى فى إطار من التبعية الإجبارية التى يفرضها النظام العالمى الجديد بمفرداته العولمية، يطرح النص إحدى الرؤى فيما يخص هذه القضية، من خلال الرأى الذى تقدمه " صافيناز كاظم " الكاتبة والمفكرة الإسلامية " النظام العالمى الجديد يطالبنا ... و (أن) نصبح عمياناً صماً بكماً، لكن

---

١) الرواية ،ص ٢٤٠

٢) الرواية ، ص ٤٠٧

يسمح لنا بالهلوسة .. العالم ملخبط . نحن سكان العشوائيات بين الأمم . نضرب وتقتلع عيوننا ونقول مرسى .... لكن الناس لا يريدون المقاومة يقولون عشان إيه ؟ وأدى هذا كله إلى موقف جديد من الحياة . فردية شرسة ... شعور قوى بعدم الحيلة. الناس لا ترى النتيجة ... " (١)

. وفى تنامى التيار الأصولى فى المجتمع المصرى منذ السبعينيات وازدهاره فى المجتمع المصرى فيما تلاها من فترات، يشير " شكرى " للجو الذى ساد الجامعة المصرية فى الثمانينيات وسيطرة الجمود الفكرى قائلاً : " سيطرت ثقافة النفط والإرهاب السياسى والفكرى المستتر تحت العباءة الدينية، وانتشرت دعوة " أسلمة " المعرفة وساد فكر لا عقلانى شبه خرافى حتى بين أوساط الأساتذة . وانحصر البحث العلمى فى مشروعات تعتمد على مصادر تمويل خارجية، وبحوث شكلية هدفها الوحيد هو الحصول على الترقية . " (٢) فى هذا الصدد يذكر أحد الباحثين أن ثقافة التطرف الدينى بصفة خاصة يرتد انتشارها . وليس نشأتها التاريخية إلى منتصف السبعينيات من القرن العشرين ، حيث اتجهت سياسة الحكومة إلى محاصرة نشطاء اليسار المصرى من خلال إطلاق العنان للتوجهات الدينية اليمينية التى سبق لثورة يوليو أن واجهتها بعنف فى الخمسينيات والستينيات . وقد ترتب على ذلك عودة نشطاء الإسلام السياسى السابق هجرتهم إلى دول الخليج . وقد تغلغل هذا التيار فى قطاع التعليم والنقابات المهنية بالإضافة لسيطرتهم على منابر الوعظ والإرشاد فى دور العبادة والإعلام أيضاً ونجح هذا التيار فى استغلال تردى الأوضاع الاقتصادية وانتشار البطالة لصالحه مما أكسبه الكثير من الأنصار فى ظل غيبة شبه كاملة للدولة ، التى لم تلتفت طويلاً إلى تماديهم فى نشر أفكارهم بين الشباب دون محاولات جادة لمواجهة هذا الفكر من جانب المجتمع المدنى والمثقفين . (٣)

وعن تزايد هذه التيارات الإسلامية فى بداية التسعينيات، وأثرها على نمط الحياة داخل الجامعة يذكر " أدت المجازر الوحشية التى قامت بها الجماعة الإسلامية

---

٣) الرواية ، ص ص ٤٢٠ – ٤٢١

١) الرواية ، ص ٣٦٦

٢) هشام صادق ، العولمة وثقافة التطرف ، مؤتمر ثقافة التسامح بين الواقع والمأمول . إشكاليات الحاضر وتحديات المستقبل . الساحل الشمالى ١٠: ١٢ مايو ٢٠٠٥ ، الهيئة القبطية الإنجلية للخدمات الاجتماعية ، قسم منتدى حوار الثقافات برنامج المجموعة الإقليمية بالإسكندرية .

المتطرفة إلى تورم أمنى، انعكس على مجالات مختلفة، وخاصة الجامعة التى صارت شبه محتلة برجال الأمن." [1] وهنا يشير النص إلى عمليات تشويه الفكر التى جرت فى هذه الفترة واستمرارها فيما بعد . تلك التى اتخذت مظاهر عدة منها : ظهور الانقسامات بين صفوف المصريين على أساس الدين (مسلمين ومسيحيين)، وظهور فتنة طائفية فى المجتمع . ثم محاولة بعض التيارات الإسلامية نشر أفكار معينة والتغلغل داخل الطبقات المختلفة فى المجتمع عن طريق نشر الفرقة بين المواطنين وهذه الظلامية فى الفكر — كما ترى أمينة رشيد الماركسية " قد تكون أكثر خطراً من العنف الجسدى ومن الإرهابيين .. " [2]

وفى مظاهر التأسلم هذه يرد إشارات لبعض السلوكيات الخاصة بالنظرة إلى المرأة فى المجتمع، واختلاف هذه النظرة فى التسعينيات وما بعدها عن النظرة إليها فى الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين . وتبدو هذه الاختلافات فى عدة سلوكيات منها .. جلوس الطلبة بعيداً عن الطالبات فى مدرجات الجامعة . " لاحظت أن العادة تغيرت، فقد انفردت الطالبات بالجانب الأيمن من المدرج، بينما احتل الطلاب الجانب الأيسر ... " [3] كذلك انتشار ظاهرة النقاب فى المجتمع المصرى . وفى ذلك يفسر " شكرى " هذه الظاهرة فى ضوء التحولات التى يتعرض لها المجتمع، فهو لا يرى فى الحجاب ظاهرة دينية وإنما ظاهرة اجتماعية، فنتيجة لما يعانيه الإنسان المصرى بصفة عامة من تحديات لا يقوى على الصمود أمامها، فإنه " يختار الانسحاب لنفسه وأسرته من حياة معقدة مربكة والارتداد إلى صورة عن ماضى أكثر بساطة وأيسر على الفهم، فضلاً عمّا يعد به هذا الارتداد أيضاً من سلام وطمأنينة ينتظرانه فى الجنة . الانسحاب هو البديل للجنون أو الانتحار والمخدرات . وبالنسبة للمرأة هو أكثر هذه الأشكال أماناً وقبولاً من المجتمع ... " [4]

و يشير النص إلى كثير من التناقضات التى تحياها الشخصية المصرية المعاصرة والتى تشمل : تكدس المدارس والجامعات بالطلاب حيث تنتشر ظواهر البلطجة

---

٣) الرواية ،ص ٣٦٧

١) الرواية ، ص ٤٢٢

٢) الرواية ، ص ٣٤١

٣) الرواية ، ص ٢٣٩

والمخدرات فى المدارس، أما فى الجامعات، فالقاعات مكدسة بعقول مغيبة تنتظر مصيراً مجهولاً عند تخرجها، فالوظائف يحتكرها أبناء الحكام فى : النيابة والقضاء والبنوك والشرطة والصحافة والجامعات وغيرها . وهنا لم يعد التفوق أو بذل الجهد هو المقياس ولكنها الوساطة والمحسوبية . "[1]

وعن السلوكيات الطارئة على الشخصية المصرية يرصد النص العديد من السلوكيات السلبية التى أصبحت سمات معروفة عن هذه الشخصية . ففى مجتمع الجامعة، تتميز سلوكيات الأساتذة بتحقيق الربح فى المقام الأول من وراء بيع الكتب الجامعية . فعندما رفض " شكرى " هذا السلوك وجه إليه أحد الأساتذة ملاحظة عابرة أشبه بتحذير مؤداها " عدم الوقوف فى وجه التيار العام ... "[2] كذلك فهناك السماسرة الذين ينتشرون فى القرى الفقيرة، يختارون زوجات صغيرات السن للرجال القادمين من السعودية ودول الخليج . وهناك الأكاذيب التى تروجها وسائل الإعلام والسلع الفاسدة التى تملأ الأسواق . والأطفال المشردين فى حين يوجد الآلاف من المساكن المغلقة . وحفلات الزواج التى تتكلف ملايين الدولارات والتسيب والإهمال فى المستشفيات، وأحكام السجن التى لا تنفذ أو تستبدل بالبراءة .

ومن السلوكيات السلبية التى ترصدها الرواية، نجد التسيب والإهمال الذى يعم كل أشكال الحياة فى المجتمع ككل، فحوادث القطارات والسفن والسيارات مستمرة . والأبراج السكنية الضخمة بألوانها القبيحة تعلوها الديشات (أطباق الفضائيات)، تطل على مقابر سكنية تبرز منها هوائيات التليفزيون وهناك إناس يطهون فى الهواء الطلق وسط أكوام القمامة أو " يقلبون بينها بحثاً عن شئ يوازنون به دخولهم المتواضعة، وآخرين يخوضون فى مخلفات متعفنة بينما يتحدثون فى تليفونات محمولة ..... "[3] وباختصار فإن الرواية ترصد الفقر المدقع إلى جانب الثراء الفاحش الذى ينطوى عليه المجتمع المصرى .

جـ صورة الآخر فى " أمريكانللى " : رؤية نقدية للذات والآخر

---

٤) الرواية ، ص ٤٠٠
١) الرواية ، ص ٣٤٣
٢) الرواية ، ص ٢٣٦

نتناول رواية " أمريكانللى " صورة الآخر الأمريكى عبر المواجهة الحضارية بين الشخصية المصرية والآخر الغربى، ممثلاً فى الغرب الأمريكى ذى الوجوه المتعددة .
وتبدو الشخصيات الأمريكية التى تعرض لها الرواية دالة فى مجموعها العام على الهوية الأمريكية بكل ما تشمله من جوانب إيجابية أو سلبية .
ومن الملاحظات الهامة على هذه الرواية، أن مؤلفها عمد إلى أن تكون الشخصية المصرية التى تقوم بالمواجهة مع الآخر فى فضاءه المكانى "شكرى" شخصية ذات خصائص متميزة تضعه فى موقف الند للشخصيات الأمريكية، وليس فى موقف الضعف أو التخاذل . وهو تطور ملحوظ فى كيفية رسم هذه الشخصية، التى تعلم تماماً تاريخها وهويتها الحضارية المتميزة عن هوية وتاريخ الآخر الأمريكى، وهنا يظهر تاريخ هذه الشخصية الموغل فى القدم، فى مقابل تاريخ الآخر المستحدث .
إن موقف الندية الذى تقفه شخصية " شكرى " يمكنها من رؤية المجتمع الأمريكى رؤية نقدية، ترصد تفاصيلها ودقائقها، بشكل يوضح ما ينطوى عليه هذا المجتمع من تناقضات عميقة سواء فيما يتعلق بسياسته الداخلية أم الخارجية، خاصة وأنه مثقف ذو معارف متنوعة ومعلومات غزيرة وخبرة كبيرة اكتسبها من عمله كمؤرخ لمدة تزيد على الثلاثين عاماً . عاش فيها ومن خلالها تجارب كثيرة مما يجعل من تحليله للمجتمع الأمريكى وجوانبه السياسية والاجتماعية والقيمية، تحليلاً يستند إلى مقومات وحجج دامغة
وفى محاولة توصيف الصورة التى ظهر بها الآخر الأمريكى، أستند لعدة محاور يمكن على أساسها تحليل هذه الصورة، وتتمثل هذه المحاور فى :
المحور الأول : التقاطب بين الشخصية المصرية والآخر الأمريكى .
المحور الثانى : الوجوه المتعددة للغرب الأمريكى .
المحور الثالث : نقد الوضع العربي من خلال الآخر الأمريكى
المحور الأول : التقاطب بين الشخصية المصرية والآخر الأمريكى :
وتتمثل هذه التقاطبات فى :
- التقدم العلمى والتكنولوجى فى المجتمع الأمريكى، الذى يجعل الحياة سهلة وميسرة، فإينما ذهب البطل، توجد أجهزة الكمبيوتر، وشبكات المعلومات (النت)، حيث

الاستخدام الأمثل لهذه التقنيات وذلك بعكس المجتمع المصري، الذى ما زالت تحكمه بعض العادات البالية ففى الوقت الذى تدعو فيه القيادة العليا بتحويل مصر إلى مجتمع منتج للتكنولوجيا، يتمسك الناس بالخرافات والأفكار البالية .

. وتمثل أمريكا الفضاء الذى من خلاله تتاح فرص الحرية والتعبير عن الرأى دون قسر أو قهر . فى ذلك يذكر " ماهر " للبطل " وأنت لمست بنفسك أنك يمكنك أن تقول أشياء هنا لا تجروء على الإشارة إليها فى مصر . "[1] وتبدو حرية الرأى فى داخل الجامعة فى أمريكا حينما يرى اللافتات المختلفة فى الحرم الجامعى التى تعلن عن الأجناس والثقافات المختلفة " أبناء الجاليات الأجنبية والأقليات العرقية ... والمدافعين عن البيئة وأنصار الدولة الفلسطينية وأعدائها ودعاة السلطة الاسلامية و .... والمعارضين لأشكال التفرقة العنصرية والمطالبين بمأوى لمشردين والعاطلين .... "[1] وهنا يتبادر لذهن " شكرى " مظاهر التحجيم والقبضة الحديدية المفروضة على الطلبة، تلك التى تمنعهم من القيام بمثل هذه الأنشطة الثقافية المتعددة ، فهو يذكر عبر تيار شعوره : " البوابة الرئيسية لجامعة القاهرة والمظاهر الأمنية المسلحة، إعلانات الأنشطة الطلابية الهامشية ... التى يتصدرها عمداء عينتهم الحكومة ومجلات الحائط بأفكارها الركيكة مثل لغتها و وجوه الطلبة والطلبات التى تعلوها شيخوخة مبكرة .. "[2]

. وتعرض الرواية للنظام التعليمى الأمريكى الذى " يلزم الطالب الجامعى بأن تكون ثلث دراساته تقريباً فى مواد خارج تخصصه كما يتيح له التحصيل فى أى مستوى يعجبه ... "[4] وذلك بعكس التعليم فى مصر القائم على الحفظ والتلقين . وتوجد تقاطبات أخرى خاصة بالنظافة الشديدة التى تتميز بها بعض الأماكن التى تعانى مثيلتهافى مصر من القذارة، مثل الحمامات فى الكلية سواء المعدة للطلبة أو الأساتذة وهناك نظام التأمين الصحى الخاص الذى تتولاه شركات خاصة، بعكس النظام السائدفى مصر . فى ذلك يذكر " شكرى " فأنا من جيل نشأ على أن الدولة مسئولة

---

١) الرواية ، ص ١٧٣
١) الرواية، ص ص ٣٦ ـ ٣٧
٢) الرواية ،ص ٣٧
٣) الرواية ، ص ٣٢

عن صحته ولم يألف بعد أن تتولى ذلك شركات خاصة .. "[١] ويوجد النظام والترتيب الدقيق فى كل شئ، والاستعداد للحوادث المفاجئة، بعكس المجتمع المصرى الذى لا يتعامل مع الكوارث إلا بعد حدوثها.

. ويظهر التقاطب أيضاً من خلال المقارنة بين مفهومى العروبة والأمريكية، التى توردها " فادية " فى بحثها، من خلال رؤية " جمال حمدان " الذى يراهما نقيضين فى الأصول، فقد نشأت الأميريكية حديثاً عبر هجرات قامت بها أجزاء من شعوب متنافرة لتتصاهر وتنصهر معاً فى بوتقة وطن جديد عبر المحيط، " بينما العروبة التى جمعتها أربعة عشر قرناً، قامت من هجرة جزء من شعب واحد لتتصاهر وتنصهر مع شعوب متباينة فى أوطان قديمة متلاصقة . "[٢]

ـ وتظهر المقارنة عبر تاريخ كل من مدينة " القاهرة " ومدينة " سان فرنسيسكو " فالأولى ذات تاريخ ممتد، تفخر بآثارها العريقة، فى حين تتميز " سان فرنسيسكو " بنوع آخر من الآثار ذو الفائدة العملية التى تناسب الحياة الأمريكية المادية . ففيها مقر شركة " ليفى شتراوس " مخترع البنطلون الجينز الأزرق من قماش الخيم فى أثناء فترة البحث عن الذهب هناك، كما يوجد بها حى " كاسترو " الذى يتركز فيه المثليون . " إن الجينز والكاسترو يعبران عن المدينة : الاختراع والطموح الفردى الحلم بالفرصة الثانية الذى جذب المهاجرين من كل مكان، وفرض عليهم التعايش ثم الحرية ."[٣]

المحور الثانى : الوجوه المتعددة للغرب الأمريكى :

لا يظهر للآخر الأمريكى فى النص الروائى صورة واحدة، ولكن تتعدد وجوه الغرب الأمريكى ويظهر له أكثر من صورة . ويمن تلخيص هذه الصور فى :

. الآخر المتقدم : يظهر النص صورة المجتمع الأمريكى بتقدمه العلمى والتقنى الذى يجعل الإنسان قادراً على الحياة بطريقة سهلة ومريحة . كذلك يظهر تقدم السلوكيات فيه خاصة ما يتعلق بحرية التعبير وحرية الرأى . وهذا ما يجعل " شكرى

---

٤) الرواية ،ص ١١

١) الرواية ، ص ١٥٥

٢) الرواية ، ص ٢٢٥

" يجيب على سؤال من إحدى الطالبات عن انطباعاته عن الحياة فى أمريكا، فيقول : إنى استمتع هنا بالتعبير عن نفسى فى حرية ... " [١]

ويظهر الآخر الإنسانى فى شخصية " شادويك " الموظفة بالمعهد الذى يدرس به " شكرى " فى أمريكا . وهى تمثل هذه الفئات التى لا ترضى عن التجاوزات التى تقوم بها أمريكا والغرب بصفة عامة فى العالم ككل، فهى تحلم بعالم إنسانى خالى من الحروب والدمار . وفى أحد لقاءاتها ب " شكرى " تصحبه معها لأحد الاجتماعات التى تنظمها مع أعضاء إحدى اللجان التى تنتمى إليها لنصرة العراق، فهولاء يهاجمون العقوبات المفروضة على العراق، وكشف كذب المزاعم الأمريكية الخاصة بوجود مصانع للأسلحة النووية فى السودان وإن كان هذا هو الوجه الإيجابى للآخر الأمريكى، فإنه لم يحجب عن البطل " شكرى " إدراكه للجوانب السلبية فى المجتمع الأمريكى . وتبدت هذه الجوانب السلبية على مستويين: **المستوى الأول** يتعلق بتناقضات الحياة الداخلية فى هذا المجتمع . ويتعلق المستوى الثانى بسياسة أمريكا الخارجية وانحيازها الكامل إلى جانب الكيان الصهيونى .

وتتبدى تناقضات الآخر الأمريكى فى عدة وجوه . فهناك وسائل الإعلام التى تقوم من خلال ما تقدمه، بالسيطرة على عقول الإنسان الأمريكى المادى بشكل يؤدى لتزييف وعيه وموافقته على سياسة النظام الحاكم المتواطئة مع مصالح الشركات الكبرى فى المجتمع . كما توجد الألاعيب التى يحكيها النظام لضمان بقائه فى السلطة، وفيها يحاول غض بصر الشعب عن مخالفاته وفضائحه . يتضح ذلك من خلال الفيلم الذى يشاهده بعنوان " واج ذا دوج " ومعناها " إعط الكلب عظمة " فى تورية واضحة، فالشعب الأمريكى هو الكلب، والعظمة هى الحروب والمكائد التى يعمد الرئيس الأمريكى الهائه بها عن فضائحه . " [١]

وفى أشكال الحياة تعرض الرواية " لعلاقات الإنتاج الرأسمالية التى أدت إلى عزلة الفرد وانكفائه على نفسه ليضمن قوت يومه ولا يتدخل لصالح الآخرين، أو ما يمكن

---

٣) الرواية ، ص ٣٨٣
١) الرواية ، ص ٢٧

تسميته ببشاعة الرأسمالية ونسبية الأخلاق "[٢] وفى ذلك يذكر " فيتز " : "أمريكا هكذا الوحدة الشديدة والعزلة التى يعيشها الناس تدفعهم للقيام بأشياء غريبة.. "[٣]

كما تعرض الرواية لجانب آخر من الجوانب السلبية فى الحياة الأمريكية، فهناك الفقراء المشردون والمعاقون والمسنون من الذين فقدوا وظائفهم أو عجزوا عن مجاراة إرتفاع الأسعار، نتيجة لإجراءات الاقتصاد الحر، حيث يجرى تشغيل العمال والموظفين السابقين بأجور قليلة وبدون تأمين صحى . وعندما يعلم " شكرى " بهذه الحقائق تعلق " شادويك " " أنت من الناس الذين يتصورون الجنة هنا ... "[٤] فى إشارة منها للصورة الزائفة التى يرسمها كثيرون عن المجتمع الأمريكى .

كذلك تلقى الضوء على تسرب التلاميذ من المدارس " كل نصف ساعة يتسرب ٥٠ صبياً من المدارس فى الولايات المتحدة . وفى نهاية كل عام يبلغ عددهم مليوناً، كل هؤلاء ينهبون إلى الشارع . "[١] كما أن هناك الحياة الأسرية المفككة التى تدفع بالشباب لحياة الشارع والانحراف التى تقودهم للمخدرات والسقوط .

ومن تناقضات هذا المجتمع، ما يتعرض له المهاجرون من البلاد الأخرى من أوضاع مجحفة تتجسد فيها العنصرية بشكل كبير، فهم يتعرضون للإيذاء والمعاملة السيئة من جانب أصحاب العمل . ففى حين يعانى العمال من الأجور المنخفضة وغياب التأمين الصحى وقواعد الأمان، فإن أصحاب العمل " يجنون أرباحاً طائلة من استغلال العمال . "[٢] وهذه هى القضية التى تحدث عنها ماركس من قبل فى نطاق حديثه عن العلاقات فى العمل فى إطار المجتمع الرأسمالى .

وتنعكس فى النص ظاهرة ثقافة الاستهلاك كملمح واضح من ملامح المجتمع الغربى، حيث تحيل كل شئ بما فى ذلك الإنسان لمجرد سلعة، فى مناحى متعددة من الحياة الأمريكية . فى ذلك تذكر " شارلى " "نحن مهووسون بالرجيم والتمرينات الرياضية والأطعمة المنخفضة الدهون، بلا فائدة لأننا لا نكف عن

---

٢) عاصم الدسوقى، مرجع سابق .
٣) الرواية ، ص ٢٧٤
٤) الرواية / ص ٢٤٧
١) الرواية ، ص ٢٤٨
٢) الرواية ، ص ١١٩

الأكل"[٣] كما تظهر هذه الثقافة الاستهلاكية فى البرامج التى تقدمها وسائل الاعلام، والتى لا تعدد كونها برامج سطحية، تهتم بتوافه الأمور، فيغلب عليها السطحية والتبسيط، وعدم الاهتمام بالقضايا الجادة التى تجعل المواطن الأمريكى يعمل عقله ويفكر فى الأمور وما يطرح عليه بطريقة منطقية . فالبرامج التليفزيونية تعلن عن المنجمين والبدانة خاصة عند الأطفال وعن " الشرطة الراكبة التى تحاول إنقاذ قطة ارتقت شجرة عالية ولم تتمكن من الهبوط . "[٤]

. وتلقى الرواية الضوء على عنصرية الآخر، ففى البلد الذى يدعى دفاعه عن حقوق الإنسان، ومناهضة أشكال التعصب فى العالم وترسيخ قيم المساواة والديموقراطية توجد التفرقة العنصرية التى يعانى منها السود فى المجتمع الأمريكى، فالسود معزولون فى أحياء خاصة بهم، تشكو الفقر والبطالة والمرض والعنف . " وهم معزولون أيضاً فى أعمال الخدمات والتمريض والتنظيف ومكاتب البريد ومخازن البيع والنقل وخدمات التليفون ولا تكاد تجد إلا قلة منهم بين الأطباء والمحامين والمهندسين، كما أنهم يحصلون على أجور أقل من التى يحصل عليها نظراؤهم البيض . "[١]

وتتضح نظرة التعالى والاحتقار من جانب الرجل الأبيض، فى تصريح أحد المسئولين الذى يصرح " لا أفهم لماذا يريد السود أن يصبحوا أطباء ومحامين، بينما توجد وظائف كثيرة فى ماكدونالدز ؟ "[٢]

وعموماً فإن الصورة التى تقدمها الرواية صورة مختلفة عما تقدمه أجهزة الإعلام والدعاية الغربية من صورة للمجتمع الراقى، حيث تتهاوى هذه الصورة النمطية عن الحلم الأمريكى، ويظهر الوجه القبيح.

وتتضح عنصرية الآخر الأمريكى فى جانب آخر هو المتعلق، بالازدواجية التى تتعامل بها الولايات المتحدة الأمريكية مع غيرها من الشعوب، فهى تتبنى سياسات تقوم على استغلال هذه الشعوب وقهرها . ويتضح هذا الأمر منذ نشأة

---

٣) الرواية ، ص ٣٥٣
٤) الرواية ، ص ص ١٢٢، ٢٠٠
١) الرواية ، ص ١٥٢
٢) الرواية ،ص ٢٢٨

أمريكا حتى الآن، ففكرة أمريكا كما يرى " سابك " الطالب ذى الأصل الهندي فى بحثه " إن فكرة أمريكا " هى فكرة استبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة عبر الاجتياح المسلح وإبادة الآخر وبمبررات غير طبيعية من نوع الحق السماوى أو الحضارى . وهو الأمر الذى مارسه الرجل الأبيض بعمليات الاستيطان الكبرى فى أماكن كثيرة من العالم من استراليا إلى فلسطين ... " (٣)

وتتضح عنصرية الغرب الأمريكى فى أمرين : كراهية وعداء العرب، ومحاباة إسرائيل . وفيما يتعلق بمحاباة إسرائيل، فإن الرواية تشير إلى انحياز أمريكا ونظامها السياسى إلى جانب دولة إسرائيل، وتتضح هذه المحاباة والانحياز إلى جانب إسرائيل من خلال إحدى المناقشات بين " شكرى " وطلابه، فعندما يقوم " لارى " بعرض بعض الحقائق الخاصة باغتصاب الأرض الفلسطينية، تعترض " مونا " عليه قائلة : " إنها تشك فى صدق الاستشهادات التى أوردها ... ثم قالت فى انفعال إذا كان أحد فى الشرق الأوسط قد تم طرده من بلده، فهم اليهود الذين طردوا من مصر والعراق .. " (١)

هذا ويعزو النص أسباب هذا الانحياز الأمريكى إلى سيطرة اليهود على مقاليد الاقتصاد والإعلام فى المجتمع الأمريكى . وفى ذلك يرفض القسم أن يجيز رسالة علمية قام بها " لارى " عن المؤرخين الجدد فى إسرائيل، لأنها تمس الحقائق المغلوطة التى يدعيها الإسرائيليون عن حقهم التاريخى فى فلسطين . وتعود أسباب الرفض كما يذكر " لارى " لـ " شكرى " عن رأى أساتذة الجامعة " أنهم يخشون أن يؤثر إقرارها على حظ الجامعة من المنح التى تقدمها الشركات الكبرى . " (٢)

وهنا يأتى الأمر الثانى المتعلق بكراهية العرب، وهو الأمر الذى تتعدد أسبابه فبداية يعود هذا العداء للمواجهة التاريخية بين العرب المسلمين من جهة والغرب من جهة أخرى، ففى إحدى المناقشات تذكر " مونا " أن سبب تخلف المسلمين وانهيار الحضارة الاسلامية هو أنها " انغلقت فى وجه المعرفة " (٣) كما أنها تذكر أن الفتح

---

٣) الرواية ، ص ٤٧٥
١) الرواية ، ص ١٢٦
٢) الرواية ، ص ١٢٥
٣) الرواية ، ص ١٠٧

العربى لمصر لم يكن إلا حرب صليبية . كذلك تعود أسباب هذا العداء إلى الصورة المشوهة (النمطية) عن العرب عموماً التى تبثها آلة الدعاية الصهيونية فى الغرب، التى تصور العرب بأنهم قوم همجيون ومتوحشون وإرهابيون . فأمريكا تنمط البشر كما يذكر بذلك " ماهر " " ... وهناك أيضاً الأنماط الجاهزة : فالأسود مجرم مغتصب، والمكسيكى تاجر مخدرات والعربى إرهابى .. " [١]

وعلى ذلك، فالعربى فى أمريكا هو المتهم دوماً، ولا أحد غيره، وفى ذلك يشير " ماهر " إلى حادثة تفجير مركز التجارة العالمى فى أوكلاهوما سنة ١٩٩٢ قائلاً " وقتها نشطت الميديا لإثبات التهمة علينا . " [٢] ولعل ذلك هو الأمر الذى تكرر فيما بعد فى أحداث الحادى عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١ م

ووصف العرب بأنهم إرهابيون يمثل الذريعة التى من خلالها وبها تقوم أمريكا باستعمار المناطق العربية المختلفة، فهى تقصف السودان بحجة أن بها مصنعاً ينتج غازات الأعصاب، وتشن حربها على العراق بدعوى أنها حرباً ضد الإرهاب متناسية فى ذلك أن أمريكا نفسها هى أكبر إرهابية فى العالم الحديث، ففى تعليق " لارى " على خطاب " كلينتون " الذى دعا فيه العالم لمكافحة الإرهاب يقول " نسى كلينتون أننا نحن الأمريكيون مارسنا خلال مائتى عام أفظع أشكال الإرهاب الدولى . أبدنا عدة ملايين من السكان الأصليين فى المكسيك واحتللنا نصفها وقتلنا مائة ألف من المدنيين فى " الفلبين " وبعد الحرب العالمية الثانية تدخلنا عسكرياً فى بلاد أجنبية ٧٥ مرة . قتلنا فى كوريا ٣,٥ مليون مدنى وفى فيتنام أكثر من مليون ... " [٣]

فى تحليله لعنصرية أمريكا وسياساتها التدميرية لغيرها من الأمم والشعوب الضعيفة يرى المفكر الفرنسى " روجيه جارودى " أنه " إلى أن يجد جديد يسعى هذا النظام إلى إبراز التماسك بفضل تفوقه الوحيد فى امتلاك السلاح الأقوى تكنيكياً فارضاً على أطرافه من الدول سيطرة وسطوة محكمة مستخدماً كل أساليب التدخل واحتكار هذا التدخل، ويغطيه إذا كان ممكناً باسم التدخل الإنسانى –

---

٤) الرواية ، ص ٥٧
٥) الرواية ، ص ٥٧
١) الرواية ، ص ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧

بغطاء المؤسسات الخاصة تماماً له من : منظمة الأمم المتحدة إلى صندوق النقد وحتى البنك الدولى . " [١]

المحور الثالث : نقد الوضع العربى من خلال الآخر :

وتتخذ الرواية من فضاء الآخر، أداة يمكن عبرها نقد الوضع العربى، خاصة فى ظل تعدد الرؤى والأفكار وتضارب الأراء فيما يتعلق بقضايا الأصالة والمعاصرة وغيرها . ففى قراءته لملف المؤتمر المزمع عقده فى أمريكا عن " المشهد الثقافى العربى عشية القرن الواحد والعشرين "، يعيب " شكرى " على الأوراق المقدمة سطحيتها واحتوائها على قضايا تقليدية لا تناسب القرن الحادى والعشرين، فأوراق المفكر المصرى يذكر عنها " أغلب الأفكار التى عرضها لا تحتاج إلى مؤتمر للقرن لمناقشتها أو اقرارها من قبيل الحديث عن أهمية الحرية وأعمال العقل .. " [٢] ويتكرر هذا مع بقية أوراق المؤتمر .

ويتعرض النص لمساوئ النظام العربى فى ظل العولمة، فهو مغيب عن المشاركة الفعلية فى الاحتجاج على ممارسات العولمة الاقتصادية، وكأن الأمر لا يعنيه فى شئ . ففى إحدى الصحف يقرأ "شكرى" عن أحد المؤتمرات العالمية عن العولمة، حيث جمعت على مشروع وثيقة بهذا الشأن " توقيعات عدة مئات من ممثلى منظمات غير حكومية فى كافة أنحاء العالم الغربى بالإضافة إلى قلة من البلدان الأسيوية والأمريكية اللايتينية والإفريقية، وليس بينها بلد عربى واحد . " [٣]

وبعد فقد اقترب هذا الفصل من الاعمال الروائية المعبرة عن الفترة من منتصف السبعينيات من القرن العشرين وحتى ٢٠٠١ م، بشكل يتيح من خلال تحليل هذه الاعمال التوصل للصورة العامة التى رسمتها لكل من الشخصية المصرية والآخر الغربى، من خلال التعرف على المضامين الفكرية والاجتماعية التى تضمنتها هذه الأعمال بطريقة رامزة . وتبين أن هناك بعض التطورات التى لحقت النظرة للآخر الغربى نتيجة لحدوث عديد من التغيرات على مستوى الواقع الاجتماعى .

وتفصيلا لما تمخض عنه تحليل هذه الأعمال وغيرها من الاعمال المعبرة عن الفترة الأولى يدور الفصل التالى الخاص بتحليل النتائج العامة للدراسة تحليلا اجتماعيا .

---

٢) روجيه جارودى، أمريكا طليعةالانحطاط ترجمة عمرو زهيرى، القاهرة دار الشروق، ١٩٩٩، ص ٣٧
٣) الرواية ، ص ١١٣
٤) الرواية، ص ٤٣٧

الفصل الخامس

النتائج العامة للدراسة ...
تحليل اجتماعى

تمهيد :

تمثل الهدف الأساسى لهذه الدراسة فى محاولة تقديم تحليل اجتماعى لصورة الشخصية المصرية وصورة الآخر الغربى عبر تجليها فى الخطاب الروائى المصرى فى الفترة من ١٩٥٢ ـ ٢٠٠١.

وتم طرح عدة تساؤلات ، حاولت من خلال الإجابة عليها الوصول لهذا الهدف ، وتمثلت هذه التساؤلات فى :

أولاً : ما الصورة التى ظهرت بها الشخصية المصرية فى الخطاب الروائى المصرى فى الفترة من ١٩٥٢ ـ ٢٠٠١ ؟

ثانياً : ما الصورة التى ظهر بها الآخر الغربى فى الخطاب الروائى المصرى فى الفترة التاريخية نفسها ؟

ثالثاً : ما أبعاد ومكونات صورة الآخر كما قدمتها الأعمال الروائية وكما رصدها الواقع الاجتماعى ؟

رابعاً : ما الدلالات الاجتماعية للأشكال الفنية التى عبر بها الخطاب الروائى عن تطور النظرة للآخر الغربى ؟

خامساً : كيف عكست رؤية الأدباء تطور النظرة للشخصية المصرية و للآخر الغربى فى ظل تحولات الواقع الاجتماعى فى الفترة موضوع الدراسة ؟

هذا، وقد استندت الدراسة فى محاولة تحقيق هدفها العام إلى اختيار أدوات بحثية والاستعانة بمفاهيم نظرية ، تمكنها من الإجابة على التساؤلات السابقة ، ولهذا جاء تبنى التاريخية الحديثة كمدخل نظرى للدراسة الراهنة ، كما أن البحث فى تاريخ الشخصية المصرية وتاريخ علاقتها بالآخر الغربى كنقطة بدء ، كان أمراً لازماً قبل البدء فى محاولة التعرف على الرصد الفنى والأدبى لهذه الإشكالية كما عرضته الأعمال الروائية المدروسة . ولهذا استندت الدراسة للمنهج التاريخي لسبر علاقة الشخصية المصرية بالآخر الغربى .

وفى هذا الشأن ، وطبقاً لطبيعة المتغيران اللذين تتعامل معهما الدراسة : الشخصية المصرية والآخر الغربى ، وتعقد وتشابك العلاقات بينهما على مستوى الواقع المعاش ، فقد التزمت الدراسة فى هذا الصدد بالآتى :

أولاً : فيما يتعلق بدرس الشخصية المصرية ، والصورة التى ظهرت بها فى الأعمال الروائية ، استندت الدراسة إلى ذلك الإطار التصورى الذى يرى أن الشخصية القومية المصرية لا تتم دراستها إلا من خلال معرفة السياق التاريخى ، الذى يمكن عبره التعرف على التراكمات التاريخية التى شكلت ظروفاً بنائية معينة تطبع بدورها هذه الشخصية بطابع معين ، وفى نفس الوقت تترك آثارها على شكل العلاقة والتصور اللذين تتبناهما عن الآخر فالخاصية الجوهرية فى تطور البنية التابعة فى المجتمع المصرى ، أنها تخضع فى تطورها لمؤثرات عديدة داخلية وخارجية وتاريخية ، تجعل التطور فيها يتسم بعدم التساوق . وتبدو الشخصية وكأنها عالم متغير يموج بالتناقضات مثلها مثل البنية التى تشكلها ، بل إن كثيراً من مظاهر التشوه والتضخم فى البنية يتم نقلها واستدماجها فى بنية الشخصية ، بحيث تبدو صورة مصغرة لما يحدث على المستوى العام .[1]

معنى ذلك ، أن العلاقة بين الشخصية والبناء الاجتماعى تنعكس أثارها على ما يطبع هذه الشخصية من خصائص ، بحيث تصير هذه الخصائص تعبيراً عما يسود هذا البناء من تناقضات أو ما يشهده من استقرار وثبات .

هذا فيما يتعلق بمحاولة تفسير الصورة التى ظهرت بها الشخصية المصرية فى الأعمال الروائية فى إطار ردها للبنية الاجتماعية بشكل عام و اعتمدت الدراسة على مفهوم الشخصية القومية الذى يشير إلى .

أ -الشخصية الاجتماعية كما ظهرت فى (شخصية المثقفين — العمال — الطبقة الإقطاعية)

ب - نمط الشخصية الذى انتشر بصورة أساسية فى الفترة موضوع الدراسة ، الذى تميز بخصائص قد تختلف أو تتفق على ما سبقها أو ما تلاها من فترات .

ثانياً : و فيما يتعلق بصورة الآخر ، التى ظهر بها فى الأعمال الروائية ، فقد استندت الدراسة إلى مفهوم : الصورة النمطية ، كمفهوم يمكن عبره تقصى حدود هذه الصورة فى إطار رد ها للبنية الاجتماعية نفسها ، والظروف التاريخية التى فى ظلها تشكلت هذه الصورة أو تعدلت لشكل آخر .

---

(1) أحمد زايد ، المصرى المعاصر ، مرجع سابق ، ص ٢٨.

ووفقاً لذلك، يتضمن هذا الفصل تحليل أهم النتائج العامة للدراسة الراهنة تحليلاً اجتماعياً، نحاول من خلاله تطبيق المعرفة الخاصة بعلم الاجتماع على القضايا المتضمنة فى الأعمال الروائية، للكشف عن مدى الاتفاق أو الاختلاف بينها وبين الأفكار التنظيرية المهتمة بالبحث فى خصائص الشخصية المصرية وتحولاتها، أو المهتمة بطبيعة العلاقة بين الشخصية المصرية والآخر الغربى من ناحية أخرى، ومدى الاتفاق أو الاختلاف بينها وبين الرصد الواقعى لموضوع الدراسة . .

أولاً: صورة الشخصية المصرية فى الخطاب الروائى المصرى فى الفترة من ١٩٥٢–٢٠٠١م:

١ - الشخصية الاجتماعية:

وقد ظهرت هذه الشخصية فى روايات الفترة من (١٩٥٢ حتى منتصف السبعينيات) ممثلة فى: القرويين والمثقفين والعمال والطبقة الإقطاعية وأظهرت الأعمال الروائية الخصائص العامة المميزة لكل شخصية اجتماعية من هذه الشخصيات كالتالى:

أ - فالقرويون تحددت خصائصهم فى:

- يسود بين أفرادها علاقة الوجه للوجه ويتميز المجتمع القروى بالتضامن العضوى بين أفراده.
- اعتماد هؤلاء بصفة أساسية على الإنتاج الزراعى، فعلاقات الإنتاج فى القرية يتم فى ضوئها تقسيم الناس بين من يملكون ومن لا يملكون.
- سيادة نمط الأسرة الممتدة وترصد هذه الأعمال ما يمكن وصفه "بأن بساطة الحياة وعدم تعقد الظواهر والنظم والأساليب والانسجام بين المجموع يلون التقاليد والأعراف وأشكال الحياة والإنتاج." [(١)]
- الإيمان بالحظ والخرافات كمكون من مكونات الشخصية القروية التقليدية.
- كما ترصد الأعمال الروائية لعلاقات الاستغلال التى عاناها القرويون فيما قبل ١٩٥٢ من قبل طبقة ملاك الأرض الزراعية، حيث عانى هؤلاء كثيراً من أوجه الظلم الاجتماعى. وعندما جاءت ثورة يوليو ١٩٥٢، قامت بعدد من الإجراءات فى مقدمتها الإصلاح الزراعى، الذى يراه البعض "ضرورة لظروف

---

١) على زيعور، التحليل النفسى والإناسى للذات العربية (٣) الدراسة النفسية الاجتماعية بالعينة للذات العربية، من منوغرافيا قرية إلى التنمية الوطنية، ط ٢، بيروت، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٤، ص ١٨

سياسية واقتصادية واجتماعية محددة ، من أهمها ظروف نابعة من انخفاض مستوى معيشة معظم الفلاحين وعدم توازن العلاقات بينهم وبين القوى الاجتماعية الأخرى ... "[1]

وقد ظهرت هذه الخصائص فى كل من " محاولة الخروج " و " قدر الغرف المقبضة".

(ب) المثقفون :

وشخصية المثقف باعتباره الوعى المعبر عن الأمة ، كانت من أهم الشخصيات التى رصدت لها الأعمال الروائية ، وظهرت صورة المثقفين بخصائص وأبعاد تشير لعديد من الأزمات التى اعترضت طريقهم ، سواء أكانت هذه الأزمات نابعة من الاختلافات الداخلية بين هؤلاء " أصوليون .. قوميون .. يساريون " أم فى إطار مواجهاتهم الدائمة مع السلطة على اختلاف أشكالها . ومن خلال تحليل صورة المثقفين عبر الأعمال الروائية المعبرة عن الفترة الأولى ، يمكن رد الخصائص العامة لهذه الصورة فى ضوء ظروف وتغيرات الفترة التاريخية فيما بعد ثورة يوليو .

ففيما يتعلق بحدوث انقسامات داخل جماعة المثقفين ، وجدنا أنه بعد الاستقلال ، حدثت بعض التعارضات فيما بين أعضائها ، فالشيوعيون بأفكارهم المستقاة من الغرب الاشتراكى ، يقفون فى تناقض حاد مع جماعة الإخوان المسلمين التى تنادى بالعودة للأصول الدينية الإسلامية ، فى حين يوجد فريق ثالث يضم القوميين الذين تتعارض أفكارهم وطموحاتهم مع كلا الفريقين السابقين . وقد تم رصد هذا التعارض خاصة فى: " نجمة أغسطس " و " قالت ضحى " .

هذا ، وقد رصد غالى شكرى هذا الموقف المتعارض بين المثقفين بعد ثورة يوليو حيث رأى إنه " إذا كان هؤلاء جميعاً قد اتحدوا مع السياسيين من نظرائهم فى حركة النضال من أجل الاستقلال ، فقد انفكت عرى التفاهم بينهم غداة الاستقلال وتشرذم هؤلاء : قبائل وعشائر وبطوناً . وما كان للبداوة الفكرية إلا لتفرز بداوة سياسية . لقد انشغل المفكرون بالآخر . معه وضده ونسوا مجتمعهم . وكان هذا الانفصام بدوره تجسيماً ونتيجة لتشوهات المجتمع ، لذلك ندر ظهور المفكر العضوى الذى تحدث عنه

---

١) فايزة محمد سليم ، الأسرة القروية المتغيرة . دراسة فى أنماط الإنتاج والاستهلاك فى قرية مصرية ، رسالة دكتوراه ، جامعة عين شمس ، كلية الآداب ، قسم علم الاجتماع ، ١٩٨٨ ، ص ٢١٦

جرامشى ؛ لأن التكوينات الاجتماعية كانت هلامية التركيب والوظائف والمصالح . وكانت متداخلة مع بعضها البعض . "[١]

و فيما يتعلق بموقف المثقفين من السلطة فى هذه الفترة ، فقد أشارت كل من : " محاولة للخروج – قدر الغرف المقبضة – نجمة أغسطس – قالت ضحى " لبعدين أساسين طبقا لهذا الموقف ، وهما :

١ - القهر والتسلط من قبل السلطة فى تعاملها مع هؤلاء .

٢ - الازدواجية والتناقض اللذين شعرا بهما المثقفون تجاه السلطة القائمة . وقد نبعت هذه الازدواجية من الممارسات المتناقضة للنظام ذاته . ويمكن فى إطار هذه الازدواجية تفسير المواقف المختلفة التى ظهر بها المثقفون فى الأعمال الروائية ، والتى تنوعت بين عدة مواقف : الموقف الأول : الاغتراب عن الواقع المعاش والانزواء والعزلة كما تمثلها شخصيات الأبطال فى كل من " محاولة للخروج – قدر الغرف – نجمة أغسطس – قالت ضحى " . أما الموقف الثانى : فتمثل فى السير فى رحاب السلطة والتماهى معها لتحقيق المصلحة الخاصة. كما عند شخصية عبد المجيد فى قالت ضحى . ، أما الموقف الثالث : فهو موقف التأييد المطلق للثورة كما فى شخصية " حاتم " فى " قالت ضحى " .

جـ) العمال :

والعمال أو الشخصية الاجتماعية للعمال قد ظهرت خصائصها فى عملين : قالت ضحى ونجمة أغسطس . وتحددت الخصائص التى ظهرت بها هذه الشخصية فى إيمانها بثورة يوليو ، وبكل مبادئها ، لأنها أعطتها الفرصة للتعبير عن نفسها من خلال المشاركة فى التنظيمات المختلفة . وقد رصدت هذه الأعمال بعض الخصائص التى تمثل خصائص فعلية رصدتها بعض الدراسات الاجتماعية : مثل الأصول الريفية البسيطة للعمال ، والتعرض لبعض مظاهر حياتها البسيطة . وقد حدد عبد الباسط عبد المعطى هذه الخصائص فى : غلبة الأصول الريفية عليها مما يؤثر على علاقاتها وانتماءاتها وقيمها ووعيها . وتأثير الهجرة الريفية الحضرية على عدم تجانسها من حيث خصائصها الاجتماعية والثقافية . وولادة هذه الطبقة فى المدينة ولادة مشوهة من حيث استقلالها . فعلى مراحل طويلة من حركتها لم تسلم من الهيمنة ومحاولة

---

[١]) غالى شكرى ، المثقفون والسلطة فى مصر ، القاهرة ، دار أخبار اليوم ، ١٩٩٠ ، ص ٢٨

السيطرة عليها ، سواء من قبل الاستعمار والبرجوازية المحلية أو سلطة الدولة التى أثرت فى تنظيماتها وقياداتها .[1]

د) الطبقة الإقطاعية :

و ظهرت فى الأعمال الروائية : " قالت ضحى – نجمة أغسطس – محاولة للخروج " من خلال التعرض لبعض الممارسات التى انتهجتها حكومة الثورة ضدها ، خاصة قوانين تحديد الملكية الزراعية لهؤلاء وهو الأمر الذى جعل من العداء بين هذه الطبقة ، والعمال بصفة خاصة أمراً واضحاً من خلال المواجهة الدائمة بينهما.

وفى الأعمال الروائية المعبرة عن الفترة من (منتصف السبعينيات وحتى ٢٠٠١م) فإن الشخصية الاجتماعية التى أظهرتها هذه الأعمال انحصرت فى الشخصية الاجتماعية للمثقفين . وقد رصدت بصفة أساسية استمرار التناحر والتناقض بين الأجنحة المختلفة لهذه الشخصية ، خاصة الفرق المعروفة : الأصوليون ، والاشتراكيون ، والقوميون . وهذا ما رصدته كل من : الحب فى المنفى وأمريكا نللى .

٢ – خصائص صورة الشخصية القومية المصرية فى الفترة من ١٩٥٢ – ٢٠٠١

ومن خلال تحليل الأعمال الروائية ، المعبرة عن الفترة الأولى ، والفترة الثانية تم التوصل لصورة الشخصية القومية المصرية . وقد تميزت هذه الصورة بعدة خصائص ، يمكن تفسيرها وتحليلها من خلال ردها للبنية الاجتماعية المتغيرة للمجتمع المصرى فى هذه الفترة ، وتأثرها بما يحدث داخلياً وخارجياً . وفى هذا الصدد ، أظهرت هذه الأعمال الروائية نوعين من الخصائص المتعلقة بالشخصية القومية المصرية :

النوع الأول : ويشمل عدداً من الخصائص التى تتميز بالاستمرار النسبى والدوام عبر تاريخ الشخصية المصرية . وقد اتفقت الأعمال الروائية سواء المعبرة عن الفترة الأولى أو الثانية فى التأكيد على هذه الخصائص . وشملت هذه الخصائص :

أ – التدين : والتدين من الخصائص التى تطبع شخصية المصرى منذ القدم ، فقد عرف عن المصرى تمسكه بالدين وذلك باختلاف هذا الدين على مر العصور . وعلى مستوى الواقع المعاش ، يمكن رصد عدداً من الشواهد الثقافية التى تؤكد تدين المصرى .

---

[1]) عبد الباسط عبد المعطى ، دراسات التكوين الاجتماعى والبنية الطبقية لمصر : الدراسات المحلية ، القاهرة ، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، ١٩٨٨ ، ص ١٦٣

وقد ركزت الأعمال الروائية فى مجملها على هذه الخصيصة ، ولكن من منظورات مختلفة . فهناك أعمال أشارت إليها كحقيقة عامة للمصريين عموماً ، كما ينكر " حكيم لإلزيث فى محاولة للخروج " فى حين ترصد بقية الأعمال خصيصة التدين من خلال أنماط التغير الذى تعرض له التدين فى إطار ما تعرض له المجتمع من تغير فيما بعد فترة الستينيات من القرن العشرين ، حيث تم التركيز على ما يمكن تسميته التدين الشكلى للشخصية المصرية ، وقد برز ذلك بوضوح فى : الحب فى المنفى وأمريكاناللى

ب - **الإيمان بالحظ والاعتقاد فى الخرافات** : وهو ما رصدته (فيينا ٦٠ فى سلوك درش " ، وهو ما أكده (حكيم لإلزيث فى محاولة للخروج) ، وهو أيضا ما رصدته أمريكا نللى ، وقد أظهرت الدراسات أن هذه خاصية متأصلة فى الشعب المصرى منذ الفراعنة ، وتتميز هذه الخاصية بالانتشار والشمول ، فحوالى ٩٦٪ من أهل الريف ، ٦٢ ٪ من أهل المدن يؤمنون بالخرافات . ولا يمكن فى هذا المجال إغفال ظاهرة انتشار الدجالين الذين يدعون فك السحر ومعرفة الغيب وشفاء المرضى . [١]

ولا شك أن استمرار هذه الخاصية وتزايدها ، أصبح يشكل خطراً حقيقياً على المجتمع ، خاصة فى ظل تلاحق أزمات المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والقيمية التى تجعل الناس يلجئون فى حل مشكلاتهم لهذه الأساليب الغيبية دون البحث فى أسبابها الموضوعية فى نوع من إرضاء النفس والهروب من الواقع الذى يعيشونه ولعل دراسات " سيد عويس" التى أجراها حول بعض الظواهر فى المجتمع المصرى تؤكد هذا المعنى أيضاً .

جـ - الشك والخوف من السلطة : وتعتبر هذه الخصيصة ، هى الأخرى ذات جذور تاريخية ، وقد أشارت بعض الأعمال الروائية إلى هذه الخصيصة عبر الإشارات التاريخية المتعددة لمراحل سابقة من تاريخ الشخصية المصرية " فحكيم يعرض لها بإشارته لفترة حكم رمسيس ، كما نجد نجمة أغسطس تركز عليها عبر الإرجاعات التاريخية المتعددة التى يوردها الكاتب عن عهد رمسيس الثانى وبطشه بالشعب ، وما فعله محمد على بالمماليك فى مذبحة القلعة وترصد كل من " قدر الغرف المقبضة ونجمة أغسطس والحب فى المنفى وأمريكانللى " الظروف المجتمعية التى تقف وراء انتشار هذه

[١]) عاطف وصفى ، مرجع سابق ، ص ٢٣٧ .

الخصيصة فى الفترة من ١٩٥٢ وحتى ٢٠٠١ م ، فهى ترصد التحولات البنائية التى لعبت دورها فى تعميق العلاقة الملتبسة بين المواطن المصرى والسلطة ، والتى تقوم على الخوف والشك ويحكمها الاستسلام والخضوع . وفى ذلك " يبدى المصرى قدراً من التناقض فى اتجاهاته ومظاهر سلوكه تجاه السلطة ، فهو يدرك أن الدولة مثلاً سلطة عليا ويجب طاعتها ولا يتردد فى التعبير عن ذلك صراحة ، ولكنه فى نفس الوقت يبطن قدراً من الانتقاد لسلوكها ، يعبر عنه فى صورة لفظية وليس فى صورة عملية. ولا شك أن هذه العلاقة المعقدة هى أحد مصادر السلوك المتوجس المتصل بالعوالم الخارجية عن دائرة العالم الخاص "[1]

هذا فيما يتعلق بالنوع الأول من خصائص الشخصية المصرية الذى يمثل استمراراً فى تاريخ هذه الشخصية كما عرضته الأعمال الروائية . أما النوع الآخر من خصائص هذه الشخصية ، وهى الخصائص المرتبطة بطبيعة تحولات الفترة التاريخية التى تهتم بها الدراسة الراهنة ، فيمكن الحديث عنها فى إطار الفترتين التاريخيتين الفرعيتين اللتين تم تحليل الأعمال الروائية فى إطارهما كالتالى :

١ - خصائص صورة الشخصية القومية المصرية كما عكستها روايات الفترة (١٩٥٢ – منتصف السبعينيات) :

وقد خلصت الدراسة لعدة خصائص ارتبطت فى مجملها بما شهده البناء الاجتماعى فى فترتى الخمسينيات والستينيات من تحولات وتبدلات انعكست آثارها بشكل مباشر على هذه الشخصية . ومن أهم هذه الخصائص :

أ - **الازدواجية** : ويقصد بها وجود الشعور فى أحد المستويات والسلوك الفعلى على مستوى آخر . والازدواجية فى الشخصية تتحدد فى أربعة مظاهر :

المظهر الأول : الازدواجية بين الإنشاء والإخبار : وهنا يحدث أننا كثيراً ما نفكر ويكون هذا التفكير تعبيراً عن تمن لا إخباراً بواقع .

المظهر الثانى : الازدواجية بين القول والاعتقاد : فنحن نقول ما لا نعتقد ونعتقد ما لا نقول حتى أصبحت النصيحة الشائعة أن نردد ما يعتقده الآخرون .

---

١) أحمد زايد ، المصرى المعاصر ، مرجع سابق ، ص ١٦٣

المظهر الثالث : الازدواجية بين القول والعمل : وتتضح عندما نصرح بشيء ولا نعمله ونعمل شيئاً ولا نصرح به ، حتى أصبح القول ميداناً خاصاً تحدث فيه الوقائع وتقام فيه الإنشاءات .

المظهر الرابع : الازدواجية بين الداخل والخارج : وهو يجمع المظاهر الثلاثة السابقة[1] هذا وقد تم رصد هذه الازدواجية فى الأعمال الروائية فى أكثر من مظهر من هذه المظاهر السابقة كالتالى :

- فى محاولة للخروج تم التعبير عن الازدواجية فى الشخصية المصرية من خلال الشعور بالخوف من الآخر السلطوى الذى يمثله النظام فى فترة الستينيات ، بالرغم من الإعجاب والتأييد لما يقوم به هذا النظام من إنجازات .

- وتتضح كذلك فى نجمة أغسطس ، خاصة فى مظهرها القائم على الفصل بين القول والفعل . ويتمثل ذلك الفصل فى التناقض الذى تعيشه الشخصيات فى الرواية ككل ، " فسعيد بالرغم من إحساسه الداخلى بتناقضات النظام ، إلا أنه عندما يشعر بكونه مراقب يهتف " والله العظيم أنا مع الحكومة " [2] كما يبدو الفصل بين الإنشاء والإخبار فى سلوك وتصريحات المسئولين فى السد وصور الفساد التى يأتون بها .

- وهذه الازدواجية هى ما تحكم سلوك " عبد العزيز " وزملائه فى قدر الغرف المقبضة ، ومحاولة للخروج ، وأيضاً تتضح لدى كل من البطل وحاتم فى قالت ضحى. ويمكن رد هذه الازدواجية فى بعض جوانبها بالنظر لبنية المجتمع المصرى فى تلك الفترة ، فقدكانت مازالت فى طور التشكل بعد الحصول على الاستقلال . وكان المجتمع بشكل عام أمام تحد حقيقى ، بين تحقيق التنمية الاجتماعية وتحقيق فرص العدالة والمساواة على المستوى الداخلى ، وبين الحفاظ على الاستقلال . وفى ضوء هذه التحديات الداخلية والخارجية ، و بين أنصار النظام الجديد وبقايا السيطرة القديمة ، كان لابد من حدوث تناقضات داخل بنية المجتمع ، وهذه التناقضات هى ما أفرزت الازدواجية فى الشخصية المصرية فى هذه الفترة .

---

١) حسن حنفى ، قضايا معاصرة فى فكرنا المعاصر ، القاهرة ، دار الفكر العربى، ١٩٨١، ص ص ١٢٠ ـ ١٢٥
٢) صنع الله إبراهيم ، نجمة أغسطس ، مرجع سابق ، ص ٨٨

ب - **السلبية واللامبالاة :** وهذه الخصيصة من أبرز الخصائص التى ذكرها كثيرون عن الشخصية المصرية عبر حقبها المختلفة ، مما يشير إلى استمرارية الظروف الاجتماعية والسياسية التى أفرزتها . لقد تعلم المصرى أن الإقدام والإيجابية مجلبة للمتاعب والمشكلات .فالسلبية وفقاً لذلك تعد وظيفية من حيث كونها تتجاوز المشكلات والمآزق منذ البداية بتجنبها وتحاشيها .[1] .وظهرت هذه السلبية فى روايات هذه الفترة من خلال المواقف التى اتخذها الأبطال ، والروايات فى ذلك تشير لجملة من الأسباب الشخصية والمجتمعية التى تقف خلف هذه السلبية .فالبطل فى " محاولة للخروج " شخصية مأزومة ، ترصد من بعيد مشكلات مجتمعه دون أن يكون لها دور فى حلها .

وبطل " نجمة أغسطس " يرصد عالم التناقضات والفساد داخل المجتمع ومع ذلك لا يقدم على المشاركة فى عمل ما . أما بطل " قدر الغرف المقبضة " فنتيجة إحباطاته المتكررة ، لا يجد حلاً سوى السلبية فهو يتخذها كوسيلة تكيف مع ظروفه . وفى " قالت ضحى " تبدو سلبية البطل فيما يتعلق بأمور حياته الشخصية أو ما يدور فى المجتمع حوله .

جـ - **الشخصية المصرية وثقافة الفقر :** تتمثل ثقافة الفقر ، كما قدمها أوسكار لويس Osskar Lewiss في أن الناس الذين يعيشون في مجتمع حيث الفقر منتشر في كل مكان ، يتقاسمون ثقافة متميزة عن اتجاه الشعور السائد بحيث أن قيمهم وسلوكهم ووجهات نظرهم في المجتمع تختلف عن غير الفقراء . ولا تتميز هذه الثقافة بالحرمان المادى ولكم أيضا بالجريمة . وهى ثقافة تتجاوز الاختلافات الإقليمية الريفية والحضارية والقومية وتظهر أوجه شبه مشتركة في بنية العائلة وفى أنماط العلاقات بين الأشخاص وفى التوجه الزمنى وفى نظم القيمة وفى أنماط الإنفاق ، وهذه التشابهات هى أمثلة على الابتكار المستقل وعلى التقارب . إنها تكيفات عامة "[2] وتعد ثقافة الفقر من الخصائص التى تناولتها الأعمال الروائية ، خاصة ما تم رصده

---

١) محمود عودة ، التكيف والمقاومة ، الجذور الاجتماعية السياسية للشخصية المصرية ، القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة ، ١٩٩٥ ، ص ص ١٩٧ ـ ١٩٨

٢) أوسكار لويس، دراسة لثقافة الفقر . خلفية للافيدا (La Vide) ١٩٦٨، في : ج . تيمونز روبيرتس . إيمى هايت، من الحداثة الى العولمة: رؤى ووجهات نظر فى قضية التطور والتغير الاجتماعي، ترجمة : سمر الشيشيكلى ، الجزء الأول ، عالم المعرفة ، العدد ٣٠٩ ، الكويت ، مطابع السياسة ص ص ١٦٧ – ١٦٨ .

بشأن القرية المصرية ونمط الحياة بها ، والأحياء الفقيرة فى المدينة التى يسكنها السواد الأعظم من الشعب المصرى .

- ففى السيد فيينا ، يتعجب " درش " مندهشاً من صحة ابنة السيدة الأوروبية النمساوية لابنته فى السن ولذلك يعلق " وأبناؤنا دائماً يعانون المغص والإسهال وعشرات اللفف والعيون الحاسدة ... " [1]

- وفى محاولة للخروج ، يشير " حكيم " لثقافة الفقر من خلال الحديث عن قريته وأحوال الناس بها ، فنجده يخبر إلزيث " كانت جماعتنا تسير فى الصبح إلى المدرسة . الكراريس فى حقائب من قماش رث .. حفاة أو فى أحذية متصلبة بالوساخة " [2] وهو يعرض كذلك لزملائه فى سكنى السطوح ، حيث لا مجال للخصوصية الشخصية ، فهم يمارسون معظم أنشطة اليوم معاً . " يخرجون من الغرف حفاة فى ملابسهم التحتية . يغسلون بضعة أطباق ، يقرقعون بضعة صيحات، بضعة صيحات كئيبة .. " [3]

- ويبدأ صنع الله إبراهيم روايته " نجمة أغسطس " بوصفه للأحياء الفقيرة فى المدينة التى يخلفها القطار وراءه فى رحلته إلى أسوان ، فهو يذكر مجموعة المساكن الشعبية "بلونها الأصفر الباهت وزواياها البارزة المجاورة وزحام الغسيل فى شرفاتها وأكوام القاذورات أسفلها ... " [4]

- وترصد " قدر الغرف المقبضة " سلوكيات الأفراد المعبرة عن ثقافة الفقر، فها هم العمال العاطلون عن العمل والصبية الذين لا يجدون ما يعملون وها هى الفتيات الفقيرات اللاتى يعملن بالبغاء .

هذا ، وقد اتضح كيف أن ثقافة الفقر وما تتضمنه من ميكانيزمات تقوم أحيانا على تبرير الواقع والرضا به لعبت دورها فى محاولة التوافق والتكيف بل والتحايل على المعايش وهو ما اتخذته الجماعة القروية فى كل من (محاولة الخروج – قدر الغرف) و جماعة السطوح فى (محاولة للخروج) . بينما فى أحيان أخرى كانت

---

١) يوسف إدريس، مرجع سابق، ص ٣٦

٢) عبد الحكيم قاسم، محاولة للخروج، مرجع سابق، ص ١٤٣

٣) المرجع السابق، ص ٨

٤) صنع الله إبراهيم، نجمة أغسطس، مرجع سابق، ص ١١

سببا فى العدوان الموجه نحو الآخرين . وهذا ما تضمنته صرخة "حكيم" في محاولة للخروج "لا . لست متسامحاً "

٢ - خصائص صورة الشخصية كما تعكسها روايات الفترة (من منتصف السبعينات وحتى ٢٠٠١ م) : -

ومن خلال تحليل صورة الشخصية المصرية في الأعمال الروائية المعبرة عن هذه الفترة، تم التوصل لعدة نتائج :

أ - استمرار بعض الخصائص التى ظهرت واضحة فى الفترة السابقة ، وإن كانت هذه الخصائص فى محتواها قد اختلفت باختلاف متغيرات هذه الفترة وقد تمثلت هذه الخصائص فى : استمرار الازدواجية والسلبية واللامبالاة .

ب - ظهور خصائص جديدة مرتبطة فى انتشارها وبروزها بتحولات فترة السبعينيات والفترات اللاحقة لها . وتمثلت هذه الخصائص فى : ارتباط الشخصية المصرية بتنامى بعض الظواهر المتمثلة فى : ثقافة الاستهلاك ، والاتجاه نحو نمط التدين الشكلى ، بل والتطرف فى بعض مظاهره وأخيراً تكيف هذه الشخصية مع كل من ثقافة القهر والزحام وفيما يلى يمكن توضيح كل نوع من هذين النوعين من الخصائص :

أ - الخصائص المستمرة فى الشخصية المصرية :

الخاصية الأولى : الازدواجية : وقد استمرت هذه الخاصية فى الأعمال الروائية وتم التأكيد عليها فى أكثر من مظهر ، فقد رصدت " الحب فى المنفى " استمرار الازدواجية والتناقض فى الشخصية المصرية فى فترتى السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين خاصة : الفصل بين القول والفعل والداخل والخارج . فتعرض الرواية لبعض الشخصيات التى غيرت من مبادئها وقيمها لكى تتناسب مع أوضاع فترة السبعينيات الجديدة ؛ فالصحفيون من زملاء البطل يهاجمون السياسات السابقة والنظام السابق فى سبيل إرضاء رموز النظام الجديد . ويوجد كذلك من يروجون الشعارات فى محاولة منهم تزييف وعى الجماهير مع علمهم الكامل بكذب هذه الشعارات وأنها مجرد أوهام لا طائل من ورائها .

أما أمريكانللى فترصد لهذه الازدواجية من خلال عرض بعض الشخصيات التى تقوم بسلوكيات وأفعال متناقضة ، ويمثلها شخصية " حلمى " الذى يظهر لديه

بوضوح الفصل بين الداخل والخارج ، وتتمثل هذه الازدواجية كذلك من خلال عرض أوضاع المجتمع المصرى بصفة عامة التى تجمع بين متناقضات عدة : الفقر المدقع والغنى الفاحش ، والمظهر البائس لبعض الشرائح وحرصها على التمتع ببعض الكماليات إلى غير ذلك من مظاهر متناقضة . أن ازدواجية السبعينيات وما تلاها ، هى ازدواجية ولدتها تناقضات البنية الاجتماعية المتغيرة التى شهدت تناقضات حادة بفعل ارتباطها بطريقة مباشرة بالمتغيرات المرتبطة بالنظام العالمى الرأسمالى، فى حين نبعت ازدواجية الستينيات من التناقض بين الممارسات المتناقضة للنظام ذاته .

وفى ذلك تتفق الدراسة الراهنة مع دراسة " نهلة إبراهيم " التى توصلت إلى وجود جوانب كثيرة من التناقض والازدواجية فى فترة السبعينيات وحتى الآن حيث صار هذا التناقض " بمثابة الأمواج التى تسبح فيها الشخصية المصرية ، فنجده موجوداً فى كل سمة من سماتها ، فهناك تناقض بين الصبر الشديد والثورة العارمة ، وتناقض بين السلبية واللامبالاة والمشاركة الإيجابية ، وهناك تناقض بين الحزن والفكاهة وبين الوصولية والانتهازية والأمانة ، وتناقض بين التدين الشديد والتساهل فى أداء الواجبات الدينية . "[1]

الخاصية الثانية : السلبية واللامبالاة : وتعرض الأعمال الروائية لاستمرار السلبية واللامبالاة لدى الشخصية المصرية فى فترة السبعينيات وما تلاها . واتضحت هذه السلبية فى كثير من سلوكيات شخصيات عديدة بها ، ففى " الحب فى المنفى " يتخذ البطل من السلبية أداة يمكن بها التكيف مع الأوضاع المتغيرة التى يرفضها على مستوى الشعور ، لكنه لا يحاول أن يقاومها على مستوى الفعل ، وهذا ما جعله يتخذ من العزلة والمنفى ملجأ له . وفى " أمريكانلى " يحاول الأديب التركيز على الأسباب المجتمعية التى تدفع بالمواطنين للسلبية واللامبالاة ، فيرصد عدداً ضخماً من أنواع الفساد والإفساد والممارسات غير المشروعة من قبل كبار المسئولين فى المجتمع ، بالإضافة لظروف البطالة وعدم فاعلية التعليم وظروف القهر والإهمال والتسيب التى عمت المجتمع بشكل عام . فكل هذه العوامل تدفع بالمواطن المصرى للجانب الآخر ، فيرفض المشاركة الإيجابية ويندفع فى اتجاه السلبية واللامبالاة .

---

١) نهلة إبراهيم، الأبعاد الاجتماعية والثقافية للشخصية القومية المصرية، دراسة فى علم الاجتماع الثقافى، الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ٢٠٠٦ ، ص ٣٩٨

وهذا ما أكد عليه أحمد زايد حينما رأى أنه نظراً للظروف الاقتصادية والاجتماعية والصحية التى يعيشها المصرى المعاصر، فإن ذلك يجعله لا يهتم كثيراً بأمور السياسة فمحور اهتمامه هو حياته وهمومه الفردية والأسرية وهنا يتحدد الوعى الاجتماعى عند مستوى هذه الهموم ولا يتجاوزها إلى المستوى العام . بمعنى الربط بينها وبين المشكلات الاقتصادية والسياسة العامة . وطالما ابتعدت هذه المشكلات العامة عن بؤرة الوعى، فإن النتيجة تكون إفراطاً فى السلبية واللامبالاة تجاه ما هو عام وإفراطاً فى الاهتمام بما هو خاص وشخصى .(١)

وما يجب التأكيد عليه أن هذه السلبية واللامبالاة ليست قدراً محتوماً على الشخصية المصرية، لكنها ترتبط بطبيعة البناء الاجتماعى، الذى يفرز أشكالاً من التناقضات تجعل من السلبية أداة يلجأ إليها الإنسان للتكيف مع هذه التناقضات . أى أن السلبية هنا قد تتحول إلى ميكانيزم للهروب من مشكلات الواقع . وما يؤكد ذلك أن هناك الكثير من المواقف التى تؤكد الدور الإيجابى الذى لعبته الشخصية المصرية عبر تاريخها، مثل موقفها من حرب أكتوبر ١٩٧٣.

ب - أما الخصائص التى ارتبطت فى نشأتها بتحولات الفترة من منتصف السبعينيات وحتى ٢٠٠١ فيمكن إدراجها فى :

الخاصية الأولى : ثقافة الاستهلاك :

تعرف ثقافة الاستهلاك بأنها " ثقافة مخطط لها بوعى . وتعبر عن مركب ثقافى يستخدم أساليب متنوعة، عملية وعقلانية فى إنتاجها وتعميمها وتحمل رموزاً وأفكاراً وقيماً كفيلة بتبرير وتدعيم النزعة إلى الاستهلاك والبحث عن السلع المتداولة فى الأسواق، إنها نظام ثقافى يهدف إلى تغيير الواقع الثقافى لتقبل مخرجات السوق ومنتجاتها بالاعتماد على وسائل عدة من أهمها تكنولوجيا المعلومات وتكنولوجيا الاتصالات ووسائل الإعلام . "(٢)

---

١) أحمد زايد، المصرى المعاصر، مرجع سابق، ص ١٦٧

٢) أحمد مجدى حجازى، الثقافة الاستهلاكية والتنمية الاجتماعية فى: أحمد مجدى حجازى (محررا) المجتمع الاستهلاكى ومستقبل التنمية فى مصر، أعمال الندوة السنوية الثامنة بقسم علم الاجتماع، جامعة القاهرة، كلية الآداب من ٢٢-٢٣إبريل ٢٠٠١، القاهرة، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، ٢٠٠١، ص١١٧

وقد رصدت الأعمال الروائية ما اعترى الشخصية المصرية من تزايد الميل نحو ثقافة الاستهلاك فى الفترة من منتصف السبعينيات وحتى بداية القرن الحادى والعشرين . ولم تكتف هذه الأعمال بعرض مظاهر هذه الثقافة ، ولكنها ركزت أيضاً على توضيح الآثار الاجتماعية المترتبة عليها . وفى هذا الصدد ترصد " الحب فى المنفى " ما أحدثته فترة الانفتاح من إغراق للسوق المصرية بالبضائع والمنتجات الأجنبية المستوردة ، المحفزة على الاستهلاك، وتسابق الفئات الاجتماعية المختلفة فى الحصول على هذه البضائع والمنتجات. وهذا ما تم رصده فى مواقف "منار" زوجة البطل وزميلاتها فى العمل، فيما يخص الولع بهذه المنتجات والحرص على اقتنائها والمتاجرة بها .

وفى أمريكا نللى نجد تركيزاً واضحاً على انتشارهذه الثقافة فى الثمانينيات والتسعينيات وما تلاها ، فيتحدث " شكرى " عن تلك الفئات التى عزمت على " إلحاق البلاد بركب العصر بتزويدها بسفن أب وكوكاكولا ومارلبورو وأربعين نوعاً من السيارات الحديثة"[١] . كما نجده يعرض كذلك لأنواع البذخ الاستهلاكى من جانب الطبقات الأعلى قدرة فى المجتمع ، حيث حفلات الزواج التى تتكلف الملايين من الدولارات

ولا يقتصر الأمر فيما يخص ثقافة الاستهلاك على هذه الطبقات ، فنجد الطبقات الفقيرة هى الأخرى بالرغم من عجزها المادى ، إلا أنها تسعى لتمثل هذه الثقافة وفى ذلك ترصد الرواية الأفراد الفقراء الذين يخوضون فى مخلفات متعفنة بينما يتحدثون فى تليفونات محمولة .

الخاصية الثانية : ثقافة القهر :

ولا يقصد بثقافة القهر ، ما يتعلق بالقهر السياسى فقط الذى تعرضت له الشخصية المصرية فى الفترة الأولى ، بل يشير إلى مناخ القهر بصورة عامة بجوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية الذى شهدته هذه الشخصية . فمن خلال ما تعرضت له الشخصية المصرية من عوامل كثيرة متداخلة عملت على قهرها فى ظل تناقضات البنية الاجتماعية، أصبح هناك ما أطلق عليه "محمود عودة" ثقافة القهر التى من خلالها يطور الإنسان المصرى آليات معينة تمكنه من التكيف والمقاومة وقد رصدت الأعمال الروائية ذلك، بصورة واضحة، "فنيويورك ٨٠" تعرض لثقافة القهر من

---

(١) صنع الله إبراهيم ، أمريكا نللى ، مرجع سابق ، ص ٢٨٤

خلال بيان الأسباب المجتمعية التى تلعب دورها فى تربية الأفراد تربية قوامها القهر .
وفى " الحب فى المنفى " يلعب القهر السياسى دوره البالغ فى تعميق أزمة البطل ورفيقه " إبراهيم " لحد الهروب بالنفى الاختيارى بعيداً عن سطوة المجتمع القاهر . وتعرض " أمريكا نللى " لظروف القهر السياسى والاقتصادى والاجتماعى الذى يتعرض له المواطن المصرى داخليا وخارجيا ، وما يتحمله هذا المواطن من معاناة إزاء التحديات الكثيرة التى تواجهه.

الخاصية الثالثة : الاتجاه نحو نمط التدين الشكلى : وهى خاصية مرتبطة بتنامى التيارات الإسلامية الأصولية منذ فترة السبعينيات وحتى الآن ، فإذا كان التدين بمعناه العام صفة ملازمة للمصرى منذ القدم ، فإن هذه الفترة شهدت تغيراً جذرياً فيما يشكله هذا الدين من قيمة بالنسبة للأفراد ، فمع تنامى التيارات الأصولية وازدياد تأثيرها على الشارع المصرى ، وقدرتها على اجتذاب الجماهير نتيجة لعدد من الأسباب الموضوعية المجتمعية التى عرضت لها الأعمال الروائية " الحب فى المنفى وأمريكا نللى " فقد تبين أن هناك تركيزاً مفرطاً على الجانب الشكلى أو المظهرى للدين والتمسك بقضايا فرعية تثير الخلاف والاختلاف بين جموع الشعب، خاصة الفئات البسيطة ذات الوعى السطحى فيما يتعلق بأمور الدين بصفة عامة.

ثانياً : صورة الآخر فى الخطاب الروائى المصرى فى الفترة من ١٩٥٢ – ٢٠٠١ م

ترتبط كل صورة بوعى ما ، كيفما كان حجمها وكذا ترتبط " بـ أنا " فى علاقة بـ "الآخر" . وبالـ " هنا " فى علاقته بالـ " هناك " . وتصبح الصورة من ثم نتيجة لبعد دالٍ بين واقعين ثقافيين . كما تمثل الصورة واقعاً ثقافياً يكشف عبره الفرد أو الجماعة المكونة له عن الفضاء الأيديولوجى الذى يتموضع داخله .[١]

ومن خلال تحليل الأعمال الروائية للكشف عن صورة الآخر كما عكستها هذه الأعمال فى الفترة من ١٩٥٢ – ٢٠٠١ م ، تبين أن هذه الصورة خضعت فى تشكلها لعدد من المؤثرات : فهى أولاً قد اختلفت باختلاف اللحظات التاريخية . ففى روايات الفترة الأولى ظهرت صورة الآخر مرتبطة بتحولات فترتى الخمسينيات والستينيات

---

(١) سعيد علوش، إشكالية التيارات والتأثيرات الأدبية فى الوطن العربى. دراسة مقارنة، الدار البيضاء، المركز الثقافى العربى، ١٩٨٦، ص ١٤٤

الداخلية والخارجية ، فى حين ارتبطت هذه الصورة فى أعمال الفترة الثانية بما شهده المجتمع من تغيرات مخالفة للفترة السابقة عليها وثانياً : ظهرت هذه الصورة فى حالة دينامية متغيرة ، بمعنى عدم ثباتها على كيفية واحدة ، بل خضعت فى تغيرها لعوامل عديدة ، بعضها مرتبط بالشخصية المصرية باعتبارها الجماعة المكونة لهذه الصورة ، والبعض الآخر مرتبط بممارسات هذا الآخر نفسه مواقفه من هذه الشخصية ، بما يعنى وجود جدل فى عملية تكوين هذه الصورة بين الطرفين : الطرف الحامل للصورة ، والطرف المتكونة عنه هذه الصورة .

وفيما يلى أعرض لأهم النتائج المتعلقة بخصائص صورة الآخر كما عرضتها الأعمال الروائية المعبرة عن كل فترة من فترتى الدراسة الفرعيتين ، بهدف معرفة التطور الذى لحق بهذه الصورة :

١- خصائص صورة الآخر كما عكستها الأعمال الروائية فى الفترة من (١٩٥٢ - حتى منتصف السبعينيات) :

وخلصت الدراسة لعدة نتائج متعلقة بصورة الآخر ، تتمثل فى :

أ - أظهرت الأعمال الروائية صورة للآخر الغربى ارتبطت فى المقام الأول بما شهدته البنية الاجتماعية من تغيرات فيما يتعلق بتحقيق الاستقلال والاتجاه صوب الغرب الاشتراكى . فتبدل الفضاء المكانى للآخر ليشمل عواصم الغرب الاشتراكى (فيينا - سويسرا - روسيا - المانيا وايطاليا)

ولهذا ظهرت صور الغرب الحضارى الذى يمكن معه إقامة نوع من التواصل فى نطاق المجال الإنسانى بوجه عام . وظهرت صورة الغرب الاستعمارى على استحياء من خلال الإشارات التاريخية للاستعمار الفرنسى والإنجليزى لمصر .

ب - وتجلت صورة الغرب الحضارى فى أعمال هذه الفترة ، من خلال إبراز الأوجه الحضارية له التى تقف فى تقاطب مع ما تعانيه الشخصية المصرية من أوضاع متخلفة . فمن خلال هذا التقاطب ظهرت صورة للآخر الغربى قوامها :

- تقدم الغرب فى مقابل تخلف الشرق .
- مادية الغرب فى مقابل روحانية الشرق .
- التعقل الغربى فى مقابل الاندفاع الشرقى .

▪ اختلاف النظرة الغربية للحياة والحرية والعمل عن النظرة المصرية الشرقية لها.

جـ - سيطرة على هذه الأعمال جميعها الصورة النمطية للآخر، فإذا كانت الصورة النمطية، هى صورة مغلوطة نتيجة اعتمادها بطريقة مباشرة على التبسيط والأحكام المسبقة تجاه الجماعة المنمطة (وهى هنا للآخر الغربى)، فإنه بناءاً على ذلك لم تكن الصورة التى رسمتها هذه الأعمال ذات أبعاد حقيقية مائة فى المائة، بل تداخل فيها المثالى بالواقعى . والحقيقى بالمتخيل وكانت فى معظمها صورة انتقائية، بمعنى تركيزها على أبعاد دون أبعاد أخرى . ويمكن إجمال خصائص الصورة النمطية عن الآخر الغربى فى : -

الخاصية الأولى : الغرب رمز الانفلات والانحلال الأخلاقي : واتضح ذلك فى كل من: فيينا ٦٠، ونجمة أغسطس وقالت ضحى وقدر الغرف المقبضة، حيث تم التركيز فى هذه الأعمال على عدم التقييد بقيم وأخلاقيات من أية نوع خاصة فيما يتعلق بإطلاق الحريات الشخصية . ويشير أحد الباحثين فى هذا الصدد " أن اتهام الغرب بالإباحية، هو إسقاط من عقلية تشعر بالنقص والضعف أمام هذا النموذج الغربى، فهذه التهم تدل على عقلية المتهم وبيئته أكثر مما تحتوى على اتهام فعلى ... " [(١)]

الخاصية الثانية : الغرب النموذج والمثال : وقد ظهر بوضوح فى كافة أعمال الفترة الأولى، حيث ظهر الغرب الواحة التى يلجأ إليها الجميع من أجل تحقيق السعادة المنشودة وهكذا، ففى كلتا الخاصتين ينطوى الموقف من الآخر على ازدواجية

٢ - خصائص صورة الآخر كما عكستها الأعمال الروائية فى الفترة من منتصف السبعينيات حتى ٢٠٠١ م

وفى هذه الفترة ارتبطت صورة الآخر بما شهده المجتمع المصرى من تغييرات بدأت تشق طريقها منذ بدء الأخذ بسياسة الانفتاح الاقتصادى والمحاولات المستمرة لإدماج مصر فى النظام الرأسمالى العالمى . وألقت السياسات الدولية وما ترتب عليها من علاقات بظلالها على هذه الصورة، خاصة تلك المحاولات الرامية لاستمرار الهيمنة الغربية فى إطار ثنائية التابع / المتبوع بكافة أشكالها . ففى خضم هذه السياسات وفى ظل أدواتها

---

(١) حسن حنفى، قضايا معاصرة، مرجع سابق، ص ٧٠

العالمية خاصة العولمة وما تعنيه من تعميق الاندماج الكامل فى النظام الغربى ، خاصة الأمريكى ، تشكلت صورة للآخر الغربى ، قوامها الخصائص التالية كما حددتها الأعمال الروائية :

أ – انحصرت صورة الآخر فى هذه الأعمال فى صورة الآخر الغربى الأمريكي ، الذى سيطر حضوره بشكل أساسى على هذه الأعمال " نيويورك ٨٠ – الحب فى المنفى – أمريكا نللى " مما يؤكد ارتباط الرؤية الأدبية لصورة الآخر بالرؤية الواقعية ، فالغرب الذى صار أمريكياً على مستوى الواقع المعاش ، أصبح أيضاً هو الغرب الروائى . وفى هذا الشأن تم التعبير عن هذه الصورة من خلال التقاطب أيضاً بين الشخصية المصرية والآخر الغربى فكان :

- الغرب المتقدم علمياً وتكنولوجياً فى مقابل الشرق المتخلف .
- الغرب مهد الحرية فى مقابل ديكتاتورية الشرق .
- الغرب المادى فى مقابل روحانية الشرق .

ب – صورة الآخر بين الصورة النمطية والرؤية النقدية :

وإذا كانت روايات الفترة الأولى تبنت صورة نمطية للآخر الغربى ، فإن روايات هذه الفترة حاولت تكوين صورة للآخر تقوم على الرؤية النقدية ، بمعنى إبراز الجوانب الإيجابية والسلبية فيه على السواء ، دون التركيز على جانب واحد، و إغفال بقية الجوانب . وبناء على ذلك ظهر الآخر بأكثر من صورة : فهناك صورة للغرب الإنسانى الذى ينادى بحقوق الإنسان والمساواة بين البشر ورفض العنصرية ، تمثله شخصيات : بريجيت وبرنار فى الحب فى المنفى ، وشادويك وبعض الشخصيات القليلة فى أمريكانللى .

كما يوجد أيضاً صورة للغرب العنصرى وهى الصورة التى تفرض نفسها بقوة، فهذا الغرب يدعم مقولات المركزية الأوروبية ويتخذ موافقا عنصرية من غير الغربيين خاصة العرب والمسلمين الذين يعمد لتشويه صورتهم ، فى حين يحابى إسرائيل ويدافع عن وجودها . وقد امتلأت الأعمال الروائية بكثير من الأحداث التى تكشف عن هذا الوجه العنصرى للغرب ، وهو ما سبق توضيحه فى تحليل هذه الأعمال .

ونتيجة لذلك برزت صورة للآخر قوامها الرفض والهجوم عليه ، خاصة وأن المجتمع الغربى ينطوى هو الآخر على تناقضات وسلبيات كثيرة أبرزها تشيوء العلاقات الإنسانية والازدواجية فى ممارساته سواء الداخلية أم الخارجية .

ثالثاً : مكونات وأبعاد صورة الآخر كما قدمتها الأعمال الروائية :

وفيما يتعلق بمكونات وأبعاد صورة الآخر كما ظهرت فى الأعمال الروائية وارتباطها بالممارسات الواقعية بين الشخصية المصرية والآخر الغربى ، فقد توصلت الدراسة لعدة نتائج تتعلق بتحديد هذه المكونات والأبعاد فى أربعة مكونات : المكون السياسى والمكون الاقتصادى والمكون الثقافى وأخيرا المكون الاجتماعى ، وفيما يلى أعرض لكل منها فى إطار فترتى الدراسة .

١ - مكونات صورة الآخر فى الفترة من ١٩٥٢ - حتى منتصف السبعينيات :

أ - المكون السياسى : وإذا كانت العلاقة مع الغرب وتكوين صورة ما عنه تتحدد وفق عوامل متعددة ، فإن المكون السياسى لهذه الصورة يعتبر أبرزها لأن الجانب السياسى فى العلاقة مع الغرب كان من أول نقاط التعرف عليه .

فالحملات المتتالية منذ الحملة الفرنسية وحتى الحملة الأمريكية على العراق كان هدفها الأساسى استعمار الوطن العربى إما بطريق مباشر عن طريق الاستعمار العسكرى، أو بطريق غير مباشر خلف لافتات أخرى : التحديث والتنمية والانفتاح وأخيراً العولمة . كل ذلك التاريخ من العداء بين الطرفين ، أدى لسيطرة الصفة الاستعمارية للغرب كصفة تفرض نفسها على الوعى الغربى والمصرى على مستوى الواقع المعاش . أما فيما يتعلق بالأعمال الروائية ، فإنها وإن حاولت التركيز على الجانب الحضارى الذى يمثله الغرب، إلا أن الوجه الاستعمارى للغرب ظهر كخلفيات لبعض الأحداث .

ب - المكون الاقتصادى : وهذا المكون مرتبط بالمكون السياسى ، فمع انتهاء التبعية السياسية للغرب فى هذه الفترة ، حاولت الدولة تحقيق استقلال اقتصادى وطنى يعتمد على الذات الوطنية بعيداً عن الهيمنة الغربية الاقتصادية وهو ما أدى لمحاربة هذه المحاولة ووأدها فى مهدها . وقد رصدت الأعمال الروائية هذه المحاولة وما تم من أجل عرقلتها خاصة ما جاء ذكره فى محاولة للخروج عن بناء السد العالى والإنجازات

التى تقوم بها الثورة ، وهو ما جاء أيضاً فى كل من نجمة أغسطس وقالت ضحى .
ولهذا برز رفض الغرب الرأسمالى المستعمر القديم ، وظهر اتجاه متنام داخل هذه الأعمال نحو الغرب بوجهه الحضارى .

جـ - **المكون الثقافى لصورة الآخر :** إن مصر مثلها مثل بقية دول العالم الثالث ، بالرغم من حصولها على الاستقلال السياسى، إلا أنها وجدت نفسها فى مواجهة أساليب جديدة من الاستغلال والهيمنة من جانب القوى الرأسمالية، بهدف تكريس الأوضاع غير المتكافئة فى إطار نظام دولى تسيطر عليه تلك القوى. ولم يقتصر الأمر فى ذلك على الجانب السياسى أو الاقتصادى، بل طال الأمر كذلك الثقافة فى إطار التبعية الثقافية : فآليات الهيمنة التى يوظفها الغرب لا تقتصر على السياسة أو الاقتصاد بل تشمل كذلك الثقافة " فقوى المراكز الرأسمالية تعرف أنها لا تحقق هيمنتها على بلدان العالم الثالث ومنها مصر من خلال التكنولوجيا ورؤوس الأموال والسلع والأسواق فحسب، بل تحققها كذلك من خلال نظم معرفية وقيم ومعايير ورموز ومن خلال ثقافة استهلاكية ، فالتبعية الثقافية تتوازى مع التبعية الاقتصادية وتتداخل معها ." [1]

وفى هذا الإطار ، ظهرت ثلاثة مواقف من الغرب : الموقف الأول : هو موقف الانبهار التام بالغرب ، والموقف الثانى : هو موقف الرفض التام للغرب ، أما الموقف الثالث فيقوم على التوفيق بين حضارة الغرب وحضارة الذات . وتمثل هذه المواقف الثلاث ركيزة من الركائز التى تنبنى على أساسها صورة ما للآخر الغربى ، فأنصار الموقف الأول، يرون الغرب هو النموذج الذى يجب السير على نهجه، فى حين يكون أنصار الموقف الثانى صورة للغرب قوامها الرفض والمعارضة أما أنصار الموقف الثالث فيرون الغرب على أكثر من صورة . وقد تم رصد المكون الثقافى لصورة الآخر من خلال انقسام المثقفين فى هذه الأعمال الروائية إلى فرق وجماعات: فالأصوليون والاشتراكيون والقوميون لكل منهم موقف من الغرب يتفق والرؤية التى ينظر منها للغرب .

---

(١) فتحى أبو العينين، الثقافة العالمية . ملاحظات حول آليات الهيمنة، فى : المجتمع المصرى فى ظل متغيرات النظام العالمى، أعمال الندوة السنوية الأولى لقسم علم الاجتماع من ١٠ - ١١ مايو ١٩٩٤ ، جامعة القاهرة ، كلية الآداب ، المطبعة التجارية ، ١٩٩٥ ، ص ٣٢٢ .

(٢) كمال التابعى ، تغريب العالم الثالث . دراسة نقدية فى علم اجتماع التنمية ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٩٣ ، ص ١٧٣

د - المكون الاجتماعى لصورة الآخر الغربى : ويشمل هذا المكون التغريب وأثاره على بنية المجتمع المصرى . والتغريب Westernization يعتبر شكل محدد من أشكال التغير الثقافى، وبما أن التغير الثقافى هو العملية التى من خلالها تتغير العناصر المادية والأساليب الفنية والتنظيم والاتجاهات والقيم والمفاهيم ووجهات النظر فى ثقافة ما نتيجة الاتصال بين حاملى هذه الثقافة وحاملى ثقافة أخرى مختلفة ، فإن التغريب هو التغير الثقافى الذى يحدث فى أى مجتمع غير غربى تحت تأثير الاتصال بجماعات أو أفراد غربيين ، أى أنه العملية الثقافية التى من خلالها يتبنى المجتمع أو جزء منه الثقافة الغربية كلية أو جزئياً، وتتضمن هذه العلمية نبذ عناصر ومركبات من الثقافة التقليدية، كى يحل محلها عناصر ومركبات ثقافية غربية

هذا، وقد تم التأثر بالنمط الغربى فى الحياة فى هذه الفترة فى عدة نواح ، خاصة فيما يتعلق ببعض العادات والتقاليد والملبس . وقد رصدت الأعمال الروائية ما أحدثه التغريب من آثار فى المجتمع من خلال : التأكيد على بعض المفاهيم السياسية الغربية التى تميز المجتمعات الغربية مثل : الديموقراطية والحرية السياسية والقومية ، وهو ما عرضت له هذه الأعمال من خلال المقارنة بين المجتمع المصرى والمجتمع الغربى . كما أكدت كذلك على بعض المظاهر المستحدثة فى المجتمع والمتعلقة بوضع المرأة المصرية وخروجها للعمل .

٢ - مكونات صورة الآخر فى الفترة من منتصف السبعينيات وحتى ٢٠٠١ م :

أ - المكون السياسى : لا يقوم المكون السياسى فى روايات هذه الفترة على العلاقة التاريخية ذات الجانب الاستعمارى بين الشخصية المصرية والآخر الغربى لكن هذا المكون يتشكل فى ضوء العلاقة السياسية فى شكلها الحديث بين الطرفين ، خاصة فى ظل سيطرة القطب الأمريكى ، فهذه العلاقة تتخذ مضاميناً استعمارية فى صيغ تقوم على مجرد الشعارات والدعاوى التى تتناقض مع الممارسات الفعلية للغرب فى الوطن العربى والإسلامى . لهذا نجد نيويورك ٨٠ تتخذ من عنصرية الغرب الأمريكى سبباً لرفضه . وهذه العنصرية والاضطهاد هى ما ترصده كل من : الحب فى المنفى وأمريكا نللى .

ب - المكون الاقتصادى لصورة الآخر: وتعلق هذا المكون بما رصدته الأعمال من سياسات اقتصادية أخذت بها مصر فى ظل الضغوط الدولية عليها، وقد أبرزت الدور

الذى قامت به الشركات المتعدية الجنسيات فى إغراق للسوق المصرية بالبضائع ودورها فى تكريس التبعية للغرب.

جـ - المكون الثقافى لصورة الآخر : واستمرارا للموقف المزدوج من الغرب على المستوى الواقعى ، فقد استمرت المواقف الثلاثة السابقة تطبع الموقف من الغرب .

د - المكون الاجتماعى لصورة الآخر : وفيما يتعلق بهذا المكون ، فقد استمرت عمليات التغريب فى هذه الفترة ، وهذا ما رصدته الأعمال الروائية التى أكدت بصورة أساسية على الأخطار التى تتعرض لها الشخصية المصرية . ومن هنا اتخذ المكون الاجتماعى لصورة الآخر التأكيد على كثير من المظاهر الغربية التى يتمثلها المصريون فى حياتهم ، خاصة ما يتعلق بضرورة الحفاظ على الهوية القومية لهذه الشخصية ، وقد اتضح ذلك بصورة أساسية فى الحب فى المنفى وأمريكا نللى .

رابعا : الدلالات الاجتماعية للأشكال الفنية التى عبر بها الخطاب الروائى عن تطور النظرة للآخر الغربى :

تختلف الرواية عن كل أشكال التعبير الفكرية الأخرى سواء أكانت من نوع البحث التاريخى أم البحث الفلسفى أم التحليل الأيديولوجى ؛ ففى كل هذه الأشكال توجد المادة مفروضة على الكاتب سلفاً وتتحدد الأهداف من قبل البدء ؛ فالمفكر دائماً يتعامل فى أفق مفروضة عليه . أما ما يميز الكتابة الروائية هو أنها تبحث عن أشياء خارج المضامين المعقلنة المذكورة عن الفلاسفة والمؤرخين ... إلى غير ذلك . فهى " تجربة نفسية بكيفية من الكيفيات تدعو المرء إلى نوع من الاستكشاف الخاص به بعيداً عن هيمنة الآخر . فمجال الرواية هو المجال الذى يبحث فيه الروائى عما لم يعبر عنه الآخرون الذين لم يمروا بتجربته الخاصة . "[1]

وما يمنح الرواية هذه الخصوصية هو شكلها الفنى المميز الذى لا ينفصل عن إطاره الاجتماعى ؛"فالقوانين الداخلية للرواية هى قوانين فنية وفى نفس الوقت قوانين اجتماعية أيضاً . فالحقيقة الفنية تحكمها قوانين مماثلة ومشابهة لتلك التى تنظم الحتمية التاريخية والاجتماعية. ولا يمكن عزل القوانين التى تحكم عملية الإنتاج

---

١) جابر عصفور، زمن الرواية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩، ص ص ٣٣١ - ٣٣٢.

الأدبى عن الجانب الاجتماعى الذى يدخل فى كل المواد الأولية التى يصاغ منها العمل الأدبى، فهى فى المحل الأول - قوانين فنية اجتماعية"[1]

فى إطار هذا الفهم نحاول معاينة صورة الشخصية المصرية والآخر الغربى فى إطار أدبية النصوص الروائية المدروسة بما يساعد على استيضاح أبعاد هذه الصورة والرؤى المتطورة التى تضمنتها بحسب آليات بنائها الداخلية من خلال المحاور التالية :

١. تطور الشخصية الروائية بتطور ظروف المجتمع .
٢. الوظيفة الاجتماعية للغة .
٣. الدلالات الاجتماعية للأسلوب السردى المستخدم فى النماذج الروائية المدروسة .
٤. الزمان والتغير الاجتماعى .
٥. المكان ودلالاته الاجتماعية والنفسية .

١ - تطور الشخصية الروائية بتطور ظروف المجتمع :

تقوم الشخصية بدور كبير فى البناء الروائى، فهى التى تعبر عن الخصائص الفكرية والثقافية والحضارية الخاصة بكل من الشخصية المصرية والآخر الغربي. وتراوحت الشخصية فى النماذج الروائية المدروسة بين عدد محدود من الشخصيات أو عدد كبير منها ، ولأننى أبحث فى هذا الجزء من الدراسة عن شخصية البطل الممثل للشخصية المصرية أو للآخر الغربى، والرؤية التى من خلالها ترسم صورة لنفسها وللآخر ، لهذا أقتصرت على البحث فى شخصية (البطل) الممثلة للشخصية المصرية، والشخصية الممثلة للآخر الغربى .

أ - شخصية البطل الممثلة للشخصية المصرية :

وباستقراء النماذج الروائية المدروسة وعددها ثمان روايات يمكن رصد الآتى :

. سيطرة شخصية المثقف (الرجل) على دور البطل فى هذه النماذج الروائية . وكانت هذه الشخصية تعبير بشكل من الأشكال عن حضارتها العربية الشرقية بكل ما تحمله من ميراث ومقومات . وهذا ما أكدته نتائج عديد من الدراسات السابقة التى بحثت فى صورة الذات وصورة الآخر من خلال الأدب كدراسة نجيب التلاوى وعصام بهى وغيرها .

---

١) صبرى حافظ ، مرجع سابق ، ص ص ٨٢ .

. اتسمت شخصية المثقف فى النماذج الروائية بثقافته وسعة إطلاعه وبروز اتجاه فكرى محدد يتبناه ؛ فكان البطل صاحب الميول الاشتراكية كما فى " نجمة أغسطس " ، والبطل القومى كما فى " الحب فى المنفى " و " قالت ضحى " ، فى حين لم تعلن باقى الروايات عن انتماء فكرى محدد لأبطالها ، وإن ظهر هؤلاء على درجة كبيرة من الثقافة كما فى : " محاولة للخروج " و " قدر الغرف المقبضة " " نيويورك ٨٠ " و " أمريكانللى " . واستثنى من هذا الوصف شخصية " درش " فى " فيينا ٦٠ " الذى لا تنطبق عليها صفة مثقف بما تعنيه هذه الكلمة .

. وفيما يخص التعبير عن المثقف الأصولى أو المنتمى للتيارات الإسلامية ، فلم يظهر إلا على استحياء فى النماذج الروائية التى عبرت عن الفترة الأولى من الدراسة (من ١٩٥٢ . وحتى منتصف السبعينيات). وظهر الحديث عنها فى رواية واحدة " نجمة أغسطس " ، وفى حين احتل الحديث عن هذه الشخصية مساحة أكبر فى روايات الفترة الثانية (منتصف السبعينيات . ٢٠٠١) خاصة فى روايتى : "الحب فى المنفى" و" أمريكانللى " . فى "نجمة أغسطس" لم نجد مواجهة مباشرة بين هذا النمط من المثقف وبين الآخر الغربى، فى حين أن المواجهة بينهما فى روايتى الفترة الثانية فرضتها متغيرات الفترة وتوابعها الواقعية، خاصة مع تنامى هذه التيارات وإظهارها العداء للغرب صراحة دون موارية. وبالرغم من ذلك لم تلعب هذه الشخصية دور البطولة الذى ظل مقتصراً على البطل القومى أو اليسارى. معنى ذلك أن النماذج الروائية لم تقترب من منظور هذه التيارات فى علاقتها بالآخر على المستوى الروائى، بالرغم من الحضور الطاغى لها على مستوى الواقع .

- يتضح من الروايات المدروسة أن ذهاب البطل للغرب لم يكن بقصد تحصيل العلم والمعرفة؛ بل كان الهدف مرتبط فى المحل الأول بواقع الأبطال الشخصى والاجتماعى الذى دفعهم للقيام بالرحلة إلى الغرب . وينطبق هذا على روايات الفترة الأولى والثانية على حد سواء . ففى " فيينا ٦٠ " كان الهدف من رحلة " درش " الفوز بالمرأة الأوربية. أما فى " قدر الغرف المقبضة " هدف " عبد العزيز " من سفره لألمانيا الخلاص من أزمته الشخصية الخاصة التى يعانيها فى حياته (العلاقات المتأزمة بين زوجته وأمه . عدم قدرته على تحقيق حلمه بأن يصبح أديباً مرموقاً) كذلك الخلاص من أزمته

المجتمعية (ممارسات فترة الستينيات وإجراءاتها المتعلقة بالحجر على المثقفين وملاحقتهم) . فالرحلة للغرب هنا محاولة يبغى بها التخلص من حياة الاغتراب التى يحياها داخل وطنه . وهذا الأمر يتكرر فى "قالت ضحى" فبطلها يسافر فى منحة دراسية مع زميلته "ضحى" لروما طمعاً فى المكافأة المالية المرتبطة بهذه المنحة لتساعده فى تزويج أخته . وحتى يصير بالقرب من "ضحى"

أما فى روايات الفترة الثانية : يذهب بطل "نيويورك ٨٠" للغرب الأمريكى فى مهمة لا يذكرها ، ومع ذلك يتخذ من المواجهة والجدال مع المومس الأمريكية مجالاً لمساءلة هذا الآخر الأمريكى وحضارته المادية . وهو فى هذ يمثل المثقف الواعى بخصائص وقيم حضارته الأخلاقية . وتأتى روايتى : "الحب فى المنفى" و "أمريكانللى" لتعرض لتهميش دور المثقف فى وطنه ، وتجاهله من قبل الأنظمة الداخلية المختلفة ؛ ففى الرواية الأولى تأتى الرحلة للغرب باعتبارها منفىً اختيارياً يقبله البطل كخيار مفروض عليه ولا بديل له فى ظل عدم تكيفه مع تحولات عقدى السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين . وفى الرواية الثانية يكون استمرار تأزمات الوقع فى التسعينيات هو ما يجعل "شكرى" يقبل عرض زميله "ماهر" السفر لأمريكا للتدريس بها ، وهذا ما يجعل العلاقة مع الآخر الغربى مؤطرة بحدود معينة داخل هاتين الروايتين؛ فمن ناحية أولى تراوحت المواجهة مع الآخر بين التعرف على الأوجه المختلفة له وعدم تنميطه فى صورة واحدة. ومن ناحية أخرى كان المثقف مهتم بوطنه وما يحدث به بالرغم من بعده عنه.

ب. الشخصية الممثلة للآخر الغربى : وهذه الشخصية تعبر عن الحضارة الغربية وما تمثله من أنماط ثقافية مغايرة للحضارة العربية بوجه عام ومختلفة عنها . وفى النماذج الروائية المدروسة اختلف تأثير الشخصية الممثلة "الآخر" على الشخصية المصرية، باختلاف الفضاء المكانى اللذين وجدا فيه ؛ فقد انقسمت النماذج الروائية فى هذا الشأن إلى قسمين :

القسم الأول : جاء فيه الآخر إلى أرض الوطن (محاولة للخروج. نجمة أغسطس)

القسم الثانى : ذهبت فيها شخصية البطل إلى الآخر (فيينا ٦٠. قدر الغرف المقبضة. نيويورك ٨٠. الحب فى المنفى. أمريكانللى)

بالنسبة لراويات القسم الأول كان لشخصية الآخر دور هام فى إعادة اكتشاف الشخصية المصرية فى هذه النصوص لذاتها عبر هذا الآخر، وهو ما جعل من نقد هذه الذات نتيجة مترتبة على وجوده فى فضاء الوطن ؛ ففى " محاولة للخروج " ومع قدوم " الزيت " يتعرف البطل ويكشف عن أوجه سلبية كثيرة تعانى منها الشخصية المصرية سواء فى مجتمع القرية أم فى مجتمع المدينة ، فالزيت ترى الناس فى مصر " فقراء وقذرين جداً وكسالى [1] "

وفى نجمة أغسطس " تتمثل شخصية الآخر فى جماعة الروس الموجودة فى مجتمع بناء السد العالى ، ومن خلال المواجهة بين الروس والمصريين فى هذا المجتمع يتم نقد الذات أيضاً عن طريق المقارنات المتعددة بين كل من الفريقين . فأحد العمال يوجه نقداً للعمال المصريين بمقارنتهم بالروس يذكر فيه " ويعملون على الأقل أضعاف ما نعمل ، وأهم ميزة لديهم الصبر ، أما نحن فكسالى لا صبر لدينا ، نريد أن نحصل على كل شيء دون مجهود وبالفكاكة . [2] "

ومن الملاحظ أن استقدام الآخر فى هاتين الروايتين وحركته بين أماكن متعددة فى فضاء الوطن ، وتعدد مقابلاته مع شخصيات مختلفة ومستويات مختلفة فى المجتمع قد عمق من أبعاد الصورة المرجعية التى ترسمها الشخصية المصرية عن نفسها واتضحت مكوناتها السلبية والإيجابية على حد سواء . وهو الأمر الذى يختلف مع ما تم عرضه فيما يتعلق بمفهوم الصورة المرجعية فى الجانب التنظيرى ؛ فلم تكن هذه الصورة الأساس الذى عليه بنيت صورة الآخر ، بقدر ما تم نقضها فى كثير من الأحيان ، خاصة فى توضيح جوانب القصور والتخلف التى تعانى منها الذات .

وفى روايات القسم الثانى، التى انقسمت بدورها إلى نوعين : الأول كانت شخصية الآخر فيه عبارة عن فرد واحد كما فى (فيينا ٦٠ .ونيويورك ٨٠ .قالت ضحى) وفى هذه النماذج التى يقتصر فيها الآخر على شخصية واحدة فقط نجد أن الكاتب يركز على قضية أو فكرة معينة يحاول بسطها وعرضها ويتوصل من خلالها فى النهاية لنتائج يستطيع تعميمها فيما بعد على التشكيل الكلى الذى تنتمى إليه هذه

---

(١) عبد الحكيم قاسم ، محاولة للخروج ، مرجع سابق ، ص ٤١ .
(٢) صنع الله إبراهيم ، نجمة أغسطس ، مرجع سابق ، ص ١٥٦ .

الشخصية بوجه عام . وهذا ما نلمحه فى الشخصيات المعبرة عن الآخر فى هذه الروايات وهى بالتتابع (السيدة الأوربية . المومس الأمريكية . باولا الإيطالية) أما النوع الذى كان الآخر فيه عبارة عن جماعة (قدر الغرف المقبضة . الحب فى المنفى . أمريكانللى) ، فقد كان التركيز يتم فيها على عرض أنماط مختلفة من البشر لكى يستطيع الأدباء رسم صورة أقرب للواقع الذى لا يقوم على رؤية واحدة ؛ بل تتعدد رؤاه وتختلف ، ولهذا جاء الآخر هنا فى صورة جماعية حتى يتم الإلمام بجوانب عديدة متعلقة به دون التركيز على جانب دون آخر .

هذا ، وقد كان للآخر وشكل العلاقة معه دور فى إثارة سؤال الهوية لدى الشخصية المصرية ؛ كرد فعل لتطور وتعقد الأحداث والمواقف بينها وبينه على المستوى الواقعى . خاصة فى لحظات تاريخية بعينها ، مما فرض على هذه الشخصية تساؤلات عديدة لا تتعلق بالعلاقة مع الآخر وحده ، بل تتعلق بالأوضاع الداخلية التى تعانى منها هذه الشخصية . وقد انعكس هذا جليا على مستوى النصوص الروائية المدروسة فى اختيار الشخصيات المعبرة عن الشخصية المصرية ؛ ففى روايات الفترة الأولى: تميزت شخصيات الأبطال بالحس الحزين الذى ولدته هزيمة ١٩٦٧ ، وتحول البطل الفردى من الواقع السائد حوله إلى الواقع القاسى الجديد ، وكان هذا الواقع من الحدة بحيث عصف بوجود البطل المثال إلى البطل الجمعى ممتزجاً بمأساة الهزيمة وضراوتها . "[١]

ولهذا جاءت هذه الشخصيات لتعبر عن رؤية للعالم ذات صبغة تشاؤمية لحد كبعيد . وكانت معظم الأسئلة التى طرحها الأبطال فى هذه الروايات تتعلق بإمكانية قيام نوع من التواصل مع الآخر . واختلفت القنوات التى يمكن عبرها تحقيق هذا التواصل :

. فى محاولة للخروج ، كان الحب وتشوف قيم إنسانية عامة هما القناة التى حاول بها " حكيم " تحقيق هذاالتواصل.

ـ فى نجمة أغسطس كانت محاولة الاكتشاف وتحقيق التواصل العاطفى بين " البطل " و" تانيا " هما الطريق لتحقيق التواصل.

(١) مصطفى عبد الغنى، الاتجاه القومى فى الرواية، عالم المعرفة، العدد ١٨٨، الكويت، مطابع السياسة، ١٩٩٤، ص ٣٥٩ .

.وتمثلت هذه القناة في قدر الغرف المقبضة ، في محاولة النوبان في الآخر بكل أطيافه من قبل " عبد العزيز " .

ـ وفي قالت ضحى كانت محاولة الإقناع وتصحيح الفهم التي أرادها البطل في حواره مع " باولا " .

ومن المفارقات التي تنطوي عليها هذه النماذج فشل كل هذه القنوات في تحقيق الهدف منها كنتيجة مترتبة على وجود عدد من الفروق الضخمة التي تفصل بين عالم الشخصية المصرية وعالم الآخر على الرغم من وجود بعض نقاط التشابه بينهما .

أما في روايات الفترة الأخرى ، (نيويورك ٨٠ . الحب في المنفى . أمريكانللى) ، نجد تميزاً حاداً يضعه الأبطال في تحديد هويتهم في مقابل الآخر . وهنا تقف هذه الشخصيات موقف الند للشخصيات المعبرة عن الآخر :

ـ في نيويورك ٨٠ : يقف الطبيب نداً للمومس الأمريكية العالمة ، بل يتفوق عليها في نهاية حواره معها .

. وفي الحب في المنفى : يقف الصحفى المصرى المغترب . بالرغم من كل آلامه وقهره . نداً لبريجيت وموللر .

. ويقف أستاذ الجامعة " شكرى " نداً لكل شخصية غربية تظهر في " أمريكانللى " .

في هذه النماذج يبدو التطور الذى لحق بشخصية البطل مرتبطاً بتطور الواقع بكل مستوياته وما شهده من تغيرات ؛ فنتيجة لتداخل المواقف السياسية مع المواقف الحضارية للغرب ، ومع تصاعد نجم الولايات المتحدة الأمريكية ومحاولتها المستمرة الهيمنة على مقدرات الشعوب ، أصبح البطل المعبر عن الشخصية المصرية ، على وعى بكل هذه المتغيرات ولهذا تحول نموذج البطل المعبر عن الشخصية المصرية من البطل المأزوم الذى يرى في الغرب ضالته المنشودة للهروب من واقع مجتمعه المتخلف ، والذى يرغب في التصالح مع الإنسانية جمعاء شرقاً وغرباً (كما في روايات الفترة الأولى .) تحول البطل في روايات هذه الفترة إلى شخصية على وعى بهويته الحضارية بكل ما تحمله من مثالب وعيوب ؛ فهو لا يخفيها ولكنه في الوقت ذاته يحاول مساءلة هذا الآخر في فضائه ، مما يوحى بتغير وتطور هذه الشخصية .

ومن الملاحظات المهمة على هذه النماذج الروائية ، استمرار أدباء الدراسة فى تذكيرهم للشخصيات المعبرة عن الشخصية المصرية ، فى مقابل تأنيثهم للشخصيات المعبرة عن الآخر الغربى ؟ فهل لذلك مردود ذا مرجعية واقعية لديهم ؟

إن العودة للكتابات الاجتماعية يمكن أن تفيد فى إلقاء الضوء على هذه القضية ، ففى مقابل الدراسات الاستشراقية التى تغزو الشرق بذكورية ترمز بشدة للعلاقة القائمة بين الرجل والمرأة ، والتى فيها يوصف الشرق باعتباره " صامت ، واهن ، خائر ، رخو ، سلبى .... ساحر ، كل ما بوسعه تلقى المبادرة الآتية من الغرب ، تأتى بعض المحاولات العربية التى تحاول أن تؤنث الآخر الغربى ، يتضح ذلك فى الخطاب الإسلامي الذى يكثر من المفاهيم الذكورية : الجهاد ، القوة ، الاقتحام ، الغزو ، والحرب ، وذلك ربما إعفاءا للمرأة العربية من الاغتصاب الحضارى ."[1] من هذا المنظور وفى نفس السياق يمكن تفسير موقف الأدباء فيما يخص تأنيثهم للشخصية المعبرة عن الآخر الغربى .

٢ - الوظيفة الاجتماعية للغة فى النصوص المدروسة :

يرى بيير زيما " " أن كل ملفوظ يشكل جزءاً من حوار واسع بين جماعات يمكن لمصالحها ورؤاها للعالم أن تدخل فى صراع ... وأن اللغة يمكن النظر إليها كنظام تاريخى يمكن أن نشرح تغيراته (اللفظية . الدلالية . التركيبية) فى ضوء الصراعات بين الجماعات الاجتماعية ، وذلك مع الأخذ فى الاعتبار الصفة التاريخية (المتغيرة) والاجتماعية للغة . "[2] وبهذا المعنى الذى يحدده زيما يمكن البحث عن الوضع اللغوى الاجتماعى المعبر عن جماعة معينة . وهو فى تأكيده على صفة التاريخية التى تتميز بها اللغة إنما يقصد تغير اللغة تاريخياً من فترة لأخرى ، وهو ما ينطبق على بعدها الاجتماعى أيضاً

وبهذا يمكن القول : إن اللغة " تعكس العمليات الاجتماعية والثقافية لدى أى مجتمع من المجتمعات . ومن هنا جاء اهتمام علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا بالتغير اللغوى من ناحية والثقافة من ناحية أخرى فى المجتمع . "[3] هذا ويمكن النظر للغة

---

١) دلال البزرى ، مرجع سابق ، ص ص ١٠٥ - ١٠٦

٢) بيير زيما ، مرجع سابق ، ص ١٨٧ ، ص ١٩١

٣) أمل حركة ، الرمزية فى البيئة الثقافية ، ندوة عاطف غيث العلمية ، الإسكندرية ، ١٩٩٢ ، ص ٣ .

باعتبارها "مميزاً فردياً كما أنها مميز طبقى ،وهى فى تغير دائم .ومن المسائل التى يهتم بها علم اللغة ،مدى تمثيلها للبنية الاجتماعية .وكما أن البنية الاجتماعية تتطور ،فإن اللغة تتطور بشكل مماثل ." [1]

ووفقاً لهذه الرؤية حاولت الاقتراب من مفهوم التعدد اللغوى أو اللهجة الجماعية فى النصوص الروائية المدروسة بالطريقة التى تساعد فى التوصل إلى دلالة اختلاف هذه اللهجة الجماعية داخل هذه النصوص ، وكيف ساعدت فى تشكيل الصورة التى تبنتها كل جماعة عن الأخرى فى سياق التغير التاريخى والاجتماعى الذى أنتج هذه اللهجة الجماعية .

وعلى مستوى النصوص قيد الدراسة يمكن تحديد جماعتين أساسيتين متصارعتين ومختلفتين داخلها هما : جماعة النحن (المعبرة عن الشخصية المصرية)، و جماعة الهم (المعبرة عن الآخر الغربى) .فلكل جماعة من هاتين الجماعتين لهجتها الجماعية المعبرة عنها .وتوجد كذلك داخل كل منهما جماعات فرعية ذات لهجات جماعية تعبر عن مصالح ووجهات نظر مختلفة فيما بينها .

- فى روايات الفترة الأولى ونتيجة لتغيرات هذه الفترة على الصعيد الداخلى والخارجى ،نجد لهجة جماعية تميز الجماعات الفرعية التى تتكون منها جماعة النحن : فالمثقفين يغلب على لهجتهم الجماعية الانكسار والشعور بالمرارة والهزيمة كما فى لهجة (عبد العزيز و حكيم) بطلى قدر الغرف المقبضة ومحاولة للخروج.

- أما فى روايات الفترة الأخرى فنجد صدى أكبر لتعدد اللهجات الجماعية فيها ، وذلك يعود فى جزء كبير منه لطبيعة هذه الفترة وما شهدته من تحولات جعلت العلاقة مع الآخر الغربى مرهونة بقضايا عديدة : حرب أكتوبر والصلح مع إسرائيل و انتفاضة الثمانينيات و الحرب اللبنانية وغزو الكويت ،ومن بعد ذلك غزو العراق و الدخول فى عصرالعولمة و محاولة تفتيت الهويات القومية وغير ذلك من أحداث تلاقت خطاباتها السياسية والأيديولوجية أو تعارضت مع الخطاب الأدبى .من أجل هذا جاءت النماذج الروائية لهذه الفترة حاملة لكثير من مفردات هذه الخطابات على اختلاف توجهاتها . ونتيجة لذلك ظهرت فى داخل هذه النصوص لهجات جماعية متنوعة :

---

[1] المرجع السابق ، ص ٤ .

ـ ففى نيويورك ٨٠ نجد لهجة البطل الطبيب المعبرة عن الشخصية المصرية متأثرة بممارسات السياسة الأمريكية على المستوى الواقعى . ولهذا جاءت لهجة عنيفة تحمل قدراً كبيراً من الهجوم على الحضارة الأمريكية وكل ما ترمز له . ويبدو هذا التعدد اللغوى المعبر عن المجتمع والحضارة الأمريكية بوضوح أكثر فى أمريكانللى ؛ فالرواية تحمل لهجات متعددة وكلها تعبر عن جماعات متصارعة سواء داخل الوطن (اليساريين بمفرادتهم . الإسلاميين بمفراداتهم : الأسلمة . الكفر وغير ذلك) أم فى المجتمع الأمريكى حيث يظهر هذا التعدد بوضوح من خلال : المغتربون — المهاجرون — جماعات الشواذ — الجماعات المنادية بحقوق الإنسان — المعارضون للسياسة الأمريكية فى الداخل والخارج على السواء — جماعة الطلبة — الجماعات المتضررة من سياسات الخصخصة — جماعة العمال — إلى غير ذلك من جماعات .

واستخدم صنع الله إبراهيم فى روايته لغة الوثيقة ، حيث أدرج مجموعة من الوثائق داخل السرد الروائى أو فى هوامش الرواية ، وقد تضمنت هذه الوثائق : أخبار من الجرائد و وفقرات من بعض الكتابات فى مجالات مختلفة ، وهى طريقة اتبعها الأديب فى كثير من أعماله السابقة خاصة روايتى : " ذات " و " شرف "

٣ـ الدلالات الاجتماعية للأسلوب السردي المستخدم فى النماذج الروائية المدروسة :

وقد تبين من تحليل النماذج الروائية أن كل منها ركزت على واحد من ثلاثة عناصر : استخدام ضمير " الهو " حيث ينفصل بطل العمل الروائى عن الراوى ، أو استخدام الأنا السردية . وفيها يكون البطل هو نفسه الراوى لأحداث الرواية ، أو استخدام تقنية تيار الوعى . وفى ذلك سوف أشير للدلالة الاجتماعية التى يحملها كل عنصر من هذه العناصر فيما يخص موضوع الدراسة .

أ . الروايات التى استخدمت ضمير " الهو " : وفيها يهيمن الراوى على سير الأحداث بطريقة كبيرة ، ومن خلال هذه الهيمنة يستطيع تقديم كثير من الحقائق المتعلقة بالشخصيات وفق المنظور الذى يتبناه هذا الراوى ، فهو يعرض ويسرد الأحداث من وجهة نظره الخاصة ، ويظهر ذلك بوضوح فى روايتى : (فيينا ٦٠ و قدر الغرف المقبضة) .

ففى فيينا ٦٠ يأتى الراوى ليلقى الضوء على شخصية البطل فيسرد نواحى متعددة من حياته الشخصية والعملية ، ويركز فى نفس الوقت على مكان واحد هو مدينة فيينا ،

ووقت بعينه هو الليلة الأخيرة له فيها " وكل هذا التركيز للشخصية والمكان والزمان قد حدد المواجهة الحضارية الرامزة التى تحقق اتصالاً عضوياً ظاهرياً لكن فروق المثاقفة والمجانسة ظلت متباعدة عندما أعلن الراوى. العارف بكل شىء. عن نتيجة المعاضلة بين درش والسيدة النمساوية بأن كلاً منهما استحضر زوجه ليحقق نجاحاً مؤقتاً . "[1]

وفى قدر الغرف المقبضة ، نجد الراوى العارف بكل شىء ، يصف حياة البطل كلها منذ طفولته . وعبر هذا الوصف يسرد كثيراً من أزمات الواقع وعلاقتها بالإحساس بالإحباط واليأس الذى يعيشه البطل . ويستمر الراوى فى هيمنته على الرواية وأحداثها عند انتقال البطل لفضاء الآخر ليرصد التحول الذى طرأ على شخصية البطل فى ظل وجوده فى أمكنة متغيرة وفترات زمنية متغيرة .

ب. **الروايات التى استخدمت الأنا السردية :** وتشمل النصوص (محاولة للخروج . قالت ضحى . نجمة أغسطس . الحب فى المنفى . أمريكانللى) . تتبع هذه الروايات شكل السيرة الذاتية فى بنائها ، وذلك مع الاختلاف فيما بينها بحسب كل تجربة روائية . وتنبع أهمية هذه الطريقة التى يتماهى فيها البطل مع الراوى من أنها " تمكن من معرفة مكنون الشخصية وخارجها ، وهو ما يعمق من الرؤية التفسيرية . بالإضافة إلى ذلك فإن الأنا السردية تعد أسهل وأبسط طرق الاستبدال الرمزى بين (الأنا) و (الذات القومية) برصيدها الحضارى . "[2]

هنا، ويمكن اعتبار هذا النوع من الكتابة رفضا للواقع واحتجاجاً عليه ، وهوما يمكن رصده فى هذه الروايات ؛ فبطل " محاولة للخروج يبدأ الرواية بكلمة " أنا " كاشفاً فيما بعد عن أزمته الخاصة والعامة داخل مجتمعه ، والتى يحاول الخروج منها عبر " الزيت " . وعلى نفس الشاكلة يأتى بطل " قالت ضحى " جاعلاً من نفسه الأنا التى تكشف عن الأوضاع المتغيرة فى المجتمع . أما فى " الحب فى المنفى و أمريكانللى " فالأنا تكشف عن وجهة نظرها فى أمور كثيرة داخلياً وخارجياً ، فهى تستخدم نفسها من أجل الكشف عن العوالم المختلفة التى تنتقل فيما بينها.

---

(١) محمد نجيب التلاوى ، مرجع سابق ، ص ٢١٣ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٠٧

ج - الروايات التى استخدمت تقنية تيار الوعى وتشمل روايتى : الحب فى المنفى و نجمة أغسطس . وتيار الوعى " طريقة من الطرق الفنية التى أبدعها الأدباء محاولة منهم تحديد العلاقة بين أبعاد الشخصيات بصورة عامة .... وفيها ترسم حدود العالم الباطنى للشخصية الإنسانية من خلال الذاكرة ليحدد معالم الروح الدرامية لحياة هذه الشخصية ، ليقف القارئ معه على مأساته وأزمته ... "[1]

فى نجمة أغسطس يبدأ الأديب بالتركيز على البطل من خلال فكره وسلوكه ، فى اللحظة الراهنة والتى يحدث فيها من المواقف ما يجعله يرتد للماضى القريب والبعيد ، حيث يتصل الزمن الحاضر بالماضى . وهنا تبدو وظيفة التداعى التى يتضمنها تيار الوعى ، فى الربط الوثيق بين الزمنين (الماضى والحاضر) . يتضح ذلك فى أكثر من موقف يحاول فيها الاقتراب من علاقة الشخصية المصرية بالسلطة الحاكمة من خلال الإشارات التاريخية لفترة حكم رمسيس الثانى وفترة المعتقل الذى دخله البطل فى بداية الستينيات . وفى أمريكانللى استخدم هذه التقنية للمقارنة بين الأوضاع التى يشاهدها فى أمريكا وبين الأوضاع فى مصر .

أما فى الحب فى المنفى يستخدم بهاء طاهر هذه التقنية ليعود من خلالها للفترات الزمنية السابقة التى عاشها داخل الوطن فى مرارة وألم ليقارن بينها وبين الفترة التى يعيشها بعيداً عن الوطن فى منفاه.

٤ - الزمان والتغير الاجتماعى :

لا يمكن التعرف على ما يمثله الزمن من دلالة فى تطور النظرة للآخر الغربى عبر النماذج الروائية المدروسة إلا من خلال التعرف على طبيعة العلاقة القائمة بين الزمن والشخصية ؛ فللزمن مغزى خاص بالنسبة لها لأنه لا ينفصل عنها ، فالإنسان بوجه عام " يشعر بنموه العضوى والنفسى عبر الزمن . ولا يحدث تراكم الخبرات والمعرفة بالذات إلا من خلال تتابع اللحظات الزمانية والتغيرات التى تشكل صيرورته."[2]

ومن هنا تبدو العلاقة الوثيقة بين عناصر البناء الروائى جميعها ، ولهذا فإن التعرف

---

١) نصر محمد إبراهيم عباس ، الشخصية وأثرها فى البناء الفنى لروايات نجيب محفوظ ، جدة ، شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، ١٩٨٤ ، ،

٢) سوسن ناجى ، صورة الرجل فى القصص النسائى ، المنيا ، مطبعة الزهراء ، ١٩٩٥ ، ص ٣٠٨ .

على الزمن فى النماذج الروائية المدروسة له كثير من الدلالات الاجتماعية . ويمكن استجلاء هذا الأمر فيما يلى :

- بالنسبة لروايات الفترة الأولى : كان من ضمن حيثيات اختيارها أنها تتناول فى مجملها الفترة الزمنية الواقعة ما بين ١٩٥٢ و منتصف السبعينيات . وهى تعرض للتغيرات الاجتماعية والسياسية التى شهدتها هذه الفترة وما أدت إليه هذه التغيرات من تطور فى تشكيل صورة ما عن الآخر الغربى ، وكما سبق فى تحليل هذه الروايات ، فقد لوحظ أنها تعاملت بالفعل مع هذه الفترة بشكل أساسى ، ولكنها حاولت الربط فيما بين هذه الفترة وفترات سابقة عليها فى إطار من الاستمرارية التى ترى الزمن حلقات متصلة لا يمكن الفصل بينها . ومن هذا المنظور استخدم الأدباء عدة تقنيات فنية متعلقة بالزمن مثل : الاسترجاع والتواصل وغير ذلك من تقنيات فنية يمكن سردها فيما يلى :

. فى رواية " فيينا ٦٠ " تتمثل دلالات الزمن ، فى الإشارة الواضحة لفترة الستينيات التى يشير إليها العنوان وما يمكن أن ينطوى عليه ذلك من محاولة رصد تحولات هذه الفترة وأثرها فى النظر للآخر بطريقة رمزية ؛ حيث الآخر هنا هو السيدة النمساوية ، بما يعنى أن آخر الستينات هو الغرب الأوروبى الاشتراكى (فيينا) بعيداً عن الغرب الاستعمارى المتمثل فى إنجلترا وفرنسا العدوين التقليديين للعربى بصفة عامة .

. وفى قدر الغرف المقبضة يبدو الزمن عاملاً من العوامل المساعدة فى استبصار مساوىء المجتمع المصرى وما تعانيه الشخصية المصرية ومحاولتها المستمرة تغيير واقعها . ويستخدم الأديب هنا الاسترجاع بمعنى العودة إلى الوراء أو الماضى ثم العودة للحاضر . وهو يستخدم هذه التقنيات هنا ليدلل على استمرار الأوضاع البالية فى كل الفترات الزمنية وعدم تغيرها . أما فى " محاولة للخروج " يركز الأديب على لحظة زمنية واحدة هى قدوم الآخر " إلزبث " لأرض الوطن فى فترة الستينيات ليجعل من هذه الزيارة سببا فى إلقاء الضوء على تناقضات هذه الفترة التى مهدت للهزيمة فى ١٩٦٧ .

. وفى نجمة أغسطس يستخدم الأديب أكثر من زمن ؛ فهو يستخدم العودة للماضى البعيد (التاريخ الفرعونى) والماضى القريب (زمن الطفولة . المعتقل) . كما يستخدم الزمن الحاضر (فترة بناء السد) ويقوم بنوع من التداخل بين الزمنين ، فالبطل عن

طريق ما يشبه أحلام اليقظة يعود بعيداً للماضى من خلال استرجاعه لذكريات ماضيه ، والإشارات التاريخية الواردة فى بعض المراجع عن فترة حكم رمسيس الثانى ، و يحاول الأديب فى ذلك الربط بين هذه الأزمنة المختلفة ، لذلك جعل كل مقطع سردى يعبر عن الحاضر يحيل بالضرورة لمقاطع تعبر عن الماضي سواء ماضيه الشخصى أو ماضى المجتمع ككل .

.والزمن فى" قالت ضحى" يكاد يكون فى خط مستقيم ، باستثناء العودة للماضى فى أجزاء قليلة من الرواية ، فحركة البطل تتحدد فى المسار الزمنى الآتى : من الوطن إلى روما ثم إلى الوطن مرة أخرى .وعموماً تتفق روايات الفترة الأولى فى كونها فيما يخص الزمن :

- ركزت بصفة أساسية على زمن فترة الستينيات خاصة فى بعدها السياسى .
- طرحت صورة للآخر مرتبطة بهذا الزمن ، وهذا ما جعلها تظهره بوصفه الآخر الحضارى فى حين غيبت الوجه الاستعمارى أو العدائى لهذا الآخر .

.وفيما يخص الروايات المتعلقة بالفترة من منتصف السبعينيات . ٢٠٠١ : فقد كانت لكل منها خصوصيته فى التعامل مع الزمن الذى تضمنته وهو ما يمكن توضيحه فيما يلى :

ـ فى نيويورك ٨٠ : تعامل الكاتب مع فترة الثمانينيات وركز على ذلك فى العنوان الذى اتخذته الرواية ليشير لتحول رؤيته بتغير ومرور الزمن ليصير الغرب أمريكا بعدما كان فى الماضى أوروبا .

ـ وفى الحب فى المنفى اعتمد الأديب على العودة لفترات زمنية سابقة (الستينيات والسبعينيات) ليشير إلى أن اهتمام البطل ليس ما يجرى فى الغرب الذى يوجد به (الزمن الحاضر) ، بل إن وطنه يمثل الحيز المكانى الذى يشغل باله ، وليقارن بين الفترات المختلفة .وفى عودته لفترة الستينيات وإشارته المتكررة لعبد الناصر ما يوحي بتوحد البطل مع هذا الزمن وشعوره بالاستقرار فى ظله ، لهذا يبدو دائم التشبث به

ودائم الحنين إليه ، وذلك بعكس ماضى السبعينيات وحاضر الثمانينيات الذى يشعر بانفصاله عنه .

- وفى أمريكانللى : يتخذ الزمن ثلاثة صور : الماضى وفيه يعود البطل " شكرى " بذاكرته ليعرض سيرته الذاتية فى ارتباطها بتحولات الوطن فى عقود : الستينيات والسبعينيات والثمانينيات والتسعينيات . والحاضر يتمثل فى حاضر اللحظة التى يعيشها البطل فى المجتمع الأمريكى وفيها يجرى التعرف عل حقائق هذا المجتمع . ثم يأتى الزمن المستقبل متمثلاً فى الإشارات المتضمنة فى هوامش الرواية ؛ ففى حين يشغل عام ١٩٩٨ الزمن الفعلى للرواية ، توجد إشارات لأحداث واقعية عبارة عن مقالات وأخبار يعود زمن نشرها لأعوام ٢٠٠٠ و٢٠٠٢ .

وعموماً يمكن القول : إن الزمن الماضى يستخدم فى هذه الروايات لكشف تناقضات الشخصية المصرية فى مجتمعها ومحاولة البحث عن الأسباب الحقيقية لأزمتها داخل الوطن.

أما استخدام الزمن الحاضر فيتم الاستعانة به من أجل المقارنة بين صورة الشخصية المصرية وصورة الآخر فى ظل متغيرات اللحظة الراهنة .

٥ . المكان ودلالاته الاجتماعية والنفسية :

المكان فى النص الروائى له قيمته الخاصة فهو من العناصر الروائية التى تلعب دورا مهما فى توضيح العلاقة بين الشخصيات والإطار المجتمعى الذى يعيشون فيه . ومن خلال الدراسة الراهنة للمكان ودلالته :

. اتضح من دراسة النماذج الروائية المعبرة عن كلتا الفترتين المزج بين المكان ومشاعر الشخصيات فى الرواية . ففى قالت ضحى نجد ضحى حزينة على المقهى الذى أزيل ضمن تحولات فترة الستينيات لأنه يذكرها بماضيها الأرستقراطي ، فإزالة المبنى هنا تعبير عن إزالة طبقتها ولهذا يأتى وصفها للمكان ممتزجاً بالحزن والأسى . وهو ما ينطبق على شخصيتي عبد العزيز وحكيم فى قدر الغرف المقبضة ومحاولة للخروج ، حيث يسهبان فى وصف كثير من الأماكن التى تدور بها الأحداث (القرية بكل ما فيها من أنماط معيشية) والمدينة بكل تناقضات أماكنها المختلفة . وفى حالة عبدالعزيز يتسع الوصف ليشمل الفضاء المكانى للآخر بما يشمل من بيوت وغرف

وشوارع ، وهو ما يسهل من عملية المقارنة بين صورة الوطن والصورة التى يراها فى الغرب . وفى فيينا ٦٠نجد أيضاً وصفاً لشوارع المدينة ومنزل السيدة النمساوية . ويتضح هذا المزج بين المكان والمشاعر فى النماذج الروائية المعبرة عن الفترة الثانية فيما بعد منتصف السبعينيات من خلال رواية الحب فى المنفى بشكل كبير، فحينما يحاول البطل التهرب من الحديث عن الماضى مع زميله إبراهيم الذى يثير فيه الشجن نجده يلجأ لوصف معالم المدينة له.

- يتضح كذلك من هذه النماذج أن وصف المكان كان دلالة على العالم المتشىء وطبيعة العلاقة بينه وبين الشخصيات فى النص ، ففى وصف الأماكن المختلفة فى الغرب تبدو طبيعة الحياة التقنية التى تطغى على شكل الحياة هناك ، فالأماكن التى يذهب إليها شكرى فى أمريكاناللى سواء فى المنزل أو فى الجامعة أو فى الشوارع والمحلات كلها مليئة بالأجهزة التكنولوجية الحديثة التى لا تعطى مجالاً حقيقياً لنمو العلاقات الإنسانية بين البشر وبعضهم البعض ، كما أنه فى وصفه للمكان الذى يعيش فيه يبدو انعزاله عن جيرانه وانغلاق كل منهم على نفسه .

خامسا : تطور النظرة للشخصية المصرية و للآخر الغربى كما تعكسها رؤية الأدباء :

يعبر مفهوم رؤية العالم عن موقف الإنسان من كل ما يحيط به من وجهة نظره ؛ فالإنسان هو العنصر الأساسى الذى يحمل الرؤية " ومجموع الرؤى التى تسود فى مجتمع ما تعبر عن الأوضاع والقيم الثقافية السائدة فيه . " [١]

و يعرف روبرت ردفيلد رؤى العالم على أنها " تصورات عما يجب أن يكون وعما هو كائن ، وأنها تتضمن الطرق أو الأساليب التى من خلالها تتحد أو تتفرق الخبرات وأنماط التفكير ، وأنها أيضاً الجانب المعرفى والوجدانى لتلك الأشياء الموجودة فى العالم . فرؤى العالم تتضمن أنماط التفكير والاتجاهات السائدة نحو الحياة " [٢]

---

١) رمضان محمد عامر سيف الدين ، رؤية العالم فى أعمال سعد مكاوى الروائية . دراسة اجتماعية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة عين شمس ، كلية الآداب ، قسم علم الاجتماع ، ٢٠٠٠، ص ٢٣ .

٢) السيد حافظ الأسود ، تصور رؤية العالم فى الدراسات الأنثروبولوجية ، المجلة الاجتماعية القومية ، المجلد السابع والعشرون ، العدد الأول ، ١٩٩٠ ، ص ١٥

وفيما يلى يمكن توضيح أهم النتائج المتعلقة برؤية الأدباء للشخصية المصرية و للآخر الغربى وتطورها فى ضوء تحولات الفترات التاريخية المختلفة، وفى ظل تغيرات الواقع .

أ. يوسف إدريس : الرؤية المتحولة من فيينا ٦٠ إلى نيويورك ٨٠ :

كتب " يوسف إدريس " كل من : فيينا ٦٠ و نيويورك ٨٠ متبنياً فى كل منهما رؤية للغرب تختلف فى كثير من القسمات، مما يعنى أن تغيراً ما قد حدث فى رؤيته . ويشير الجدول التالى لأهم الاختلافات بين العملين، والتى على أساسها يمكن استنباط رؤيته المتطورة للغرب .

جدول رقم (١)

اسم الرواية	بطل الرواية	تاريخ نشرها	شخصية الآخر	فضاء الآخر المكان	صورة الآخر	محددات الصورة	قنوات التواصل مع الآخر
فيينا ٦٠	درش	١٩٦٠	أنثى أوروبية	فيينا	صورة مزدوجة	لم تظهر داخل النص	الجنس
نيويورك ٨٠	طبيب وكاتب غير محدد الاسم	١٩٨٠	أنثى مومس أمريكية	نيويورك	الإدانة والرفض المطلق	ممارسات الغرب الأمريكى	منطق الجدل والمواجهة

- فى فيينا ٦٠ : صاغ يوسف إدريس رؤيته للشخصية المصرية مضمناً إياها كثير من السمات التى أشارت إليها بعض الدراسات الاجتماعية، خاصة سمة الازدواجية فى الأقوال والأفعال، ولهذا ظهرت شخصية " درش " شخصية تقترب من نمط الشخصية الفهلوية .

أما فيما يتعلق برؤيته للآخر فى هذه الرواية، فهى رؤية تقوم على إقامة نوع من التوازن فى الطريقة التى يجب النظر بها إلى الآخر، بمعنى عدم الانطلاق فى التعامل معه من خلال الصور المغلوطة التى تصل للشخصية المصرية عنه، و هو ما ينطبق على الآخر فيما يكونه من صورة عن هذه الشخصية .

. وفى نيويورك ٨٠، لا يهتم إدريس بإبراز رؤية واضحة للشخصية المصرية، إلا من خلال رؤيته للآخر الغربى، وهى رؤية حادة الاستقطاب لا مجال فيها للرؤى البينية التى تسمح بتدرج المواقف، فرؤية البطل . والتى يمكن استنباط أنها تمثل رؤية الأديب

نفسه نظراً للتشابه بين شخصية البطل وشخصية إدريس .تتحدد فى الهجوم والنفور الحضارى من الغرب الذى تمثله أمريكا . من أجل هذا لم يعن بالحديث عن الشخصية المصرية ؛ لأنه جعل منها قاضياً يسائل الآخر ويهاجمه بلا هوادة . وبالرغم من كل نقاط الضعف التى تعانى منها هذه الشخصية فى ظل تحولات فترة الثمانينيات والتى أشارت إليها كثير من الدراسات، إلا أنه يضعها من الناحية الأخلاقية والقيمية فى مرتبة أعلى حضارياً . ولهذا شملت مقومات رؤيته للآخر النقد الحاد للغرب خاصة الأمريكى ،سواء فيما يتعلق بماديته الطاغية على الحياة بشكل عام ،أم ما يتعلق بتشيؤ العلاقات الإنسانية بين أفراده .

هكذا جاءت رؤية إدريس متباينة فى العملين ، ويمكن توضيح بعض النتائج الخاصة بهذا التباين:

- إن رؤية إدريس للآخر الغربى ليست رؤية ثابتة ؛ لكنها رؤية متغيرة بتغير الظرف السياسي والتاريخى ؛ يتضح ذلك بجلاء من عنواني العملين . ففى فترة الستينيات المعبر عنها النص الأول كان الغرب المكان مدينة فيينا الأوروبية، أما فى ثمانينيات القرن العشرين فصارت مدينة نيويورك هى المكان المعبر عن الغرب .

.وفى حين كانت السيدة الأوروبية العاملة ذات الملامح الإنسانية المشتركة مع البطل هى المعبرة عن الآخر الغربى ، نجد المرأة المومس هى المعبرة عنه فى نيويورك ٨٠ . وفى حين يسعى درش للتواصل مع الآخر بكل وسيلة ، نجد البطل فى نيويورك ٨٠ ينفر من هذا التواصل ويرفض عروض المومس عليه .

رؤية تتبدل وتتعدل فى محاورها الرئيسية ، فما الذى يجعل إدريس يبدل من نظرته ورؤيته للآخر الغربى ؟

ومن خلال ربط هذه الرؤية بواقع الفترتين : الستينيات والثمانينيات ، ومن خلال ما تم معرفته عن أوضاع هذه الفترة من الناحية التاريخية ، يمكن القول : إن إدريس كان واحداً من المثقفين المؤيدين لثورة يوليو ، وهو كوطني غيور على وطنه عاش موقفاً مزدوجاً فى نظرته لأوروبا التى كانت تمثل بالنسبة له العالم آنذاك ، لهذا فقد توزع بين " كراهية السيطرة الإنجليزية على بلده ، وإعجابه بمنجزات الحضارة الغربية . وأدرك بوضوح ، وإن يكن بصعوبة أن مصر والأمم الناشئة الأخرى لو حصلت

على نوع من الاستقلال السياسى والاقتصادى ، فإن عليها أن تكيف نفسها مع الأساليب والتقانة (التكنولوجيا) الغربية، وهو ما كان يبدو فى حد ذاته اعترافا بتفوق الغرب." [1]

هذا الموقف من الغرب هو ما يفسر الرؤية التى تضمنتها فيينا ٦٠ ؛ من حيث الالتباس فى المواقف ، ومحاولة التواصل والوصول لصيغة مناسبة يقام على أساسها التكافؤ بين الغرب المتقدم والشرق المتخلف .

وحين سلمت السبعينيات للثمانينيات من القرن العشرين ، بدلت مصر ثوبها بمنظومة أخرى من قيم النفط والتبعية والانفتاح والاستقطاب الاجتماعى الحاد ." [2] و نتيجة لاعتلاء بعض مدعى الثقافة المؤسسات الثقافية ، اندفع إدريس فى اتجاه السياسة ، فكانت مقالاته التى حاول فيها تسليط الضوء على رموز الواقع المهترىء وتعريتها " وبرغم نزعته المعادية للغرب، فلم يعط يوسف إدريس الوضع فى البلدان الشيوعية شكلاً مثالياً . وكان لاستيائه من الممارسة الاشتراكية ، كما عرفها فى البلدان الشيوعية ، والإخفاق التام لحرب يونيو تأثير موقظ عليه جعله يعيد رأيه فى نظرته السابقة . ومع أنه لم يتخل أبداً عن معتقداته الاشتراكية ، " فقد وصل تدريجياً إلى أن يرى العالم الغربى فى ضوء مختلف ؛ ففى مقال بعنوان نظرة جديدة إلى أوروبا نشر فى الأهرام عام ١٩٧٢ ألقى نظرة إلى الوراء على العلاقات مع الغرب . وكتب أن الثورة المصرية قد حاولت أن تحصل على استقلال حقيقى بإدارة ظهرها لأوروبا ، ولكن حرب ١٩٦٧أثبتت أن هذه السياسة لم تسفر عن النتائج المرجوة . لهذا اقترح أن تكف مصر عن النظر إلى الأوروبيين بعين العداء وتتبنى سياسة متفتحة العقل . وفى يونيو ١٩٧٦ ، عقد يوسف إدريس صلحاً عملياً بالإقرار بأنه كاشتراكي ديموقراطي ليبرالى ، لم يكن مغمض العينين عن المزايا العديدة للنظام الأمريكى ، وخاصة تحرره من البيروقراطية والمركزية الخانقة. ذلك المرض الكريه للاشتراكية. وفى نفس الوقت اعترف بأن حكمه على الولايات المتحدة قبل عشر سنوات كان معوجاً بفعل الموقف الدفاعى الأيديولوجي لمصر وله . وهكذا يقول : وداعاً لثلاثة عقود من نضاله المعادى للامبريالية." [3]

---

١) محمد حافظ دياب ، الطريق إلى الآخر يمر بالذات ، مرجع سابق ، ص ٨٤٦

٢) المرجع السابق ، ص ٨٤٧ .

٣) ب . م كربرشويك ، الإبداع القصصى عند يوسف إدريس ، ترجمة : رفعت سلام ، الكويت ، دار سعاد الصباح، ١٩٩٣ ، ص ص ٩٠ ـ ٩١

هكذا " بدا إدريس يبدل فى وجهى حلمه ؛ يهادن أمريكا فى مقالاته ، ويحمل عليها فى إبداعه . لقد تغير إدريس ... وانقسم على نفسه ، وباتت جدلية الذات والآخر لديه وكأنها عبء يسائل دوائر مخاطبتنا ، داخل إشكالية حقيقية للأصالة والمعاصرة ، ما زالت بعد أسيرة شروط دلالتها . " [1]

ب. عبد الحكيم قاسم : ما بين محاولة للخروج وقدر الغرف المقبضة :

كتب عبدالحكيم قاسم " محاولة للخروج " عام ١٩٦٦ ، بينما كتب " قدر الغرف المقبضة " فى عام ١٩٨٢ ، أى أن هناك حوالى ستة عشر عاماً تفصل بين كتابة النصين ، فهل تغيرت رؤية قاسم للشخصية المصرية والآخر الغربى نتيجة تحولات الفترة الزمنية الفاصلة بين كتابة النصين ؟

جدول رقم (٢)

اسم الرواية	بطل الرواية	تاريخ النشر	شخصية الآخر	الفضاء المكانى	صورة الآخر	محددات الصورة	قنوات التواصل
محاولة للخروج	حكيم	١٩٦٦	إلزيث أنثى سويسرية	مصر الوطن	الآخر الحضارى	شخصية ومجتمعية	الحب والعاطفة
قدر الغرف المقبضة	عبد العزيز	١٩٨٢	غير محدد	ألمانيا	صورة مزدوجة	واقعية من خلال الممارسة الفعلية	محاولة الاندماج

ويوضح الجدول السابق أهم السمات المميزة للنصين المتعلقين بعبد الحكيم قاسم ، والتى يمكن من خلالها التعرف على رؤيته :

وباستقراء بيانات الجدول السابق يمكن القول :

١) محمد حافظ دياب ، ص ٨٤٧ .

- إن الرؤية المأساوية هي الرؤية التي تطبع رواية " محاولة للخروج " في جملتها ، وينعكس عليها ما أدت إليه مقدمات هزيمة يونيو من تعميق لهذه الرؤية . وتزداد هذه الرؤية قتامة في " قدر الغرف المقبضة " . وتعود أسباب هذه الرؤية في كلتا الروايتين لطبيعة الواقع المتردي الذي تعاني منه الشخصية المصرية كما تعرض له الروايتين .

. وتخص هذه الرؤية في المقام الأول المثقفين بحكم انتماء عبد الحكيم قاسم إليهم . وفي هذا الصدد يمكن تبيان التماثل بين انهيار البطل وتمزقه في النصين (شخصية عبد العزيز و شخصية حكيم) وبين تدهور أوضاع المثقفين في الواقع .

. ولعل هذه الرؤية المأساوية الحزينة هي التي تجعله يرى الغرب البعيد هو الخلاص في الرواية الأولى فيرى الغرب فيها ذو وجه إنساني حضاري ، لكن لا يظل الأمر كذلك في الرواية الأخرى ، فتطغى الرؤية المأساوية في نظرته للآخر ، ونتيجة للممارسة الواقعية للحياة في الغرب تتهاوى الصورة النمطية التي ترى فيه الوجه المتحضر الأحادي الجانب ، ليظهر الجانب الآخر المقبض

ج- صنع الله إبراهيم ورؤيته من نجمة أغسطس إلى أمريكانللي :

ويوضح الجدول التالي أهم السمات المميزة للعملين المتعلقين بصنع الله إبراهيم .

جدول رقم (٣)

اسم الرواية	بطل الرواية	تاريخ النشر	شخصية البطل	الفضاء المكاني	صورة الآخر	محددات الصورة	قنوات التواصل
نجمة أغسطس	الصحفي غير محدد الاسم	١٩٧٤	جماعة الروس	مصر (منطقة بناء السد العالي)	صورة مزدوجة	واقعية	العاطفة
أمريكانللي	د: شكري	٢٠٠٣	الأمريكان	أمريكا	متعددة الأبعاد	ممارسات الآخر	الحوار والمواجهة

وفيما يتعلق برؤيته المتحولة في هذين العملين يمكن القول :

- كتب صنع الله إبراهيم " نجمة أغسطس " فى بداية السبعينيات ، فى وقت كانت الاشتراكية هى التوجه الرسمى للنظام السياسى المصرى ، الذى أيده صنع الله تأييداً جارفاً ، بالرغم من بعض التجاوزات التى أضنته كما أضنت غيره من المثقفين فى تلك الفترة ، ولهذا جاءت رؤيته فى هذه الرواية مؤطرة بحدود معينة تشمل الازدواجية التى عاشها إنسان الستينيات بين الإنجازات الضخمة للنظام فى تلك الفترة ، وبين الممارسات الأخرى التى تلقى بظلالها السلبية على هذه الإنجازات : كبت الحريات ، وأحادية الرأى ، والتناقض بين الأقوال والأفعال وغير ذلك . وعموماً فإن الرؤية هنا هى الرؤية القلقة التى تقوم على الخوف والقلق المستمرين فى ظل الجو البوليسى الذى يغلف أحداث الرواية بشكل عام .

أما فيما يتعلق برؤيته للآخر ، فهى امتداد لرؤية عبدالحكيم قاسم السابقة ، التى تقوم على محاولة التواصل مع الآخر الذى يراه نموذجاً للحضارة المتقدمة ، بالرغم من ظهور بعض التعليقات التى توضح الوعى بما يضمه هذا الآخر من جوانب سلبية . ولذلك لم يجعل الأديب بطله يسافر للغرب الاشتراكى ليتفق ذلك مع الرؤية المثالية له ، وليكون النموذج فى فترة النهضة التى يحاول بها المجتمع تحقيق التنمية بالاعتماد على الذات .

. أما فى أمريكانللى ، فنحن أمام رؤية للشخصية المصرية وللآخر الغربى تتجاوز الوعى المحدود لفترة الستينيات ، لتشمل وعياً وإدراكاً واسعاً بما يحيط بالإنسان المصرى داخلياً وخارجياً . ومن هنا تتسم الرؤية فى أمريكانللى بكونها ليست أحادية الجانب سواء فيما يتعلق بالشخصية المصرية أم بالآخر الغربى ؛ فهى رؤية موضوعية تحاول البحث فى أسباب الإيجابيات والسلبيات التى تتصف بها الشخصية المصرية دون الاكتفاء بعرضها فقط . وتأكيداً على هذه الرؤية يذكر الأديب أن الهدف من كتابته هذه الرواية كان الإجابة على تساؤل : لماذا صارت الشخصية المصرية فى هذا الوضع فى هذه الفترة ، وذلك من خلال تأمل عالمين متناقضين ، ولكل منهما خصوصيته : عالم الشخصية المصرية وعالم الآخر . [1]

---

١) مقابلة مع الأديب .

أما رؤيته المتعلقة بالآخر الغربى الأمريكى خاصة ، فهى رؤية نقدية تتعرض للغرب الأمريكى بوجوهه المختلفة : القبيح منها والجميل مما يجعلها رؤية واقعية لحد كبير دون مغالاة أو إفراط فى التأكيد على السلبيات أو الإيجابيات وإن كان يؤكد بصفة أساسية على عنصرية الغرب ، التى يراها صفة ملازمة له يتساوى فى ذلك الغرب الأوروبى والأمريكى على السواء . ويرجع أسباب هذه العنصرية إلى : الجهل الذى تسببه الدعاية المغلوطة ، التى تتعمد تشويه الصورة من خلال وسائل الإعلام المختلفة . كما تعود كذلك للدور الذى تلعبه الرأسمالية المحلية فى بلدان الغرب ، التى تستنزف دماء الشعوب .[١]

د. رؤية بهاء طاهر بين قالت ضحى والحب فى المنفى :

تؤثر القيم التى يؤمن بها الأديب فى رؤيته للعالم من حوله ، ويشكل التفاوت بين قيم البطل فى أى عمل روائى ، وقيم العالم من حوله إحدى بؤر الصراع الأساسية فى الأعمال الروائية . وقد أنتج هذا التفاوت أعمالاً روائية مهمة ، خاصة ما كتب حول الرحلة إلى الغرب ، وما كتب فى ظل تغير انظمة الحكم .....[٢]

فى ضوء ذلك كيف تشكلت رؤية الغرب لدى بهاء طاهر فى ضوء صراع القيم الذى جسدته كل من : قالت ضحى و الحب فى المنفى ؟

وبداية يوضح الجدول التالى أهم سمات العملين المتعلقين ببهاء طاهر ، والتى يمكن منه استخلاص بعض النتائج المتعلقة برؤيته المتحولة

جدول رقم (٤)

اسم الرواية	تاريخ النشر	بطل الرواية	شخصية الآخر	الفضاء المكانى	صورة الآخر	محددات الصورة	قنوات الاتصال
قالت ضحى	١٩٨٥	موظف	باولا	روما	الرفض	محددات متغيرات فترة الستينيات	الحوار

١) مقابلة مع الأديب .

٢) أحمد صبرة ، جوانب من شعرية الرواية . دراسة تطبيقية على رواية الحب فى المنفى لبهاء طاهر ، فصول، المجلد الخامس عشر ، العدد الرابع ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧ ، ص ٥٦.

الحب في المنفى	١٩٩٥	صحفى مغترب	بريجيت مـوللر برنار	المدينة الأوروبية (ن)	مزدوجة	ممارسات الغرب في المنطقة العربية	الحب والعاطفة

. في قالت ضحى ، نجد أن رؤية العالم عند الأديب تحددها وتشكلها رؤية الستينيات ، ومن منطلق هذه الرؤية الستينية يرسم صورة للشخصية المصرية قوامها ازدواجية الوعي الذي حكم هذه الشخصية كنتيجة لما شهدته من تغيرات في هذه الفترة . فقالت ضحى ما هي إلا تلخيص لرؤية بهاء طاهر لتحولات ثورة يوليو وأثرها على الشخصية المصرية ، خاصة ما يتعلق بأوضاع المثقفين والطبقات الكادحة ومراكز القوة في هذه الفترة . وعلى هامش هذه الرؤية تأتي صورة الآخر الذي لا يشكل سوى خلفية يمكن من خلالها البوح بمكنون النفس بعيداً عن هيمنة الآخر الداخلي المتسلط . فما يهم الأديب في هذه الرواية . كما يصرح هو بذلك . الهم الداخلي في المقام الأول الذي يحاول فهمه وسبر أغواره وهذا هو السبب في صغر المساحة الروائية المخصصة لعرض صورة الآخر في الرواية .[1]

. أما في الحب في المنفى ، فنحن مع رؤية أكثر شمولية ، رؤية تتجاوز وعي الستينيات لكنها لا تتخلى عنه ، ويمكن رد هذه الرؤية إلى الأسباب التالية :

السبب الأول : الفارق الزمني بين العملين وما تضمنته الفترة التاريخية الفاصلة بينهما من أحداث مهمة : نكسة الخامس من يونيو ، وحرب أكتوبر ، ومعاهدة السلام مع إسرائيل ، وأخيراً الحرب الأهلية في لبنان التي تقوم الرواية بتناولها بشكل مفصل .

السبب الثاني : التطورات العالمية وبخاصة سيطرة أمريكا على العالم

السبب الثالث : معايشة الأديب لأكثر من فترة وأكثر من نظام للحكم ، وما تعرض له من اضطهاد وتركه عمله ، ثم غربته ومنفاه خارج الوطن .

السبب الرابع : تنقل الأديب ما بين أكثر من دولة أوروبية ومعايشته عن قرب لتصورات الغرب عن المصريين والعرب عموماً والتي تتصف في مجملها بالسلبية .

كل هذه العوامل جعلت الرؤية في الحب في المنفى أكثر موضوعية بالرغم من كونها رؤية ذات صبغة تشاؤمية لحد كبير .

---

١) المقابلة مع الأديب بتاريخ : ٨ ـ ٤ ـ ٢٠٠٦ .

هنا ،وقد عكس النص رؤية للشخصية المصرية تتضمن ما اعترى هذه الشخصية من تغير فى ظل السياق التاريخى الاجتماعى العام لها ،وقد ركزت هذه الرؤية على اهتزاز نسق القيم لدى هذه الشخصية وظهور خصائص جديدة : كتراجع الولاء الوطنى ،وتقهقر الإحساس بالعروبة والقومية ،وتناحر المجموعات الداخلية المكونة لمجموع الشخصية المصرية .

وهذه الرؤية يؤكدها الأديب حينما حدد ما حدث للمصريين فى الفترة ما بين ١٩٧٥ و١٩٩٥ ، وهى المدة التى قضاها مغتربا قائلا " إننى انتمى لشريحة ما فى الطبقة الوسطى ،وأول ما لفت نظرى هو انتهاء هذه الطبقة الوسطى بالمفهوم الذى تركتها عليه ... خذ مثالا على ما أقوله من حركات التطرف الدينى .أبناؤها وكوادرها من الطبقة الوسطى .ما يقوله هؤلاء ومنطقهم الإرهابي لم يكن فى الستينيات مقبولا من أبناء نفس الطبقة .....وأقرن ذلك بأنواع الجرائم التى تحدث الآن .جرائم الستينيات كانت القبض على موظف منحرف .....حاليا نقرأ عن جرائم لا يصدقها عقل إنسان ....هنا عن المدينة ،أما القرية فلا أعرف ماذا جرى فيها ،ولكن أحد أقربائى قال لى : إن القرية التى كتبت عنها فى " خالتى صفية والدير" اندثرت .هناك ريف جديد تماما .... "[١]

وحول تغير رؤيته فى إطار المقارنة بين فترتى الدراسة ذكر : إنه فى الوقت الحاضر لا توجد محركات للشخصية المصرية ،فهناك تصور جديد للدين يقوم على التدين المظهرى .وتنتشر فى المجتمع فكرة النجاح الفردي ،بالإضافة إلى انزواء الانتماء الوطنى ،وغياب فكرة العدالة الاجتماعية .كما انه يؤكد على ما تميزت به فترة الستينيات من تماسك ووجود نوع من القيم المشتركة بين أفراد المجتمع ،وهو الأمر الذى اختفى فيما بعد [٢]

أما فيما يتعلق برؤيته للآخر الغربى فيمكن الكشف عنها فى النقاط التالية :

.فى الحب فى المنفى يتبنى بهاء طاهر رؤية للغرب قوامها التعارض بين منظومة القيم التى يؤمن بها البطل والعالم المحيط به مما يدفعه لحالة اللامبالاة والملل والهروب والسلبية .وقد شكل ذلك حوله عالما غريبا معاديا " لذلك نجد إشارات فى الرواية إلى عدم وجود أصدقاء للبطل فى المدينة (ن)،و إلى الدائرة الضيقة التى تحيط به وتؤمن بالفكر نفسه كأنه يحتمى بها من هذا العالم الغريب .كما أننا لا نكاد نعثر على فعل واحد له فى الرواية إيجابى وينسجم هنا مع حالة الهروب التى يعيش فيها ."[٣]

---

١) البهاء حسين ، مرجع سابق ، ص ١٥١.
٢) المقابلة مع الأديب .
٣) أحمد صبرة، مرجع سابق ، ص ٥٧ .

.وبالرغم من هذا التعارض بين قيم البطل وقيم العالم من حوله ،فإن فى الرواية نظام متعدد من الصور المتعلقة بالآخر .فبهاء طاهر يحاول أن يفهم الأمور قبل أن يصدر أحكاماً أخلاقية عن الشرق أو الغرب ؛فهو يحاول من منظور إنسان شرقى عربى ومصرى أن يفهم العالمين .[1]

-ووفقاً لذلك ليس للغرب فى الحب فى المنفى وجه واحد أو صورة واحدة :فهناك الغرب العنصرى الذى يسيطر ويهيمن على أحداث الرواية خاصة فى نموذجه الأمريكى ،بالإضافة لوجود الغرب الإنسانى الذى يظهر على استحياء فى الرواية .ولا شك أن أصداء هذه الازدواجية فى الموقف من الغرب هى ما تطبع رؤية أدباء الستينيات بوجه عام .

-ويرى بهاء طاهر أن غلبة الموقف العنصرى من العرب والمصريين الذى يتمثله الغرب يعود لجملة من الأسباب :منها البترول ومنه القرب والجوار فى البحر الأبيض المتوسط (الفاصل بين حضارتين لا الواصل بينهما كما كان طول التاريخ) ومنها قوة إعلام الأعداء التاريخيين للعرب والمصريين المتغلغل فى كل مكان ،ومنها " أننا كأمة قد اعترانا مؤخراً الوهن والتفكك ففقدنا القدرة على إقناع أنفسنا ناهيك بغيرنا ." [2]

وتنسحب هذه العنصرية فى رأيه على الغرب الرأسمالى والغرب الاشتراكى على حد سواء : " فلا توجد فى بلدان أوروبا الاشتراكية تعبيرات منشورة وصريحة عن تلك العنصرية مثلما هو الحال فى غيرها من البلدان الأوروبية . ولكن كل عربى أو إفريقى عاش فترة فى الغرب تسمح له بتكوين الحكم قد يلاحظ تلك العنصرية على مستوى العلاقات اليومية . " [3]

وهكذا اتضح أن رؤية أدباء الدراسة الخاصة بالشخصية المصرية وصورة الآخر ،هى رؤية متغيرة بتغير الظروف والأوضاع المجتمعية ،مما يعنى تطور هذه الرؤية ،وهو تطور ملازم لتطور الأحداث على المستويين :الداخلى والخارجى .

---

١) البهاء حسين، مرجع سابق ، ص ص ١٤٣ ـ ١٤٤ .

٢) بهاء طاهر، أبناء رفاعة. الثقافة والحرية، كتاب الهلال، العدد (٥١٤)، القاهرة، دار الهلال، ١٩٩٣، ص ص ١٥٥ ـ ١٥٦.

٣) المرجع السابق ، ص ١٥٩ .

رؤية ختامية

بالرغم مماقد يدعيه البعض من أن الدراسة الاجتماعية للأدب لا تعدو أكثر من كونها ترفا علميا ، إلا أن البحث الاجتماعى إذا ما اعتمد على أدوات بحثية تحاول الجمع بين المعرفة المتعلقة بعلم الاجتماع ، والأطر الفنية والجمالية التى تقوم عليها خصوصية الأعمال الأدبية ، فإنه بذلك يستطيع التوصل لنتائج تصل فى مصداقيتها لنتائج غيرها من البحوث التى تتخذ مجالات أخرى غير الأدب ميدانا لها ، خاصة وأن الأعمال الأدبية فى ظل التطورات المتلاحقة التى تعيشها المجتمعات المعاصرة ، لم تعد أدبا ذاتيا قاصرا على تصوير الأزمات والهموم الفردية المتعلقة بتجارب الأديب الشخصية ، بل صار الأدب مرتبطا بواقع الانسان الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والثقافى فى إطار التجارب المجتمعية التى يشهدها المجتمع ككل .

من هذا المنطلق حاولت هذه الدراسة البحث فى موضوع : الشخصية المصرية من منظور مختلف عما تناولته الدراسات السابقة المتعلقة بالبحث فى هذه الشخصية . ويبدو هذا الاختلاف فى مظهرين :

المظهر الأول : البحث فى العلاقة بين الشخصية المصرية والآخر الغربى ، وهو ما لم يتطرق إليه أحد بالدراسة المتعمقة فى ميدان علم الاجتماع ؛ حيث إن معظم الدراسات المتعلقة بالشخصية المصرية عنيت بصفة أساسية بالبحث فى خصائص هذه الشخصية وتغيرها أو استمراها عبر الزمن ، وفى ذلك فإن الحديث عن الآخر الغربى كان يتم من خلال النظر إليه بصفته الاستعمارية ، وبصفته مسئولا عن بعض الخصائص السلبية التى اعترت هذه الشخصية نتيجة الاحتلال الطويل لها فى فترات سابقة، وهو الأمر الذى تظهر معه الشخصية المصرية باعتبارها متلقيا سلبيا لكل ما يأتيها من قبل هذا الآخر . وهى نظرة قد تبدو قاصرة بعض الشىء ، فهناك أنواع أخرى من الاستعمار تركت أثارها السلبية على هذه الشخصية يأتى فى مقدمتها الاحتلال العثمانى لمصر. لهذا كانت محاولة البحث عن الآخر الغربى، بقصد اكتشاف الأبعاد الحقيقية له،

وأى صفاته كان لها الغلبة : هل صفته الاستعمارية القديمة أم صفته الحضارية أم صفته الاستعمارية الجديدة المتمثلة فى محاولات الهيمنة المستمرة ، خاصة فى ظل التطورات المختلفةالعالميةوالمحلية التى تشكل محاور ذات أهمية قصوى فى تحديد صورة هذا الاخر .

أما المظهر الآخر الذى يبدو فيه الاختلاف بين الدراسة الراهنة والدراسات السابقة : فهو المتعلق باختيار المجال الملائم لدراسةمثل هذه القضية ، وتمثل هنا فى مجال الأدب

ووفقا لذلك، حاولنا الاقتراب من الدراسة الاجتماعية للأدب من خلال البحث عن صورة الشخصية المصرية وصورة الآخر الغربى على مستويين : مستوى االتحليل الاجتماعى التاريخى للعلاقة بين الشخصية المصرية والآخر الغربى ، ومستوى التحليل الاجتماعى الأدبى

وفى هذا الصدد وعلى مستوى التحليل الاجتماعى التاريخى. وكذا التحليل الاجتماعى الأدبى. تبين أن البناء الاجتماعى للمجتمع المصرى وما يتضمنه هذا البناء من تناقضات على المستوى الداخلى وما يتعرض له من تحولات يرتبط ارتباطا وثيقا بما يحدث فى الشخصية المصرية من تغيرات، بمعنى أن ما شهدته الشخصية المصرية من تغيرات سواء بالسلب أم بالإيجاب ما هو إلا رد فعل للتغيرات والتحولات التى يشهدها المجتمع ككل. أما فيما يتعلق بصورة الآخر الغربى فقد تبين أن محاولات سوء الفهم المتبادل بين الطرفين : الشخصية المصرية والآخر الغربى كانت هى الطابع الأساسى الذى طبع العلاقات بينهما . يضاف إلى ما تقدم أن صورة الآخر تميزت بتنوعها وديناميتها واختلافها باختلاف اللحظات التاريخية أى أنها فى تطورها كانت نتاج الواقع الاجتماعى الذى أفرزها.

المراجع

أولاً : المراجع العربية

أ–الكتب القواميس العربية :

١ - عاطف غيث ، قاموس علم الاجتماع ، الاسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٦ .

ب. الكتب العربية :

١ - ابراهيم أحمد أبو زيد ، سيكولوجية الذات والتوافق ، الاسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٧ .

٢ - ابراهيم البيومي غانم ، الغرب فى رؤية الحركة الاسلامية المصرية ، فى أحمد عبدالله (محررا) هموم مصر و أزمة العقول الشابة ، القاهرة ، مركز الجيل للدراسات الشبابية والاجتماعية ، مركز البحوث العربية ، ١٩٩٤ .

٣ - ابراهيم السايح ، جذور السلبية الشعبية فى مصر . قراءة تحليلية فى تاريخ التاريخ السياسى للشعب المصرى ، القاهرة ، دار البستانى للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٠ .

٤ - أحمد أبوزيد ، هوية مصر الثقافية ، القاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، الشركة الدولية للطباعة ، ٢٠٠٤

٥ - أحمد أنور الانفتاح وتغير القيم فى مصر ، القاهرة دار مصر للطباعة والنشر ، ١٩٩٦

٦ - أحمد زايد ، المصرى المعاصر ، مقاربة نظرية وامبريقية لبعض أبعاد الشخصية القومية المصرية ، القاهرة ، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، ١٩٩٠

٧ - أحمد عبد الفتاح البربرى ، إشكالي العرب والغرب (صورة الذات وصورة الآخر) ، المنصورة ، دار عامر للطباعة والنشر ، ٢٠٠٠.

٨ - إكرام بدر الدين ، عبد الغفار رشاد ، الرأى العام المصرى وقضايا الديمقراطية والهوية دراسة ميدانية استطلاعية ، القاهرة ، مكتبة نهضة الشرق ، ١٩٨٥ .

٩ - البهاء حسين ، قريبا من بهاء طاهر . محاورات وملامح ، القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤

١٠ - السيد حافظ الأسود ، الصبر فى الثراث الشعبى المصرى . دراسة أنثروبولوجية ، الاسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٩٠

١١ - السيد حافظ الأسود ، محاضرات فى علم ج الأدب ، بدون دار نشر ، ٢٠٠٢
١٢ - السيد محمد الرامخ ، التحليل السوسيولوجى لبنية المجتمع المصرى ، الأسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٧ .
١٣ - السيد يس ، الأسطورة الصهيونية والانتفاضة الفلسطينية ، القاهرة ، الهيئة ، ٢٠٠١ .
١٤ - السيد يس ، الشخصية العربية بين صورة الذات ومفهوم الآخر ، القاهرة ، مكتبة مدبولى ، ١٩٩٣ .
١٥ - السيد يس ، الشخصية المصرية والدلالات الحضارية لحرب أكتوبر فى : طلعت رضوان أبعاد الشخصية المصرية بين الماضى والحاضر ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٩ .
١٦ - السيد يس ، العالمية والعولمة ، القاهرة ، نهضة مصر للنشر والتوزيع ، ط٢ ، ٢٠٠١.
١٧ - أمانى قنديل ، القطاع الخاص والسياسات العامة فى مصر ، القاهرة ، مركز البحوث والدراسات السياسية ، مطبعة أطلس ، ١٩٨٩ .
١٨ - أمل فضل حركة ، دراسات فى علم اجتماع اللغة والأدب ، طنطا ، دار المصطفى للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٣
١٩ - انطوان مقدسى ، للغرب دائماً وجهان ، فى : أحمد الشيخ ، من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب ، المثقفون العرب والغرب ، القاهرة ، المركز العربى للدراسات الغربية ، ٢٠٠٠
٢٠ - أنور عبد الملك ، الشارع المصرى والفكر ، القاهرة ، الهيئة المصرية ، ٢٠٠٢.
٢١ - برهان غليون ، اغتيال العقل، محنة الثقافة العربية ين السلعية والتبعية ، القاهرة ، مكتبة مدبولى ، ١٩٩٠
٢٢ - جابر عصفور ، زمن الرواية ، القاهرة ، الهيئة ، ١٩٩٩
٢٣ - جلال أمين ، العولمة والتنمية العربية من حملة نابليون إلى جولة أوروغواى (١٧٩٨ – ١٩٩٨) بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٩
٢٤ - جلال أمين ، ماذا حدث للمصريين ؟ تطور المجتمع المصرى فى نصف قرن (١٩٤٥ – ١٩٩٥) ، القاهرة ، الهيئة المصرية ، ١٩٩٩ .

٢٥ - جلال أمين ، نحو تفسير جديد لأزمة الاقتصاد والمجتمع فى مصر ، القاهرة ، مكتبة مدبولى ، ١٩٨٩ .

٢٦ - جمال حمدن ، شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان ، دار الهلال ، العدد ٥٠٩ ، القاهرة ، ١٩٩٣ .

٢٧ - جمال حمدان ، نحن .... وأبعادنا الأربعة ، القاهرة ، مكتبة مدبولى ، ١٩٩٣

٢٨ - جورج طرابيشى ، شرق وغرب . رجولة وأنوثة ، دراسة فى أزمة الجنس والحضارة فى الرواية العربية ، بيروت ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، ١٩٩٧ .

٢٩ - حامد عمار ، فى بناء الإنسان العربى . دراسات فى التوظيف القومى للفكر الاجتماعى والتربوى ، الاسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٨

٣٠ - حسن ابوطالب ، عروبة مصر بين التاريخ والسياسة ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،٢٠٠٤

٣١ - حسن حنفى ، قضايا معاصرة فى فكرنا المعاصر ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٨١

٣٢ - حسن حنفى ، مقدمه فى علم الاستغراب ، القاهرة ، الدار الفنية للنشر والتوزيع ، ١٩٩١ .

٣٣ - حسن محمد حسن ، الاغتراب عند ايريك فرووم ، بيروت ، المؤسسة الجامعية للدراسات والتوزيع والنشر ، ١٩٩٥

٣٤ - حسين توفيق ابراهيم ، تحليل ردود الأفعال العربية تجاه أحداث ١١ سبتمبر وتداعياتها فى : أحمد يوس أحمد ممدوح عزة (محررا) صناعة الكراهية فى العلاقات العربية الأمريكية، بيروت ، مركز الدراسات الوحدة العربية ، ٢٠٠٣

٣٥ - حسين فوزى ، سندباد مصرى ، جولات فى رحاب التاريخ ، القاهرة ، الهيئة المصرية ، ١٩٩٧ .

٣٦ - حكمت أبو زيد ، التكيف الاجتماعى فى الريف المصرى ، القاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ٢٠٠٤

٣٧ - حلمى النمنم ، المصريون وحملة بونابرت ، المشايخ ، الأقباط ، المرأة ، القاهرة ، مطابع أخبار اليوم ، القاهرة ، ١٩٩٨

٣٨ - حليم بركات، المجتمع العربى فى القرن العشرين، بحث فى تحول الأحوال والعلاقات، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية،
٣٩ - خالد زيادة، تطور النظرة الإسلامية إلى أوروبا، بيروت، معهد الإنماء العربى، ١٩٨٣.
٤٠ - خليل الشيخ، دوائر المقارنة، دراسات نقدية فى العلاقات بين الذات والآخر، الأردن، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٠
٤١ - خير الدين التونسى، أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك، تحقيق معن زيادة، المؤسسة الاجتماعية للدراسات والنشر التوزيع، ط ٢، ١٩٨٥
٤٢ - دوقان قرقوط، تطور الفكرة العربية فى مصر (١٨٠٥ — ١٩٣٦) بيروت، المؤسسة العربية، للدراسات والنشر، ١٩٧٢
٤٣ - رفاعة رافع الطهطاوى، تخليص الإبريز فى تلخيص باريز، (١) التنوير، القاهرة، الهيئة، ١٩٩٣ .
٤٤ - رفيق حبيب، الشخصية المصرية والتطور النفسى فى خمسين قرن، القاهرة، مركز المحروسة للنشر، ١٩٩٧ .
٤٥ - رمزى زكى، التضخم والتكيف الهيكلى فى الدول النامية، القاهرة، دار المستقبل العربى، ١٩٩٢ .
٤٦ - زكى نجيب محمود، هذا العصر وثقافته، القاهرة، دار الشروق، ط ٢، ١٩٨٢ .
٤٧ - زكى نجيب محمود، عربى بين ثقافتين، القاهرة، دار الشروق، ط ٢، ١٩٩٣ .
٤٨ - سامية الساعاتى، الثقافة والشخصية . بحث فى علم الاجتماع الثقافى، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٣ .
٤٩ - سامية سعيد إمام، من يملك مصر ؟ دراسة تحليلية للأصول الاجتماعية لنخبة الانفتاح الاقتصادى فى المجتمع المصرى (٧٤ — ١٩٨٠)، القاهرة، دار المستقبل العربى، ١٩٨٦
٥٠ - سعيد علوش، اشكالية التيارات والتأثيرات الأدبية فى الوطن العربى . دراسة مقارنة، الدار البيضاء، المركز الثقافى العربى، ١٩٨٦
٥١ - سنية صالح، هجرة الكفاءات العلمية فى مصر، القاهرة، الهيئة، ١٩٩٠ .

٥٢ - سوسن ناجى، صورة الرجل فى القصص النسائى، المنيا، مطبعة الزهراء، ١٩٩٥ .
٥٣ - سيد إسماعيل ضيف الله، الآخر فى الثقافة الشعبية . الفلكلور وحقوق الإنسان، القاهرة، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان،
٥٤ - سيد البحراوى، علم اجتماع الأدب، القاهرة، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، ١٩٩٢ .
٥٥ - سيد عويس، الأعمال الكاملة، المجلد الأول، القاهرة، مركز المحروسة للنشر، ١٩٩٨
٥٦ - سيد عويس، لا للعنف دراسة فى تكوين الضمير الانسانى، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠
٥٧ - شحاتة صيام، التصنيع والبناء الطبقى فى مصر (١٩٣٠ — ١٩٨٠)، تحليل بنائى تاريخى، القاهرة، دار المعارف، ١٩٩١ .
٥٨ - ضياء زاهر، القيم فى العملية التربوية، القاهرة، مطبعة نهضة مصر، ١٩٨٤ .
٥٩ - طارق حجى، نقد الفصل العربى، من ميول تفكيرنا المعاصر، القاهرة، دار المعارف، ط ٢، ١٩٩٩ .
٦٠ - طاهر عبد الحكيم، الشخصية الوطنية المصرية، قراءة جديدة لتاريخ مصر، الكتاب الأول، القاهرة، دار الفكر للدراسات، ١٩٨٦
٦١ - طلعت رضوان، أبعاد الشخصية المصرية بين الماضى والحاضر، القاهرة، الهيئة، ١٩٩٩ .
٦٢ - عاطف وصفى، الثقافة والشخصية، الشخصية المصرية التقليدية ومحدداتها الثقافية، القاهرة، دار المعارف، ط٢، ١٩٧٧ .
٦٣ - عبد الباسط محمد عبد المعطى، دراسات فى التكوين الاجتماعى والبنية الطبقية لمصر، القاهرة، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ١٩٨٨
٦٤ - عبد الباسط عبد المعطى (تحرير)، الطبقات الاجتماعية ومستقبل مصر، منتدى العالم الثالث مشروع مصر ٢٠٢٠، القاهرة، ميريت للنشر، ٢٠٠٢ .

٦٥ - عبد الرحمن الجبرتى ، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، الجزء الرابع، الغزوة الفرنسية (صدقه الغرب) إعداد وتحقيق : عبد العزيز جمال الدين ، مكتبة مدبولى ، ١٩٩٧ .

٦٦ - عبد اللطيف خليفة . شعبان جاب الله رضوان ، الشخصية المصرية .. الملامح والأبعاد ، القاهرة ، دار غريب للطباعة ، ١٩٩٨ .

٦٧ - عبد الله العروى ، الأيديولوجية العربية المعاصرة ، بيروت ، دار الحقيقة ، ١٩٨٣ .

٦٨ - عزة عزت ، صورة العرب فى الغرب ، القاهرة ، مصر العربية للنشر والتوزيع، ١٩٩٧ .

٦٩ - عزة عزت ، لغة الشارع والتحولات فى الشخصية المصرية ، القاهرة ، دار الهلال ، ٢٠٠٠ .

٧٠ - عصام بهى ، الرحلة إلى الغرب فى الرواية العربية الحديثة ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩١ .

٧١ - عصمت محمد حسن ، جوانب من الحياة الاجتماعية لمصر من خلال كتابات الجبرتى ، القاهرة ، الهيئة المصرية للكتاب ، ٢٠٠٣

٧٢ - عفيف البونى ، فى الهوية القومية العربية ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٤ .

٧٣ - عليا عرضاه رافع ، الانتماء والتنمية فى الريف المصرى ، الجذور ، الجزء الأول ، الاسكندرية ، دار صادق للنشر ، ١٩٩٣ .

٧٤ - غالى شكرى ، المثقفون والسلطة فى مصر ، القاهرة ، دار أخبار اليوم ، ١٩٩٠

٧٥ - فؤاد مرسى ، الشخصية المصرية : الثوابت والمتغيرات ، فى طلعت رضوان ، القاهرة ، الهيئة المصرية ، ١٩٩٩ .

٧٦ - فاطمة حسين المصرى ، الشخصية المصرية من خلال دراسة بعض مظاهر الفلولكور المصرى دراسة نفسية تحليلية انترويولوجية ، القاهرة ، الهيئة ، ١٩٨٤ .

٧٧ - فتحى أبو العينين ، الثقافة والشخصية ، القاهرة ، دار الحريرى للطباعة د ت

٧٨ - كمال التابعى ، تغريب العالم الثالث . دراسة نقدية فى علم اجتماع التنمية ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٩٣

٧٩ - لطفى عبد الوهاب، ملامح المجتمع القومى . دراسة فى العالم العربى، بيروت، مطابع النصرى ١٩٦٦

٨٠ - محسن جاسم الموسوى، الاستشراق فى الفكر العربى، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٣ .

٨١ - محمد أحمد بيومى، علم اجتماع القيم ، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٠

٨٢ - محمد أحمد بيومى، المجتمع والثقافة والشخصية، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٤

٨٣ - محمد أحمد بيومى، علم الاجتماع الدينى، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٧

٨٤ - محمد الجوهرى وآخرين، المشكلات الاجتماعية، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٥ .

٨٥ - محمد بدوى، الرواية الجديدة فى مصر، دراسة فى التشكيل والأيويولوجيا، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٩٣ .

٨٦ - محمد حافظ دياب، الإسلاميون المستقلون، الهوية والسؤال، القاهرة، دار ميريت للنشر، ٢٠٠٢ .

٨٧ - محمد حسين هيكل، الانفجار، القاهرة، مركز الأهرام للنشر والتوزيع، ١٩٩٠

٨٨ - محمد حسين هيكل، لمصر لا لعبد الناصر، القاهرة، مركز الأهرام للنشر والتوزيع، ١٩٨٧

٨٩ - محمد حسين هيكل، الشرق الجديد، القاهرة، دار المعارف، ١٩٩٠ .

٩٠ - محمد راتب الحلاق، نحن والآخر، دراسة فى بعض الثنائيات المتداولة فى الفكر العربى الحديث والمعاصر، بدون بلد نشر، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٧

٩١ - محمد سعيد فرح، الشخصية القومية، الاسكندرية، منشأة المعارف، د.ت

٩٢ - محمد شحرور، الدولة والمجتمع، دمشق، الأهالى للطباعة والنشر، ١٩٩٧.

٩٣ - محمد صادق الحسينى، رؤية نقدية لنظرية قبول الآخر، فى : ميلاد حنا، المثقف العربى والآخر بين الرفض والقبول واللامبالاة، القاهرة، دار المعارف، ٢٠٠٠.

٩٤ - محمد عابد الجابرى ، مسألة الهوية .. العروبة والإسلام .. والغرب ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت،

٩٥ - محمد عبد الشفيع عيسى ، من التحديث إلى استئناف التطور الحضارى، فى : عبد الباسط عبد المعطى (محرراً) ، العولمة والتحديات المجتمعية فى الوطن العربى ، القاهرة ، مكتبة مدبولى ، ١٩٩٩

٩٦ - محمد محفوظ ، الإسلام ، الغرب وحوار المستقبل ، الدار البيضاء ، المركز الثقافى العربى ، ١٩٩٨ .

٩٧ - محمد نجيب التلاوى ، الذات والمهماز ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٨ .

٩٨ - محمد نعمان جمعة ، مجدى المتولى ، هوية مصر . الجزء الأول ، القاهرة ، الهيئة المصرية ، ١٩٩٧ .

٩٩ - محمود أمين العالم ، الفكر العربى بين الخصوصية والكونية ، القاهرة ، دار المستقبل العربى ، ط ٢ ، ١٩٩٨

١٠٠ -محمود عبد الحميد ، ناجى بدر إبراهيم ، التغير فى بناء المجتمع الريفى، مداخل نظرية وبحوث ميدانية ، الأسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٥

١٠١ -محمود عبد الفضيل ، الاقتصاد المصرى بين التخطيط المركزى والانفتاح الاقتصادى ، بيروت ، معهد الإنماء العربى ، ١٩٨٠ .

١٠٢ -محمود عودة ، التكيف والمقاومة . الجذور الاجتماعية والسياسية للشخصية المصرية ، القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة ، ١٩٩٥

١٠٣ -محيى الدين صبحى ، ملامح الشخصية العربية فى التيار الفكرى المعادة للأمة العربية . دراسة فى بعض بوادر نظرية عرقية تشوه الشخصية العربية فى حضارتها وكفاحها وطموحها ، بيروت ، الدار العربية للكتاب .

١٠٤ -مصطفى النشار ، ضد العولمة ، القاهرة ، دار قباء للطباعة والنشر ، ١٩٩٩ .

١٠٥ -مصطفى عبد الغنى ، الجات والتبعية الثقافية ، القاهرة ، الهيئة ، ١٩٩٩ .

١٠٦ -منى حسين مؤنس ، مصر فى عيون الغرب وأدبه ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٩٨ .

١٠٧ -ميلاد حنا ، قبول الآخر فكر واقتناع وممارسة ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٨ .

١٠٨ -ميلاد حنا ، الأعمدة السبعة للشخصية المصرية ، القاهرة ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٩٩ .

١٠٩ -نادية رضوان ، الشباب المصرى وأزمة القيم . دراسة فى بوادر ومحاور أزمة الشباب ، ثلاث دراسات (١٩٨٤ – ١٩٩٤) ، القاهرة ، الهيئة ، ١٩٩٧ .

١١٠ -نازك سابايارد ، الرحالون العرب وحضارة الغرب فى النهضة العربية الحديثة ، بيروت ، دار نوفل للطباعة ، ط ٢ ، ١٩٩٢ .

١١١ -نبيل سليمان ، وعى الذات والعالم . دراسات فى الرواية العربية ، سوريا ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، ١٩٨٥

١١٢ -نديم البيطار ، حدود الهوية القومية . نقد عام ، بيروت ، دار الوحدة للطباعة والنشر، ١٩٨٢ .

١١٣ -نصر محمد إبراهيم عباس ، الشخصية وأثرها فى البناء الفنى لرواية نجيب محفوظ ، جدة ، شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع ، ١٩٨٤ .

١١٤ -نعمات فؤاد ، أبعاد الشخصية المصرية والتغيرات الاجتماعية فى : طلعت رضوان ابعاد الشخصية المصرية بين الماضى والحاضر ، القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٩

١١٥ -نهلة ابراهيم ، الأبعاد الاجتماعية والثقافية للشخصية القومية المصرية ، دراسة فى علم الاجتماع الثقافى ، الاسكندرية ، دار المعفة الجامعية ، ٢٠٠٦

١١٦ -هشام شرابى ، النقد الحضارى للمجتمع العربى فى نهاية القرن العشرين ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط ٢ ، ١٩٩٩ .

١١٧ -يوسف سيد محمود ، تغير قيم طلاب الجامعة ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٩١ .

ب- الدوريات

١ - أحمد صبرة ، جوانب من شعرية الرواية . دراسة تطبيقية على رواية الحب فى المنفى لبهاء طاهر ، فصول ، المجلد الخامس عشر ، العدد (الرابع) القاهرة ، الهيئة، ١٩٩٧ .

٢ - أحمد مجدى حجازى ، العولمة وتهميش الثقافة الوطنية ، رؤية نقدية من العالم الثالث ، عالم الفكر ، المجلد الثامن والعشرون ، العدد الثانى ، الكويت ، مطابع السياسة ، ١٩٩٩ .

٣ - أحمد مجدى حجازى ، فى إشكالية الثقافة العربية ، أزمة النقد الذاتى . رؤية سوسيولوجية ، مجلة كلية الآداب ، المجلد (٨٥) ، العدد (٢) جامعة القاهرة ، وحدة النشر العلمى ، ١٩٩٨

٤ - دريس لكرينى ، الإسلام والغرب ، نظرية الصدام وواقع الفهم الملتبس ، المستقبل العربى ، العدد ٢٩٣ ، السنة ٢٦ ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ٢٠٠٣

٥ - السيد حافظ الأسود، تصور رؤية العالم فى الدراسات الأنثروبولوجية ، المجلة الاجتماعية القومية المجلد السابع والعشرون ،العدد الأول و ١٩٩٠

٦ - السيد حافظ الأسود : صورة الآخر بين الثبات والتغير : دراسة انثروبولوجية مقارنة لطلاب ينتمون إلى مجتمعين عربيين ، مجلة العلوم الاجتماعية ، المجلد الرابع والعشرون ، العدد الأول ، الكويت ، مجلس النشر العلمى ، ١٩٩٦

٧ - السيد حافظ الأسود ، التراث الشفاهى ودراسة الشخصية القومية ، عالم الفكر المجلد السادس ، العدد الأول ، الكويت ، مطابع السياسة ، ١٩٨٥ .

٨ - السيد يس ، المثقفون وثورة يوليو ، الأكاديميون نموذجاً ، فصول ، العدد (٦٦) ، القاهرة ، الهيئة ، ٢٠٠٣

٩ - أمل فضل حركة ، ظاهرة المخلص بين الفرد والمجتمع ، دراسة فى المجتمع المصرى بين ١٩٥٢ – ١٩٦٩ ، جامعة الأسكندرية ، اصدارات مجلة كلية الآداب ، ٢٠٠١

١٠ - بهاء طاهر ، أبناء رفاعة ، القاهرة ، كتاب الهلال ، العدد (٥١٤) ، دار الهلال ، ١٩٩٣ .

١١ - ثناء فؤاد عبد الله ، إشكاليات التفاعل والحوار الحضارى بين العرب والحضارة الغربية فى إطار متغيرات العالم الجديد المستقبل الغربى العدد (١٦٧) ، السنة ١٥ ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة ع ، ١٩٩٣ .

١٢ - جابر عصفور الرحلة إلى الآخر فى القرن التاسع عشر ، فى : الغرب بعيون عربية (الجزء الأول) كتاب العربى ، العدد (٥٩) ، الكويت ، ٢٠٠٥ .

١٣ - جابر عصفور، رفض الاخر تحديات ثقافية ،العدد الثانى عشر،السنة الثالثة٢٠٠٣

١٤ - جاد الكريم الجباعى ، حرية الآخر نحو رؤية ديمقراطية للمسألة القومية ، سلسلة دراسات معاصرة، دمشق ، دار حوران للطباعة والنشر والتوزيع .

١٥ - حيدر إبراهيم ، العولمة وجدل الهوية الثقافية ، عالم الفكر ، المجلد الثامن والعشرون ، العدد الثانى ، الكويت ، مطابع السياسة ، ١٩٩٩ .

١٦ - سامى خشبة ، جيل الستينات فى الرواية المصرية. تحقيق فى الأصول الثقافية ، فصول ، المجلد الثانى العدد الثانى ،القاهرة،الهيئة المصرية العامةللكتاب، ١٩٨٢

١٧ - سليمان قناوى ، فى أمريكا : الدراسات العلمية تؤكد أن الصورة : قاصرة .. سطحية .. متميزة وسلبية ، فى : مجموعة من الباحثين ، صورة العرب والمسلمين فى المناهج الدراسية حول العالم ، الرياض ، مجلة المعرفة ، ٢٠٠٣ .

١٨ - سهير سلطى التل ، حركة القوميين العرب وانعطافاتها الفكرية ، سلسلة الثقافة القومية (٣١ بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٦

١٩ - شاكر عبد الحميد ، عصر الصورة . السلبيات والإيجابيات ، عالم المعرفة (٣١١) الكويت ، مطابع السياسة ، ٢٠٠٥

٢٠ - عبد العزيز حمودة ، المرايا المقعرة ، نحو نظرية نقدية عربية ، عالم المعرفة ، (٢٧٢) الكويت مطابع السياسة ، ٢٠٠١ .

٢١ - عبد الله عازار ، الآخر حسب سارتر وظاهرة ميرلوبوتى ، الفكر العربى المعاصر، العدد (٨٦—٨٧) ، بيروت ، مركز الإنماء العربى ، ١٩٩١ .

٢٢ - علا مصطفى أنور ، رؤى العالم فى الأعمال الأدبية . دراسة لمنهج لوسيان جولدمان، المجلة ج القومية ، المجلد السابع والعشرون ، العدد الاول ، القاهرة ، مركز البحوث الاجتماعية والجنائية ، ١٩٩٠

٢٣ - علا مصطفى أنور ، الأنا والآخر من خلال الفنومنولوجيا ، مجلة التربية المعاصرة، العدد السابع والثلاثون ، السنة الثانية عشر ، ١٩٩٥ .

٢٤ - علاء عبد الهادى ، الأمن الثقافى العربى :أسئلة وتأملات نظرية ، مجلة شئون عربية ، العدد ١١٢ ، القاهرة ، تصدرها جامعة الدول العربية ، ٢٠٠٢

٢٥ - على شعيب، الاستشراق وكتابة التاريخ، الفكر العربى المعاصر، العدد (٧٠ — ٧١) بيروت، مركز الإنماء العربى، ١٩٨٩.

٢٦ - فتحى أبو العينين، مفهوم الجيل والإبداع، مجلة الهلال، العدد ١٦، القاهرة، دار الهلال، ١٩٩٨.

٢٧ - فتحى أبو العينين، التفسير للظاهرة الأدبية، التراث وأشكالية المنهج، عالم الفكر، المجلد الثالث والعشرون العددان الثالث والرابع، الكويت، مطابع السياسة، ١٩٩٥.

٢٨ - قيس النورى، الاغتراب اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً، عالم الفكر، المجلد العاشر، العدد الأول، الكويت، مطابع السياسة، ١٩٧٩.

٢٩ - لويس كامل مليكة، الشخصية القومية والخصوصية الحضارية، فى : لويس كامل مليكة، قراءات فى علم النفس فى الوطن العربى، المجلد الخامس، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠.

٣٠ - محمد بدوى، مغامرة الشكل عند روائى الستينيات، مدخل اجتماعية الشكل الروائى، فصول، المجلد الثانى، العدد الثانى، القاهرة، الهيئة، ١٩٨٢.

٣١ - محمد سعيد فرج، الشخصية القومية بين الوهم والحقيقة، جامعة المنيا، مجلة كلية الآداب، د ت.

٣٢ - محمد على الكردى، الشرق والغرب بين الواقع والأيديولوجيا، فصول، المجلد الثالث، الجزء الأول، العدد الثالث، القاهرة، الهيئة المصرية، ١٩٨٣.

٣٣ - محمد ياسر الخواجة العولمة وثقافة الاستهلاك دراسة ميدانية فى قرية مصرية، جامعة طنطا مجلة كلية الاداب، العدد(١٣) المجلد (١) يناير مارس ٢٠٠٠

٣٤ - مصطفى عبد الغنى، الاتجاه القومى فى الرواية، عالم المعرفة، (١٨٨)، الكويت، مطابع السياسة، ١٩٩٤.

٣٥ - مصطفى نبيل، مصر فى فكر العالم، القاهرة، دار الهلال، كتاب الهلال، ٢٠٠٢.

٣٦ - منى حسين مؤنس، إدوارد لين وجوزيف ماك فيرسون : صورتان للإسلام مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، المجلد (٥٧)، العدد (٣)، وحدة النشر العلمى، ١٩٩٠.

٣٧ - نادية سالم، الشخصية القومية العربية بين الدراسات الوطنية والدراسات التجريبية، قراءات فى الفكر القومى، الكتاب الثالث، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٤

جـ- الكتب المترجمة

١ - أحمد يوسف، الولع الفرنسى بمصر، من الحلم إلى المشروع، ترجمة : أمل الصبان، المشروع القومى، الترجمة، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣.

٢ - إدوارد سعيد، الاستشراق . المعرفة . السلطة والإنشاء، ترجمة : كمال أبو ديب، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨١

٣ - اميل دوركايم، تقسيم العمل فى المجتمع (١٨٩٣) فى : ج تيمونز روبيرتس . اميى هايت، من الحداثة إلى العولمة . رؤى ووجهات نظر فى قضية التطور والتغيير الاجتماعى، ترجمة : سمر الشيشكلى، الجزء الأول، العدد (٣٠٩) الكويت، مطابع السياسة، ١٠٠٤

٤ - امين معلوف، الهويات القاتلة . ترجمة نهلة بيضون، دمشق، دار الجندى للطباعة والنشر، ١٩٩٩

٥ - انتونى جيدنز، مقدمة نقدية فى علم الاجتماع، ترجمة، أحمد زايد وآخرين، جامعة القاهرة، كلية الآداب، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، ٢٠٠٢ .

٦ - أنتونى جيدنز، بعيداً عن اليسار واليمين، ترجمة : شوقى جلال، عالم المعرفة، الكويت، مطابع السياسة، ٢٠٠٢ .

٧ - أوسكار لويس، دراسة لثقافة الفقر . خلفية للافيدا (La Vide) ١٩٦٨، في : ج . تيمونز روبيرتس . إيمى هايت، من الحداثة الى العولمة: رؤى ووجهات نظر فى قضية التطور والتغير الاجتماعى، ، ترجمة : سمر الشيشيكلى، الجزء الأول، عالم المعرفة، العدد ٣٠٩، الكويت، مطابع السياسة

٨ - ب . م كريرشويك، الإبداع القصصى عند يوسف إدريس، ترجمة : رفعت سلام، الكويت، دار سعاد الصباح،

٩ - برنارد لويس، أين الخطأ التأثير الغربي واستجابة المسلمين، ترجمة، محمد عناني، القاهرة، سطور، ٢٠٠٣ .

١٠ - بيير بورديو، قواعد الفن، ترجمة : إبراهيم فتحي، القاهرة، دار الفكر، ١٩٩٨ .

١١ - ترفتان تودورف، مشكلة الذات والآخر، ترجمة : فريق المراجعة والترجمة بمركز الإنماء القومي، العرب والفكر العالمي، العدد الخامس، بيروت، مركز الإنماء العربي، ١٩٨٩ .

١٢ - جورج لوكاتش، دراسات في الواقعية الأوروبية، مسح اجتماعي لأعمال بلزاك وستندال، وزولا، تولستوي، جوركي وآخرين، ترجمة : أمير اسكندر، القاهرة، الهيئة، ١٩٧٢ .

١٣ - جوردون مارشل موسوعة علم الاجتماع، المجلد الثاني، ترجمة : محمد الجوهري وآخرين، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠

١٤ - حلمي خضر ساري، صورة العرب في الصحافة البريطانية . دراسة اجتماعية للثبات والتغير في مجمل الصورة، ترجمة عطا عبدالوهاب، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة أطروحات الدكتوراة،

١٥ - داييل لينر،زوالالمجتمع التقليدي، في ج تيمونز روبيتس ايمي هايت،من الحداثة الى العولمة : رؤى ووجهات نظر في قضية التطور والتغير الاجتماعي، ترجمة،سمر الشيشكلي،الجزئ الاول، العدد٣٠٩، الكويت، مطابع السياسة٢٠٠٤

١٦ - دي شابرول، دراسة في عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين في علماء الحملة الفرنسية (تأليف)، المصريون المحدثون، ترجمة، زهير الشايب، القاهرة، مكتبة مدبولي، د .ت .

١٧ - روبير سوليه، مصر ولع فرنسي، ترجمة : لطيف فرج، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩ .

١٨ - روجيه جارودي، أمريكا طليعة الانحطاط، ترجمة : عمرو زهيري، القاهرة، دار الشروق ١٩٩٩ .

١٩ - ريان قوت، النسوية والمواطنة، ترجمة : ايمن بكر . سمر الشيشكلي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥

٢٠ - صامويل هنتيجتون ، صدام الحضارات ، إعادة صنع النظام العالمى ، ترجمة طلعت الشايب ، القاهرة ، سطور ، ١٩٩٨

٢١ - كيت فكتوريا ماكدونالد دانيلز ، محركات النفس والآخر فى قصص يوسف الشاروني ، ترجمة محمد الحديدى ، المشروع القومى للترجمة القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٣ .

٢٢ - مايك فيذرستون ، الثقافة الاستهلاكية والاتجاهات الحديثة ، ترجمة : محمد عبدالله المطوع ، بيروت ، دار الفارابى ، ١٩٩١

٢٣ - مونت بالمر واخرين ، البيروقراطية المصرية دراسة ميدانية : ترجمة : على ليلة، القاهرة ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، ١٩٩٤

٢٤ - هربرت ماركيوز، الانسان ذو البعد الواحد ، ط٢ ، ترجمة : جورج طرابيشى ، بيروت ، منشورات دار الآداب ، ١٩٨٨

د- الرسائل العلمية

١ - أحمد فاروق حسن ، عوامل الاغتراب السياسى بين الشباب فى المجتمع المصرى . دراسة ميدانية مقارنة ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة المنيا ، كلية الآداب ، قسم علم الاجتماع ، ١٩٩٢

٢ - حسام حافظ السلمونى ، صورة الذات والآخرين . دراسة مقارنة لصورة الذات والآخرين لدى طلاب جامعتى سوهاج والأسكندرية ، رسالة ماجستير ، جامعة عين شمس ، كلية الآداب ، قسم علم النفس ، ١٩٨٨

٣ - حسن بن مالك ، الصراع بين الشرق والغرب فى الرواية المصرية الحديثة ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة عين شمس ، كلية الآداب ، قسم اللغة العربية وأدابها ١٩٩٠.

٤ - حنان محمد حسن سالم ، البناء الاجتماعى وأنماط الشخصية المصرية . دراسة تحليلية للفترة ١٩٧٠ – ١٩٩٠ ، وبحث ميدانى لعينة من المجتمع المصرى ، ماجستير غير منشورة ، جامعة عين شمس ، كلية الآداب ، قسم الاجتماع ، ١٩٩٧ .

٥ - رمضان محمد عامر سيف الدين ، رؤية العالم فى أعمال سعد مكاوى الروائية . دراسة اجتماعية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة عين شمس ، كلية الآداب، قسم علم الاجتماع ، ٢٠٠٠

٦ - فايزة محمد سليم ، الأسرة القروية المتغيرة . دراسة فى أنماط الإنتاج والاستهلاك فى قرية مصرية ، رسالة دكتوراه ، جامعة عين شمس ، كلية الآداب ، قسم علم الاجتماع ١٩٨٨

٧ - محمد السيد عبد الوهاب ، الشخصية المصرية فى الإبداع الفنى ، دراسة تحليلية نفسية ، رسالة دكتوراه ، جامعة عين شمس ، كلية الآداب ، قسم علم النفس ، ١٩٩٦

٨ - محمد سمير عبد العزيز فرح ، سيكولوجية الشخصية المصرية المعاصرة ، دراسة فى الطابع القومى رسالة دكتوراه ، جامعة عين شمس ، كلية الآداب ، قسم علم النفس ، ١٩٨٨ .

٩ - مصطفى مرتضى ، المثقف والسلطة ، دراسة تحليلية لوضع المثقف المصرى فى الفترة من ١٩٧٠ — ١٩٩٠ ، رسالة دكتوراه ، جامعة عين شمس ، كلية الآداب ، قسم علم الاجتماع ، ١٩٩٧

١٠ - نادية سالم ، الصورة القومية للشخصية العربية والشخصية الإسرائيلية فى الصحافة الأميريكية ، رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، ١٩٧٦ .

التقارير وبعض المتفرقات

١ - التقرير الاستراتيجى العربى ، الاسلام والمسلمون فى الاعلام والفكر الغربى ، القاهرة ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، ٢٠٠١

٢ - إلهام غالى شكرى ، الذات والآخر فى علم اجتماع الأدب ، ورقة بحثية مقدمة للترقية لدرجة أستاذ مساعد .

٣ - عاصم الدسوقى، مناقشة الأبعاد التاريخية فى رواية صنع الله ابراهيم (أمريكانللى) الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ٨ فبراير ، ٢٠٠٤

هـ - الندوات والمؤتمرات العلمية

١ - إبراهيم أحمد إبراهيم حسين، التفاعل الثقافى وبعض إيجابيات العولمة (قراءات فى الرواية العربية) المؤتمر السنوى الخامس عشر لقسم أصول التربية (العولمة ونظام التعليم فى الوطن العربى) (رؤية مستقبلية) من ١٢ - ١٣ ديسمبر ١٩٩٨) جامعة المنصورة دار جامعة المنصور للطبع النشر، ١٩٩٨.

٢ - اسماء العريف بياتريكس، الاخر أو الجانب الملعون . فى : الطاهر لبيب (محررا)، صورة الاخر : العربى ناظرا ومنظورا اليه، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٨

٣ - الطاهر لبيب، الاخر فى الثقافة العربية . ف الطاهر لبيب (محررا)، صورة الاخر: العربى ناظرا ومنظورا اليه، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٨

٤ - أنا اندرنيكوفا صورة الاخرين كخلفية لتصور الذات فى المجتمع الروسى . ف : الطاهر لبيب (محررا)، صورة الاخر : العربى ناظرا ومنظورا اليه، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٨.

٥ - تامر الميهى، الاستقلالية النسبية للدولة الناصرية . مساهمة فى فهم طبيعة الدولة الناصرية ١٩٥٢ . ١٩٧٠، فى : إشكاليات التكوين الاجتماعى والفكريات الشعبية فى مصر، بحوث ومناقشات الندوة المهداة إلى أحمد صادق سعد من ٣.٥ مايو ١٩٩٠، مركز البحوث الاجتماعية العربية، مؤسسة عيبال للنشر، ١٩٩٢

٦ - جان فارو، الىخر بما هو اختراع تاريخى، فى الطاهر لبيب (محرراً)، صورة الآخر : العربى ناظراً ومنظوراً إليه، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩ .

٧ - ٢٢١ — حسين توفيق إبراهيم، تحليل ردود الأفعال العربية تجاه أحداث ١١ سبتمبر وتداعياتها فى : أحمد يوسف احمد وممدوح غره (محرران) صناعة الكراهية فى العلاقات العربية الأمريكية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٣ .

٨ - حلمى خضر سارى، المرأة كآخر : دراسة فى هيمنة التنميط الخبائى على مكانة المرأة فى المجتمع الأردنى، فى : الظاهر لبيب (محررا) صورة الآخر : العربى ناظراً ومنظوراً إليه، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩ .

٩ - حيدر إبراهيم على ، صورة الآخر المختلف فكرياً . سوسيولوجيا الاختلاف والتعصب فى : الطاهر لبيب (محرراً) ، صورة الآخر : العربى ناظراً ومنظوراً إليه ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٩ .

١٠ - دلال البزرى ، الآخر المفارقة الضرورية ، فى الطاهر لبيب (محرراً) ، صورة الآخر : العربى ناظراً ومنظوراً إليه ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٩ .

١١ - روبار شارفان ، الاخر فى فرنسا المعاصرة : العربى كبش فداء . فى : الطاهر لبيب (محررا) ، صورة الاخر : العربى ناظرا ومنظورا اليه ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٨

١٢ - سيغوردن سيدباك ، صورة الآخرين : المخاوف الحقيقية والكاذبة فى العلاقات العربية الأوروبية ، فى : الطاهر لبيب (محرراً) ، صورة الآخر : العربى ناظراً ومنظوراً إليه ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٩ .

١٣ - شاكر عبد الحميد ، صورة الذات وصورة الآخر من خلال بعض أعمال يوسف إدريس فى : أحمد زايد . سامية (محرران) ، الذات والمجتمع فى مصر ، أعمال الندوة السنوية من (١١ - ١٢) مايو ١٩٩٦ .

١٤ - على طبوشة ، الذات والمجتمع فى ضوء الثقافة المصرية المعاصرة فى : أحمد زايد ، سامية الخشاب (محرران) . (أحمد زايد . سامية الخشاب (محرران) ، الذات والمجتمع فى مصر ، أعمال الندوة السنوية الثالثة لقسم علم الاجتماع من (١١ — ١٢) مايو ١٩٩٦ ، جامعة عين شمس ، كلية الآداب ، ١٩٩٧) .

١٥ - فتحى أبو العينين ، صورة الذات وصورة الآخر فى الخطاب الروائى العربى . تحليل سوسيولوجى لرواية محاولة للخروج . فى : الطاهر لبيب (محرراً) ، صورة الآخر : العربى ناظراً ومنظوراً إليه ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٩ .

١٦ - كمال التابعى ، تشوهات قيم الذات فى المجتمع . مظاهرها وظروف تشكلها . فى : (أحمد زايد . سامية الخشاب (محرران) ، الذات والمجتمع فى مصر ، أعمال الندوة السنوية الثالثة لقسم علم الاجتماع من (١١ — ١٢) مايو ١٩٩٦ ، جامعة عين شمس ، كلية الآداب ، ١٩٩٧) .

١٧ - مجدى عبد الحافظ ، جدلية تخارج الذات . تكونها الاجتماعى وعلاقتها بالحداثة ، فى : (أحمد زايد . سامية الخشاب (محرران) ، الذات والمجتمع فى مصر ، أعمال الندوة السنوية الثالثة لقسم علم الاجتماع من (١١ — ١٢) مايو ١٩٩٦ ، جامعة عين شمس ، كلية الآداب ، ١٩٩٧).

١٨ - محمد الأطرش ، العرب والعولمة : ما العمل ، فى : أسامة الخولى (محرراً) ، العرب والعولمة بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التى نظمها مركز دراسات الوحدة ع ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة ع ، ط ٢ ، ١٩٩٨

١٩ - محمد حافظ دياب ، الطريق إلى الآخر يمر بالذات ، نموذج من أعمال يوسف إدريس ، فى : الطاهر لبيب (محرراً) ، صورة الآخر : العربى ناظراً ومنظوراً إليه ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٩ .

٢٠ - محمد عابد الجابرى ، العرب والعولمة ، العولمة والهوية الثقافية ، تقييم نقدى لممارسات العولمة فى المجال الثقافى ، فى : أسامة الخولى (محرراً) العرب والعولمة بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التى نظمها مركز دراسات الوحدة ع ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة ع ، ط ٢ ، ١٩٩٨

٢١ - محمد عبد النبى ، تصور الذات والوعى الاجتماعى فى : : (أحمد زايد . سامية الخشاب (محرران)، الذات والمجتمع فى مصر ، أعمال الندوة السنوية الثالثة لقسم علم الاجتماع من (١١ — ١٢) مايو ١٩٩٦ ، جامعة عين شمس ، كلية الآداب ١٩٩٧).

٢٢ - محمد محمود أبو العينين ، العولمة الثقافية والنظرية الاجتماعية الحديثة ، دراسة فى المفاهيم والاتجاهات . ورقة بحث مقدمة إلى مؤتمر " الثقافة ❖❖ العربية ، الهوية والمستقبل من ٢ — ٤ إبريل ، جامعة المنصورة ، المركز الحضارى لعلوم الإنسان ، ٢٠٠٢ .

٢٣ - محمد مصطفى بدوى ، الحب فى المغنى لبهاء طاهر ، مؤتمر القاهرة للإبداع الروائى فبراير ١٩٩٨ ملخصات الأبحاث والشهادات ، المجلس الأعلى للثقافة ، مكتبة القاهرة الكبرى

٢٤ - محمد نجيب أبو طالب ، العلوم الاجتماعية والاستشراق : صورة المجتمع العربى الإسلامى ، فى : الطاهر لبيب (محرراً) ، صورة الآخر : العربى ناظراً ومنظوراً إليه، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٩ .

٢٥ - محمود ميعارى ، الفلسطينى والعربى والأسرائيلى فى نظر الطلبة الجامعيين فى فلسطين فى . الطاهر لبيب (محرراً) ، صورة الآخر : العربى ناظراً ومنظوراً إليه ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٩ .

٢٦ - مهنا يوسف حداد ، اثر الصورة الذاتية فى الموقف العربى من دولة إسرائيل فى الطاهر لبيب (محرراً) ، صورة الآخر : العربى ناظراً ومنظوراً إليه ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٩ .

٢٧ - هشام صادق ، العولمة وثقافة التطرف . مؤتمر ثقافة التسامح بين الواقع والمأمول اشكاليات الحاضر وتحديات المستقبل (١٠ - ١٢) مايو ٢٠٠٥ ، الهيئة القبطية الإنجيلية للخدمات الاجتماعية ، قسم منتدى حوار الثقافات .

د- الروايات

١ - يوسف إدريس ، نيويورك ٨٠ ، القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٨٠ .

٢ - عبد الحكيم قاسم ، محاولة للخروج ، القاهرة ، الهيئة ، ١٩٨٧ .

٣ - صنع الله إبراهيم ، نجمة أغسطس ، القاهرة ، مكتبة مدبولى ، ط٤ ، ١٩٨٧

٤ - عبد الحكيم قاسم ، قدر الغرف المقبضة ، القاهرة ، مطبوعات القاهرة ١٩٨٧ .

٥ - بهاء طاهر ، قالت ضحى ، مجموعة أعمال بهاء طاهر ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٩٢ .

٦ - يوسف إدريس السيدة فيينا ، فى ، يوسف إدريس ، نيويورك ٨٠ ، القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٨٠

٧ - بهاء طاهر ، الحب فى المنفى ، القاهرة ، دار الهلال ، ٢٠٠١ .

٨ - صنع الله إبراهيم ، شرف ، الهلال ، القاهرة ، ١٩٩٧ .

٩ - صنع الله إبراهيم ، ذات ، دار المستقبل العربى ، ط ٢ ، ١٩٩٨ .

١٠ - صنع الله إبراهيم ، بيروت ، القاهرة ، دار المستقبل ، ١٩٩٧ .

١١ - صنع الله إبراهيم ، أمريكانللى ، القاهرة ، دار المستقبل ، ٢٠٠٣

ثانيا المراجع الاجنبية

1. Borgatta Edgar F. Mariel Borgatta (ed) ; national Character in Encyclopaedia of Sociology, vol (3), NewYork , 1992
2. Kuper, Adam and Jessica Kuper ; Social Identity , in : The social science Encyclopaedia , second Edition , London, Rout Ledge, 1996.
3. Amin, Samir , The Historical foundations of arab Nationalism, in; saad Eddin Ibrahim & Nicholas S. Hapkins , Arab society , social science Perspectives, Second Edition, Cairo, the A.U.C, press, 1987.
4. Baron, Robert A & Donn Byrne, socialpsychology. Under standing Human Interaction, Boston, Allyen &Bacon, 1991.
5. Boatman, Salma, Egypt form independence to Revolution (1919-1952) new york , Syracuse- University press, 1999.
6. Braker, Chris: Global television: An Introduction , U.S.A, Black Well publishers, 1997.
7. Croser – Lewis A. Bernard Rosenberg, sociological Theory- A Book of Readings, second Edition, New York, the Mac Millan company, 1967.
8. Edourie Eliek, W. Arobson ; Nationalism, London, Hutchinson & Co (publishers), 1967.
9. El-hamamsy, Laila Shukry,the assertion of Egypttian

Identity, in Saad Eddin Ibrahim & Nicolas S.hapkins, Arab society, social science perspectives, Second Edition, the A.U.C press, 1987.

10. Feuer, Lewiss ; conflict of Generations, the character and Significance of student movement, New York , London, Basic books, INC, PUB, 1969.
11. Giddens, Anthony; Modernity and self- identity, self and Society in the late Modern Age, California, Stand Ford University press, 1991.
12. Hegazy, Samir ; literature et societe en egypte (De la guerre de 1967 a celled w 1973), Alger , EntrepriseNationale du liver, 3 boulevard Zirout Youcef , 1986. Janet &
13. Poul , starkey, travelers in egypte ,London ,New York, Tauris parke paper blacks, 2001.
14. Kod . p and A .rao, East Versus West, Adenial of Contrast, London, George allan-Unwin, 1939.
15. Kroger, Jane; Identity in Adolescence, the Balance Between self And other, London and New York, Rout Ledge, 1989.
16. Little, Tom; Modern Egypt, 2 nd (ed), London, Ernest Benn Limited , 1968.
17. Magnavita, Jeffery J, theories of personality. Contemporary approaches to the science of personality, New York, John Wiley .sans I N C, 2002.
18. Mckee, James B; introduction to sociology, second Edition New- York, Riene Hort; Winston INC, 1974.

19. Rogers, Mary F, identity and self Hood; in: Marry F Rogers (E D), contemporary Feminist theory, Reader /A text, Boston, Graw Hill, 1998.
20. Rosen Berg, Morris; the Self – Concept: social product and Social force, in: Morris Rosen Berg and Ralph H. Turner, (ed) Social psychology, sociological perspectives, U.S.A, Transaction publishers, New Brunn swick, 1990.
21. Rutland Adam, Aquasi- Experimental study of stereotyping, in; Glynis M. BreAkwell, doing social psychology Research, U.S.A, the British sychological society and Black Well publishing LTD, 2004.
22. Safran , Nadav, Egypt in search of political community an Analysis of the intellectual and political Evolution of Egypt (1809 – 1952) 2 (Ed) England, Harvard University press, 1981.
23. Salazar, Jose Miguel, social identity and National identity in; Stephen worchel and other's (ed) ,London, Jean Sage Publications, 1998.
24. Smelser Neil J and William T smelser ; personality and Social systems, New York and London, john wiley and Sons INC, 1963.
25. Smith, Peter B; Michael Harris Bond; social psychology Across cultures, second Edition, London, Prentice Hall Europe, 1998.
26. Spearman, Dina; the Novel and society, London, Routledg And kegan poul Limited, 1966.

27. Water Bury, John; the Egypt of Nasser and Sadat , the Political Economy of two Regimes, New Jersy. Princeton University press, 1983.
28. Alexander, Michele G, and others; images and Affects: A Functional analysis of out Group stereotypes, Journal of personality and social psychology, vol (77) No (1), 1999.
29. Auda, Gehad ; the state of Political control : the case of Nasser (1960 -1970), in: the arabe journal of the social sciences, vol (2), N (1), April, 1987.
30. Bendle, Mervyn F, Crisis of identity in high Modernity, in: The British journal of sociologiy , vol (53),N (1) ,2002.
31. Ely, Robin J, the effects of organizational demographics on Social identity and Relationships among professional Women; in Administrative science Quarterly, Cornell university, 1994.
32. Kelly Caroline & john Kelly; Human Relations, who GetsInvolved in collective Action? Psychological Determinant of individual participation, introde unions vol (47), N (1), 1997.
33. Whitmeyer, Joseph M; Elites and popular Nationalisme, The British journal of sociology, vol (53) N (3), 2002.
34. Rezk Ahmed fathy ,L Image des Levantins Dans l'ouvre Romanesque de Robert Soe, these de Magistere, universite de Tanta, faculte des letters, Departement francais, 1999.
35. Maqudisi Antoine, L image que se fait la rabe De la

civilization accidentale et la facon dans IL Reagit A cette image, in : Dialogue- euro- Arabe , les Rapports entre les Deux cultures , symposium De Ham Bourg , (11 -15) Avril 1983, france , Edisud , la calade 1986 .

36. Htt: // en. Wekipedia. Org/wiki/New Historicism.

37. Htt://www.chosun.ac.kr/Mgoh/Criti/Structralisme/Newhistoricism.htm.

مطلب أثير حقاً ذلك الذى يُعنى بدراسة الشخصية المصرية ؛ فمثل هذه الدراسة تكتسب أهمية كبيرة فى هذه المرحلة التاريخية التى يشهدها المجتمع المصرى فى ظل خضم التحولات والتغيرات التى يموج بها العالم شرقاً وغرباً , تلك التى تجعل من البحث أو إعادة البحث فى الهوية القومية للشعوب أمراً لازماً . وذلك فى وجود الأطروحات العالمية التى تنادى باللاأمة واللاوطن فى إطار التحديات التى يفرضها الواقع العالمى الجديد بمفرداته الأكثر رواجا فى الآونة الأخيرة : العولمة . ولا شك أن التاريخ الطويل للشخصية المصرية , والذى يرتد لآلاف السنين , وما مرت به من تجارب عديدة قد ترك بصماته الواضحة عليها وعلى مكوناتها الأساسية . ويأتى فى مقدمة هذه التجارب : تجربة اللقاء الصادم مع الآخر الغربى بكل تصنيفاته سواء أكان مستعمراً أم حضارياً . فهذه التجربة كانت ذات قسمات وملامح واضحة على الشخصية المصرية وعلى مسار تطورها .فمنذ ذلك اللقاء بدأت الشخصية المصرية تطرح على نفسها عدداً من التساؤلات ما زالت تعيد نفسها حتى الآن , وهى الأسئلة المتعلقة بهوية هذه الشخصية وتحديد موقفها من الغرب ، وهو الأمر الذى يتطلب التعرف إلى الصورة التى تحملها الشخصية المصرية عن الغرب , وكذا معرفة مدى ثباتها أو تغيرها باختلاف اللحظات التاريخية المتعاقبة. فليس من السهل صياغة مفهوم بسيط للعلاقة بين الشخصية المصرية والغرب للتداخل الحاد بين ما هو سياسى وما هو ثقافي وحضاري فى العلاقة , فهذا التداخل ,ترتب عليه ، ولا شك ، تداخل وازد... فى الصورة التى يرسمها كل طرف عن الآخر .



ISBN 978-9-77428-029-0



مصر العربية للنشر والتوزيع
19 شارع إسلام - حمامات القبة - الزيتون
القاهرة - جمهورية مصر العربية
تليفاكس : 22562268 02 2+
تليفون : 24505863 02 2+
masrelarabia@hotmail.com

تصميم الغلاف: محمد سيد